عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

مختصر تاريخ العالم

تأليف: إي إتش غومبريتش
ترجمة: د. ابتهال الخطيب
مراجعة: د. عبدالله هدية



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

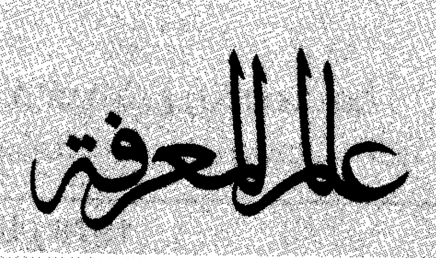
صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

مختصر تاريخ العالم

تأليف: إي إتش غومبريتش
ترجمة: د. ابتهال الخطيب
مراجعة: د. عبدالله هدية



مايو 2013
400



سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د. ك
للمؤسسات	25 د. ك

دول الخليج

للأفراد	17 د. ك
للمؤسسات	30 د. ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 978 - 99906 - 0 - 380 - 4

رقم الإيداع (2013/226)

العنوان الأصلي للكتاب

Eine Kurze Weltgeschichte für Junge Leser

By

E. H. Gombrich

Steyrermühl-Verlag, Vienna 1936

عن ترجمة

Caroline Mustill

بعنوان

A Little History of the World

Yale University Press. 2005

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

جمادى الآخرة 1434 هـ - مايو 2013

المحتوى

قبل أن تقرأ!

لا يتوانى المشرفون على «عالم المعرفة» في بذل قصارى جهودهم لمواصلة الرسالة الثقافية التي أخذتها هذه السلسلة على عاتقها، تعزيزا للثقافة الرصينة، ليس في الكويت وحدها، ولا في محيطها الخليجي وكفى، بل في أوسع نطاق في وطننا العربي الكبير من مسقط وعدن إلى الدار البيضاء ونواكشوط.

وفي سياق هذا الحرص على إرضاء قراء «عالم المعرفة» بالمضمون والشكل على السواء، سعت هيئة التحرير إلى إجراء تطوير على إخراج أعداد السلسلة، بدءا من هذا العدد، في محاولة للظهور بثوب جديد، يتجاوز الشكل الذي تعوَّده القارئ على مدى أكثر من ثلاث عشرة سنة، والذي جاء بدوره بعد التصميم الأول الذي استمر نحو اثنين وعشرين عاما، ويهدف التغيير الجديد إلى الإفادة من أحدث الاجتهادات في عالم الإصدارات الورقية، وهو بمنزلة خطوة ضرورية حان وقتها، تتزامن مع احتفال السلسلة ببلوغها العدد «400»، لتكلل رحلة زاخرة امتدت على مدى خمسة وثلاثين عاما، تُوجت بنيل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب جائزةَ الشيخ زايد الثقافية التي نفخر بها؛ بوصفها إحدى أهم الجوائز المرموقة في وطننا العربي.

ولعل القارئ الكريم يلحظ أن العدد الذي بين يديه (الذي يحتل الرقم 400) يبدو مختلفا شكلا وإخراجا، انسجاما مع سُنة الحياة التي تنزع إلى التطور من ناحية، والاستجابة لمقتضيات المنافسة التي صارت حتمية بين الكتاب ومختلف وسائط الاتصال والإعلام من ناحية أخرى، حيث يتعين إعطاء الشكل مكانته التي يستحقها، ليس فقط بوصفه إبداعا بصريا، بل باعتباره وعاءً لمضمون ثقافي رفيع أيضا.

وإننا إذ نأمل أن تحوز هذه المحاولة قبول القارئ ورضاه، نهيب بجمهور القراء إلى التواصل معنا بآرائهم واقتراحاتهم التي نعِدهم بأنها ستكون دائما موضع ترحيبنا وعنايتنا. ولا يسعنا إلا أن نجدد العهد على مواصلة رسالتنا التي نفخر بالاضطلاع بها، إغناءً لثقافتنا العربية، باعتبارها رافعةَ الجهود التنموية الشاملة لمجتمعنا العربي حاضرا ومستقبلا.

هيئة التحرير

مقدمة المترجمة

«كم هي ضئيلة الأحداث وصغار هم البشر عند وضعهم في الإطار النهائي الضخم للتاريخ البشري المتكامل»

المترجمة

لطالما اعتقدت أن التاريخ قصة، قصة هي الأكثر خيالية وجموحا بين كل أنواع النثر الكتابي. فما التاريخ سوى سرد لذكريات تكونت من زاوية نظر منفردة، معجونة بالمحيط والتقاليد والطبيعة الحياتية للسارد، مشربة بأحاسيسه ومشاعره. ولقد بدا أن إي إتش غومبريتش، الذي ستحكي حفيدته ليوني غومبريتش عن سيرة حياته مطولا في مقدمتها لهذا الكتاب، كان يحاول بكل ما يمتلك من أدوات كتابية وبلاغية أن يحول هذا النص إلى قصة يتشوق قارئه إلى إتمامها ليبقى الكثير من تفاصيلها في ذهنه.

وهكذا أتى كتاب «مختصر تاريخ العالم» في نص قصصي مشوق، أكثر ما يميزه أنه في الواقع موجه إلى فئة عمرية صغيرة تتراوح في

تقديري ما بين الأعوام الثمانية والثمانية عشر عاما ، حيث إنه صيغ ليخاطب كل قارئ صغير منفردا ، ليحاكيه بكلمات وتعبيرات مثل «ها أنت ، وهل تعرف ، وكما تتذكر» وغيرها . تحكي لنا ليوني غومبريتش في المقدمة التالية القصة المشوقة التي دفعت بجدها إي إتش غومبريتش إلى توجيه نصه التاريخي لهذه الفئة العمرية التي قد تشكل أكثر فئات القراء صعوبة في الإرضاء والجذب ، ليأتي النص سلسا وجميلا وجاذبا ليس فقط للصغار ، بل كذلك للكبار الذين يتطلعون إلى لمحة تاريخية بسيطة للزمن البشري في لغة سهلة مبسطة وأسلوب جاذب لطيف .

ولقد وضع هذا المنحى السردي كثيرا من الصعوبات في طريق ترجمة النص ، والذي كان لا بد له أن يعكس بالعربية البساطة السردية ذاتها الموجهة إلى تلك الفئة العمرية المحددة ، وعليه فقد جاء اختيار الألفاظ والتعابير ليتواءم وسلاسة النص والقدرة الاستيعابية للقارئ الصغير . وحيث إن هذه الترجمة هي ترجمة للنص الإنجليزي المترجم عن النص الألماني الأصلي ، فإن هذا البعد الثنائي كثيرا ما أسهم في رفع درجة غموض الفحوى واغترابها عن لغتنا العربية وتعابيرنا المعتادة (هذا على الرغم من أن الكاتب نفسه هو من قام بترجمة النص الألماني في معظمه إلى النص الإنجليزي) . ومما لا شك فيه ، فقد كانت عملية تطويع اللغة العربية ، بطبيعتها العميقة الموغلة في القدم ، لتوصل الفكرة للقارئ العربي عملية شاقة وخطرة ، غير أنها لا تخلو من المتعة التي تفتح أبواب استكشافات لغوية جديدة .

ولقد كانت للنص تلقائية محببة تعكس الكثير من أفكار واعتقادات وإيمانيات الكاتب ، تلك التي ، على الرغم من جهده المبذول في إخفائها ، جاءت واضحة بتأثير من طبيعة الأسلوب البسيط المباشر . فالكثير من القصص التاريخية المسرودة في النص جاءت لتعكس نظرة الكاتب وطبيعة محيطه وتاريخه الشخصي . فمن جهة يركز الكاتب على تاريخ اليهود وكل أنواع المعاناة التي مروا بها وصولا إلى المذابح النازية في ألمانيا ، ذاكرا بين طيات سرده ، أصول أسرته اليهودية وشيئا من المعاناة التي مرت بها .

ومما يبرز في السرد التاريخي هنا كذلك إيمان الكاتب العميق بالمسيحية وحبه الخالص للسيد المسيح ، مما جعله ينظر من زاوية مناقضة إلى الدين الإسلامي ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الرغم من محاولاته المستمرة للعودة

إلى المحايدة في السرد في ذكره للجرائم التي ارتكبها المسيحيون ، على سبيل المثال إبان الحروب الصليبية ، في حق المسلمين ، فإن هذا الحب الشاعري الخالص للسيد المسيح والإيمان العميق بالمسيحية يبرزان دوما على وجه النص ويصبغان طبيعته العامة بروحيهما .

غير أن أجمل ما يميز هذا النص السردي المتواصل هو قدرة الكاتب التي تجلت في طياته على ربط الأحداث والأسماء وطرح التشبيهات التي قد تتباعد مئات السنوات بعضها عن بعض ، فتجده ، على سبيل المثال ، في غمار وصفه لحدث أو لشخصية في منتصف القرن الخامس عشر قد قفز بالقارئ عائدا إلى حقبة زمنية ماضية ، رابطا الشخصية أو الحدث بآخرين مشابهين قص هو عنهما في العصور الغابرة الموغلة في القدم . هذه التشبيهات والمحاولات المستمرة لربط التاريخ البشري من أوله إلى آخره بحلقات الأشخاص والأحداث إنما تجعل النص أكثر تشويقا وإثارة ، وترفع من قدرة القارئ على تذكر الأحداث وربطها واستيعابها بصورتها الكبيرة الموسعة . غير أن أكثر ما يعكسه ويؤكده هذا الأسلوب هو محبة الكاتب الخالصة الحقيقية للتاريخ الإنساني ، الذي يبدو أنه يتشكل حقيقة كنهر رقراق في عقله حتى أنه يستطيع أن يبحر إلى أي نقطة فيه ليصطاد منه ما يريد من أحداث وأشخاص لا يعتقدهما يخرجان أبدا عن تكامل وانسياب التاريخ البشري .

ولا أدل على ذلك من سرده الرائع الذي يرد في الفصل الـ 39 الذي يقول فيه «تخيل الزمن وكأنه نهر ، ونحن نطير بطائرة على ارتفاع كبير فوقه» ، ليأخذنا في رحلة جوية التفافا حول الأرض بمحاذاة هذا النهر التاريخي الخلاب ، لنتذكر أحداثا وأشخاصا وصورا مهمة ، ولنرى - ولربما هذا هو الغرض الأهم من هذا السرد الجميل - كم هي ضئيلة الأحداث وصغار هم البشر عند وضعهم في الإطار النهائي الضخم للتاريخ البشري المتكامل .

يختتم الكاتب هذا النص التاريخي الرقراق باعتذارات وتعديلات أضافت قيمة كبرى ودرسا مهما للنص الأساسي للكتاب . ففي الفصل الأربعين والأخير يعود الكاتب ليراجع نفسه ، أمام قارئه الصغير ، مقرا بأنه في أحيان لم يتأكد من معلومة تاريخية جزمت ذاكرته بحقيقتها وأثبتت له الوقائع غير ذلك ، وبأنه في أحايين حاد عن الحكم الصحيح بسبب ضبابية الموقف وضيق الصورة . غير أن اختياره أن

يضيف هذه التعديلات ، حاكيا للصغار عن طبيعة النفس البشرية ، مقرا بتحيزاتها وضيق أفقها ، في فصل أخير من كتابه عوضا عن عودته للأجزاء المعنية في الكتاب وتعديلها في طبعات لاحقة ، لهو في حد ذاته درس مهم للقراء الصغار عمد الكاتب إلى إيصاله إليهم من خلال تجربته الشخصية الحافلة بلحظات الضعف وقصور النظر والتحيز ، نقاط ضعف لا يخجل أن يقر بها الكاتب ويعتذر عنها . ينتهي هذا الفصل الأخير بدرس محبب من الكاتب عن تطورات العصر الحديث وتأثير هذه التطورات على طبيعة المسيرة البشرية وعلى رؤيتنا الحالية لها . كما أنه يؤكد كثيرا على الحقوق الإنسانية كنتاج للحداثة البشرية ، جازما بأن الرحمة والتلاحم ، الناتجين ليس فقط عن نصوص هذه الحقوق ، ولكن كذلك من الغريزة الإنسانية ، إنما تخولنا ليكون «لدينا الحق في أن نأمل بمستقبل أفضل» .

أود أن أنهي مقدمتي بجملة وردت في بداية الفصل الـ35 من هذا الكتاب يقول فيها الكاتب : «إن أكثر ما أحببت حول تاريخ العالم هو أنه حقيقي ، إن كل الأشياء الاستثنائية التي نقرأ عنها ليست بأقل حقيقية مني ومنك اليوم . الأكثر من ذلك أن ما حدث هو في الواقع أكثر إثارة وإدهاشا بكثير من أي شيء يمكننا أن نحكيه» . أتمنى للقارئ الكبير والصغير تجربة استثنائية زاخرة بالإثارة والدهشة اللتين تفتحان النفس والقلب والعقل على عوالم وأزمنة لم نعشها ، لكننا نعيش لنحكي عنها .

ابتهال عبدالعزيز الخطيب

مقدمة

«أود من قرائي أن يسترخوا، وأن يتابعوا القصة من دون الحاجة إلى كتابة الملاحظات أو حفظ الأسماء والتواريخ»

إي إتش غومبريتش

إن أفضل ما يعرف به جدي، إيرنست غومبريتش، هو أنه مؤرخ للفنون. فبجانب العديد من المنشورات الأكاديمية المهمة، فإن تقديمه الشهير لتاريخ الفن في كتاب «قصة الفن» قدمه وعرفه لملايين القراء حول العالم. ولكن لولا كتاب «مختصر تاريخ العالم»، ما كان لـ «قصة الفن» أن يكتب أبدا.

ولكي نفهم كيف حدث ذلك - ولِمَ لمْ ينشر كتابه الأول بالإنجليزية قبل الآن على الرغم من توافره بثماني عشرة لغة أخرى - فإننا نحتاج إلى أن نبدأ من فيينا في 1935، عندما كان جدي لايزال فتى يافعا.

بعد أن أنهى إيرنست غومبريتش دراسته في جامعة فيينا، بقي عاطلا عن العمل، محروما من أي بارقة أمل في الحصول على

وظيفة في ظل تلك الأوقات الصعبة . في حينها ، طلب منه ناشر ناشئ من معارفه الاطلاع على كتاب تاريخ بالإنجليزية للأطفال ، مع الاحتفاظ برؤية مستقبلية لترجمته إلى الألمانية . كان الكتاب سيُضَم إلى مجموعة جديدة بعنوان Wissenschaft Fur Kinder (المعرفة للأطفال) وقد أرسله صديق مشترك كان يدرس الطب في لندن .

لم يعجب جدي بما قرأ : لدرجة أنه أخبر الناشر - والتر نيوراث الذي أسس دار النشر توماس وهدسون في إنجلترا لاحقا - بأن الكتاب لا يستحق الترجمة . «أعتقد أن بإمكاني كتابة واحد أفضل» ، هكذا علق جدي ، فرحب نيوراث بفكرة تقديمه فصلا من الكتاب .

وقد تصادف أن جدي خلال المراحل النهائية من كتابته رسالة الدكتوراه ، كانت له مراسلات مع فتاة صغيرة هي ابنة أحد أصدقائه . كانت ترغب في معرفة ما الذي يبقيه مشغولا طوال الوقت ، وقد استمتع جدي بمحاولاته شرح الموضوع بطرق يمكن للصغيرة أن تستوعبها . وكان ، كما صرح بذلك لاحقا ، قد بدأ يتململ من الكتابة الأكاديمية والتي خاض فيها بكثرة في مسيرة حياته الدراسية ، وتوصل إلى اقتناع بأنه لا بد أن يكون من الممكن شرح غالبية الأمور لطفلة صغيرة ذكية من دون استخدام لغة طنانة أو مترفعة . وعليه ، فقد كتب فصلا مشوقا حول عصر الفروسية(*) وقدمه إلى نيوراث ، والذي كان سعيدا جدا به . «ولكن» قال نيوراث ، «لكي تلتزم بجدول العمل الذي كان مقررا للترجمة ، سأحتاج إلى نسخة نهائية خلال ستة أسابيع» .

لم يكن جدي متأكدا من إمكانية إنجاز المشروع ، ولكنه أعجب بالتحدي ووافق على المحاولة . رسم جدي خطة الكتاب على وجه السرعة ، حيث اختار الأحداث التي سيشملها الكتاب بأن سأل نفسه ببساطة : «ما أحداث الماضي التي كانت الأكثر تأثيرا في حياة الناس والأكثر رسوخا في ذاكرتهم؟» . بعدها ، استعد ليكتب فصلا كل يوم . في الصباح ، كان يقرأ حول موضوع اليوم في

(*) عادة ما يشار إلى القرن الثاني عشر على أنه بداية عصر الفروسية ، حيث تدور معظم قصص هذا العصر حول الشجاعة والفروسية وشرف المحاربين والحب والغزل ، كما أن هذا العصر يعرف بتقديمه قصص الملك آرثر الأسطورية [المترجمة].

الكتب المتوافرة في بيت والديه والتي من بينها موسوعة ضخمة . في أوقات ما بعد الظهيرة ، كان يذهب إلى المكتبة ليطلع ، متى ما كان ممكنا ، على بعض النصوص الآتية من العصر الذي يكتب حوله ، وذلك ليوثق رواياته . أما المساءات فكانت للكتابة . الاستثناءات الوحيدة لهذا الجدول كانت أيام الآحاد – ولكن لأشرح ظروف هذه الأيام ، لا بد أن أقدم جدتي أولا .

إلس هيلر ، كما كانت جدتي تدعى في حينها ، كانت قد قدمت إلى فيينا من بوهيميا منذ خمس سنوات لتتابع دراستها في البيانو . سرعان ما اتخذتها ليوني غومبريتش ، والتي سميت أنا باسمها ، كطالبة عندها . قدمت ليوني إلس إلى إيرنست ، وشجعت جدي ليعرف طالبتها على بعض معارض فيينا وروائع معمارها . بحلول عام 1935 استتبت نزهاتهم معا في عطل نهاية الاسبوع ، ثم ما لبثا في الواقع أن تزوجا في السنة التي تلت . في أحد أيام الآحاد ، كما تتذكره جدتي ، كانا يتمشيان في الفينرفالد(*) وتوقفا برهة للراحة – «لربما كان ذلك في بقعة مشمسة صافية» قالت جدتي «كنا جالسين على العشب أو على شجرة ملقاة أرضا» – عندما سحب جدي حزمة من الأوراق من داخل سترته قائلا : «أتسمحين لي بأن أقرأ عليك شيئا؟» .

«كان من الأفضل أن قام هو بالقراءة في الواقع» ، تقول جدتي الآن ، «حتى في حينها ، كما تعلمين ، كان خط إيرنست صعبا جدا» .

هذا الشيء ، بالطبع ، كان «مختصر تاريخ» . من الواضح أنه أعجبها ، واستمرت القراءات لستة أسابيع لاحقة إلى أن انتهى الكتاب ، حيث سلمه جدي لنيوراث في الوقت المحدد . وإذا ما قمت بقراءته بصوت مسموع ، فستلاحظ كم شكلت هذه القراءات جمال السرد فيه ؛ فالاستمرار المتفاني في القراءة يبين كم قدَّر وثمَّن جدي هذه العادة . كانت الرسومات الأصلية من عمل مدرب فروسية سابق ، وقد استمتع جدي بتبيان أن الأعداد الكبيرة للأحصنة التي شملها في الصور كانت مرسومة بحرفية أكبر من تلك الظاهرة في صور البشر .

(*) غابات شهيرة في فيينا [المترجمة].

عندما نشـر الكتاب في العام 1936 بعنـوان Eine kurze Weltgeschichte fur junge Leser لاقـى ترحيبا كبيرا ، حيث اعتقد النقاد أن جدي كان مدرسـا محترفا . فـي خـلال وقت قصير ، تمت ترجمـة الكتاب إلى خمس لغـات مختلفة - ولكن في حينها ، كان جداي قد وصلا إلى إنجلترا حيث سيسـتقران . في النهاية ، منع النازيون النشر ، ليس لأسباب عرقية ، ولكن لأنهم اعتبروا وجهة النظر المطروحة «مهادنة أكثر من اللازم» .

ومـع ذلك ، كانت البذرة قد غرسـت ، وعلى الرغم من مشـاغله الأخرى ، فقد اسـتجاب جـدي أخيرا للمطالب المتعـددة بجزء جديد ، هذه المـرة مركزا على تاريخ الفـن - هـذا الجزء أصبـح قصة الفـن ، كتاب ليـس مخصصا للأطفـال ، وذلك لأنه كمـا قال جدي ، «تاريخ الفن ليـس موضوعا للأطفال» ، ولكـن للقراء الأكبر بعض الشـيء . لقد بقي الكتاب في دائرة النشـر منذ 1950 ولايزال يكون صداقات جديدة مع شعوب أكثر من ثلاثين أمة .

ولكـن ، بقيـت الطبعـة الأولى من «مختصـر تاريـخ» ، والتي كتبت قبـل تاريخ الفـن الأكثـر شـهرة ، ممددة في أحـد الأدراج في شـمال لندن . بعد وقت مـن انتهاء الحـرب ، تمكن جدي من اسـتعادة حقوقه في الطبع ، ولكن فـي ذلك الحين ، بدا له العالـم الـذي كتب فيه الكتاب بعيدا جدا . لذا لـم يحدث شـيء إلـى أن ، وبعد أكثر من ثلاثين سـنة ، تلقى جدي اسـتعلاما من ناشر ألماني والذي ، بعد قراءته للكتاب ، أصبح مفتونا بالطاقة الموجودة فيه وبلغته المفعمة بالحياة . وعليه ، تم نشر طبعة ألمانية ثانيـة بفصـل نهائي جديـد - ومرة أخـرى فوجئ جدي وسـر كثيرا بنجـاح الكتاب والترجمـات المتعددة التي تبعت النشـر . وقـد أبدى اهتماما مرحـا بتفصيل طبعات خاصـة للقـراء مـن مختلـف الأمم ، وكان دائمـا حاضرا للاسـتماع إلـى مقترحات مختلف المترجمين . هنا أمر يستلزم التوضيح ، بخلاف «مختصر تاريخ» كتب جدي كل كتبه بالإنجليزية : ففي حال ما إذا كانت ستوجد نسخة بالإنجليزية للكتاب ، كان هو من سيترجمها بنفسه .

بعدهـا ، ولمـدة عشـر سـنوات ، وعلـى الرغـم مـن المحـاولات المتكـررة ، رفض جـدي الترجمـة . لـم يكن السـبب فقط أنه كان مشـغولا ، علـى الرغم مـن أن تلك كانـت حقيقـة واقعـة . التاريخ الإنجليـزي ، قال جـدي ، كان كله يدور حـول الملوك

والملكات الإنجليزيات ، فهل سيكون للمنظور الأوروبي أي معنى للأطفال المتحدثين بالإنجليزية؟ لقد كان لا بد من أحداث سنة 1990 ، والاستغراق المتزايد لبريطانيا في الاتحاد الأوروبي - وكذلك التشجيع الحكيم لجدتي - لإقناعه بأن هذا المنظور قد يهم هؤلاء الأطفال .

وعليه ، وفي نهاية حياته الطويلة والمميزة ، عكف جدي على إصدار طبعة جديدة إنجليزية من الكتاب والتي كان قد بدأ بها . «لقد عدت لأنظر في كتابي «مختصر تاريخ» ، أخبرني باندهاشه المتواضع وذلك بعد بدئه الكتابة بوقت قصير ، «وهناك في الواقع الكثير مما يستحق في هذا الكتاب . أتعلمين ، أعتقد فعلا أنه كتاب جيد» .

بالطبع ، أجرى جدي تعديلات . لقد أضاف معلومات جديدة عن إنسان ما قبل التاريخ . وسأل ابنه - والدي - الخبير في البوذية القديمة ، النصح حول تغييرات في الفصل العاشر ، بينما قدمت مساعدته كارولاين مستل ، المعونة في الجزء الخاص بالتاريخ الصيني . ولقد كان من حسن حظنا أن عملت معه كارولاين من قرب ، حيث كان لايزال مشغولا في مهمة الترجمة والتحديث حين توفي عن عمر يناهز الثانية والتسعين . بمباركته ، أتمت كارولاين هذه المهمة الصعبة بدقة وجمال . قدم كليفورد هاربر رسوما توضيحية جديدة ، والتي أعرف أن جدي كان سيحب رؤيتها كثيرا . ولكن هناك تغييرات لم يكن بالإمكان القيام بها من دونه : نحن نعرف أنه كان ينوي إضافة فصول عن شكسبير وعن ميثاق الحقوق ، وبلا شك كان سيتوسع ، على سبيل المثال ، في معالجته المختصرة للحرب الأهلية الإنجليزية وولادة الديموقراطية البرلمانية ، والتي كانت لها أهمية أقل بالنسبة إلى خريج فيينا الذي كتب الكتاب عن المواطن الإنجليزي الذي أصبحه هو فيما بعد . ولكن ، كيف كان سيشرح هذه الأمور؟ لا يمكننا التخمين ، ولذا ، تبقى الأجزاء التي لم يراجعها بنفسه كما هي وكما قدرها الآلاف من قرائه من مختلف الدول .

التعديلات ، على أي حال ، قد تكون نقطة هامشية . فما يهم هو شعوره الواضح بأن ملاحقة التاريخ ، علما ومعرفة بلا شك ، هو جهد لا بد من التمتع به .

«أود أن أؤكد» ، كتب جدي في مقدمة النسخة التركية منذ بضع سنوات «إن هذا الكتاب ليس المقصود منه ، ولم يكن في يوم ، أن يحل محل أي كتب علمية في

التاريخ والتي تخدم غرضا مختلفا تماما في المدرسة . أود من قرائي أن يسترخوا ، وأن يتابعوا القصة من دون الحاجة إلى كتابة الملاحظات أو لحفظ الأسـماء والتواريخ . في الحقيقة ، فإنني أعدهم بأنني لن أختبرهم فيما قرأوه» .

ليوني غومبريتش
أبريل 2005

I

في يوم من الأيام

«نحن لا نسأل عن أي قصة ، ولكن عن قصتنا ، هذه القصة التي نسميها تاريخ العالم»

المؤلف

تبدأ كل الحكايات بعبارة «في يوم من الأيام» ، وحكايتنا تحديدا عما حدث في يوم من الأيام . كنت أنت صغيرا جدا ، حتى إذا وقفت على أطراف أصابع قدميك ، بالكاد تبلغ يد والدتك . هل تتذكر؟ قد يبدأ تاريخك الشخصي هكذا : «في يوم من الأيام كان هناك صبي صغير» - أو صبية صغيرة - «وهذا الصبي الصغير كان أنا» . ولكن قبل ذلك أنت كنت وليدا في المهد . لن تتذكر أنت ذلك ، ولكنك تعرف أنها حقيقة . والدك ووالدتك كانا صغيرين ذات مرة ، وكذلك كان جدك وجدتك ، في وقت أقدم بكثير ، ولكنك تعرف ذلك أيضا . ففي كل الأحوال ، نحن نقول «هم عجائز» ، ولكن هم أيضا كان لهم أجداد وجدات ، وهؤلاء أيضا كان بمقدورهم أن

يقولوا : «في يوم من الأيام» . وهكذا تتوالى المسألة إلى الأقدم فالأقدم . فخلف كل «في يوم من الأيام» هناك أخرى . هل سبق لك أن وقفت بين مرآتين؟ يجدر بك أن تفعل . عندها سترى طريقا عظيما طويلا من المرايا اللامعة ، كل واحدة منها أصغر من سابقتها ، تتمدد عبر المسافات ، تتلاشى أكثر فأكثر ، حتى أنك لا تتمكن أبدا من رؤية المرآة الأخيرة . ولكن حتى عندما لا يصبح بإمكانك رؤيتها ، فإن هذه المرايا لاتزال مستمرة في الظهور . إنها هناك ، وأنت تعلم ذلك .

وهكذا هي الحال مع «في يوم من الأيام» ، لا يمكننا أن نرى أين تنتهي . سلسلة طويلة من الجدود : جد ثم جد ثم جد ثم جد وهكذا دواليك ، مسألة تجعل رأسك يدور . لكن ، رددها ثانية ، ببطء ، وفي النهاية ستتمكن من تخيلها . بعدها أضف واحدة أخرى . سيعيدنا ذلك إلى الماضي بسرعة ، ومن هناك إلى الماضي الأبعد . ولكنك لن تصل إلى البداية أبدا ، فخلف كل بداية هناك دائما «في يوم من الأيام» أخرى .



المسألة تشبه بئرا بلا قرار . أيصيبك إمعان النظر إلى الأسفل بالدوار؟ هكذا يفعل بي . لذا ، لنحرق قطعة ورق صغيرة ونرميها أسفل البئر . ستسقط الورقة ببطء ، أعمق فأعمق . وبينما تحترق ، ستنير جوانب البئر . هل تستطيع رؤيتها؟ إنها تهبط أكثر فأكثر . هي الآن شديدة العمق حتى لتبدو كأنها نجم بالغ الصغر في الأعماق المظلمة . إنها تصغر أكثر فأكثر . . . والآن ها هي قد اختفت .

تشبه ذاكرتنا قطعة الورق المحترقة تلك . نستخدمها لننير الماضي . في البداية نحاول إنارة ماضينا نحن ، وبعدها نطلب من الكبار في السن أن يحكوا لنا عما يتذكرون . بعدها نبحث عن رسائل كتبها أناس قد ماتوا ، وبهذه الطريقة نحن ننير طريقنا إلى

الماضي . هناك مبان مخصصة للاحتفاظ بقصاصات الورق القديمة التي كتب عليها الناس ذات مرة - نطلق نحن عليها اسم الأرشيف أو المحفوظات . في هذه الدور يمكنك أن تجد رسائل كتبت منذ مئات السنين . محفوظة في أرشيف ما ، وجدت مرة رسالة تقول : «أمي العزيزة ، أكلنا يوم أمس كمأ لذيذا ، كل الحب من ويليام» . كان ويليام أميرا إيطاليا صغيرا قد عاش منذ أربعمائة سنة . الكمأ هو نوع خاص من الفطر .

لكننا لا نصطاد اليوم سوى اللمحات ، فقصاصتنا المضيئة تسقط بسرعة أكبر فأكبر : ألف سنة . . . خمسة آلاف سنة . . . عشرة آلاف سنة . حتى في تلك الأيام كان هناك أطفال يحبون تناول الأطعمة الطيبة ، لكنهم لم يكونوا قادرين بعد على كتابة الرسائل . عشرون ألفا . . . خمسون ألفا . . . وحتى في ذلك الوقت كان الناس يقولون ، كما نفعل نحن اليوم ، «في يوم من الأيام» . الآن ، ضوء ذاكرتنا يخفت كثيرا حتى يتلاشى . . . والآن ها قد اختفى . ومع ذلك فنحن نعلم أن هذا الضوء يوغل في البعد لزمن أبعد كثيرا ، لوقت قديم جدا جدا . قبل أن يكون هناك أي بشر ، في وقت كانت جبالنا مختلفة عما تبدو عليه اليوم . بعض هذه الجبال كان أكبر ، ولكن استمرار تساقط الأمطار حولها إلى تلال . بعضها لم يكن موجودا مطلقا . جبال تكونت وكبرت تدريجيا في غمرة البحر ، وذلك عبر الملايين والملايين من السنوات .

ولكن حتى قبل الجبال كانت هناك حيوانات ، مختلفة تماما عن حيوانات الحاضر . كانت هذه الحيوانات ضخمة وتشبه التنين . كيف عرفنا ذلك؟ إن العثور على عظامها ، مدفونة عميقا في الأرض يدل على ذلك . عندما كنت طفلا في المدرسة في فيينا ، كنت أزور متحف التاريخ الطبيعي باستمرار ، حيث كنت شغوفا بالتحديق في هيكل عظمي هائل لمخلوق اسمه ديبلودوكس Diplodocus(*) . اسم غريب ديبلودوكس هذا ، وصاحبه مخلوق أكثر غرابة . لا يمكن وضع هذا المخلوق في غرفة في البيت ، ولا حتى غرفتين في الواقع . لقد كان بطول شجرة طويلة ، وذيله كان يصل إلى نصف مسافة رمية كرة قدم . أتخيل صوت هذا المخلوق وزمجرته وهو يزدرد كل ما يصادفه في طريقه في تلك الغابة البدائية . لعله صوت هادر .

لكننا لم نصل إلى البداية بعد . القصة كلها تعود إلى وقت أقدم بكثير ، إلى آلاف الملايين من السنين . يسهل بلا شك قول ذلك ، ولكن توقف وفكر للحظة .

(*) الديناصور العاشب أو الآكل للعشب [المترجمة] .

هل تعرف كم يبلغ طول اللحظة الواحدة؟ إنها تستغرق الوقت الذي تعد فيه : واحد ، اثنان ، ثلاثة . وماذا عن ألف مليون لحظة؟ تلك تستغرق اثنتين وثلاثين سنة ! الآن حاول تخيل ألف مليون سنة ! في ذلك الوقت لم تكن هناك حيوانات ضخمة ، فقط مخلوقات مثل الحلزونيات والديدان . وقبل ذلك ، لم يكن هناك أي نباتات . كانت الكرة الأرضية بأكملها سديما لا شكل له . لم يكن هناك شيء ، ولا شجرة ، ولا شجيرة ، ولا ورقة عشب ، ولا زهرة ، ولا أي شيء أخضر ، فقط صخور صحراوية جرداء والبحر ، بحر فارغ : لا سمك ، لا قواقع ، ولا حتى أي طحالب . ولكن إذا استمعت إلى الأمواج ، ماذا تقول؟ «في يوم من الايام» ، ذات يوم كانت الأرض ليست أكثر من سحابة غازية غبارية دوارة ، كما تلك السحب الأخرى بالغة الضخامة ، والتي نستطيع رؤيتها عبر المناظير المكبرة والمجسمة للصور والذرات (تلسكوبات) . لمليارات وتريليونات السنين ، من دون صخور ، من دون ماء ومن دون حياة ، ونرى السديم والغاز ملتفا حول الشمس . ولم تكن مطلقا هي هذه الشمس اللطيفة التي نعرفها الآن . فقط نجوم عملاقة رائعة وغريبة وأجسام سماوية أصغر حجما تدور وتلتف داخل السحب الغازية في كون مطلق لا متناه .

«في يوم من الأيام» – ولكن كل هذا التحديق أسفل الماضي السحيق يجعلني أشعر بالدوار . بسرعة ! لنعد إلى الشمس ، إلى الكرة الأرضية ، إلى البحر الخلاب ، إلى النباتات والحلزونات والديناصورات ، إلى جبالنا ، وأخيرا ، إلى البشر . إنها تشبه العودة إلى الديار ، أليس كذلك؟ وحتى لا تستمر في هذا التوغل في الماضي السحيق بعبارة «في يوم من الأيام» ، من الآن فصاعدا سنصرخ قائلين : «قف ! متى حدث ذلك؟» .

وإذا ما سألنا : «وكيف بالضبط حدث ذلك؟» فإننا نسأل عن التاريخ . نحن لا نسأل عن أي قصة ، ولكن عن قصتنا ، هذه القصة التي نسميها تاريخ العالم . هلا بدأنا؟

2

أعظم المخترعين على مر العصور

«علينا أن نتذكر هؤلاء البشر الأولين بالعرفان والشكر، فقد كانوا أعظم المخترعين على مر العصور»

المؤلف

بالقرب من بلدة هيدلبيرغ، في ألمانيا، كان أحدهم يحفر حفرة عندما وجد عظمة على عمق كبير تحت الأرض. كانت عظمة بشرية للفك السفلي، ولكن لا يوجد بشر اليوم لديهم فك شبيه بهذا. لقد كان فكا ضخما وقويا ويحتوي على أسنان غاية في الصلابة. من كان يمتلك هذا الفك، لابد أنه كان قادرا على القضم بقوة شديدة، لابد أنه أيضا كان يحيا منذ زمن سحيق في القدم لكي نجد هذه العظمة مدفونة على هذا العمق الكبير في الأرض.

في مناسبة أخرى، ولكن في ألمانيا أيضا – في وادي النياندر – عُثر على جمجمة بشرية. هذه الجمجمة كانت مثيرة للاهتمام لدرجة عظيمة، حيث لا يوجد كذلك بشر أحياء اليوم

يمتلكون جمجمة كهذه . فعوضا عن جبهة الوجه المماثلة لجبهاتنا ، كان للجمجمة نتوءان عظميان عريضان فوق الحاجبين . الآن ، إذا كان كل تفكيرنا يتم خلف منطقة الجبهة ، ولم يمتلك هؤلاء البشر أي جبهات ، إذن لعلهم لم يفكروا بمقدار ما نفكر نحن . أو لربما كان التفكير أصعب لهم بنسبة ما . لذا فقد استنتج الأشخاص الذين قاموا بفحص الجمجمة أنه في يوم من الأيام كان هناك بشر لم يجيدوا التفكير كثيرا ، لكنهم كانوا أفضل في عملية المضغ عما نحن عليه اليوم .

ولكنك ستقول الآن : «توقف ! ليس هذا ما اتفقنا عليه . متى عاش هؤلاء البشر؟ ما أشكالهم؟ وكيف كانوا يعيشون؟؟»



أسئلتك تبعث على الخجل ، لا بد أن أعترف بأننا لا نعرف الإجابات تحديدا . ولكننا سنكتشفها يوما ما ، وقد ترغب أنت في المساعدة . نحن لا نعرف لأن هؤلاء البشر لم يكونوا يعرفون الكتابة ، والذاكرة تعيدنا فقط مسافة بسيطة إلى الماضي . ولكننا نكتشف أشياء جديدة طوال الوقت . لقد اكتشف العلماء أن مواد معينة ، كالخشب والنباتات والصخور البركانية ، تتغير ببطء ولكن بشكل منتظم عبر فترات طويلة جدا من الزمن ، مما يعني أنه يمكننا أن نحدد موعد نمو أو تكوين أي منها . ومنذ أن تمت الاكتشافات في ألمانيا ، استمر الناس في البحث والتنقيب ، وقد توصلوا إلى نتائج مذهلة . ففي آسيا وأفريقيا بالتحديد ، تم العثور على مزيد من العظام ، بعضها على الأقل يعود إلى زمن فك هيدلبيرغ . هؤلاء كانوا أسلافنا ، والذين قد يكونون بدأوا في ذلك الحين باستخدام الصخور كأدوات منذ ما يزيد على مائة وخمسين ألف سنة مضت . لقد كان هؤلاء مختلفين عن بشر «النياندرتال» والذين ظهروا قبلهم

بسبعين ألف سنة ، وعاشوا على الأرض لما يقرب من المائتي ألف سنة . وأنا أدين لبشر «النياندرتال» باعتذار ، فعلى الرغم من جباههم المنخفضة ، لم يكن المخ لديهم أصغر مما هو عند معظم الناس اليوم .

وكأني بك تعترض : «ولكن كل هذا الـ «عن» ، دون أسماء أو أزمنة . . . هذا ليس تاريخا !» وأنت - لا شك - على حق . كل هذا يأتي قبل التاريخ . ولهذا فإننا ندعو ذاك الزمان «ما قبل التاريخ» ، وذلك لأننا لا نملك سوى فكرة تقريبية عن وقت حدوث كل هذا . ولكن لاتزال لدينا بعض المعلومات عن البشر الذين نطلق عليهم «بشر ما قبل التاريخ» . أما في وقت بداية التاريخ الحقيقي - وسنأتي على هذا الزمن في الفصل التالي - فقد كان الناس يمتلكون كل ما نملك اليوم : ملابس ، بيوتا وأدوات ، جرافات للحرث ، قمحا لصنع الخبز ، أبقارا للحلب ، خرافا لجز الصوف ، كلابا للصيد وللتربية ، أقواسا وسهاما للرمي وخوذات ودروعا للحماية . إذا كان الأمر كذلك ، فهذا يدل بالقطع على أنه كان هناك شخص أول ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، توصل إلى اكتشافات في هذه الحقبة ، حقبة ما قبل التاريخ . أليست فكرة خلابة أنه ، في أحد الأيام ، لا بد أن رجلا - أو امرأة - ما من حقبة ما قبل التاريخ قد اكتشفوا أن لحم الحيوانات البرية يصبح أسهل للمضغ إذا ما تم تعريضه أولا للنار والشواء؟ وأنه في أحد الأيام اكتشف أحدهم كيفية صنع النار؟ هل تعرف ما يعني هذا؟ هل يمكنك أن تصنع النار؟ ليس بأعواد الثقاب ، فتلك لم تكن موجودة ، ولكن بحك عصاتين معا إلى أن تصبحا ساخنتين جدا وتشتعل فيهما النار . جرب ، وستدرك عندها كم كان هذا الأمر صعبا .

الأدوات كذلك ، لا بد أن أحدهم اخترعها . أقدم الأدوات لا بد أنها كانت عصيا وأحجارا . ولكن سرعان ما تم صقل هذه الأحجار وشحذها . لقد وجدنا الكثير من هذه الأحجار المصقولة على الأرض . وبسبب هذه الأدوات الحجرية ، فإننا نطلق اسم «العصر الحجري» على هذه الحقبة من الزمن . ولكن الناس لم يكونوا يعرفون بعد كيف تبني بيوتا . تلك خاطرة مخيفة ، ذلك أنه في ذلك الزمن كان الجو شديد البرودة ، وفي فترات ما أشد برودة بكثير من زمننا هذا . كان الشتاء أطول والصيف أقصر . يتراكم الثلج عميقا على مدار السنة ، ليس فقط على قمم الجبال ، ولكن في الوديان كذلك ، وفي الأنهار المجمدة والتي كانت شاسعة الاتساع في ذلك

الوقت ، ممتدة بعيدا عبر السهول . ولذلك فنحن نقول بأن العصر الحجري بدأ قبل أن ينتهي آخر عصر جليدي . ولا بد أن بشر ما قبل التاريخ عانوا بشدة من البرودة ، ويا لفرحهم إذا ما مروا على كهف يلجأون إليه ليحميهم من الرياح القارسة البرودة . ولهذا السبب فإنهم كانوا يعرفون باسم «رجال الكهف» على الرغم من أنهم ربما لم يعيشوا في الكهوف .

هل تعرف ماذا اخترع رجال الكهف هؤلاء كذلك؟ ألا يمكنك التخمين؟ لقد اخترعوا الكلام ، وأنا هنا أعني تبادل حوار حقيقي بعضهم مع بعض باستخدام الكلمات . بالطبع ، تصدر الحيوانات أصواتا كذلك - حيث يمكنهم الصراخ عندما يشعرون بالألم كما يصدرون نداءات تحذير عندما يشعرون بالخطر ، ولكنهم لا يطلقون الأسماء على الأشياء كما يفعل البشر . وقد كان بشر ما قبل التاريخ أول المخلوقات التي أطلقت الأسماء .

وقد اخترعوا شيئا آخر كان رائعا كذلك : الصور . الكثير من هذه الصور لا يزال يمكننا مشاهدتها اليوم ، محفورة ومرسومة على جدران الكهوف . لا يمكن لرسام حي اليوم أن يؤدي المهمة بشكل أفضل . والحيوانات التي كانوا يصورونها ليست موجودة الآن ، فقد رسمت منذ زمن بعيد جدا ، مثل أفيال ذات طبقات سميكة من الشعر الطويل وأنياب هائلة مقوسة - الماموثات المغطاة بالصوف - وغيرها من حيوانات العصر الجليدي . في اعتقادك ، لمَ قام بشر ما قبل التاريخ هؤلاء برسم الحيوانات على جدران الكهوف؟ فقط للزينة؟ لا يبدو ذلك مرجحا ، حيث إن هذه الكهوف كانت شديدة الظلمة . بالطبع ، لا يمكننا التأكد من السبب ، ولكن من الممكن الاعتقاد أنهم كانوا يحاولون الإتيان بسحر ، حيث إنهم كانوا يعتقدون أن وضع رسومات الحيوانات على الجدران سيجعل هذه الحيوانات تظهر . إنه اعتقاد شبيه بذلك الذي نعبر عنه بمقولة «جئنا على سيرة الشيطان»(*) ، أو عندما يظهر شخص ما كنا نتحدث عنه بشكل غير متوقع . فعلى كل ، هذه الحيوانات كانت غنيمتهم ، ومن دونها كانوا سيموتون جوعا . لذا ، فقد تكون تلك محاولة منهم لصنع رقية سحرية . كم هو جميل أن نعتقد أن مثل هذه الأشياء يمكنها أن تحقق نجاحا ، ولكنها لم تفعل حتى الآن .

(*) مقولة تعني أن الحديث عن شيء ما يجعله يظهر أو يتحقق [المترجمة] .

لقد استمر العصر الجليدي زمنا طويلا لا يمكن تخيل مدته ، لعشرات الآلاف من السنوات ، والتي لابد أنها كانت بهذا الامتداد ، وإلا فإن هؤلاء البشر لم يكن ليتوافر لهم الوقت لاختراع كل هذه الأشياء . ثم تدريجيا ، ارتفعت درجة حرارة الأرض ، وانحسرت الثلوج إلى قمم الجبال ، ثم أصبح الجو دافئا وتعلم البشر الذين كانوا يشبهوننا إلى حد بعيد ، في وسط هذا الجو الدافئ ، زراعة النباتات ، ثم طحن البذور لصناعة عجين يخبزونه على النار ، وذلك كان هو الخبز .

مع مرور الوقت ، تعلم البشر صناعة الخيام وترويض الحيوانات والتي إلى ذلك الوقت كانت تتجول بحرية في الأنحاء . كان الناس يمشون خلف قطعانهم ، كما لايزالون يفعلون اليوم في لابلاند(*) . وحيث إن الغابات كانت مناطق شديدة الخطورة في تلك الأيام ، لكونها موطنا لعدد كبير من الحيوانات المتوحشة مثل الذئاب والدببة ، فإن الناس ، وفي مناطق متفرقة ، واتتهم الفكرة الرائعة ذاتها : فقد قاموا ببناء «المساكن المرتفعة» في منتصف البحيرات ، والأكواخ المرفوعة على ألواح خشبية مدكوكة عميقا في الطين . بحلول ذلك الوقت ، أصبح البشر صناعا فنانين في تشكيل وصقل أدواتهم ، واستخدموا صخورا قاسية مختلفة لصنع فتحات في رؤوس فؤوسهم تعمل كمقابض لهذه الفؤوس . لا بد أن ذلك كان عملا شاقا ! عملا قد يستغرق كل فصل الشتاء . تخيل كم تكرر كسر رأس هذه الفأس ، الأمر الذي استدعى أن يبدأوا العمل في صنعها من جديد .

الشيء التالي الذي اكتشفه البشر هو كيفية صنع الأواني الفخارية والتي سرعان ما تعلموا أن يزخرفوها بالأشكال المختلفة وأن يحرقوها في الأفران ، على الرغم من أنه في ذلك الوقت ، أي أواخر العصر الحجري ، كان البشر قد توقفوا عن رسم صور للحيوانات . في النهاية ، ربما منذ ستة آلاف سنة مضت (ذلك في سنة 4000 ق .م) ، وجد البشر طريقة جديدة وأكثر ملاءمة لصناعة الأدوات : لقد اكتشفوا المعادن . بالطبع ، لم يكتشفوا كل المعادن في وقت واحد . لقد بدأت القصة مع نوع من الصخور الخضراء والتي تتحول إلى نحاس حال ذوبانها في النار . للنحاس بريق جميل ، ويمكن استخدامه لعمل رؤوس الرماح والفؤوس ، ولكنه طري ويمكن أن يجرح أو يثلم بسرعة أكبر من الصخور .

(*) منطقة في فنلندا [المترجمة] .

ومرة أخرى ، وجد البشر الحل . لقد اكتشفوا أنه في حال إضافة القليل فقط من معدن آخر ، نادر جدا ، فإن ذلك سيجعل النحاس أكثر قوة . هذا المعدن هو القصدير ، والخليط من القصدير والنحاس يسمى البرونز . وطبيعي أن العصر الذي صنع فيه البشر لأنفسهم الخوذات والسيوف والفؤوس والمراجل والأساور والقلادات من معدن البرونز كان يعرف باسم العصر البرونزي .

والآن ، لنلق نظرة أخيرة على هؤلاء البشر المرتدين للجلود ، بينما يجدفون بقواربهم المصنوعة من جذوع الأشجار المفرغة باتجاه قراهم المكونة من أكواخ مرفوعة على الألواح ، يحملون معهم الحبوب ، أو ربما الملح ، من المناجم في الجبال . يشرب هؤلاء من أوعية فخارية جميلة الصنع بينما تلبس زوجاتهم وبناتهم المجوهرات المصنوعة من الأحجار الملونة ، وكذلك الذهب . هل تعتقد أن الكثير قد تغير منذ ذلك الوقت؟ لقد كانوا بشرا مثلنا تماما ، وفي أحايين كثيرة غير طيبين تجاه بعضهم البعض ، بل وقساة ومخادعين . للأسف ، نحن أيضا كذلك . ولكن حتى في ذلك الوقت قد تضحي أم بحياتها من أجل طفلها ، وقد يموت بعض الأصدقاء من أجل البعض الآخر ، ليس أكثر ولكن ليس أقل مما يفعل البشر اليوم . وكيف يمكن للوضع أن يكون مختلفا؟ فعلى كل ، نحن نتكلم عن أشياء حدثت منذ ثلاثة آلاف إلى عشرة آلاف سنة مضت ، لم يمر وقت كاف علينا لنتغير !

لذا ، فبين حين وآخر ، وبينما نحن نتكلم أو نأكل بعض الخبز أو نستخدم الأدوات أو نتدفأ بجانب النار ، علينا أن نتذكر هؤلاء البشر الأولين بالعرفان والشكر ، فقد كانوا أعظم المخترعين على مر العصور .

3

الأرض المجاورة للنيل

«بالنسبة إليهم ، كل ما هو قديم مقدس»

المؤلف

هنا – وكما وعدت – يبدأ التاريخ باستفهام «متى» و«أين» . إنها السنة 3100 قبل الميلاد (أي منذ 5100 سنة مضت) عندما ، وفقا لما نعتقد ، كان ملك اسمه مينا يحكم مصر . إذا أردت أن تعرف أين هي مصر تحديدا ، فأنا أقترح أن تسأل طائر السنونو . كل خريف ، عندما يبرد الجو ، يسافر السنونو جنوبا ، عبر الجبال إلى إيطاليا ، ثم فوق قطعة ممتدة من البحر ، وصولا إلى أفريقيا ، في الجزء الأقرب إلى أوروبا ، حيث مصر .

الجو شديد الحرارة في أفريقيا ، حيث تنقطع الأمطار على مدى شهور . في بعض الأقاليم لا ينبت سوى أقل القليل من النباتات . تلك هي الصحاري ، كما هي حال الأراضي على جانبي مصر . القليل جدا من الأمطار يصل إلى مصر

كذلك ، ولكنهم لا يحتاجون إليها هنا ، وذلك لأن نهر النيل يفيض في منتصف البلد ومن أول حدوده لآخرها . مرتين في السنة ، وبعد أن تملأ الأمطار الكثيفة موارد النهر ، ينتفخ هذا النهر ثم تتفجر ضفتاه فيفيض فوق الأرض كلها . عندها كان الناس مجبرين على استخدام القوارب للتنقل بين البيوت وأشجار النخيل . وعندما تنسحب المياه ، كانت الأرض تبدو رائعة في تشبعها بالطمي والغرين المترسب . هناك ، تحت الشمس الحارة ، كان القمح ينمو كما لم ينُم في أي مكان آخر ، ولذلك ، ومنذ زمن بعيد ، عبد المصريون نهر النيل كأنه الإله بذاته . هل تود أن تستمع إلى ترنيمة كانوا يغنونها لنهرهم منذ أربعة آلاف سنة مضت؟



المجد يكون لك ، أيها النيل ! تُبعث أنت من الأرض وتأتي لتنعش مصر ! تسقي أنت السهول وتمتلك القوة لتطعم الماشية . تطفئ أنت عطش الصحراء ، البعيدة تماما عن المياه . تستحضر أنت الشعير ، تصنع أنت القمح . تملأ أنت المخازن والمستودعات دون أن تنسى الفقراء . من أجلك نلامس نحن قيثاراتنا ، من أجلك نغني .

هكذا أنشد المصريون القدماء ، وقد كانوا على حق ، حيث الفضل كان للنيل في ازدياد ثراء أرضهم وقوتها . وكان ملكهم هو الأعظم . ملك واحد يحكم كل المصريين ، وكان أول الملوك هو الملك مينا . هل تتذكر متى كان ذلك؟ لقد كان ذلك في سنة 3100 ق . م . وهل يمكنك أن تتذكر ، ربما من قصص الإنجيل ، ماذا كانت تسمية ملوك مصر؟ لقد كانوا يسمون بالفراعنة . كان للفرعون قوة عظيمة . كان يعيش في قصر حجري هائل ذي أعمدة ضخمة وباحات متعددة ، وكانت كلمته قانونا ملزما . كان على جميع أهل مصر أن يكدحوا من أجله إن هو أمر بذلك ، وكان يفعل بين الحين والآخر .

من هؤلاء الفراعنة كان الملك خوفو ، الذي عاش في نحو سنة 2500 ق . م . أمر هذا الملك كل رعاياه بالمساعدة في بناء ضريحه . لقد أراد بناءً مثل الجبل ، وقد كان له ذلك . لاتزال تستطيع أن ترى هذا البناء اليوم . إنه هرم خوفو العظيم . قد تكون شاهدت صورا له ، ولكن لا يمكنك فعليا أن تتخيل مدى ضخامته . يمكن لكاتدرائية كاملة أن تستقر داخله براحة تامة . إن محاولة تسلق قوالب أحجاره الضخمة تشعرك وكأنك تحاول تسلق جبل إلى قمته . ومع ذلك فقد كانوا بشرا هؤلاء الذين راكموا هذه الأحجار الضخمة بعضها فوق بعض . لم تكن لديهم آلات في تلك الأيام ، لقد كانت الأسطوانات والبكرات أقصى ما يملكون . كان عليهم أن يسحبوا ويدفعوا كل حجر من تلك الأحجار بأياديهم . فلتفكر في هذا الوضع في غمرة حرارة أفريقيا . على هذه الصورة ، كما يبدو ، ولثلاثين سنة ، كدح مئات الآلاف من أجل الفرعون ، متى ما لم يكونوا يعملون في الحقول . ومتى ما استبد بهم التعب ، فإن مراقب الملك كان وبكل تأكيد يدفعهم إلى الاستمرار باستخدام سوطه المصنوع من جلد فرس النهر ، بينما هم يجرون ويرفعون تلك الأحمال الهائلة ، كل ذلك من أجل ضريح مليكهم .

قد تتساءل : ما الذي يجعل الفرعون يرغب في بناء مثل هذا الضريح الضخم؟ **لقد كان ذلك جزءا من دين الفرعون. آمن المصريون القدماء بعدة آلهة. حكمهم** بعضها كملوك منذ زمن بعيد ، أو على الأقل هذا ما كانوا يعتقدونه ، ومن بين تلك الآلهة كان الإله أوزيريس وزوجته إيزيس . إله الشمس ، آمون ، كان إلها ذا أهمية خاصة . أما مملكة الموت ، فقد كان لها إلهها الخاص ، أنوبيس ، والذي كان له رأس ابن آوى . كل فرعون ، حسب اعتقادهم ، كان ابنا لإله الشمس ، حيث يفسر لنا ذلك خوفهم الشديد من الفرعون وطاعتهم لكل أوامره . على شرف آلهتهم ، نحت المصريون القدماء تماثيل حجرية مهيبة ، بارتفاع بيت من خمسة طوابق ، وبنوا معابد بحجم مدن كاملة . أمام هذه المعابد ، وضعوا أحجارا طويلة مدببة منحوتة من قالب غرانيتي أوحد ، تلك كانت تسمى «المسلات» (obelisks) (وهي كلمة إغريقية تعني شيئا مماثلا «للرمح الصغير») . في عدد من مدننا لايزال بإمكانك أن تشاهد المسلات التي أحضرها البعض من مصر ، هناك واحدة في لندن على نهر التايمز .

في تلك الديانة المصرية ، كانت بعض الحيوانات مقدسة : القطط على سبيل المثال . بعض الآلهة كانت ممثلة في هيئة الحيوانات . فالمخلوق الذي نعرفه باسم «أبو الهول» ، والذي له رأس إنسان وجسد أسد ، كان إلها بالغ القوة ، فتمثاله بالقرب من الأهرام بالغ الضخامة لدرجة أن معبدا كاملا يمكن أن يوضع بداخله . وعلى الرغم من أن رمال الصحراء تقوم بدفنه من وقت الى آخر ، فإن «أبو الهول» لايزال يحرس أضرحة الفراعنة لما يزيد على الخمسة آلاف سنة . من يستطيع أن يتنبأ إلى متى سيستمر أبو الهول في المراقبة؟

ومع ذلك ، فإن أهم جزء من ديانة المصريين الغريبة هي إيمانهم بأنه وعلى الرغم من أن روح الإنسان تترك جسده عند الموت ، فإن هذه الروح تستمر ، ولسبب ما ، في حاجتها إلى الجسد ، وستعاني هذه الروح إذا ما تحلل الجسد إلى تراب .

وعليه ، فقد اخترعوا طريقة عبقرية لحفظ أجساد الموتى . فقد كانوا يدهنونها بالمراهم وبعصارات نباتات معينة ، ثم يضمدونها بشرائح قماشية طويلة وذلك حتى لا تتحلل . الجسد المحفوظ بهذه الطريقة يسمى مومياء . اليوم ، وبعد آلاف السنوات ، هذه المومياوات لا تزال سليمة . كانت المومياء توضع في تابوت من الخشب ، ثم يوضع التابوت الخشبي في آخر صخري ، ثم يدفن التابوت الصخري ، ليس في الأرض ، ولكن في مقبرة منحوتة من الصخر . ولو كنت ملكا ثريا وقويا مثل الملك خوفو ، «ابن الشمس» ، فإن جبلا صخريا كاملا كان سيصنع لمقبرتك . عميقا بداخل الجبل ، ستكون المومياء آمنة ، أو هكذا كانوا يعتقدون ! ولكن جهود الملك العظيم ذهبت عبثا : فهرمه اليوم فارغ .

غير أن مومياوات ملوك آخرين وغيرها للكثيرين من قدماء المصريين وجدت آمنة في مقابرها . كانت المقبرة مصممة لتكون بيتا للروح عند عودتها لتزور جسدها . ولهذا السبب فقد كانوا يضعون فيها الطعام والأثاث والألبسة ، هذا ويوجد هناك العديد من الرسومات على الحوائط والتي تظهر مشاهد من حياة الفقيد . كما أن رسما لصورته يكون موجودا كذلك ، وذلك للتأكد من أنه حين تعود الروح للزيارة ، فإنها لا تذهب إلى المقبرة الخطأ .

وبفضل هذه التماثيل الحجرية الضخمة ، ورسومات الحوائط الرائعة الزاهية شديدة الدقة ، لدينا اليوم فكرة جيدة عما كانت عليه الحياة في مصر القديمة . صحيح أن هذه الرسومات لا تظهر الأشياء كما نراها على الطبيعة ، فالشيء أو الشخص المرسوم خلف شيء أو شخص آخر يظهر أعلاه بالعموم ، كما أن الشخوص البشرية غالبا ما تبدو متيبسة . تظهر الأجساد من جهتها الأمامية بينما تظهر الأيادي والأقدام من جهتها الجانبية ، فتبدو الشخوص وكأنه تم كيها لتصبح مسطحة . غير أن المصريين كانوا يدركون ما يفعلون ، فكل تفصيل كان واضحا : كيف كانوا يستخدمون البندق الكبير ليصطادوا البط عند ضفاف النيل ، كيف كانوا يجدفون بقواربهم ويصطادون الأسماك برماحهم الطويلة ، كيف كانوا يضخون المياه إلى قنوات لتسقي الحقول ، كيف كانوا يسوقون أبقارهم وأكباشهم إلى المرعى ، كيف كانوا يدرسون القمح ، يصنعون الأحذية والألبسة ، ينفخون الزجاج ، نعم كان يمكنهم في ذلك الوقت عمل ذلك ، وكيف كانوا يشكلون الطابوق ويبنون المنازل . يمكننا كذلك أن نشاهد الفتيات الصغيرات يلعبن رمي الكرة أو يعزفن الموسيقى على الناي ، والجنود ذاهبين إلى الحرب أو عائدين بالغنائم والأسرى الغرباء مثل الأفارقة السود .

في مقابر النبلاء ، يمكننا أن نشاهد صور قوافل الديبلوماسيين تصل من الخارج محملة بالضرائب ، والملك يكرم الوزراء المخلصين بالأوسمة . بعض الرسومات تبين المتوفين النبلاء وهم يصلون ، وقد امتدت أياديهم أمام تماثيل آلهتهم ، أو وهم يقيمون الولائم في بيوتهم ، والعازفين يلامسون القيثارات والمهرجين يؤدون الحركات البهلوانية .

بجانب هذه الرسومات زاهية الألوان ، غالبا ما سترى الكثير من الرسومات الصغيرة لأشياء كثيرة مختلفة مثل البومة ، شخوص صغار ، أعلام ، زهور ، خيام ، خنافس ومزهريات ، ومعها كذلك خطوط متعرجة وحلزونية ، كلها مختلطة بعضها ببعض . ما عساها أن تكون؟ إنها ليست صورا ، إنها حروف هيروغليفية ، أو «الرموز المقدسة» ، والتي هي صيغة الكتابة المصرية . كان المصريون فخورين جدا بصيغة كتابتهم ، في الواقع كانوا تقريبا يشعرون بالرهبة تجاهها . ومن بين كل المهن ، كانت مهنة الكتابة تعتبر الأعلى قيمة وتقديرا .

هـل تـود أن تعرف كيـف تكتـب بالهيروغليفية؟ فـي الواقع ، لا بـد أن تدرك أن هـذا النـوع من الكتابـة كان غاية في الصعوبة ، حيث إنـه أقرب إلى تجميع قطع لغـز مصورة . فإذا ما أرادوا كتابة اسـم إلههـم ، أوزيريس ، فإنهم كانوا يرسـمون عرشـا (𓊨) ، والتي كانت تنطق «أوز» ، ثم عينا (𓁹) والتي كانت تنطق «إيري» ، وبذلك تصنع الصورتان معا كلمة «أوز- إيري» . وللتأكيد على أن أحدا لن يعتقد أن المعنـى هـو «عين - العـرش» ، فإنهم غالبا ما كانوا يرسـمون علما صغيرا كهذا بجانـب الكلمة (𓊹) ، والذي يعني أن هذا الشـخص الها ، وذلك بنفس الطريقة التي كان يرسـم بها المسـيحيون الصليب بعد اسم شـخص ما إذا أرادوا التنويه إلى أن هذا الشخص متوفى .

إذن الآن تسـتطيع أن تكتـب «أوزيريـس» بالهيروغليفيـة ! ولكـن فكـر كـم هـو عمل جبار محاولة فك شـفرة كل تلـك الكتابات المصرية عندمـا بدأ الناس يهتمـون بالهيروغليفيـة مجـددا ، وذلـك قبل مائتي سـنة مضت . فـي الواقع ، تمكن المهتمون من فك الشـفرة فقط بعد أن وجدوا حجرا منقوشـا ، مكتوبا عليه الكلمات ذاتها بثلاثة أنـواع من الكتابة : الإغريقية القديمة ، الهيروغليفية ، ونوع آخر من الكتابة المصرية . كان الأمر لايزال لغزا كبيرا كرس من أجله علماء عظام كل حياتهم . بإمكانك أن تشـاهد هذا الحجر ، واسمه حجر رشيد ، في المتحف البريطاني في لندن .

الآن بإمكاننـا أن نقـرأ تقريبا كل ما كتبه قدمـاء المصريين ، ليس فقط الموجود على حوائـط القصور والمعابد ، ولكن كذلك ما يوجـد في الكتب ، وذلك على الرغم من أن هـذه الكتـب لم تعد مقـروءة بوضـوح الآن . فقدماء المصريـين كان لديهم كتب ، حتـى فـي ذلك الزمـن البعيد . بالطبع لـم تكن تلـك الكتب مصنوعة مـن ورق مثل كتبنـا ، ولكن من نوع معين من القصب والذي كان ينمو على ضفاف النيل . الاسـم الإغريقـي لهـذا القصب هو بابيـرس papyrus (البـردي) ، والذي منه تأتي تسـميتنا للورق paper .

كتـب المصريـون علـى شـرائح طويلة مـن هـذا البـردي ، والتـي تم إدراجها في لفافـات . كمية كبيرة من هذه اللفافات وصلت إلينا . وعندما نقرأها ، فإننا نكتشـف كـم كان هؤلاء المصريون القدمـاء حكماء وأذكياء بالفعل . هل ترغب في أن تسـمع

قولا مأثورا كتب منذ ما يزيد على خمسة آلاف سنة؟ ولكن عليك أن تستمع وتفكر جيدا : «الكلمات الحكيمة أندر من الزمرد ، لكنها تأتي من أفواه الفتيات الفقيرات المستعبدات اللواتي يدرن حجر الرحى» .

ولأن المصريين كانوا غاية في الحكمة والقوة ، فقد استمرت إمبراطوريتهم وقتا طويلا جدا ، لزمن أطول من أي إمبراطورية أخرى عرفها العالم : ما يقترب من ثلاثة آلاف سنة . ولقد اهتموا ، بالقدر ذاته الذي اهتموا فيه بجثثهم عندما حفظوها من التحلل ، بحفظ كل تقاليدهم القديمة عبر القرون . وحرص كهنتهم على ألا يقدم ابن على فعلة لم يأتها أبوه من قبله . فبالنسبة إليهم ، كل ما هو قديم مقدس .

عبر هذا الزمن نادرا ما حدث أن وقف الناس ضد هذا التوحد والامتثال . إحدى هذه المرات النادرة كانت بعد انقضاء حكم الملك خوفو بوقت قصير ، في نحو 2100 ق . م ، عندما حاول الناس تغيير كل شيء . فقد ثاروا ضد الفرعون ، فقتلوا وزراءه ، وسحبوا المومياوات من أضرحتها : «هؤلاء الذين لم يمتلكوا حتى أحذية في السابق يستحوذون الآن على كنوز ، وهؤلاء الذين كانوا يلبسون الأثواب الثمينة فيما مضى يمضون في أسمال بالية» ، هكذا تحكي لنا أوراق البردي القديمة . «الأرض تدور كعجلة الخزاف» . غير أن ذلك لم يستمر طويلا ، وسرعان ما عاد كل شيء للنظام الصارم ذاته ، إن لم يكن أشد صرامة وأقوى .

في مناسبة أخرى ، كان فرعون ذاته من حاول تغيير كل شيء . كان أخناتون ، والذي عاش في 1370 ق . م ، رجلا استثنائيا . لم يكن لديه وقت للديانة المصرية بآلهتها المتعددة وطقوسها الغامضة . «هناك فقط إله أوحد» ، أخبر هو شعبه ، «وذلك هو الشمس ، والذي من خلال أشعته خُلق الجميع ويحيا الجميع ويستمر ، له وحده يجب أن نصلي» .

في وقتها ، تم إغلاق كل المعابد القديمة ، وانتقل الملك أخناتون وزوجته إلى قصر جديد . وبما أنه كان تماما ضد التقاليد ، مفضلا الآراء الجديدة المهذبة ، فقد أمر برسم حوائط قصره بأسلوب جديد تماما ، أسلوب خلا من الصرامة والقسوة والقداسة الكئيبة بحيث أصبح أكثر تحررا وطبيعية . لكن ذلك لم يسعد الناس مطلقا . فقد أرادوا للأشياء أن تبدو على ما كانت عليه لآلاف السنوات . وبمجرد أن توفي

أخناتون ، أعاد الناس كل التقاليد السابقة وأسلوب الفن القديم . وعليه ، بقي كل شيء على ما كان عليه ولأقصى مدة استطاعت الإمبراطورية المصرية أن تتحملها . فكما كانت الحال في أيام الملك مينا ، ولمدة تقارب ثلاثة قرون ونصف القرن إضافية ، استمر الناس في وضع المومياوات في الأضرحة ، في الكتابة بالهيروغليفية ، وفي الصلاة للآلهة ذواتها . بل إنهم استمروا في عبادة القطط كحيوانات مقدسة . وإذا ما سألتني ، فأنا أعتقد أنه في هذه النقطة تحديدا ، على الأقل ، كان المصريون القدماء على حق .

4

الأحد.. الاثنين..

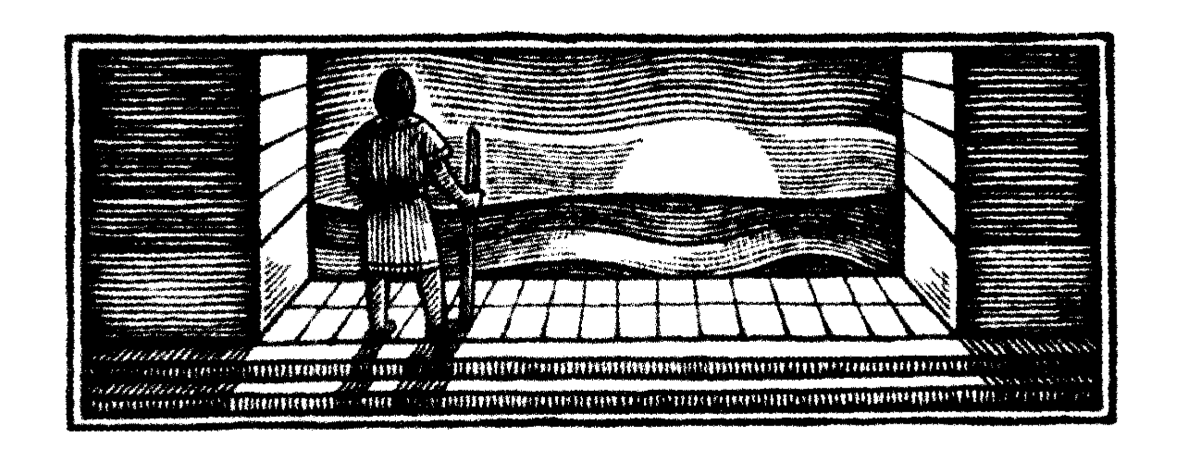
«كان تجارهم يستطيعون إجراء العمليات الحسابية بسهولة ، كما عرفوا ببساطة ما هو قانوني وما هو غير قانوني»

المؤلف

هناك سبعة أيام في الأسبوع . لا أحتاج إلى أن أخبرك بأسمائها لأنك تعرفها مقدما . ولكن هل لديك أي فكرة عن أين ومتى أُعطي كل يوم من هذه الأيام اسما؟ أو من كان أول من فكر في ترتيبها في أسابيع ، وذلك حتى لا تختفي هذه الأيام ، من دون أسماء أو ترتيب ، كما كان يحدث مع البشر في أزمنة ما قبل التاريخ؟ لم يكن ذلك في مصر ، ولكن في بلد آخر لا يقل حرارة ، وحيث عوضا عن نهر واحد ، كان هناك اثنان : دجلة والفرات . وحيث إن الجزء الأهم من البلد يقع بين نهرين ، فقد سُمي «ميسوبوتاميا» Mesopotamia ، وهي كلمة إغريقية تعني الأرض «ما بين النهرين» . الميسوبوتاميا ليست في أفريقيا ولكن في آسيا ،

وعلى الرغم من ذلك فهي لا تبعد كثيرا عن موقعنا هذا من العالم ، حيث إنها تقع في إقليم يسمى الشرق الأوسط ، وفي البلد الذي نعرفه اليوم باسم العراق . هناك يجتمع دجلة والفرات معا ومن ثم يصبان في الخليج العربي .

تخيل سهلا شاسعا مقطوعا بهذين النهرين ، أرض حرارة ومستنقعات وفيضانات مفاجئة ، هنا وهناك تلال شاهقة ترتفع متناثرة في هذه الأرض السهلة . ولكن إذا حفرت فيها ، ستكتشف أنها ليست تلالا مطلقا . في البداية ستصادفك الكثير من الأحجار والأنقاض ، وعندما تحفر عميقا ، ستقابلك جدران متينة مرتفعة . فهذه التلال في الحقيقة ما هي إلا بقايا قرى ومدن عظيمة صممت بشوارع طويلة مستقيمة وبيوت مرتفعة وقصور ومعابد . ولكن خلافا لمعابد مصر الحجرية وأهرامها ، كانت معابد هذه المدن مبنية بالطابوق المضغوط بحرارة الشمس والذي يتشقق ويتفتت بمرور الوقت ، ومن ثم ينهار في كومات عظيمة من الأنقاض .



إحدى هذه الكومات المرتفعة في الصحراء هي كل ما تبقى من مدينة بابل ، التي كانت في ما مضى أعظم مدينة على سطح الأرض ، مدينة تعج بالناس القادمين إليها من كل بقاع العالم ليقايضوا بضائعهم . أعلى النهر ، عند قدم الجبل ، ترقد مدينة أخرى ، تلك كانت نينوى ، ثانية أعظم مدينة في الدنيا . كانت بابل عاصمة البابليين ، تلك معلومة يسهل تذكرها ، أما نينوى فكانت عاصمة الآشوريين .

خلافا لمصر ، نادرا ما كان ملك أوحد يحكم بلاد الرافدين ، كما لم تستمر فيها إمبراطورية واحدة لفترة طويلة وبحدود ثابتة . فقد تسلم عدة ملوك وعدة قبائل السلطة في أوقات مختلفة ، وأهمهم : السومريون ، البابليون والآشوريون . ساد

الاعتقاد زمنا طويلا بأن المصريين كانوا أول شعب يمتلك كل ما يدخل في تكوين ما نسميه اليوم بالثقافة : المدن والتجار ، النبلاء والملوك ، المعابد والكهنة ، المسؤولين والفنانين ، الكتابة والمهارات التقنية .

غير أننا نعلم الآن أنه ، وفي بعض الأوجه ، تجاوز السومريون المصريين . فقد كشف التنقيب في ركام الأنقاض الموجودة في السهول بجانب الخليج العربي أن الناس الذين عاشوا في تلك المنطقة كانوا قد خبروا عملية تشكيل الطابوق من الصلصال وبناء البيوت والمعابد وذلك بحلول سنة 3100 ق . م . عميقا في قلب ركام أحد أكبر التلال تم اكتشاف بقايا مدينة أور والتي بها ، ولد إبراهيم كما يخبرنا الإنجيل . كما تم العثور على عدد كبير من الأضرحة ، والتي بدا أنها تعود إلى ذات تاريخ هرم خوفو العظيم في مصر . ولكن بينما كان الهرم خاليا ، كانت هذه الأضرحة معبأة بكنوز عظيمة : تيجان ذهبية خلابة وأوعية ذهبية للأضحيات ، خوذات ذهبية وخناجر ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ، قيثارات رائعة مزينة برؤوس الثيران ، وكذلك ، هل لك أن تصدق ، لوح لعبة جميل الصنع ومخطط كلوح الشطرنج . المستكشف الذي وجد هذه الكنوز نقل الكثير منها إلى إنجلترا ، حيث يمكنك أن تراها في المتحف البريطاني . غيرها من الكنوز موجود في جامعة بنسيلفانيا ومتحف بغداد في العراق .

كما وجد المستكشفون أختاما وألواح صلصال منقوشة في هذه الأضرحة . لكن النقش لم يكن بالهيروغليفية ، ولكن بكتابة مختلفة تماما والتي كانت أكثر صعوبة في فك شفرتها . السبب في ذلك كان استبدال الصور بضربات أحادية منقوشة بدقة تنتهي بمثلث صغير أو وتد . هذه الكتابة كانت تسمى المسمارية Cuneiform ، والتي تعني «ذات الشكل المسماري» . غير أن الكتب المصنوعة من البردي كانت غير معروفة عند أهل بلاد الرافدين . فقد كانوا يقومون بنقش هذه العلامات على ألواح من الصلصال الناعم كانوا يدخلونها الأفران لاحقا لتصبح صلبة . أعداد ضخمة من هذه الألواح الأثرية تم اكتشافها ، بعضها يعيد سرد قصص مطولة رائعة ، كقصة البطل غلغامش ومعاركه مع الوحوش والتنانين . على ألواح أخرى يتباهى الملوك بمآثرهم : المعابد التي بنوها لتبقى مخلدة ، والأمم التي أخضعوها لسلطانهم .

هناك أيضا ألواح أخرى سجل عليها التجار معاملاتهم التجارية ، العقود ، الوصول وقوائم جرد البضائع ، وبفضل تلك الألواح نعلم الآن أنه ، وحتى قبل وصول البابليين والآشوريين ، كان السومريون القدماء مقايضين عظماء . كان تجارهم يستطيعون إجراء العمليات الحسابية بسهولة ، كما عرفوا ببساطة ما هو قانوني وما هو غير قانوني .

أحد أوائل الملوك البابليين الذين حكموا المنطقة بأكملها ترك نصا طويلا مهما منحوتا في الصخر . إنه أقدم نص قانوني في العالم ، ويعرف بقانون حمورابي . قد يبدو اسمه وكأنه مأخوذ من رواية ، ولكن لا يوجد ما هو خيالي حول قوانينه ، فقد كانت صارمة عادلة . من المجدي أن نتذكر الزمن الذي عاش فيه الملك حمورابي : نحو سنة 1700 ق . م ، أي كان ذلك منذ نحو 3700 سنة مضت .

البابليون ، ومن بعدهم الآشوريون ، كانوا ملتزمين ومجدين في العمل ، غير أنهم لم يرسموا صورا بهيجة كتلك التي رسمها المصريون . معظم تماثيلهم ومنحوتاتهم تظهر ملوكا يصطادون أو يعاينون أسراهم الجاثين والمقيدين في الأصفاد ، أو أشخاصا من قبائل غريبة يهربون أمام عجلات مركباتهم ، بينما يهاجم المقاتلون القلاع الحربية . يبدو هؤلاء الملوك صارمين بخصلات شعرهم الطويلة المجعدة السوداء ولحاهم المتموجة . هم يظهرون كذلك أحيانا وهم يقدمون القرابين إلى إله الشمس بعل ، أو إلى إلهة القمر عشتار أو عشتروت .

وقد عبد البابليون والآشوريون الشمس والقمر وكذلك النجوم . في الليالي الصافية الدافئة ، طوال السنة وعلى مر القرون ، راقب البابليون والآشوريون السماء وسجلوا كل ما شاهدوه فيها . ولأنهم كانوا أذكياء ، فقد لاحظوا أن النجوم تدور بشكل منتظم . وسرعان ما تعلموا أن يميزوا تلك التي بدت مثبتة في قبة السماء لتظهر كل ليلة في ذات المكان . ولقد ميزوا أشكالا في مجموعات النجوم وأعطوها أسماء ، كما نفعل نحن عندما نتحدث عن الدب الأكبر . غير أن النجوم التي بدت زاحفة فوق قبة السماء ، لنقل ، الآن باتجاه الدب الأكبر والآن باتجاه القوس والميزان ، بدت أنها هي التي كانت تستحوذ على أكبر قدر من اهتمامهم . في تلك الأيام ، كان الناس يعتقدون أن الأرض قرص مسطح وأن السماء كانت نوعا من التجويف الكروي المفرغ الذي يلحف الأرض ويغطيها ويدور حولها دورة كاملة كل يوم . لذا لا بد أنه بدا لهم إعجازيا أنه ، وفي حين أن معظم النجوم بدت مثبتة في السماء ، بدا بعضها الآخر ، والذي كان كذلك فعلا ، غير ثابت تماما بل قادر على الحركة .

نحـن نعلـم اليوم أن تلـك النجوم قريبة إلينـا ، وأنها تدور مع الأرض حول الشـمس . تسمى هذه النجوم بالكواكب . لكن البابليين والآشوريين القدماء لم يكونوا ليعرفوا ذلك ، لذا فإنهم اعتقدوا أن نوعا من السحر الغريب لا بد أن يكون خلف هذه الظاهرة . وقد قاموا بإعطاء اسم لكل نجم سيار ، وراقبوها جميعا من قرب ، مقتنعين بأنها مخلوقات قوية تؤثر مواقعهـا في أقدار البشـر ، وأنه عبر مراقبتها ، فإنهم سـيتمكنون من التنبؤ بالمسـتقبل . هذا الاعتقاد في النجوم له اسم إغريقي : أسترولوجي Astrology (علم التنجيم) .

وقـد كان المعتقـد أن بعض الكواكب يجلب الحظ السـعيد وبعضها الآخر يجلب الحظ السيئ : المريخ كان يعني الحرب ، والزهرة يعني الحب . ولقد خصصوا لكل من الكواكب الخمسة التي كانت معروفة لديهم يوما ، وبحساب الشمس والقمر ، أصبح المجموع سـبعة . كان هذا مصدر أيامنا السـبعة في الأسـبوع . بالإنجليزية مازلنا نقول Satur أو Saturn)-day) (السبت)(*) ، ونقول Sun-day (الأحد) ، وكذلك Mon moon)-day) (الاثنين)(**) ، بينما الأيام الأخرى مسماة بأسماء آلهة مختلفة . في لغات أخرى ، كالفرنسـية أو الإيطالية ، معظم أيام الأسـبوع لاتزال تشير أسماؤها إلى الكواكـب التـي بادر البابليـون أولا إلى تسـميتها . هل كان لك أبـدا أن تتخيل أن أيام عطلنا الأسبوعية لها مثل هذا التاريخ الغريب المبجل عودة إلى آلاف سنين مضت؟

وليكونـوا قريبين من النجـوم ، وليتمكنوا من رؤيتها بشـكل أوضح في منطقتهم الضبابية ، عمد البابليون ، ومن قبلهم السـومريون ، إلى تشـييد مبان غريبة ذات اسم رائع : الزقورة(***) . تلك كانت أبراجا مرتفعة عريضة مكونة من مصطبات إحداها فوق الأخرى ، متدرجة ، لها انحدارات مرعبة وسلالم ضيقة شاهقة العلو . في أعلى قمـة للبرج كان هناك معبد مخصص للقمر أو أي كوكب آخر . كان الناس يأتون من مسـافات بعيدة ليطلبوا مـن الكهنة قراءة طالعهم عبر النجـوم ، حاملين معهم قرابين عظيمـة القيمة . هـذه الزقورات نصف المهدمة يمكن مشـاهدتها اليوم ، تبرز بين ركام البقايا ، بنقوشها التي تحكي كيف قام هذا الملك أو ذاك ببنائها أو ترميمها . عاش أوائل الملوك في هذه المنطقة منذ 3000 سنة ق . م ، وآخرهم عاش في سنة 550 ق . م .

(*) Saturn هو اسم كوكب زحل بالإنجليزية .

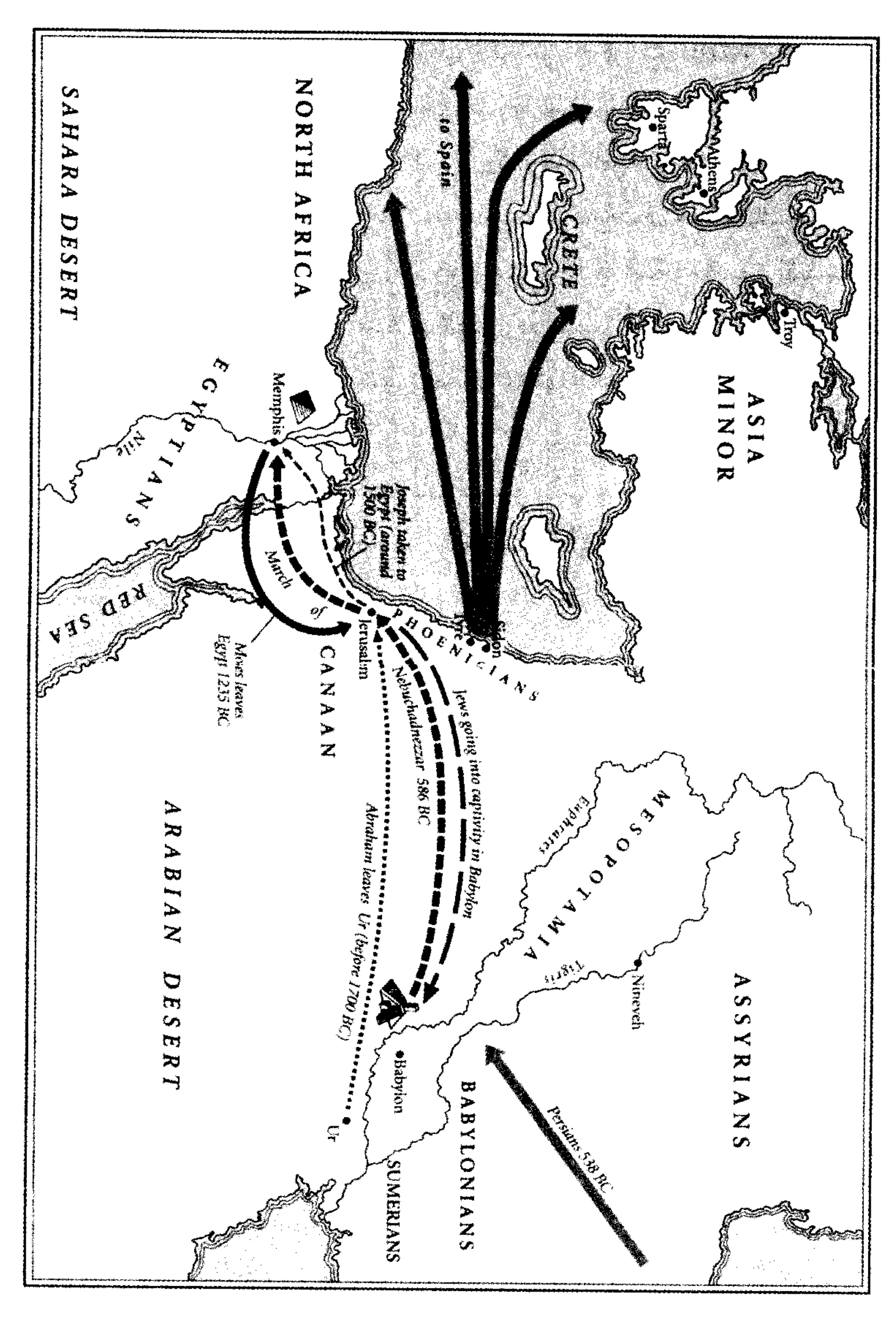
(**) الشمس والقمر .

(***) Ziggurrates .

Nineveh	نينوى
Sidon	صيدا
Tyre	صور
Egyptians	المصريون
Nile	النيل
Red Sea	البحر الأحمر
Ur	أور
Memphis	منف
Persians 538 BC	الفرس 538 ق . م
Abraham leaves Ur. .	إبراهيم يرحل عن أور (قبل 1700 ق . م)
Moses leaves Egypt. .	موسى يرحل عن مصر 1235 ق . م
Joseph taken to Egypt. .	يوسف إلى مصر (نحو 1500 ق . م)
Jews going into captivity in Babylon	اليهود يؤسرون في بابل
Jerusalem	القدس
March of Nebuchadnezzar	مسيرة نبوخذنصر 586 ق . م

مفتاح الخريطة المقابلة

Asia Minor	آسيا الصغرى
Assyrians	الآشوريون
Mesopotamia	بلاد ما بين النهرين
Babylonians	البابليون
Troy	طروادة
Athens	أثينا
Sparta	أسبرطة
Crete	كريت
Tigris	دجلة
Euphrates	الفرات
Babylon	بابل
Sumerians	السومريون
Arabian Desert	الصحراء العربية
Sahara Desert	الصحراء الكبرى
to Spain	إلى إسبانيا
Phoenicians	الفينيقيون



لقد بدأ تاريخ الإنسـانية في هذا الجزء من العالـم ، بين منطقة بلاد الرافدين ومصر ، بحروب دموية ورحلات جريئة لسـفن الفينيقيين التجارية . يمكنك الاطلاع على هذه الخريطة مجددا بينما تقرأ الفصول التالية .

كان آخر الملوك البابليين العظماء هو نبوخذنصر . عاش هذا الملك في سنة 600 ق . م ، وهو يُذكر لأعماله البطولية الحربية . حارب نبوخذنصر ضد مصر وجلب معه إلى موطنه بابل أعدادا هائلة من الأسرى الغرباء كعبيد . ومع ذلك ، فإن أعظم أعماله لا تتجلى في هذه الحروب : فقد قام بحفر قنوات ضخمة وأنشأ صهاريج مائية ، وذلك للاحتفاظ بالمياه وري الأرض لتصبح بعدها غنية وخصبة . فقط عندما سُدت هذه القنوات بالطمي وامتلأت الصهاريج بالطين أصبحت الأرض على ما هي عليه اليوم : صحراء قاحلة وسهول سبخة ، بينها ، هنا وهناك ، يظهر أحد التلال التي ذكرتها .

ولذا ، ومن بين لحظات سعادتنا بأن الأسبوع قد قدم لنهايته ، وأن يوم العطلة عائد مرة أخرى ، لا بد أن نخصص لحظة لتلال البقايا في هذه السهول الحارة السبخة ، ولهؤلاء الملوك الأقوياء بلحاهم الطويلة السوداء . فنحن نعرف الآن كيف حدث الأمر كله .

5

الإله الواحد الأوحد

«في داخل المعابد الوثنية ، كانت هناك رسومات مصورة لأنوبيس ذي رأس ابن آوى ، أو لبعل الذي كانت تقدم إليه حتى القرابين البشرية ، أما في أعمق أجزاء المعبد اليهودي ، قدس الأقداس ، فلم تكن هناك أي رسومات مصورة مطلقا»

المؤلف

هناك ، ما بين مصر وبلاد الرافدين ، توجد أرض ذات وديان عميقة ومراع غنية . وهناك ، ولآلاف السنين ، انصرف الرعاة بقطعانهم ، يزرعون الكرم ونباتات الحبوب ، وفي المساء ينشدون الأغاني كما يفعل أهالي الأرياف . ولكن وحيث إن هذه الأرض تقع بين هذين البلدين ، فإن المصريين غزوها وحكموها أولا ، ثم غزاها البابليون ، فكان الناس القاطنون هناك يرحلون باستمرار من مكان إلى آخر . بنى هؤلاء الناس لأنفسهم قرى وقلاعا ، ولكن من دون فائدة . فلم يكونوا بالقوة التي تسمح لهم بمقاومة الجيوش العظيمة لجيرانهم .

«ذلك كله حزين جدا ، ولكنني لا أرى ما علاقة هذا الموضوع بالتاريخ» ، ستقول لي أنت ، «فلا بد أن المشكلة نفسها أصابت آلاف القبائل الصغيرة» . نعم ، أنت على حق . ولكن كان هناك شيء خاص حول تلك القبائل ، وذلك لأنهم ، وعلى الرغم من قلة عددهم وسلميتهم ، لم يصبحوا فقط جزءا من التاريخ ، بل إنهم صنعوا التاريخ ، وبهذا القول أعني أنهم شكلوا مجرى كل التاريخ المقبل . وهذا الشيء الخاص لهذه القبائل كان دينهم .



فقد صلت الشعوب المختلفة لآلهة متعددة ، يمكنك أن تتذكر منها إيزيس وأوزوريس ، بعل وعشتروت . غير أن هؤلاء الرعاة صلوا لإله أوحد فقط ، قائدهم وحاميهم الخاص بهم . وعندما كانوا يجلسون بجانب نيران مخيماتهم في المساء ، ينشدون الأغاني عن مآثرهم ومعاركهم ، كانوا يغنون لمآثر هذا الإله ومعاركه . فإلههم ، كما كانوا ينشدون ، كان أفضل وأقوى وأكثر مجدا من كل الآلهة الوثنية مجموعة . وقد أصروا فعليا ، على مدى مرور السنوات ، على أن هذا الإله هو الإله الأوحد . الإله الواحد الأحد ، خالق السماوات والأرض ، الشمس والقمر ، الأرض والنهر ، الزرع والحيوانات ، وكل البشر كذلك . وقد كانت غضبته القاسية منهم هي الممثلة في العواصف ، غير أنه لم يتخل في يوم عن شعبه ، ليس عندما كان يضطهدهم المصريون ولا عندما طاردهم البابليون . فقد كان ذلك إيمانهم ومصدر فخرهم : كانوا هم شعبه وكان هو إلههم .

قد تكون خمنت الآن من يكون هؤلاء الرعاة الغريبون الضعفاء . لقد كانوا اليهود . وأما الأغاني حول مآثرهم ، والتي هي مآثر إلههم ، فهي في الواقع العهد القديم من الإنجيل .

في يوم ما ، ومن دون داع للعجلة ، قد تأتيك فرصة قراءة الإنجيل . لن تستطيع أن تجد هذا الكم من القصص حول الأزمنة الأثرية بتفاصيلها المحكية في أي مكان آخر . وإذا ما قرأت هذه القصص بتمعن ، فإنك قد تجد نفسك الآن تفهم العديد منها بشكل أفضل . هناك قصة إبراهيم ، على سبيل المثال . هل تذكر من أين أتى؟ الجواب في سفر التكوين ، الإصحاح 11 . لقد قدم إبراهيم من مدينة أور في منطقة الكلدانيين . وأور الآن هي بقايا ركام بالقرب من الخليج العربي ، حيث وجد المنقبون كل هذه الأشياء الأثرية مثل القيثارات وألواح اللعب والأسلحة والمجوهرات . غير أن إبراهيم لم يعش هناك في الزمن القديم ، غالبا كان يعيش في زمن حمورابي ، صانع القانون العظيم ، وذلك كان ، كما تذكر ، في نحو 1700 ق . م . هذا وتظهر الكثير من قوانين حمورابي الصارمة والعادلة في الإنجيل .

غير أن ذلك ليس كل ما يذكره الإنجيل حول بابل الأثرية . هل تعرف قصة برج بابل ، عندما حاول الناس بناء برج يصل إلى السماء ، فغضب الإله من غرورهم وأوقفهم عن رفع بنائهم ، وذلك بأن جعلهم يتحدثون لغات مختلفة حتى يفقدوا القدرة على فهم بعضهم بعضا؟ حسنا فإن بابل هي Babylon ، والآن يمكنك فهم القصة بشكل أفضل . حيث ، وكما تعلم ، قام البابليون فعلا ببناء أبراج ضخمة «قممها وصلت حتى السماء» ، وقد بنوها حتى يقتربوا من الشمس والقمر والنجوم .

أما قصة نوح والطوفان فهي كذلك قادمة من منطقة بلاد الرافدين . فقد أُجري هناك تنقيب عن عدد من الألواح الصلصالية المنقوشة بالكتابة المسمارية والتي تحكي قصة شبيهة جدا بتلك الموجودة في الإنجيل .

أحد أبناء سلالة ابراهيم من مدينة أور (كما يخبرنا الإنجيل) هو يوسف ، ابن يعقوب ، والذي أخذه إخوانه إلى مصر وباعوه ، وعلى الرغم من ذلك أصبح مستشارا ثم وزيرا للفرعون . قد تعلم كيف تطورت القصة : كيف ضربت المجاعة

البلد ، وكيف سافر إخوة يوسف إلى مصر ليبتاعوا القمح . في ذلك الوقت ، كان عمر الأهرام قد وصل إلى ما يزيد على الألف عام ، ويوسف وإخوته لا بد أنهم كانوا غاية في الإعجاب والاندهاش بها ، كما نحن اليوم .

وعوضا عن العودة إلى ديارهم ، استقر إخوة يوسف وأبناؤهم في مصر ، وما كاد يمر وقت قصير حتى اضطروا إلى الكدح من أجل الفرعون كما فعل كل المصريين في زمن الأهرام . نقرأ في الإصحاح الأول من سفر الخروج : «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل . . .» . في النهاية ، قادهم موسى خروجا من مصر وإلى الصحراء ، في نحو 1250 ق . م . من هناك ، حاولوا الفوز مجددا بالأرض الموعودة ، وهي الأرض التي عاش عليها أجدادهم منذ زمن إبراهيم . وأخيرا ، وبعد حروب طويلة ، وحشية ودموية ، نجحوا في مسعاهم . وعليه ، أصبح لديهم مملكتهم الصغيرة بعاصمتها بيت المقدس . كان أول ملوكهم هو الملك شاول ، الذي حارب ضد قبيلة مجاورة ، الفلسطينيين ، ومات على أرض المعركة .

في الإنجيل عديد من القصص الجيدة عن الملوك اللاحقين ، الملك داود والملك سليمان . كان سليمان ملكا حكيما عادلا ، حكم بعد فترة قصيرة من حلول سنة 1000 ق . م ، حيث كان ذلك بعد نحو سبعمائة سنة من حكم الملك حمورابي و2100 سنة من حكم الملك مينا . بنى هذا الملك أول معابد بيت المقدس على الرغم من أن مهندسيه لم يكونوا يهودا ، ولكنهم صناع مهرة غرباء من أراض مجاورة . ولم يقل هذا المعبد ضخامة وعظمة عن أي مبنى شيده المصريون أو البابليون ، أي أنه كان مختلفا من ناحية واحدة : في داخل المعابد الوثنية ، كانت هناك رسومات مصورة لأنوبيس ذي رأس ابن آوى ، أو لبعل الذي كانت تقدم إليه حتى القرابين البشرية ، أما في أعمق أجزاء المعبد اليهودي ، قدس الأقداس ، فلم تكن هناك أي رسومات مصورة مطلقا . فهذا الإله ، الذي كان أول ظهور له في تاريخ العالم هو للشعب اليهودي ، الإله ، العظيم ، الواحد الأحد ، لا يمكن أن تصنع له صورة أو رسم . كل ما كان موجودا هو ألواح القوانين بما تحتويه من الوصايا العشر . من خلال تلك الوصايا ، قدم الإله نفسه .

بعـد حكم الملك سـليمان ، تدهورت أحـوال اليهود . فقد انقسـمت مملكتهم إلى نصفـين : مملكة إسـرائيل ومملكة يهوذا . تتابعت بعدها العديـد من المعارك التي انتهت إلى أن غزا الآشوريون أحد نصفي المملكة ، وهو مملكة إسرائيل ، في سنة 722 ق . م ، ليتم إخضاعها وتدميرها .

لكـن ما يثير الإعجاب هـو تأثير هذه الكوارث المتعددة في اليهود الذين نجوا منهـا ، حيـث جعلتهم هـذه الكوارث فـي الواقع أشـد إيمانا . فقـد نهض بينهم رجال ، ليسـوا برهبان ، ولكن أناس بسـطاء ، شـعروا بواجبهم في أن يخاطبوا قومهم ، لأن الإله يتحدث من خلالهم . كانت مواعظهم دائما متشابهة : «أنتم بذاتكم سـبب مصائبكم ، الإله يعاقبكم بسـبب خطاياكم» . من خلال كلمات هؤلاء الرسـل ، سـمع الشـعب اليهودي مرارا وتكرارا أن المعاناة كانت أسلوب الإلـه فـي معاقبتهـم واختبار إيمانهـم ، وأنه فـي ذات يوم ، سـيأتي الخلاص في صورة المسـيح ، مخلصهم ، والذي سيعيد شـعبهم إلى سابق مجده مستحضرا السعادة الأبدية .

غير أن معاناتهم كانت لاتزال مسـتمرة وبعيدة عـن نهايتها ، لا بد أن تتذكر الملك والمحـارب البابلي العظيم ، الملك نبوخذنصر ، الذي في طريقه للحرب ضد المصريين اخترق الأرض الموعودة حيث حطم مدينة بيت المقدس في سـنة 586 ق . م ، واقتلع عيني الملك صدقيا واقتاد اليهود في الأسر إلى بابل .

هنـاك بقـي اليهود لما يقارب الخمسـين سـنة ، وذلك حتى دُمـرت إمبراطورية بابـل بدورهـا على أيدي جيرانها الفارسـيين فـي 538 ق . م . عندما عـاد اليهود إلـى وطنهـم ، كانوا قد تغيروا . كانـوا مختلفين عن القبائل المجـاورة حيث نظروا إليهـم على أنهـم عبدة للأصنام وقد فشـلوا في التعرف على الإلـه الحق الأوحد . لذا فقد أبقوا أنفسـهم منعزلين ولـم يتعاملوا مطلقـا مع جيرانهم . في حينها ، تمت كتابة العهد القديـم لأول مرة ، وكما نعرفه اليوم ، وذلك بعد مضي 2500 سـنة . غيـر أنـه لكل مـن حولهم ، بـدا اليهود غريبـي الأطـوار ، إن لم يكونوا سـخفاء ، بحديثهـم اللامتناهـي عن إله لا مرئـي فريد من نوعه ، وباتباعهـم الصارم لقواعد وممارسات مملة وجامدة أمر بها هذا الإله الذي لا يستطيع أن يراه أحد . وإذا ما كان اليهود هم المبادرين في إبعاد أنفسهم عن القبائل الأخرى ، فإنه سرعان ما اتخذت

هـذه القبائل أعظم الاحتياطـات لتجنب هؤلاء اليهود ، هذه الثلـة الصغيرة الباقية من شـعب يدعو نفسـه «المختار» ، والذين تداعوا ليل نهار فـوق كتابهم وأغانيهم المقدسـة في محاولة منهم لفهم الأسـباب التي جعلت الإله الواحد الأوحد يسمح بأن يعاني شعبه على هذا النحو .

6

أ - نا - أ - س - ت - ط - ي - ع - أ - ن - أ - ق - ر - أ

«لم يشعر الفينيقيون مطلقا بانقطاعهم عن موطنهم، حيث كان بإمكانهم كتابة الرسائل لأصدقائهم في صور وصيدا مستخدمين أسلوب الكتابة البسيط الرائع الذي اخترعوه . . .»

المؤلف

كيف تفعل ذلك؟ آه، كل طفل في المدرسة يعرف الإجابة : «تتهجى الكلمة» . نعم، لا بأس، ولكن ماذا تعني بذلك تحديدا؟ «حسنا، هناك ألف ونون وألف، وتلك تكون «أنا»، ومن ثم ألف وسين وتاء وطاء وياء وعين، والتي تتهجى كلمة «أستطيع»، وهكذا، وبالستة والعشرين حرفا(*) يمكنك أن تكتب ما تشاء» . ما أشاء؟ نعم، ما تشاء . بأي لغة؟ تقريبا .

أليس ذلك مذهلا؟ فقط بستة وعشرين رمزا بسيطا، لا يزيد كل منها على زوج من الانحناءات، تستطيع أن تكتب ما تريد، حكيما كان أم ساذجا، خيرا كان أم شريرا . لم يكن الأمر بهذه السهولة للمصريين القدماء بحروفهم

(*) عدد الحروف في اللغة الإنجليزية .

الهيروغليفية ، ولم يكن كذلك بالنسبة إلى الشعوب التي استخدمت الكتابة المسمارية ، فقد كانت محاولاتهم مستمرة لاختراع إشارات جديدة لم تعبر فقط عن صوت حرف واحد ، ولكن عن مقاطع صوتية كاملة أو أكثر . ففكرة أن يعبر كل رمز عن صوت واحد ، وأن فقط ستة وعشرين من هذه الرموز كان كل ما تحتاج إليه لكتابة كل كلمة ممكنة ، كان ذلك اختراعا جديدا تماما ، اختراعا لم يكن ليصل إليه إلا شخوص مارسوا الكتابة كثيرا ، ليس فقط كتابة النصوص المقدسة والأناشيد ، ولكن كل أنواع الرسائل والعقود والإيصالات .



كان هؤلاء المخترعون تجارا ، رجالا سافروا طولا وعرضا في البحار ، يقايضون ويتاجرون في كل البلدان . عاش هؤلاء بالقرب من اليهود ، في موانئ صور وصيدا . وهي مدن أكبر وأقوى بكثير من بيت المقدس ، وبالصخب والهياج أنفسهما الموجودين في بابل . والواقع ، أن لغتهم ودينهم لم يكونا مختلفين كثيرا عن لغة ودين شعب بلاد ما بين النهرين ، وإن لم يشاركوهم محبتهم للحرب . فالفينيقيون (حيث كان هذا هو اسم أهل صور وصيدا) قاموا بغزواتهم بطرق أخرى . عبر الفينيقيون البحار إلى شطآن غريبة حيث أرسوا سفنهم ونصبوا مراكز للمقايضة . قايضتهم القبائل البرية التي كانت تعيش هناك الفراء والأحجار الكريمة مقابل المعدات ، قدور الطهي ، والأقمشة الملونة . فالحرفية الفينيقية كانت معروفة في العالم كله ، حتى أن حرفييهم كانوا قد ساعدوا في بناء معبد سليمان في بيت المقدس . أشهر بضائعهم كان القماش المصبوغ ، وبالأخص الأرجواني ، والذي كانوا يبيعونه في مختلف أنحاء العالم . بقي العديد من الفينيقيين في مواقع مراكز تجارتهم على

الشطآن الغريبة وبنوا المدن الصغيرة . أينما ذهب هؤلاء الفينيقيون كانوا يلقون كل ترحيب ، في أفريقيا ، إسبانيا ، وفي جنوب إيطاليا ، بسبب الأشياء الجميلة التي كانوا يحملونها معهم .

لم يشعر الفينيقيون مطلقا بانقطاعهم عن موطنهم ، حيث كان بإمكانهم كتابة الرسائل لأصدقائهم في صور وصيدا مستخدمين أسلوب الكتابة البسيط الرائع الذي اخترعوه ، والذي لانزال نستخدمه حتى اليوم . نعم ، تلك هي الحقيقة ! خذ حرف B على سبيل المثال : إنه تقريبا متطابق ، وذاك الذي استخدمه الفينيقيون ، منذ ثلاثة آلاف سنة ، عندما كانوا يراسلون موطنهم من الشواطئ البعيدة ، باعثين بالأخبار لأهاليهم من هذه المدن البحرية الصاخبة الهادرة . والآن وبعد أن عرفت كل هذا ، لن يمكنك أن تنسى الفينيقيين بعد اليوم .

7

الأبطال وأسلحتهم

هذه سطور يجب أن تُنشد بصوت عال

مع دق إيقاعها ،

سطور استخدمها شعراء الإغريق في

قصصهم حول شؤون الحرب ،

تحكي عن منافسات الآلهة والأبطال

في الأزمنة القديمة .

(شعر كهذا ، يحتوي على ستة إيقاعات لكل سطر ، كان يسميه الإغريق سداسي التفعيل «hexameter» . يتناسب الوزن الشعري هذا واللغة الإغريقية ، ولكنه يبدو غريبا بعض الشيء باللغة الإنجليزية)

حتما سمعت بالحرب التي قامت

عندما أقدم باريس ، الطروادي ،

بالوقوف في صف فينوس حيث

أعطاها التفاحة الذهبية في المسابقة ،

«لم تكن بلاد الإغريق مملكة بقدر ما كانت مجموعة من المدن الصغيرة والمحصنة ، لكل واحدة منها قصرها وملكها»

المؤلف

وكيف أنه ، مكافأةً له ، قامت هي بمساعدته ليستولي على الجميلة
هيلين ، زوجة ملك الإغريق ، مينيلوس منادي الحرب ،
وكيف حاصر جيش من الإغريق مدينة طروادة لاستعادتها ،
مع أغاميمنون ، نيستور الحكيم ، أخيل وأجاكس ، وأعداد رهيبة من
الأبطال الذين حاربوا في هذه الحرب مع أبناء الملك بريام ،
باريس وهيكتور ، وذلك لعشرة أصياف وأشتية طوال قبل أن
وأخيراً تُغزى وتسوى بالأرض على يد المنتصرين .
هل تتذكر كذلك حكاية المراوغ أوديسيوس؟
كيف ، وبعد عودته من طروادة ، مر بأغرب المغامرات ،
وعاد إلى موطنه أخيرا ، على ظهر سفن عملاقة ،
إلى زوجته التي انتظرت سيدها كل سنوات غيابه .



أشعار كهذه كان ينشدها المنشدون الإغريق أثناء الولائم بينما هم يعزفون على قيثاراتهم . لاحقا ، تم توثيق هذه الأشعار كتابة ، واعتقد الناس أن شاعرا أوحد ، اسمه هومر ، هو من نظمها جميعا . إلى اليوم تُقرأ هذه الأشعار ، ويمكنك أنت كذلك أن تستمتع بها ، فتلك الأشعار متجددة وحية كما كانت دوما ، حافلة بالجمال والحكمة .

«انتظر لحظة» ، ستقول لي ، «هذه قصص وليست تاريخا . ما أريد معرفته هو متى وكيف وقعت هذه الأحداث؟» . سأل رجل أعمال ألماني اسمه شليمان نفسه ذات الأسئلة منذ ما يزيد على المائة سنة . قرأ شليمان أعمال هومر مرة بعد مرة ، وتمنى رؤية كل الأماكن الجميلة التي تحدث عنها الشاعر . آه لو كان بإمكانه أن يمسك

بيديه، ولو مرة واحدة فقط، تلك الأسلحة الرائعة التي حارب بها هؤلاء الأبطال. وفي أحد الأيام تحققت أمنيته، حيث تبين أن كل تلك القصص حقيقية، ليس في كل تفاصيلها بالطبع: لم يكن الأبطال المذكورون في الأناشيد حقيقيين إلا بقدر ما كان العمالقة والسحرة كذلك في روايات الأطفال. غير أن العالم الذي يصفه هومر، كؤوس الشراب، الأسلحة، المباني والسفن، الأمراء الذين كانوا في الوقت ذاته رعاة، والأبطال الذين كانوا مقاتلي البحار كذلك، لم يكونوا من اختراعه. عندما أخبر شليمان الناس بذلك، ضحكوا منه. لكنه لم يستسلم، بل استمر في تجميع المال حتى يتمكن ذات يوم من السفر إلى بلاد الإغريق ليرى بأم عينيه. وعندما جمع أخيرا مبلغا كافيا من المال، قام باستئجار عمال وبدأ الحفر باحثا عن كل المدن المذكورة في كتب هومر. في مايسينيا، اكتشف شليمان قصور ومقابر الملوك، ودروعا ومتاريس، تماما كما وصفتها الأناشيد الهومرية. كما أنه وجد مدينة طروادة كذلك، حيث قام بالحفر فيها ليتبين أنها فعلا قد تدمرت بسبب حريق. ولكن في كل هذه المقابر والقصور لم يكن هناك أي نقوش أو كتابات، وعليه فإنه، ولزمن طويل، لم يستطع أحد تأريخها، إلى أنه في ذات يوم، وعن طريق المصادفة، عُثر على خاتم في مايسينيا لم يكن في الواقع من صنع هذه المدينة. عليه، وبالكتابة الهيروغليفية، نُقش اسم ملك مصري كان قد عاش في نحو سنة 1400 ق. م. حيث كان سلفا للملك أخناتون، الإصلاحي العظيم.

في ذلك الوقت، كان يعيش في بلاد الإغريق، وعلى الكثير من الجزر والشطآن المجاورة، شعب مولع بالحرب كان قد كدس كنوزا عظيمة. لم تكن بلاد الإغريق مملكة بقدر ما كانت مجموعة من المدن الصغيرة المحصنة، لكل واحدة منها قصرها وملكها. كان الشعب أغلبه من البحارة، مثل الفينيقيين، غير أنهم تاجروا قليلا وحاربوا كثيرا. كانوا غالبا في حرب بعضهم مع بعض، لكنهم وفي مناسبات معينة، كانوا يجتمعون ليغيروا على شواطئ أخرى. وبينما كانت ثرواتهم تكبر، كانت جرأتهم تزداد، ليست جرأتهم فقط ولكن شجاعتهم كذلك، ذلك أنه لكي تصبح مقاتلا في البحر فإنك تحتاج إلى الشجاعة كما إلى الدهاء. وعليه فقد كان قتال البحر مهمة تقع على عاتق الطبقة النبيلة. أما بقية الأهالي فقد كانوا فلاحين بسطاء أو رعاة.

وبخلاف المصريين والبابليين والآشوريين ، فإن هؤلاء النبلاء لم يكونوا مهتمين في الحفاظ على تقاليد أسلافهم . فقد فتحت معاركهم وغاراتهم المتعددة مع الشعوب الخارجية أعينهم على أفكار جديدة وعلمتهم أن يقدروا التنوع والتغيير . وقد كان من هذه النقطة ، ومن هذا الجزء من العالم ، أن بدأ التاريخ بالتطور بسرعة أكبر ، حيث لم يعد يؤمن الناس بأن التقاليد والطرائق القديمة مازالت هي الأفضل . منذ ذلك الحين فصاعدا ، كانت الأشياء تتغير بشكل مستمر . ولذلك نستطيع ، في أيامنا هذه ، إن وجدنا قطعة من الفخار في اليونان أو في أي مكان آخر في أوروبا ، أن نقول : «تلك تعود تقريبا لهذه الحقبة أو تلك من التاريخ» ، وذلك لأنه بعد مرور مائة سنة ، وعاء كهذا سيكون قد خرج عن الذوق السائد ، ولم يكن ليرغب فيه أحد .

يسود الآن الاعتقاد بأن كل الأشياء الجميلة التي وجدها شليمان خلال حملة تنقيبه في المدن الإغريقية ، الأواني والخناجر رائعة الصنع والمزينة برسومات عن الصيد ، الدروع والخوذات الذهبية ، المجوهرات وحتى الرسومات زاهية الألوان على حوائط الممرات ، لم يتم صنعها هناك . لقد تم صنعها أولا ليس في بلاد الإغريق ولا في مدينة طروادة ، ولكن في جزيرة قريبة . كانت هذه الجزيرة تسمى كريت . هناك ، وفي زمن الملك حمورابي - أتتذكر متى كان ذلك؟ - كان الكريتيون قد شيدوا قصورا ملكية عظيمة ، بعدد من الغرف لا يحصى ، أدراج تصعد وتهبط في كل الاتجاهات ، أعمدة مهيبة ، أفنية ، ممرات وأقبية ، متاهة حقيقية .

على ذكر المتاهات ، هل سبق لك أن سمعت عن قصة الشريرميناتور : نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور ، والذي عاش في متاهة مجبرا الإغريقيين على إرسال سبعة شباب وسبع فتيات كل سنة كقرابين بشرية؟ هل تعلم أين كان ذلك؟ لقد كان ذلك في كريت ، لذا قد تكون هذه القصة صحيحة بدرجة ما . قد يكون ملوك مدينة كريت حكموا في يوم ما المدن الإغريقة ، وقد يكون هؤلاء الإغريق قد اضطروا إلى أن يرسلوا لهم ضريبة . على كل حال ، كان هؤلاء الكريتيون شعبا استثنائيا ، حتى وإن كنا لانزال نجهل الكثير عنهم . فما عليك سوى أن تطلع على الرسومات على حوائط قصورهم لترى أنها لا تشبه أيا مما كان مرسوما في ذات الحقبة في مصر أو بابل . إذا كنت تتذكر ، فإن الرسومات المصرية كانت غاية في الجمال ، غير أن بها جمودا وقسوة ، نوعا ما مثل كهنتهم . لم يكن هذا هو الحال في كريت . أكثر

المواضيع التي كانت تهمهم في رسوماتهم هي اصطياد الحيوانات أو البشر وإظهار حركتهم السريعة : كلاب تصطاد خنزيرا بريا ، أشخاص يقفزون فوق الثيران ، فلم يكن هناك شيء يصعب عليهم رسمه . لقد تعلم ملوك المدن الإغريقية الكثير منهم .

وبحلول عام 1200 ق . م ، كانت كل هذه العظمة قد انتهت ، حيث إنه كان في ذلك الوقت (نحو مائتي سنة قبل حكم الملك سليمان) أن أتت قبائل جديدة من الشمال . هل كانوا على صلة قرابة بمؤسسي مدينة مايسينيا السابقين؟ لا أحد يعرف بشكل قاطع ، غير أنها قرابة محتملة . في كل الأحوال ، فقد قاموا بتنحية الملوك ونصبوا أنفسهم في مكانهم . في هذه الأثناء كانت كريت قد دُمرت ، لكن ذكرى عظمتها قد استمرت في ذاكرة الغزاة ، حتى عندما وجدوا مدنا جديدة وبنوا فيها أضرحتهم الخاصة . وبمرور قرون من الزمن ، اختلطت حكايات ملوك مايسينيا القديمة بقصص معارك وغزوات هؤلاء الغزاة ، حتى أصبحت كلها جزءا من تاريخهم .

كان هؤلاء القادمون الجدد هم الإغريق ، والأناشيد والأساطير التي كانت تغنى في بلاط نبلائهم هي ذاتها الأشعار الهومرية التي بدأ بها هذا الفصل . من المهم تذكر أن هذه الأشعار تم نظمها قبل سنة 800 ق . م بقليل .

عندما قدم الإغريق إلى اليونان ، لم يكونوا بعد إغريقا . هل يبدو ذلك غريبا؟ ذلك هو الواقع ، حيث إنه عندما أقدمت قبائل الشمال على غزو الأراضي التي سيحتلونها فيما بعد ، لم يكونوا بعد شعبا موحدا ، كانوا يتحدثون لهجات مختلفة ويدينون بالطاعة لرؤساء قبائل مختلفين . لقد كانوا قبائل مشابهة لتلك التي تدعى السايوكس والموهيكان والذين قرأت عنهم في قصص الغرب الأمريكي ، وكانت لهم أسماء مثل الدوريان ، الأيونيان ، والأيوليان . ومثل الهنود الحمر ، كانوا محاربين شجعانا ، ولكن في نواح أخرى كانوا مختلفين كثيرا . كان الهنود الحمر يألفون معدن الحديد ، بينما كان سكان مايسينيا وكريت ، كما تخبرنا أناشيد هومر ، يصنعون أسلحتهم من البرونز . وعليه ، وصلت هذه القبائل إلى بلاد الإغريق ، بزوجاتهم وأطفالهم . أكمل الدوريون طريقهم لمسافة أبعد ، بالاتجاه السفلي وإلى أقصى نقطة جنوبية في بلاد الإغريق والتي تبدو كورقة شجر القيقب والتي تسمى بالبيلوبونيز . هناك ، قاموا بإخضاع السكان ، وأجبروهم على العمل في الحقول . ثم قاموا ببناء مدينة أقاموا فيها وأسموها إسبرطة .

أمـا الأيونيـون ، الذين وصلوا بعـد الدوريين ، فإنهـم وجدوا أن بـلاد الإغريق لا تتسـع لهم جميعا . الكثير منهم اسـتقروا فوق منطقة ورقة القيقب ، إلى شـمال ساق الورقـة ، وذلك في شـبه جزيرة تدعى آتيـكا . بنى هؤلاء بيوتهم علـى البحر وزرعوا كرْم العنب والحبوب وأشـجار الزيتون . أنشأ هؤلاء كذلك مدينة لتخليد الإلهة أثينا ، وهي التي كثيرا ما كانت تظهر لنجدة البحار يوليسـيس في الأناشـيد الهومرية . هذه المدينة هي أثينا .

ومثـل كل أعضـاء قبيلة الأيونيـين ، كان الأثينيون بحارة عظمـاء ، وبمرور الوقت تملكـوا عـددا من الجزر الصغيـرة ، تعرف منذ ذلـك الوقت بالجـزر الأيونية . لاحقا ، ذهب الأثينيون إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث أسسوا مدنا عبر البحار بعيدا عن بلاد الإغريق ، على الضفاف الخصبة لآسـيا الصغرى ، بخلجانها المتعددة الآمنة . وما كاد الفينيقيون يسـمعون بهذه المدن حتى سـافروا إليها للتجارة . سـيبيعهم الإغريق زيت الزيتون والحبوب ، وكذلك الفضة ومعادن أخرى وجدوها في هذه المناطق . ولكنهم سـرعان مـا تعلمـوا الكثير مـن الفينيقيين ، حتـى أنهم سـافروا كذلك إلى السـواحل البعيدة حيث أسسـوا قواعدهم الخاصة بهم ، أو المسـتعمرات كما نسميها اليوم . كما أخـذ الأثينيون من الفينيقيين طريقة الكتابة الرائعة باسـتخدام الحروف . سـترى كيف استفادوا من هذه الطريقة .

8

صراع غير متكافئ

«بينما ربطت الإمبراطوريات الشرقية العظيمة نفسها بقوة إلى تقاليدها وتعاليم أسلافها ، حتى إنهم بالكاد استطاعوا التحرك بعيدا عن ذلك ، اتجه الإغريق ، والأثينيون على وجه التحديد ، إلى ما هو عكس ذلك تماما»

المؤلف

حدث شيء غريب جدا بين سنتي 550 و500 ق .م . في الواقع أنا نفسي لا أفهمه ، ولكن ربما هذا الغموض هو ما يجعله غاية في الإثارة .
على سلسلة الجبال العليا التي تجري شمال منطقة بلاد الرافدين ، تعيش قبيلة برية جبلية منذ فترة طويلة . كان لديهم ديانة غاية في الجمال : كانوا يعبدون الضوء والشمس وآمنوا بأنهما في حرب مستمرة مع الظلام ، أي مع قوى الشر المظلمة .

كان هذا الشعب الجبلي هم الفرس . على مدى مئات السنوات كان يهيمن عليهم أولا الآشوريون ومن بعدهم البابليون . في أحد الأيام كانوا قد وصلوا إلى حد الاكتفاء من هذه السيطرة . كان حاكمهم رجلا ذا شجاعة وذكاء استثنائيين ، وكان اسمه سايروس ، والذي لم

يعد مستعدا لتحمل الظلم الذي يتعرض له شعبه . قاد سايروس فرقة من خيالته جنوبا إلـى سـهول بابل . تطلـع البابليون من عليـاء حصونهم وضحكوا علـى فرقة المقاتلين الصغيـرة التي تجرأت علـى مهاجمة مدينتهم . غير أنه ، وتحت قيادة سـايروس ، نجح هؤلاء المقاتلون في تحقيق هدفهم باستخدام الشـجاعة والدهـاء . وعليه ، فقد أصبح سـايروس سـيد هذه المملكة العظيمة . كانت أول أوامره هي إطلاق سـراح كل الناس الذين أسـرهم البابليون ، والذين كان من بينهم اليهود ، والذين عادوا إلى ديارهم في بيت المقدس (كان ذلك ، كما قد تتذكر ، في 538 ق . م) . لكن سايروس ، غير قانع بمملكته العظيمة ، توجه ليحتل مصر ، حيث وافته المنية في الطريق ، لينجح ابنه قمبيز من بعده في المهمة . سقطت مصر وتم خلع الفرعون . كانت تلك نهاية الإمبراطورية المصريـة ، والتي اسـتمرت لما يقرب مـن ثلاثة آلاف عام ! ومـع نهايتها ، أصبحت هذه القبيلة الفارسية الصغيرة سيدة كل العالم الذي يعرفه الناس تقريبا . ولكن ليس تماما ، فلم يكونوا قد سيطروا على بلاد الإغريق بعد ، كانت تلك هي الخطوة القادمة .

وقـد أتـت هذه الخطـوة بعد مـوت قمبيز ، خـلال فترة حكـم ملك عظيـم يدعى داريوش . حكم داريوش إمبراطورية الفرس الشاسـعة ، والتي امتدت حينها من مصر إلـى حدود الهند – إلى درجة أنه لم يكن لشـيء أن يحـدث في أي مكان في العالم إلا بأمر منه . عبّد داريوش الطرق حتى تنتقل أوامره بلا تأخير إلى أقصى بقاع مملكته . كان داريوش يتجسـس حتى على أهم موظفيـه ومزرباناته(*) عن طريق مخبرين معروفين بـ «عيون وآذان الملك» . ولقد بدأ هذا الملك وقتها بالتوسـع في مملكته امتدادا إلى آسـيا الصغرى والتي على سواحلها تقع مدن الأيونيين الإغريق .



(*) المزربان هو حاكم الولاية الفارسية .

لم يعتد الإغريق أن يكونوا جزءا من إمبراطورية عظيمة ، لها حاكم يرسل أوامره يعلم الله من أي موقع من قلب آسيا ، متوقعا الطاعة الفورية . كان العديد من الناس المقيمين في المستعمرات الإغريقية تجارا أغنياء ، معتادين إدارة شؤونهم بأنفسهم واتخاذ قراراتهم الخاصة بشأن إدارة مدنهم ، متحدة أو مستقلة . لم تكن لديهم أي رغبة في أن يحكمهم ملك فارسي ، ولم يكونوا ليدفعوا له أي ضريبة . لذا فقد ثاروا وطردوا الحكام الفرس .

ولقد ساندهم في توجههم هذا الإغريق في الوطن الأم ، وهم المؤسسون الأوائل لهذه المستعمرات ، وخصوصا الأثينيين الذين أرسلوا إليهم السفن . لم يسبق لملك فارس ، ملك الملوك - حيث كان ذلك لقبه - أن أهين بهذه الدرجة من قبل ، أن تتجرأ هذه القبيلة التافهة ، هؤلاء النكرات ، على تحديه ، هو حاكم العالم ! وعليه ، فقد تعامل مع هذه المدن الأيونية في آسيا الصغرى في أقل وقت من الزمن . إلا أنه لم ينته بعد . لقد كان شديد الغضب تجاه الأثينيين لتدخلهم في هذه الأحداث . لذا ، وبهدف تدمير أثينا والاستيلاء على بلاد الإغريق ، جهز الملك أسطولا ضخما . غير أن سفنه علقت في عاصفة عنيفة ، فارتطمت بالمنحدرات الصخرية وغرقت . عندها ، لم يعرف غضبه حدودا . تقول القصة إنه عين عبدا لينادي ثلاث مرات وعلى كل وجبة «سيدي ، تذكر الأثينيين !» لهذه الدرجة كان غضبه مشتعلا .

بعدها ، أرسل الملك زوج ابنته على رأس اسطول عظيم ليبحر ضد الأثينيين . ولقد أخضع هؤلاء المحاربون العديد من الجزر في طريقهم وحطموا العديد من المدن . وأخيرا ثبتوا مرساتهم ليس بعيدا عن أثينا ، في منطقة تسمى ماراثون . هنا ، ترجل كل الجيش الفارسي العظيم ، مستعدين للسير إلى أثينا . يقال إن عددهم وصل إلى سبعين ألف رجل ، بعدد كل سكان أثينا . لكن الجيش الأثيني ، وبعشرة آلاف جندي ، كان فقير العدد بنسبة سبعة إلى واحد . لقد كان مصيرهم محتوما . لكن ، ليس تماما ، فقد كان لدى الأثينيين قائد اسمه ميلتيادس ، رجل قادر شجاع ، عاش سنوات عدة بين الفرس ، وخبر خططهم الحربية . وفوق كل ذلك ، فقد كان كل الأثينيين يعلمون ما كان على المحك : حريتهم وأرواحهم ، وتلك لزوجاتهم وأطفالهم . لذا هناك ، في ماراثون ، كونوا فرقا ، وهاجموا الفرس المشدوهين . وقد كتب لهم الانتصار ، في حين عانى الفرس هزائم مريرة ، وعاد من بقي منهم إلى سفنهم وهربوا .

بمثل هذا الانتصار الذي أتى على الرغم من كل الصعاب، ما كان أحد غيره ليفكر إلا في الاحتفال، لكن ميلتيادس كان ذكيا كما كان شجاعا. فقد لاحظ أنه وعوضا عن الإبحار من حيث أتوا، اتجهت السفن الفارسية نحو أثينا، والتي بقيت من دون حماية ومعرضة تماما للهجوم. ولكن لعب الحظ لعبته حيث كانت المسافة من ماراثون إلى أثينا أطول بالبحر منها بالبر. فقد كان على السفن أن تتخطى في الماء مسافة كبيرة من اليابسة يسهل تخطيها مشيا. هذا الملتيادس فعل ذلك. أرسل رسولا قبله، وكان لا بد أن يهرول بأقصى ما لديه من قوة، ليحذر الأثينيين. ذلك هو العدْو الماراثوني الشهير الذي نسمي به سباقنا. شهيرا جدا كان هذا العدو لأن الرسول الذي أوصل الرسالة ركض لمسافة طويلة جدا وبسرعة فائقة جدا لدرجة أنِ كل ما استطاع عمله فور وصوله هو توصيل رسالته قبل أن يسقط ميتا.

في هذه الأثناء، اتبع ميلتيادس وجيشه المسار ذاته، سائرين بعجلة كبيرة. كان ذلك حسنا، إذ ما كادوا يصلون إلى ميناء أثينا حتى ظهر الأسطول الفارسي في الأفق. غير أنه لم يكن هناك أي قتال، فبرؤية عدوهم البطل، استدار الفرس المهزومون هاربين، مبحرين إلى ديارهم. ولم تكن أثينا وحدها التي تم إنقاذها، بل كل بلاد الإغريق كذلك، كان ذلك في 490 ق.م.

لا بد أن داريوش العظيم، ملك الملوك، قد سب ولعن عندما علم بالهزيمة في ماراثون! لكنه في الوقت ذاته، كان هناك أقل القليل الذي يستطيع عمله حول بلاد الإغريق، فقد حدثت ثورة في مصر وكان لا بد من قمعها. توفي داريوش بعد ذلك بفترة وجيزة تاركا ابنه وخليفته، زركسيس ليثأر من الإغريق مرة أخيرة وإلى الأبد.

لم يكن زركسيس، هذا الرجل الصلب الطموح، ليحتاج إلى أي تشجيع. فقد جهز جيشا من بين كل رعاياه في الإمبراطورية. في لباسهم التقليدي، محملين بأسلحتهم، أقواسهم وسهامهم، دروعهم وسيوفهم، رماحهم، عربات حربهم، وحبالهم، كون هؤلاء حشدا ضخما، يقول البعض إنه بلغ ما يزيد على المليون رجل. أي أمل كان للإغريق في وجه مثل هذا الحشد؟ هذه المرة تولى زركسيس القيادة بنفسه. ولكن عندما حاول الفرس تخطي العنق البحري الضيق الذي يفصل آسيا الصغرى عن المنطقة التي تدعى اسطنبول اليوم، وذلك على جسر من المراكب، فإن أمواجا عاتية أتت لتمزق هذا الجسر. في خضم غضبته الضارية، أمر زركسيس بجلد أمواج البحر بالسلاسل الحديدية، لكنني أشك في أن البحر لحِظ أي شيء من ذلك.

جـزء مـن هذا الجيش الضخم هاجم بلاد الإغريق بحرا ، بينما دخل جزؤه الآخر من اليابسة . في شمال بلاد الإغريق ، حاول جيش صغير من الإسبرطيين ، الذين تحالفوا مع الأثينيين ، صد تقدم الفرس عبر ممر ضيق اسـمه ثيرموبايلي . صرخ الفرس بالإسـبرطيين ليرموا بأسـلحتهم أرضا . «تعالوا وخذوها بأنفسكم !» كان الجواب . «لدينا ما يكفي من السهام هنا لنغطي عين الشمس !» هدد الفرس ، «هذا أفضل» صرخ الإسبرطيون ، «إذن سنحارب في الظل !» . غير أن إغريقيا خائنا دل الفرس على طريق عبر الجبال مكنهم من تطويق الجيش الإسـبرطي ومحاصرته . كل الثلاثمائة إسـبرطي والسبعمائة من حلفائهم قتلـوا فـي المعركة ، غير أن أحدا منهم لـم يحاول الهروب ، فهـذا كان قانونهم . لاحقا ، كتب شاعر إغريقي هذه الكلمات تخليدا لذكراهم :

اذهب وأخبر الإسبرطيين أيها العابر في هذا المكان ،

أننا طاعة لقانونهم نرقد هاهنا .

الآن ، لـم يخمـل الأثينيـون منذ نصرهـم المظفر في منطقـة ماراثون ، بل اسـتمروا في العمـل . ولقـد أصبح لديهم قائد جديد اسـمه ثميسـتوكليس ، رجل ذكـي وبعيد النظر ، حذر مواطنيه أن معجزة كمعجزة ماراثون يمكن أن تحدث مرة واحدة فقط ، وأنه كي تستمر أثينا في الوقوف في وجه الفرس ، فلا بد لها أن تمتلك أسطولا ، وعليه ، تم بناء الأسطول .

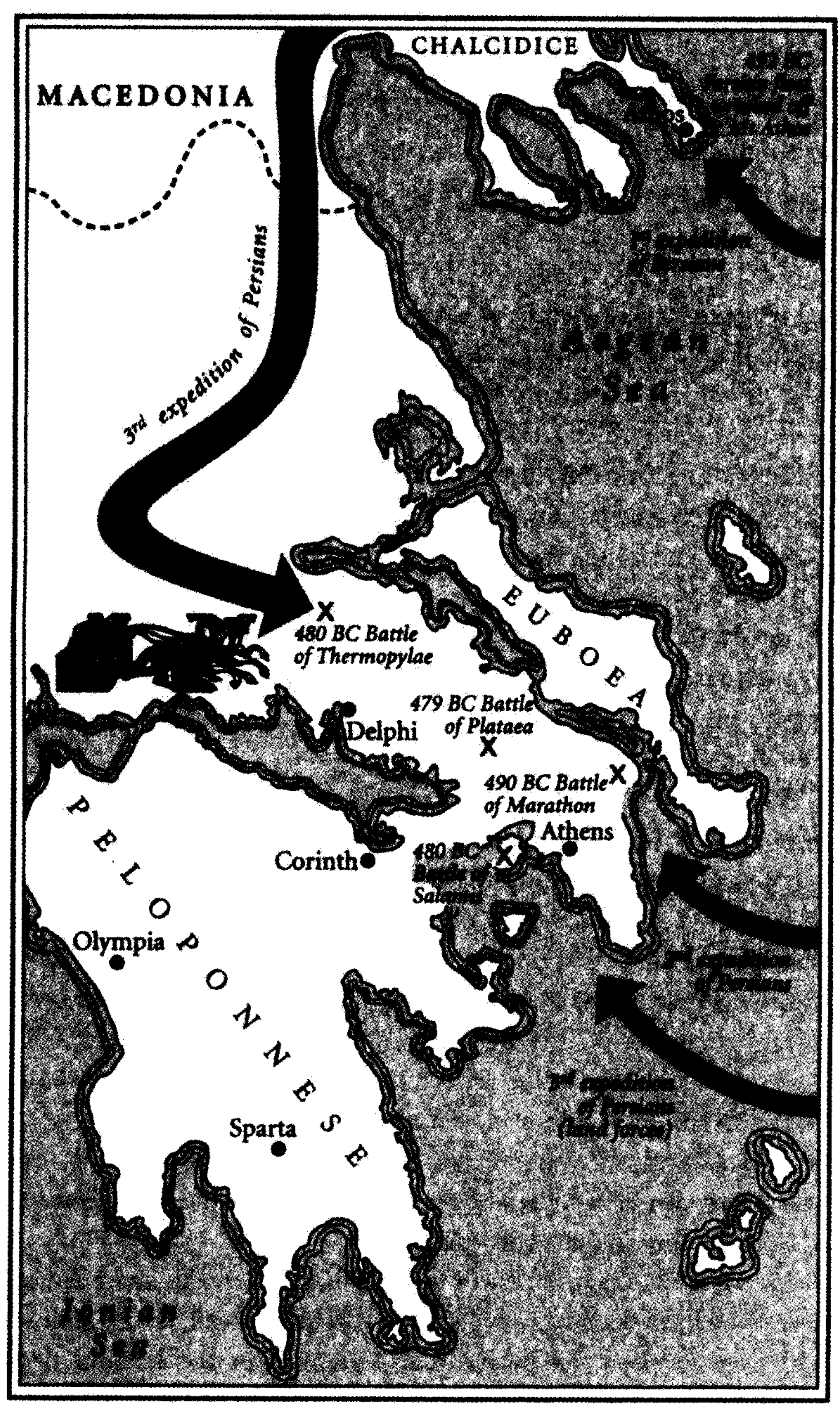
أخلى ثميسـتوكليس أثينا بأكملها - لم يكن التعداد ضخما في تلك الأيام على كل الأحوال - وأرسـل السـكان جميعهـم إلى جزيرة سـالاميس الصغيرة القريبـة . بعدها ، ركز الأسـطول الأثيني قواعده بجانب هذه الجزيرة . عندما وصل الجيش البري الفارسـي ووجد أثينا مهجورة خالية من سـكانها ، قامـوا بإضرام النار في المدينة ودمروها عن بكرة أبيها ، فيما بقي الأثينيون على جزيرتهم سـالمين وهم يشاهدون مدينتهم تحترق من بُعد . ولكن الآن ، ظهر الجيش الفارسي مهددا بمحاصرة سالاميس .

أصيب الحلفاء بالذعر الشـديد ، وعزموا على الالتحاق بسـفنهم تاركين الأثينيين لمصيرهم . في هذه اللحظة ، اسـتعرض ثميسـتوكليس براعته وجرأته الاستثنائيتين . فبعـد أن أقنـع الحلفـاء بعـدم المغادرة ، أرسـل رسـولا إلى زركسـيس قائـلا : «عجل وهاجـم ، وإلا هـرب منك حلفاء الأثينيين !» . زركسـيس ، الذي لا بد أنه سـمع من جواسيسه بعزم الحلفاء على المغادرة ، وقع في الفخ . فقد أمر بالهجوم في صباح اليوم

التالـي بسـفنه الحربية المتعددة الخفيفـة والصغيرة الحجم . وقد خسـر المعركة . كانت السـفن الإغريقية أكبر حجما وأسـهل انقيادا ، والأهم من ذلـك أنهم ، ولمرة أخرى ، كانـوا يحاربون بـكل طاقتهم من أجل حريتهم . ليس هذا فقط ، بل إن انتصارهم في ماراثون منذ عشر سنوات مضت أسبغ عليهم الكثير من الثقة . ومن موقع قوته ، أجبر زركسـيس على المشاهدة بينما تهاجم السـفن الإغريقية الثقيلة سفنه الخفيفة الصغيرة وتُغرقها . أمر زركسـيس جيشـه بالتراجع مذعورا . وعليه ، انتصر الأثينيون ، وللمرة الثانية على التوالي ، وذلك على جيش أعظم من سابقه . كان ذلك في 480 ق . م .

Macedonia	مقدونيا
Chalcidice	خلقيدية
Athos	آثوس
Persion Fleel wrecked	تحطم الأسطول الفارسي على جبل أثوس 492 ق . م
1st expedition of Persians	الحملة الفارسية الأولى
Agean Sea	بحر إيجة
Euboea	يوبويا
Battle of Thermopylae	معركة ثيرموبيلاي 480 ق . م
Battle of Platoea	معركة بلاتايا 479 ق . م
Bottle of Marothan	معركة ماراثون 490 ق . م
Delphi	دلفي
Athens	أثينا
Battle of Salamis	معركة سالاميس
Corinth	كورينث
Olympia	أولمبيا
Sparta	إسبرطة
Ionian Sea	البحر الأيوني
Peloponnesse	بيلوبونيز

مفتاح الخريطة المقابلة



معارك الفرس في بلاد الإغريق

بعدها بوقت قصير، في 479 ق . م، هزمت قوات الإغريق وحلفائهم جيش الفرس البـري بالقـرب من بلاتايا . بعد هـذه الواقعة، لم يتجرأ الفرس مجـددا على الهجوم على الإغريق . وقد كانت هذه الوقائع مثيرة للاهتمام، فلم يكن الفرس أضعف أو أقل ذكاء من الإغريـق، بل العكـس تماما . ولكن الإغريق، كما ذكرت سـابقا، كانوا مختلفين . فبينما ربطـت الإمبراطوريات الشـرقية العظيمة نفسـها بقوة إلـى تقاليدها وتعاليم أسـلافها حتى أنهـم بالكاد اسـتطاعوا التحرك بعيدا عن كل ذلـك، اتجه الإغريـق، والأثينيون على وجه التحديد، إلى ما هو عكس ذلك تماما . كل سـنة تقريبا كانوا يأتون بجديد . كانت الأشـياء تتغير باسـتمرار . والتوجه ذاته كان ينطبق على قادتهم . فالأبطال العظماء في الحرب ضد الفرس، ميلتيادس وثميستوكليس، تعلموا هذا الدرس الباهظ الثمن : في لحظة هو مديح وشـرف وتماثيل تخلـد إنجازاتهم، وفي اللحظة التي تليها هي اتهامات وتشـهير ونفي . لم تكن تلك أفضل صفات الأثينيين، غير أنها كانت جزءا من طبيعتهم . دائما يجربون أفكارا جديـدة، لا يقنعـون أبـدا، لا يهدأون مطلقا . هذا يفسـر لماذا خلال المائة سـنة التي لحقت الحروب الفارسـية، ظهرت أفكار متجددة في عقول شعب أثينا الصغير هذا، أكثر من كل تلك التي مرت بعقول كل شـعوب الإمبراطوريات العظيمة في الشـرق وعلى مدى الألف عـام السـابقة . الأفكار، الرسـم، النحـت والمعمار، المسـرحيات والشـعر، الاختراعات والتجارب، النقاشـات والجدل الذي كان الجيل الجديد يسـتحضره في الأسـواق، والجيل القـديم يجلبـه إلى قاعات المجالـس، كل تلك لاتـزال تعنينا وتهمنا إلى اليـوم . غريب أن يكـون الوضـع كذلـك، لكنه بالفعل كذلـك . وكيف كان سـيكون الوضع لـو أن الفرس انتصروا في ماراثون أو في سالاميس، عشر سنوات بعدها؟ ذلك ما لا يمكنني التنبؤ به .

9

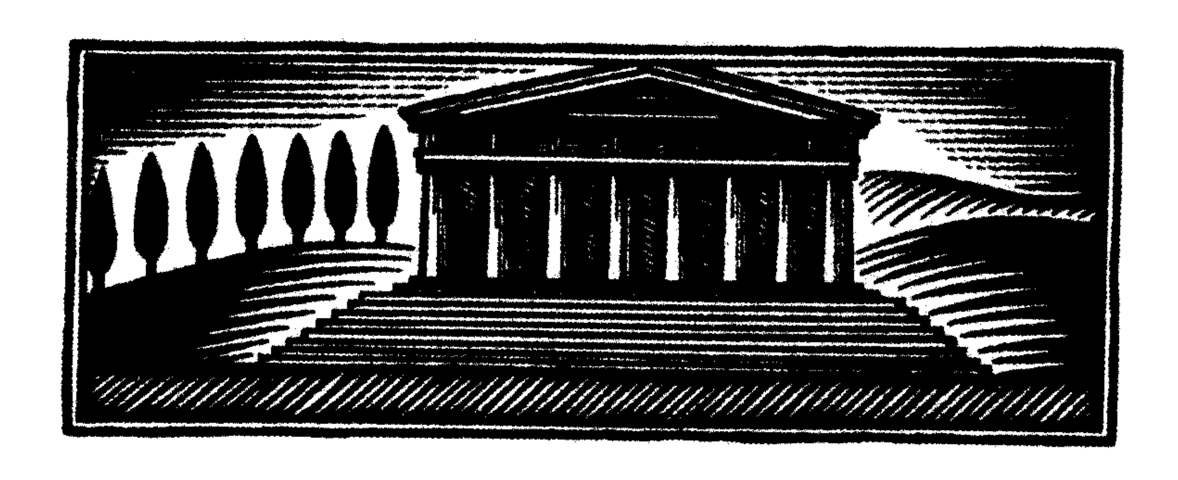
مدينتان صغيرتان على أرض صغيرة

«عندما تنظر إلى أعمال الفنانين الإغريق وتشاهد كم هي متجددة وبسيطة ورائعة الجمال، يبدو لك وكأن صناع هذا الفن كانوا يرون العالم لأول مرة»

المؤلف

كما ذكرت سابقا، لم تكن بلاد الإغريق، مقارنة بالإمبراطورية الفارسية، أكثر من شبه جزيرة صغيرة، بمدن صغيرة متناثرة هنا وهناك تضم تجارا نشطاء، تتميز بسلسلة جبال قاحلة، وحقول صخرية، تستطيع فقط تحمل حفنة من الناس. وكما قد تتذكر، ينتمي الإغريق لعدد من القبائل، أهمها الدوريون في الجنوب والأيونيون والأيوليون في الشمال. اختلفت هذه القبائل قليلا بعضها عن بعض، إما في المظهر وإما في اللغة. كانوا يتحدثون لهجات مختلفة، كانوا جميعا يفهمونها إذا ما أرادوا ذلك. غير أنهم نادرا ما كانوا يرغبون في هذا التفاهم، إذ غالبا ما كانت هذه القبائل المتجاورة وذات القرابة غير قادرة على التعايش معا.

كانـوا يقضون كل وقتهم في تبادل الإهانات والسـخرية ، بينما هم في الواقع يغارون بعضهم من بعض . فلم يكن لبلاد الإغريق ملك واحد أو إدارة مشـتركة ، عوضا عن ذلك ، كانت كل مدينة مملكة قائمة بذاتها .



شيء واحد نجح في توحيد الإغريق : دينهم ورياضتهم . أقول «شيء واحد» ، لأنـه – ويـا للغرابة – لم يكن الدين والرياضة شـيئين منفصلين ، بل كانا مترابطين بقـوة . فعلى سـبيل المثال ، تكريمـا للإله زيوس ، أبـي الآلهة جميعـا ، كانت تقام مسـابقات رياضية عظيمة كل أربع سنوات في معبده في أولمبيا . إضافة إلى المعابد الضخمـة ، كان هناك ملعـب في أولمبيـا ، وكل الإغريق ، الدوريـين ، الأيونيين ، الإسـبرطيين والأثينيـين ، كانـوا يحضـرون ليظهـروا مهاراتهـم في الجـري ، رمي القرص والرمح ، القتال بالأيادي ، والتسـابق بالعربـات . كان الانتصار في أولمبيا هـو أعظم شـرف في حياة الرجل . لـم تكن الجائزة أكثر من إكليل بسـيط مصنوع من أغصان الزيتون البري ، ولكن يا لها من سـمعة عظيمة للفائزين : يتغنى أعظم الشـعراء بمآثرهـم ، وينقـش أعظم النحاتـين تماثيلهم لتقـف في أولمبيـا إلى الأبد . كانت هذه التماثيل تظهرهم في عرباتهم ، وهـم يقذفون القرص أو وهـم يمسـدون أجسـادهم بالزيـوت قبـل القتـال . لايزال بالإمـكان رؤية مثـل تماثيـل النصر هذه اليوم ، قد يكون أحدها موجودا في متحفك المحلي .

وبما أن الألعاب الأولمبية كانت تقام مرة كل أربع سـنوات ، وكان يحضرها كل الإغريـق ، فإنها وفرت للجميع طريقة مناسـبة لقياس الوقـت . تدريجيا ، تم تبني

هـذه الطريقـة في كل بلاد الإغريـق . وكما نقول نحن BC والتـي تعني «قبل مولد المسيح» ، أو AD والتي تعني بعد ميلاد المسيح (Anno Domini تعني سنة المسيح باللاتينيـة) ، فإن الإغريق كانـوا يقولون : «في هذا الوقـت أو ذاك الأولمبي» . أولى الألعاب الأولمبية كانت في 776 ق . م . هل يمكنك أن تحسـب متى كانت الألعاب الأولمبية العاشرة؟ لا تنسى ! الألعاب الأولمبية كانت تقع مرة كل أربع سنوات فقط .

لـم تكـن فقط الألعاب الأولمبيـة التي كانت تجمع الإغريـق جميعا . كان هناك محراب آخر اعتبره الجميع مقدسـا . كان ذلك في دلفي ، الذي هو لإله الشـمس أبولو ، وكان هناك شيء غريب حوله . فكما يحدث في بعض الأحيان في المناطق البركانية ، كانت هناك فجوة في الأرض تسـرب البخار . فإذا ما استنشـق أحدهم هـذا البخـار ، كان فعليا يغيـب عقله . فكل من يستنشـق هذا البخـار يصبح ثملا مخدرا ، لا يفهم منه أي قول مطلقا .

لم يدرك الإغريق السبب ، ويدا الأمر لهم شديد الغموض ، ولكنهم نسبوه فـي النهايـة إلى الإله ، وأكدوا أنه «يتحدث بنفسـه بلسـان البشـر» . لـذا فإنهم أجلسـوا كاهنة - تدعى بايثيـا - فوق الفجوة وعلى مقعـد ثلاثي الأرجل بينما يحـاول كهنة آخرون تفسـير ثرثرتهـا على أنها نبـوءات للمسـتقبل . كان المزار يعرف باسم المتنبئة الدلفية ، وفي الأوقات الصعبة من حيواتهـم ، كان الإغريق ، من جميع أنحاء البلد ، يحجون إلى دلفي لاستشارة الإله أبولو . كانت الإجابة التـي يحصلون عليها عادة أبعد ما تكون عـن الوضوح ويمكن فهمها على أكثر مـن معنى . فـي الواقـع مازلنا ندعو الجواب الغامـض أو المبهم بـ Oracular(*) أو المعجزة .

الآن ، دعنـا ننظـر مـن قرب إلـى أهـم مدينتـين إغريقيتـين : إسـبرطة وأثينا . نحـن نعرف معلومـات مقدما عن الإسـبرطيين : هم في الأصـل دوريون والذين عنـد وصولهـم إلى بـلاد الإغريق فـي 1100 ق . م ، اسـتعبدوا السـكان الأوليين وأجبروهـم علـى العمل فـي الأرض . غير أن عـدد العبيد تجاوز عدد أسـيادهم ، فـكان أن فـرض خطر الثورة علـى الإسـبرطيين أن يكونوا دائمي الحذر خشـية أن

(*) هذه الكلمة تعني «النبوئي» وهي مشتقة من كلمة oracle أو المتنبئة [المترجمة] .

يجدوا أنفسهم بلا مأوى مجددا . كان لديهم هدف واحد في الحياة : أن يصبحوا مقاتلين لائقين ، مستعدين دوما لتحطيم أي ثورة يقوم بها عبيدهم ، وأن يحموا أنفسهم من الشعوب المحيطة التي لاتزال حرة .

وبالفعل ، لم يفكر الإسبرطيون في أي شيء آخر . فقد حرص حاكمهم ، ليكورغوس ، على تأمين ذلك . فالطفل الإسبرطي الذي كان يبدو ضعيفا وغير متوقع أن يكبر ليصبح محاربا كان يقتل فور ولادته . أما الطفل القوي فكان يجب أن يصبح أكثر قوة ، فمن سن مبكرة ، كان يجب عليه أن يتمرن من الفجر وحتى المساء ، أن يتدرب على تحمل الألم ، الجوع والبرد ، أن يأكل القليل ويحرم من كل المتع . كان الأولاد يضربون فقط ليقوى تحملهم للألم . التربية القاسية لاتزال تسمى «إسبرطية» اليوم ، وكما تعرف ، فقد كانت ناجعة : ففي ثيرموبيلاي ، في 480 ق . م ، وطاعة لقوانينهم ، سمح الإسبرطيون لأنفسهم بأن يذبحوا على أيدي الفرس . أن تعرف كيف تموت بهذه الطريقة ، ذلك ليس سهلا . ولكن أن تعرف كيف تعيش ، ربما يكون ذلك أصعب . وهذا ما عزم الأثينيون على فعله . لم يكن الأثينيون يتطلعون إلى حياة سهلة مريحة ، ولكن لحياة ذات معنى ، حياة يبقى منها شيء بعد وفاة صاحبها ، شيء ذو فائدة لمن سيأتي بعدهم . ولسوف ترى كيف نجحوا في تحقيق ذلك .

لو لم يعش الإسبرطيون في خوف دائم - خوف من عبيدهم - لما أصبحوا خبراء حرب شجعانا . أما الأثينيون فلم تكن لديهم الأسباب ذاتها للخوف ولم يعيشوا تحت الضغوط نفسها . كانت الظروف مختلفة بالنسبة إليهم على الرغم من أن نبلاءهم ، كما في إسبرطة ، والذين حكموا أثينا في يوم ما ، فرضوا قوانين قاسية كان قد وضعها أثيني يدعى دراكو . (كانت هذه القوانين غاية في الصرامة حتى إن الناس لايزالون يتحدثون عن القسوة «الدراكونية») . غير أن أهل أثينا ، الذين جالوا البحار في سفنهم ، ورأوا وسمعوا أشياء كثيرة مختلفة ، لم يذعنوا لهذه القوانين طويلا .

لقد كان في الواقع رجل من النبلاء هذا الذي كانت لديه الحكمة ليحاول أن يقدم لهذه الدولة الصغيرة نظاما حكوميا جديدا . كان اسمه سولون ، حيث سميت القوانين التي قدمها في 594 ق . م - في زمن نبوخذنصر - على اسمه . نصت هذه القوانين على أن الشعب ، أي سكان المدينة ، يجب أن يقرروا شؤون

مدينتهم بأنفسهم . كان عليهم أن يجتمعوا في سوق مدينة أثينا ويصوتوا . كان على الأغلبية أن تقرر وأن تنتخب مجلسا من الخبراء ليضع القرارات في حيز التنفيذ . هذا النوع من الحكم كان يسمى الديموقراطية ، أو «حكم الشعب» بالإغريقية . لم يكن ذلك ليعني أن كل من عاش في أثينا كان له حق التصويت في المجلس . كانت المواطنة تعتمد على الثراء والسلطة ، والعديد من الناس ، بمن فيهم النساء والعبيد ، لم يؤدوا أي دور في تشكيل الحكم . غير أنه كان للكثير من الأثينيين رأي على الأقل ، وعليه فقد اهتموا بطريقة إدارة مدينتهم . «Polis» بالإغريقية تعني مدينة ، وpolitics(*) تعني شؤون المدينة .

لمدة من الزمن حاول النبلاء تقديم الخدمات إلى الناس ، ليفوزوا بأصواتهم ويصلوا إلى مراكز صنع القرار . حكام كهؤلاء كانوا يسمون بالطغاة tyrants . لكن الناس سرعان ما طردوهم واتخذوا احتياطاتهم ليضمنوا أنهم هم بأنفسهم من يحكم مدينتهم في المرات المقبلة . لقد أخبرتك مقدما بالطبيعة المشاكسة للأثينيين . فكان خوفهم هذا ، موصولا بخوف حقيقي من فقدان حريتهم مجددا ، هو الذي دفعهم إلى نفي أي سياسي ترتفع شعبيته ، خشية أن يستولي على الحكم لنفسه ويصبح طاغية . الأثينيون الأحرار الذين هزموا الفرس ، هم أنفسهم من عاملوا لاحقا ميلتيادس وثميستوكليس بالجحود والنكران .

غير أنه كان هناك سياسي أوحد تفادى مثل هذا المصير . كان اسمه بيركليس . عندما كان يتحدث في المجلس ، كان الأثينيون دوما يعتقدون أنهم هم من يصنع القرارات ، بينما في الواقع كان بيركليس قد عقد العزم عليها ومنذ زمن طويل . لم يكن ذلك لأنه تحصل على منصب خاص أو امتلك سلطة استثنائية ، لقد كان ببساطة الأكثر حكمة وذكاء . وعليه ، فقد شق طريقه صعودا بالتدريج حتى ، بحلول عام 444 ق . م ، كان ذلك هو الزمن الذي يمثله ، أصبح هو ، في الواقع ، حاكم المدينة الأوحد . كان هم بيركليس الأول هو أن تحتفظ أثينا بقوتها في البحر ، وقد تم له ذلك عن طريق تحالفات مع مدن أيونية أخرى كانت تدفع المال لأثينا لقاء حمايتها . بهذه الطريقة ، ازداد ثراء الأثينيين وأصبح بإمكانهم استعراض مواهبهم العظيمة .

(*) هذه الكلمة اليوم تعني السياسة بالإنجليزية [المترجمة] .

والآن أستطيع أن أسمعك تتساءل : «ولكن ما الذي فعلوه تحديدا وكان عظيما لهذا الحد؟» وكل ما يمكنني قوله هو «كل شيء» . غير أن شيئين استحوذا على معظم اهتمامهم إلا وهما الحقيقة والجمال .

مجالس الأثينيين علمتهم كيف يناقشون كل أمورهم بصراحة ، وذلك باستعراض الحجج وضدها . كان ذلك تدريبا جيدا لهم على التفكير ، فسرعان ما بدأوا باستخدام البراهين وضدها ، ليس فقط في نقاشاتهم حول أمورهم الحياتية كمسألة رفع الضرائب من عدمها ، ولكن حتى في نقاشاتهم حول طبيعة الحياة . قد يكون الأيونيون المقيمون في المستعمرات سباقين في هذا المجال ، فقد تفكروا مسبقا ومليا حول المادة التي صنع منها العالم ، وما قد يكون المتسبب في كل أحداث وتجارب الحياة .

هذا النوع من التأمل هو ما نسميه الفلسفة . غير أنه في أثينا ، وصل التأمل أو التفلسف إلى درجات أبعد . فقد أرادوا كذلك معرفة السلوك الصحيح للناس ، ما هو الخير والشر ، وما هو العدل والظلم . أرادوا إيجاد تفسير للوجود الإنساني واكتشاف أصل كل الأشياء . بالطبع ، لم يتفقوا جميعا حول أمور بهذه الدرجة من التعقيد ، كان هناك عدد كبير من النظريات والآراء التي تبادلوا الجدل حولها ، كما كان الوضع في مجلس الشعب . ومنذ ذلك الوقت ، لم يتوقف هذا النوع من التأمل والجدل المنطقي الذي نسميه الفلسفة مطلقا .

لكن الأثينيين لم يجوبوا أروقتهم وساحات رياضتهم متحدثين فقط عن أمور مثل أصل الحياة ، وكيف نتعرف عليها ومن أين أتينا . لم يتخيل الأثينيون العالم بطريقة جديدة في عقولهم فقط ، ولكنهم نظروا إلى الحياة بعيون جديدة كذلك . عندما تنظر لأعمال الفنانين الإغريق وتشاهد كم هي متجددة ، وبسيطة ورائعة الجمال ، لبدا لك وكأن صناع هذا الفن كانوا يرون العالم لأول مرة . لقد تحدثنا عن تماثيل أبطال الألعاب الأولمبية سابقا ، والتي تمثل بشر في صور غاية في الروعة ، من دون تكلف ، حيث يبدون وكأنهم في مواضع طبيعية تماما . ولأنهم يبدون طبيعيين جدا ، فإنهم يظهرون غاية في الجمال كذلك .

صور الإغريق آلهتهم بالدرجة ذاتها من الجمال والإنسانية . كان أشهر نحات لمثل هذه التماثيل هو فيدياس . لم يصنع فيدياس أعمالا غامضة وخارقة كما هي

التماثيـل الضخمـة في المعابد المصريـة . فعلى الرغم من أن بعـض تماثيله التي في المعابد كانت كبيرة وباهرة ومصنوعة من مواد ثمينة كالذهب والعاج ، فإن جمالها لـم يكن باهتا ، بل كان لها سـمو طبيعي ونبيل لا بـد أنه أوعز بالثقة في الآلهة التي كانـت تمثلهـا هـذه التماثيل ، وذات الشـيء يمكـن أن يقال حول الرسـم والعمارة الأثينيين . لكن شـيئا لم يبق من الصور التي رسموها على حوائط قاعاتهم وغرف مجالسـهم . كل ما لدينا الآن هو عبارة عن رسـومات صغيـرة على الفخار وعلى المزهريات والجرار . جمال هذه الأعمال يخبرنا عن قيمة ما فقدنا .

غيـر أن هـذه المعابد لاتزال قائمة ، حتى تلك الموجـودة في أثينا . أجمل ما في الموضـوع أن قلعـة أثينـا ، الأكروبوليس ، لاتـزال موجودة ، حيث شُـيدت معابد رخاميـة جديدة في زمن بيركليس ، ذلك أن القديم منهـا احترق ودُمر على أيدي الفـرس بينمـا كان الأثينيون ينظرون من جزيرة سـالاميس . لاتـزال الأكروبوليس تضـم أجمـل المبانـي التـي نعرفها ، ليـس الأضخـم ، ولا الأكثر فخامة ، ببسـاطة فقـط الأجمـل . كل تفصيل هو غاية في الوضوح والبسـاطة ، حتـى أنها لا يمكننا تخيلهـا علـى غيـر ما هـي عليـه . كل القوالب التي اسـتخدمها الإغريـق في هذه المباني ستسـتخدم مرة تلو الأخرى في المعمار عموما . ستجد العواميد الإغريقية ، والتـي توجد أنـواع مختلفة منها ، تقريبا في كل مدينة من مـدن العالـم ما أن تتعلم كيـف تميزهـا ، غير أن أحدهـا لا يصل لجمال تلـك الموجودة فـي الأكروبوليس ، حيث تستخدم تلك الأعمدة ليس للعرض والتزيين ولكن من أجل الغرض الذي شيدت من أجله : كدعامة أنيقة للسقف .

هـذا وقـد اندمجت الحكمة فـي التفكير مع جمال المظهر علـى أيدي الأثينيين في نوع ثالث من الفن : فن الشـعر . وحتى في هذا المجال ، اخترع الأثينيون شـيئا جديـدا : المسـرح . ارتبط مسـرحهم ، كما رياضتهـم ، في ذلك الزمـن بدينهم ، حيث كانوا يقيمون المهرجانات تكريما لإلههم دايونيسـيس (والذي يعرف كذلك بالإلـه باخـوس) . كانوا يقدمون عرضا مسـرحيا في يوم عيد هـذا الإله والذي قد يسـتمر طوال اليوم . كان العـرض يقام في الهواء الطلـق ، وكان الممثلون يرتدون أقنعـة ضخمـة وكعوبا عالية حتى يتمكـن الجمهور من رؤيتهم من بعد بسـهولة . لاتـزال لدينا بعض من مسـرحياتهم التي مثلوها ، بعضهـا جادة ، عميقة ومهيبة ،

تلك كانت تدعى التراجيديا . ولكن كانت هناك عروض أخرى تعتمد على سرعة البداهة والذكاء والحيوية ، تلك كانت تسخر من مواطنين أثينيين معينين ، وكانت تدعى الكوميديا . يمكنني أن أخبرك الكثير عن الأثينيين ، مؤرخيهم وأطبائهم ، ومطربيهم ، ومفكريهم وفنانيهم ، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل لو أنك اكتشفتهم بنفسك في يوم ما . حينها ، سوف تتأكد أنني لم أكن أبالغ .

10

المستنير وأرضه

«من يتوقف عن تمني الأشياء ، فسيتوقف عن الشعور بالتعاسة . إذا ذهبت الشهية ، فسيذهب الألم معها» .

المؤلف

والآن ، دعنا نذهب إلى الطرف الآخر من العالم ، إلى الهند ومنها إلى الصين ، حتى نستطيع التعرف على ما كان يدور في هذه الأراضي الشاسعة في زمن نحو الفارسية . كان للهند ، كما كان لبلاد الرافدين ، حضارة أثرية قديمة جدا . وتقريبا ، في ذات الوقت الذي كان السومريون يهيمنون فيه على مدينة أور ، ذلك في نحو 2500 ق . م ، كانت هناك مدينة عظيمة قائمة في وادي السند (السند هو نهر عظيم يتدفق عبر المنطقة التي تسمى بباكستان اليوم) . كانت هناك طرق ممتازة لتصريف المجاري ، قنوات مائية ، بيوت حبوب وورش عمل فيها ، حيث كانت هذه المدينة تسمى موهينجو دارو ، والتي لم يكن أحد يحلم حتى بوجودها ، وذلك لحين اكتشافها عشرينيات القرن العشرين . عندما تم التنقيب فيها ، ظهرت أشياء

بالروعـة ذاتهـا للأشـياء التي ظهرت فـي ركام مدينـة أور . وبالرغم من أننـا بالكاد نعرف شـيئا عن الأشخاص الذين بنوا مدينة موهينجو دارو ، فإننا نعرف أن أناسا آخرين هاجروا إلى المنطقة بعد بنائها بمدة طويلة ، وأن هؤلاء هـم أسـلاف الشـعب الذي يعيش في شـمال الهند وباكسـتان اليـوم . تحدث هؤلاء الناس بلغة مشـابهة ليس فقط لتلـك التي يتحدث بهـا الفرس والإغريق ، ولكن كذلك لتلك التي يتحدث بها الرومانيون والتيوتونيون(*) . مثـال على ذلـك : كلمة father (أب) : في الهندية القديمة هـي pitar ، في الإغريقية هي patèr ، في اللاتينية هي páter .



ولأن الهنود والأوروبيين يتحدثون هذه اللغات ، فإنها تعرف بعائلة اللغات الأوروبية الهنديـة . غيـر أننا لا نعرف يقينا ما إذا كان تشـابه هذه اللغات قد يعني أن هذه الشـعوب التي تتحدث بها هي في الواقع ذات قرابة بعيدة . وعلى كل الأحوال ، فإن الشعوب التي تتحدث اللغات الأوروبية الهندية كانت قد قامت باحتلال الهند تماما كما فعل الدوريون ببلاد الإغريق ، وقد يكونون استعبدوا السكان الأصليين تماما كما فعل الدوريون .

مـع الوقـت ، تم إخضـاع معظم القارة علـى أيدي سـلالات هؤلاء الغـزاة ، والذين حافظـوا ، تماما كما فعل الإسـبرطيون ، على مسـافة بينهم وبين الشـعب الذي احتلوه . تظهـر آثـار هذا التقسـيم إلى اليـوم متمثلة بما يعـرف «بنظـام الطبقات» . في هـذا النظام تُفصـل المهـن والمواقع بصرامة بعضها عن بعض ، فالرجـال المحاربون ، كان لا بد أن يبقوا محاربـين ، وكان يجـب على أبنائهم أن يكونوا محاربين كذلـك ، فتلك هي الطبقة التي ينتمـون اليهـا : طبقة المحاربين . كانـت هناك طبقات أخـرى منغلقة بالصـورة ذاتها على نفسـها مثـل طبقة المزارعين والحرفيين . فالمـزارع لا يمكن أن يصبح حرفيـا ، أو الحرفي أن

(*) التيوتونيون هم سكان جرمانيا الشمالية [المترجمة] .

يصبح مزارعا ، ولا يمكن ذلك لأبنائهم أيضا . والشخص الذي ينتمي إلى طبقة معينة لا يمكنه الزواج من فتاة من طبقة أخرى ، بل لا يمكنه حتى أن يتشارك بوجبة مع عضو طبقة أخرى .

كان الكهنة ، أو البراهمانيون ، في أعلى هذه الطبقات ، بدرجة أعلى من المحاربين كذلك . كانت مهمتهم تقديم القرابين للآلهة ورعاية المعابد ، وكما في مصر ، كانوا مسؤولين عن المعرفة المقدسة . كان عليهم أن يتعلموا كل الأناشيد والصلوات عن ظهر قلب حتى يتم حفظها ونقلها للأجيال اللاحقة من دون تغيير . وقد استمروا في ذلك أكثر من ألف سنة حتى تم توثيق هذه النصوص كتابة أخيرا .

كان هناك جزء صغير جدا من الشعب مستبعد من كل الطبقات . كان هؤلاء هم المنبوذون – وهم الأشخاص الذين توكل إليهم أقذر المهمات وأكثرها بشاعة . لم يكن مقدور حتى الأشخاص من أقل الطبقات الاختلاط بهم – حيث كانوا يعتقدون أن مجرد ملامستهم كانت تسبب النجاسة . لذا ، كان هؤلاء يعرفون بـ «المحظورين» . لم يكن مسموحا لهؤلاء المنبوذين بأن يجلبوا المياه من الجداول ذاتها التي كان الهنود الآخرون يستخدمونها ، وكان عليهم أن يحذروا من أن يمس ظلهم أي شخص آخر ، لأنه حتى ذلك كان يُعتقد أنه يسبب النجاسة . أحيانا يكون البشر غاية في القسوة .

لكن من الخطأ القول بأن الهنود كانوا شعبا قاسيا . على العكس تماما ، كان كهنتهم مفكرين جادين عميقي النظرة ، وكثيرا ما كانوا ينعزلون في الغابات ليتأملوا ، وحيدين ومن دون أي تشويش ، في أكثر الأسئلة صعوبة . تأمل الكهنة وتفكروا حول آلهتهم القوية ، وحول البراهما ، ذلك السمو الرفيع ، أعظم قدسية على الإطلاق . لقد كانوا يستشعرون أنفاس هذا الوجود الأعلى في كل العالم الطبيعي – في الآلهة كما في البشر ، وفي كل حيوان ونبات . لقد شعروا بفاعليته في كل شيء : في شروق الشمس وفي نمو المحاصيل ، في التطور وفي الموت . لقد كان في كل مكان ، تماما كما أن ذرة ملح موضوعة في الماء تجعله كله مالحا إلى آخر قطرة . في كل تنوعات الطبيعة ، في كل دوراتها وتحولاتها ، نحن فقط نرى المظهر الخارجي . فالروح قد تسكن في جسد إنسان وبعد موته في جسد نمر ، أو أفعى الكوبرا ، أو أي كائن حي آخر ، حيث تنتهي هذه الدورة فقط عندما تصبح الروح على درجة من النقاء تمكنها من التوحد مع هذا الوجود الأعلى . فأنفاس البراهما المقدسة هي جوهر كل الأشياء . لمساعدة تلاميذهم على فهم هذا الوجود ، كان للكهنة الهنود صيغة رائعة يمكنك أن تقلبها في عقلك . كل ما قالوه

هو «إنه أنت» . وهم بذلك يعنون أن كل شـيء حولك ، كل الحيوانات والنباتات والبشر أمثالك ، هم جميعا ، وأنت معهم ، جزء من أنفاس الإله .

ولقد اخترع الكهنة وسـيلة رائعة للشعور بكل هذه الوحدة المتعانقة . كانوا يجلسون فـي مـكان الغابـات الهنديـة القديمـة ليتفكـروا فـي الموضـوع ، ولا شـيء آخـر ، وذلك لسـاعات ، أيام ، أسـابيع ، شـهور وسـنوات . كانوا يجلسـون على الأرض ، في وضع عمـودي سـاكن ، أرجلهم متقاطعـة وأعينهم مخفضة . كانوا يتنفسـون بأقـل قدر ممكن ويأكلـون بأقل قـدر ممكن ، في الواقع ، البعـض منهم كان يمعن في تعذيب نفسـه بطرق خاصة ليخلصها من شرورها ويساعدها على استشعار الأنفاس المقدسة في داخله .

الرجال المقدسـون كهـؤلاء التوابين والرهبان كانـوا مألوفين ومعروفين فـي الهند منذ ثلاثة آلاف سنة مضت ، ولايزال هناك العديد منهم اليوم . غير أن أحدهم كان مختلفا عن كل البقية . كان هذا الرجل نبيلا يدعى غوتاما ، وقد عاش في نحو خمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح .

تقول القصة إن غوتاما ، والذي دعوه لاحقا «المسـتنير» أو «بوذا» ، قد نشـأ في رفاهية وفخامـة شـرقيتين . يقـال إنـه كانـت لديه ثلاثـة قصور لـم يكـن ليغادرها أبـدا ، أحدها للصيف والآخر للشتاء وأخيرها للفصل الماطر ، وإن هذه القصور كانت دوما تعزف فيها الموسـيقى الرائعة . لم يكن والده ليسـمح له بمغادرة منطقتهم الفاخرة لأنه أراد أن يحمي ابنه من كل الأسـى الموجود في العالم ، كما لم يكن يُسـمح مطلقا لأي إنسـان مريض أو تعيـس بالاقتراب منه . غير أنـه ، في أحد الأيام ، أمر غوتاما بإعداد مركبته للخروج . في الطريق ، وقع نظره على رجل محني الظهر بسـنوات عمره ، فسـأل غوتاما سائقه عما قد يكون هذا . كان السـائق مجبورا على أن يشـرح له أن هذا هـو رجل عجوز . عاد غوتاما إلـى قصره محملا بالأفكار العميقة . في مناسـبة أخرى ، رأى شـخصا مريضا . لم يكن أحد قد أخبره عن المرض ، فعاد لزوجته وابنه الصغير وهو غارق في تأملاته العميقة . في ثالـث مرة خرج فيها ، رأى غوتاما رجلا ميتا . هـذه المرة ، لم يعد إلى قصره . فور مروره بناسـك علـى الطريق ، قرر هو كذلك أن يغادر إلى البريـة ، حيث يمكنه أن يتأمل في هذا العالـم الذي تكشف له في صورة الشيخوخة والمرض والموت .

فـي مرحلة متقدمة من حياته ، حكـى غوتاما قصة قراره هذا في خطبة : «وهكذا حـدث أنني ، في أوج شـبابي وفي كامـل تمتعي بموفور صحتي ، بشـعري الذي كان لايزال أسـود فاحما ، ومخالفة لكل تمنيات شيوخ عائلتي المتوسلين الدامعين ، قمت بحلق رأسي ولحيتي ، ارتديت الثياب الخشنة وتخليت عن أمان بيتي» .

عاش غوتاما حياة الناسك التائب ست سنوات . لكن تأملاته كانت أعمق ومعاناته كانت أكبر من كل الرهبان الآخرين . ففي جلسته ، توقف بشكل كامل عن التنفس تقريبا ، وتحمل أشد وأقسى الآلام . كان يأكل أقل القليل حتى أنه كثيرا ما كان يصاب بإغماء بسبب ضعفه . ومع ذلك ، وخلال كل تلك السنوات ، لم يجد غوتاما السلام الداخلي . فهو لم يتوقف عند التفكير في طبيعة العالم وما إذا كانت كل الأشياء فعلا متحدة المصدر فقط ، بل كان يفكر كذلك في الحزن ، في كل آلام ومعاناة البشرية ، في الشيخوخة ، في المرض وفي الموت . لم يكن هناك أي مقدار من التوبة يمكنه أن ينقذه مما هو فيه .

بعدها ، وبالتدريج ، بدأ يأكل مجددا . عادت إليه قوته وبدأ يتنفس مثل بقية البشر . الرهبان الآخرون الذين كانوا في يوم شديدي الإعجاب به ، احتقروه الآن ، ولكنه لم يولهم أي انتباه . وفي ليلة ، وبينما كان يجلس أسفل شجرة تين في أرض جميلة منبسطة في الغابة ، أتاه الإلهام . فجأة ، أدرك هو ما كان يسعى إليه طوال هذه السنوات . لقد بدا كأن ضوءا داخليا أنار كل شيء أمامه . الآن ، وبعدما صار «المستنير» أو «بوذا» ، فقد خرج ليصرح لكل الناس باكتشافه .

لم يكد يمر وقت طويل حتى وجد من الناس من يتفق معه في فكره ، فسرعان ما اقتنع هؤلاء بأنه قد وجد مخرجا لمعاناة البشر . ولأن هؤلاء الأتباع كانوا شديدي الإعجاب ببوذا ، فإنهم كونوا ما نسميه جماعة رهبنة تتكون من نساك وراهبات . استمرت هذه الجماعة حتى بعد موته ، ولاتزال مستمرة إلى اليوم في بعض الدول الشرقية . يمكنك أن تتعرف على أعضائها من عباءاتهم الصفراء وأسلوب حياتهم المتقشف .

أعتقد أنك ترغب في معرفة ما حدث تحديدا مع غوتاما ، بينما كان جالسا أسفل شجرة التين – أو شجرة التنوير ، كما أصبحت تسمى لاحقا – التي خلصته من كل شكوكه وزودته بالسلام الداخلي . إن رغبت في أن أشرح لك ما حدث ، فإن عليك أن تؤدي دورك بالتفكير العميق كذلك . فعلى كل ، قضى غوتاما ست سنوات كاملة يفكر في هذا الموضوع ولا شيء غيره . ولقد كانت تلك الفكرة التي أتت اليه ، التنوير العظيم ، الحل لكل معاناة البشرية هي تلك : إن أردنا تفادي المعاناة ، فعلينا أن نبدأ بأنفسنا ، فالمعاناة تنتج من الرغبات . فكر في الأمر بهذه الصورة : إن كنت حزينا لأنك لا تستطيع الحصول على شيء ترغبه ، قد يكون كتابا أو لعبة ، يمكنك أن تفعل شيئا من اثنين : اما أن تحاول جهدك للحصول عليه أو أن تتوقف عن الرغبة فيه . في كلتا الحالين ، إن نجحت فلن تكون حزينا بعدها . هذه كانت تعاليم المستنير

بوذا : إن استطعنا التوقف عن الرغبة في كل الأشياء الجميلة والمفرحة في الحياة ، إذا تعلمنا كيف نتحكم في طمعنا في السعادة ، الراحة ، الشهرة والاهتمام ، فإننا لن نشعر بالتعاسة بعدها . إذا ما فشلنا في الحصول على ما نريد ، كما يحدث غالبا ، فسنتوقف تلقائيا عن الشعور بالتعاسة وسيزول الألم إذا زالت الشهية .

أستطيع حقا أن أسمعك تتساءل : «كل ذلك حسن جدا ، لكن الناس لا يستطيعون التوقف عن الرغبة في الأشياء !» . كان بوذا يعتقد العكس . كان يقول إنه من الممكن التحكم في رغباتنا ، ولكن لكي نستطيع ، لا بد أن نمرن أنفسنا ، ربما سنوات ، حتى لا يبقى لدينا في النهاية سوى الرغبات التي نريد بقاءها ، بمعنى ، يمكننا أن نصبح سادة أنفسنا ، كما يصبح قائد الفيل سيده . أعلى درجات التحصيل للإنسان هي أن يصل إلى نقطة تنعدم عندها كل رغباته . ذلك هو «السلام الداخلي» لبوذا ، سعادة داخلية لإنسان لم تعد لديه أي رغبة ، إنسان كريم مع الجميع ولا يطلب شيئا من أحد مطلقا . كما كانت من تعاليم البوذا كذلك أن الإنسان الذي يصبح سيد رغباته لن يعود للحياة مرة أخرى بعد موته . فقط الأرواح المتعلقة برغبات الحياة هي التي تعاد ولادتها ، هكذا آمن أتباع البوذا . فالإنسان الذي لا يعود متعلقا بالحياة يتحرر من الدائرة الأبدية للولادة والموت ، كما يتحرر كذلك على الأقل من المعاناة . يدعو البوذيون هذه المرحلة «النيرفانا» .

إذن تلك كانت اللحظة التنويرية التي اختبرها بوذا تحت شجرة التين : إدراك أنه عوضا عن أن نستسلم لرغباتنا ، فإننا نستطيع أن نتحرر منها ، تماما كأننا عطشى ولم نعر عطشنا انتباها ، فيتلاشى هذا الشعور مع الوقت . لا بد أنك تدرك كيف أن الطريق لتحقيق هذا الهدف شاق وبعيد المنال ، حيث يسميه بوذا «منتصف الطريق» ، وذلك لأنه يفصل بين التعذيب عديم الجدوى للنفس والسعي الطائش خلف الملذات . الأمر المهم هو أن نجد التوازن الصحيح : بين ما نؤمن به ، القرارات التي نتخذها ، ما نقول وما نفعل ، الطريقة التي نحيا بها ، طموحاتنا ، ضميرنا ، وأعمق أعماق أفكارنا .

تلك كانت الرسالة الأساسية في خطب بوذا الوعظية ، والتي تركت أثرا عميقا في قلوب الناس ، إلى درجة أن الكثيرين اتبعوه وعبدوه كإله . اليوم هناك من البوذيين في العالم ما يقارب عدد المسيحيين ، خصوصا في منطقة جنوب شرق آسيا ، حيث سريلانكا ، التبت ، الصين واليابان . غير أن كثيرين منهم غير قادرين على أن يحيوا حياتهم التزاما بتعاليم بوذا التي توصلهم إلى السلام الداخلي .

11

معلم عظيم لشعب عظيم

«قد تبدو لك تعاليم كونفوشيوس بديهية . ذلك تحديدا كان غرضه . فقد أراد أن يقدم تعاليم يجدها الجميع سهلة الفهم لأنها عادلة ومشروعة»

المؤلف

عندما كنت طالبا صغيرا ، كانت الصين تبدو لنا ، كما هي في الواقع ، «في الطرف الآخر من العالم» . فأقصى احتكاكنا بها كان من خلال صورة غريبة على كوب شاي أو مزهرية ، حتى إننا كنا نتخيل الصين بلدا برجال جامدين ضئيلي الحجم بضفائر طويلة تتدلى أسفل ظهورهم ، وحدائق جميلة حافلة بجسور كسنام الجمل وأبراج صغيرة معلق بها أجراس رنانة .

بالطبع ، لم تكن هناك أرض سحرية كتلك ، على الرغم من أنه في الواقع ولأكثر من مائتي عام ، حتى 1912 ، كان الرجال الصينيون يسرحون شعورهم في ضفائر مجدلة ، وأننا حقيقة أول ما تعرفنا عليهم كان ذلك من خلال مصنوعات رقيقة من البورسلان

والعاج مصنوعة على أيادي حرفيين مهرة . من قصورهم في العاصمة ، حكم أباطرة الصين لأكثر من ألف عام . هؤلاء الأباطرة الأسطوريون كانوا يدعون أنفسهم «أبناء السماء» كما كان الفراعنة المصريون يدعون أنفسهم «أبناء الشمس» . إلا أن الوقت الذي سأتحدث عنه ، منذ 2500 سنة مضت ، هو وقت سبق كل ذلك ، على الرغم من أن الصين كانت قد أصبحت في ذلك الزمن مملكة ضخمة قديمة ، في حقولها الملايين من الفلاحين المجتهدين الذين زرعوا الأرز وأنواعا أخرى من المحاصيل ، بينما في المدن ، تجول الناس في الشوارع بأثوابهم الحريرية النفيسة .



حكم كل هؤلاء الناس ملك أوحد ، وتحت أمرته كان هناك العديد من الأمراء الذين حكموا بدورهم المقاطعات المتعددة لهذا البلد الشاسع والذي فاق مصر وآشور وبابل مجتمعين في مساحته . إلا أنه سرعان ما أصبح هؤلاء الأمراء يمتلكون قوة هائلة حتى إنهم شقوا عصا الطاعة للملك . كانوا في حروب مستمرة مع بعضهم البعض ، حيث باتت المقاطعات الكبيرة تلتهم تلك الأصغر منها باستمرار . وحيث إن هذه الامبراطورية كانت شاسعة الحجم حتى إن أولئك الصينيين المقيمين في أطرافها كانوا يتحدثون لغات مختلفة تماما ، فقد كان من المتوقع أن تنهار كلية لولا وجود قاسم مشترك يجمع أهلها ، ذاك هو كتابهم .

«ولكن لحظة» ، أسمعك تقول ، «فحيث إنهم جميعا كانوا يتحدثون لغات مختلفة ، كيف يمكن لكتاب واحد أن يحدث فرقا؟» حسنا ، ان للكتابة الصينية خاصية مميزة ، حيث يمكنك أن تقرأها وتفهمها حتى لو لم تكن تعرف كلمة واحدة من اللغة المحكية . لا بد أن هذا سحر ! لا ، ليس سحرا مطلقا ، في الواقع الموضوع بسيط جدا . فعوضا عن كتابة الكلمات أنت تكتب الأشياء . فاذا ما أردت أن تكتب

«شـمس» فانك ترسـم صـورة كهذه ☉ . عندها يمكـن قراءة الكلمة بـأي لغة : Sun بالانجليزيـة ، soleil بالفرنسـية ، أو Jih بلغـة المندرين الصينيـة . كل من يعرف هذه الإشـارة ، سـيفهم معناها . والآن سـأعلمك كيف تكتب اشارة "الشـجرة ." الفكرة سـهلة جـدا ، فقط ضربتـا قلم هكـذا 木 . فـي المندرينية تنطـق الكلمـة «ميو» Mu ولكنك لا تحتاج فعلا لمعرفة الاشارة لتخمن أنها شجرة .

«حسـنا» أسمعك تقول ، «قد تنجح هذه الطريقة مع الأشياء التي يمكن رسمها ، ولكـن مـاذا لـو أردت كتابـة كلمة «أبيض؟» هل ترسـم بقعـة بيضاء فقـط؟ وماذا لو أردت أن تكتب «شـرق؟» لا يمكنك أن ترسـم صورة للشـرق !» علـى العكس تماما ، سترى بنفسك أن الأسلوب كله مباشر . يمكننا أن نكتب «أبيض» بأن نرسم شيئا لونه أبيض- في هذه الحالة شعاع شمس . خط يخرج من الشمس ☉ يمكنه أن يمثل كلمة «أبيض» وهكذا . «وماذا عن كلمة شرق؟» الشرق هو الموقع الذي تشرق منه الشمس خلف الأشجار . إذن ارسم صورة لشمس خلف شجرة 東 !

هذا أسلوب ذكي ، أليس كذلك؟ حسنا هو ذكي وليس ذكيا في ذات الوقت . فهناك جانبان لكل شـيء ! فعندما تفكر في كم الكلمات والأشـياء في هذه الدنيا ، يجـب أن تفكـر كذلك أنه في الصينية كل شـيء من هذه الأشـياء يجب أن يكون له رمـزه الذي يجب أن نتعلمه . هنـاك الآن أكثر من أربعين ألف رمز ، بعضها غاية في التعقيـد وصعب التعلم . لـذا ، أعتقد أن علينـا أن نبارك للفينيقيين حروفهم السـتة والعشـرين ، ومـع ذلك ، فـإن الصينيـين يكتبون بهـذه الطريقة منذ آلاف السـنين ، وإشـاراتهم تقرأ في عدة مناطق من آسـيا ، حتى في تلك التي لا يتحدثون فيها اللغة الصينية . هذا يعني أن أفكار ومبادئ رجال الصين العظماء قد انتشرت بسرعة كبيرة وأثرت في شعوب عديدة .

في الوقت ذاته الذي كان يحاول فيه بوذا التخفيف من آلام الناس في الهند (كما تتذكـر ، كان ذلـك في حوالي 500 ق .م) ، كان فـي الصين رجل عظيم آخر يحاول كذلك إسعاد الناس من خلال تعاليمه . غير أن هذا الرجل كان مختلفا تماما عن بوذا . لم يكن هذا الرجل ابنا لرجل نبيل ثري لكنه أتى من عائلة عانت شـظف العيش . لم يصبح هذا الرجل ناسـكا ولكن كان مستشارا ومعلما . وعوضا عن أن يساعد الناس فـي إنهـاء رغبتهم في الأشـياء من حولهم وبالتالـي إنهاء معاناتهـم ، كان أكثر ما يهم

كونفوشيوس هو أن يعيش الجميع بسلام مع بعضهم البعض ، الآباء والأبناء ، الحكام والرعايا . كان ذاك هو هدفه : أن يعلم الناس الطريقة الصحيحة للتعايش . ولقد نجح فعلا . فبفضل تعاليمه عاش الناس في الصين مع بعضهم البعض ولآلاف السنين أكثر رضا وسلاما من الكثير من شعوب العالم . وعليه ، فأنا متأكد من أنك مهتم بمعرفة تعاليم كونفوشيوس ، أو كونج فو تزو K'ung Fu-tzu كما كان يدعى في الصين . ليست هذه التعاليم صعبة الفهم أو التذكر ، وقد يكون ذلك سبب نجاح كونفوشيوس الكبير .

كان ما اقترحه كونفوشيوس غاية في البساطة . قد لا يعجبك ، ولكن فيه من الحكمة التي قد لا تشد انتباهك من النظرة الأولى . ما كان ينادي به هو ذلك : المظاهر الخارجية هي أهم مما نعتقد ، الانحناء لمن يكبروننا ، السماح للآخرين بالدخول من الباب قبلنا ، الوقوف عند الحديث مع رؤسائنا ، وغيرها الكثير من الأمور الشبيهة والتي لديهم قوانين متعددة لها أكثر بكثير مما لدينا . كل هذه الممارسات ، كما كان كونفوشيوس يعتقد ، لا تأتي من محض صدفة . فهي تعني شيئا أو كانت تعني شيئا في وقت ما ، شيئا جميلا ومعبرا في العادة . لذلك فإن كونفوشيوس قد قال «أنا أؤمن بالزمن القديم ، وأحبه» ، وقد عنى بذلك أنه يؤمن بالمنطق الطيب السليم لعادات وتقاليد آلاف السنوات الماضية ، والتي كان يشجع وباستمرار كل أهل بلده على إطاعتها وممارستها . كان يعتقد أن كل شؤون الحياة ستتوالى بسلاسة ، وهكذا على طبيعتها دون الحاجة لإمعان التفكير فيها . بالطبع ، مثل هذه السلوكيات لا تخلق أناسا صالحين ، ولكنها تساعدهم على أن يعيشوا بوئام .

كان لكونفوشيوس رأي حسن بريء حول الإنسانية ، فقد كان يقول إن كل الناس يولدون صادقين صالحين ، وأنهم ، في أعماقهم ، يبقون كذلك . فكل من يرى طفلا صغيرا يلعب على ضفة ماء سيقلق من احتمالية وقوعه ، كما كان يقول . فقلقنا على البشر الآخرين وتعاطفنا مع مصاعبهم هي مشاعر فطرية . كل ما علينا فعله هو أن نحرص على عدم فقدها . وذلك ، كما يقول كونفوشيوس ، هو سبب وجودنا في العائلة . فالإنسان الطيب دوما مع والديه ، يطيعهما ويعتني بهما ، وذاك تصرف فطري بالنسبة لنا ، سيعامل الآخرين بذات الطريقة ، وسيطيع قوانين الدولة بذات الطريقة التي يطيع بها والده . لذا ، بالنسبة لكونفوشيوس ، العائلة بكل ما

تحتويه من محبة الاشـقاء والشـقيقات واحترام الآباء والأمهات ، كانت الشـيء الأهم في الحياة على الاطلاق . كان كونفوشيوس يسمي العائلة «جوهر الإنسانية» .

إلا أن كونفوشـيوس لـم يعني أن الاحترام والطاعة يجـب أن يظهرهما التابع تجاه حاكمه بشـكل مطلق دون أن يظهر الحاكم حرصه على سـعادة شعبه . على العكس تماما ، فكم وقف كونفوشيوس وتلاميذه ضد الأمراء المتحكمين ليخبروهم بالتحديد رأيهـم فيهـم . فعلى الأمير أن يكـون مثلا يحتذى في احترام هـذه القواعد ، حيث إن عليـه أن يظهر الحب الأبوي في اهتمامـه برعيته وأن يكون عادلا معهم . فإذا ما أهمل هذه القواعد وجلب المعاناة لشـعبه ، فإنه يسـتحق أن يثوروا ضده ويطيحوا به . هكذا كانت تعاليم كونفوشيوس وتابعيه . فواجب الأمير الأول أن يكون مثالا يحتذى لكل من يعيش في مملكته .

قـد تبـدو لك تعاليم كونفوشـيوس واضحـة لا تحتاج الشـرح . ذاك تحديدا كان غرضه . فقد أراد أن يقدم تعاليـم يجدها الجميع سهلة الفهم لأنها عادلة ومشروعة . عندهـا سـيصبح التعايش أسـهل كثيرا . لقـد أخبرتـك مقدما أنه نجح فـي مهمته ، فبفضـل تعاليمـه ، تم إنقـاذ هـذه الامبراطوريـة الشاسـعة ، بـكل مقاطعاتهـا ، من التفكك والانهيار .

لكـن عليـك ألا تعتقد أنه لم يكن فـي الصين أناس آخرون أكثـر قربا لفكر بوذا ، والذيـن لم يكن همهـم أن يتعايش النـاس وينحنوا لبعضهم البعـض ، ولكنهم كانوا مهتمين بأسـرار العالم . رجل حكيم من هؤلاء عاش في الصين في الوقت ذاته الذي عاش فيه كونفوشـيوس . كان اسـمه لاو تـزو . يقال إن لاو تزو كان موظفا سـئم من طريقـة حيـاة النـاس في البـلاط الملكي . وعليـه ، فقد تـرك وظيفته هائما فـي الجبال الموحشة على حدود الصين ليصبح ناسكا .

طلب حارس بسـيط على أحد النقاط الحدوديـة من لاو تزو أن يكتب كل أفكاره قبل أن يغادر عالم البشر . وذلك تحديدا ما فعله لاو تزو . لا أدري ان فهم الحارس شيئا من هذه الأفكار ، فقد كانت شـديدة الغموض وصعبـة الادراك . هذا تقريبا ما كانت تعنيـه تلك الأفـكار : في كل العالـم ، في الرياح والأمطـار ، في النبات والحيوان ، في الانتقال من النهار إلى الليل ، في حركة النجوم ، فان كل شيء محكوم بقانون عظيم أوحد ، يسميه هو «تاو» Tao ، وهي كلمة تعني الطريق أو السبيل . فقط الإنسان في

كفاحه المستمر ، في كل خططه ومشاريعه المتعددة ، وحتى في صلواته وأضحياته ، هو من يقاوم ، كما يبدو ، هذا القانون الذي يعوق سبيله ويمنع إتمامه .

لذا ، فإن الشيء الوحيد الذي يجب علينا القيام به ، كما يقول لاو تزو ، هو ألا نفعل شيئا . فلنسكن مع أنفسنا ، لا نرى أو نستمع لأي شيء حولنا ، لا تكون لدينا آراء أو أمنيات . فقط عندما يصبح الإنسان كشجرة أو زهرة ، خاليا من كل إرادة أو غرض ، سيبدأ في الشعور بأن التاو ، هذا القانون الكوني العظيم الذي يقلب السماء ويستحضر الربيع ، بدأ يؤثر في نفسه . تعاليم لاو تزو ، كما ترى ، صعبة الفهم وأصعب في التنفيذ . ربما في عزلته الجبلية ، استطاع لاو تزو تطبيق مبدأ «عمل اللاشيء» لأبعد مدى حتى إن هذا القانون بدأ يؤثر داخل نفسه بالطريقة التي يصفها هو . ولذا ، كان كونفوشيوس ، وليس لاو تزو ، هو المعلم العظيم لشعبه . ما رأيك أنت؟

12

أعظم مغامرة في العالم

«اخترق الفن الإغريقي والروح الإغريقية بلاد الفرس واستكملا طريقهما عبر الهند إلى الصين»

المؤلف

كان عصر الإغريق الذهبي قصير المدى . كان بامكان الإغريق عمل كل شيء ما عدا التعايش سلميا بعضهم مع بعض ، وخصوصا أثينا وإسبرطة ، المدينتين اللتين لم تستطيعا تحمل بعضهما البعض لفترة طويلة . بحلول عام 430 ق .م ، كانت المدينتان متورطتين في صراع طويل مرير . تلك كانت الحرب البيلوبونيزية . دخل الإسبرطيون إلى أثينا ، مدمرين بضراوة أنحاء أريافها . لقد اقتلعوا كل أشجار الزيتون ، وقد كانت تلك مصيبة كبيرة ، حيث إن شجرة زيتون حديثة الغرس تحتاج لسنوات قبل أن تؤتي ثمرها . رد الأثينيون العمل بمثله ، مهاجمين المستعمرات الأسبرطية في جنوب ايطاليا ، منطقة سيراكيوز ، في صقلية . كان بينهما صراع

وثأر متبادل ، كما تعرضت أثينا لوباء شنيع أدى إلى وفاة القائد بيركليس إثر الإصابة به ، وفي النهاية خسرت أثينا الحرب وحُطمت أسوارها . وكما هي الحال دوما في الحرب ، لم يصب الإرهاق أثينا وحدها بل البلد بأكمله بسبب هذا الصراع ، ولم يكن المنتصرون استثناء . وفوق كل ذلك ، كانت هناك قبيلة صغيرة بجانب دلفي ، وبتحريض من كهنة أوراكل ، قامت هذه القبيلة باحتلال ونهب معبد أبولو ، لتحل بعدها الفوضى المطلقة .



استغلت قبيلة أجنبية ، وان لم تكن أجنبية كثيرا ، كل هذه الفوضى للتدخل . كان هؤلاء هم المقدونيين ، شعبا يعيش في الجبال شمال بلاد الإغريق . كان المقدونيون ذوي قرابة مع الإغريق ، إلا أنهم كانوا برابرة ودعاة حرب . كان ملكهم ، فيليب ، رجلا شديد الدهاء . كان يتكلم الإغريقية بطلاقة وكان مطلعا تماما على العادات والثقافة الإغريقية ، وكان هدفه أن يصبح ملكا على كل بلاد الإغريق . وحيث إن احتلال المعبد في دلفي قد أقلق كل القبائل التي كانت على دين الإغريق ، فقد كانت لديه حجة جيدة للتدخل . إلا أنه كان هناك رجل سياسة في أثينا قد أصابه الشك في نوايا فيليب المقدوني . كان هذا هو الخطيب الشهير ديموسثينيس ، والتي عرفت خطبه المدوية في المجلس ، التي حذر فيها الناس مرارا من خطط الملك فيليب ، بالفيليبية «Philippics» . إلا أن بلاد الإغريق كانت منقسمة تماما مما أعاق قدرتها على تكوين أي دفاع حقيقي .

في شيرونيا ، سنة 338 ق .م ، عانى الإغريق ، والذين كانوا قد وقفوا منذ مائة سنة فقط بصلابة أمام الحشود الفارسية الضخمة ، الهزيمة على يدي الملك فيليب

ومقدونيا الصغيرة . بذلك انتهت حرية الإغريق ، وعلى كل ، لا يمكن القول إنهم أحسنوا استخدامها أخيرا . إلا أنه لم يكن هدف فيليب أن يستعبد أو يدمر بلاد الإغريق ، فقد كانت لديه أفكار أخرى : لقد خطط لتأسيس جيش ضخم من الإغريق والمقدونيين وذلك لاحتلال والسيطرة على بلاد فارس .

في زمن الحروب الفارسية مثل هذه المهمة كانت لتبدو مستحيلة ، إلا أن الأحوال تغيرت . لم يعد ملوك الفرس قادرين وطموحين كما كان داريوش أو العظيم زركسيس . لقد تخلى هؤلاء الملوك منذ زمن عن فكرة قيادة الدولة بأنفسهم وأقنعوا أنفسهم بالاكتفاء بالأموال التي يرسلها الحكام من مقاطعاتهم . استخدم الملوك هذه الأموال ليشيدوا لأنفسهم قصورا منيفة ، ويقيموا حفلات البلاط رفيعة الذوق . كانوا يأكلون من أطباق ذهبية ، وحتى عبيدهم ، الرجال منهم والنساء ، كانوا يلبسون الأثواب الفخمة . كانوا يعشقون الطعام الطيب الفاخر ، ويعشقون أكثر النبيذ الطيب المعتق . وكذا فعل حكامهم . مملكة كهذه ، فكر الملك فيليب ، ستسهل السيطرة عليها . ولكن حتى قبل أن يستكمل تجهيزات حملته تم اغتياله .

ورث ابنه – الذي بالكاد لم يتعد العشرين من عمره – كامل بلاد الإغريق ، إضافة إلى مقدونيا الأرض الأم . كان اسمه الإسكندر . ظن الإغريق أن الحرية أصبحت في متناول أياديهم ، فالإسكندر لا يعدو كونه ولدا غضا سينقضي أمره سريعا . بيد أن الإسكندر لم يكن ولدا عاديا . فمنذ صباه كان ينتظر بنفاد صبر أن يصبح ملكا . قيل إنه عندما كان صبيا صغيرا ، كان يبكي كلما أقدم والده ، الملك فيليب ، على احتلال مدينة إغريقية جديدة ، قائلا : "لن يترك لي أبي أي مكان أحتله عندما أصبح ملكا !" الآن ، ترك له والده كل شيء . فأما المدينة الإغريقية التي حاولت تحرير نفسها فقد تم هدمها ، وبيع كل سكانها للعبودية كإنذار للجميع . بعدها استدعى الإسكندر كل القادة الإغريق لاجتماع في مدينة كورينث لمناقشة الحملة الفارسية .

لم يكن الإسكندر محاربا شجاعا وطموحا فقط ، بل كان أكثر من ذلك بكثير . كان شديد الوسامة ، ذا شعر طويل معقوص ، وكان يعرف كل ما يمكن معرفته في ذلك الوقت . كان معلمه هو أشهر المعلمين على الإطلاق : الفيلسوف الإغريقي

أرسطو . فإذا ما أخبرتك أن أرسطو لم يكن فقط مدرسا للاسكندر ، ولكن ، إن جاز التعبير ، مدرسا للبشرية بأكملها لمدة 2000 سنة ، فستتكون لديك فكرة عما أعنيه . في الألفي سنة التي تلت ، اذا ما اختلف الناس حول هذا الشأن أو ذاك ، كانوا يعودون لكتاباته . كان هو حكمهم . ما يقوله أرسطو لابد أن يكون صحيحا ، حيث إنه جمع كل معلومات زمنه . كتب أرسطو في العلوم الطبيعية : النجوم ، الحيوانات والنباتات ، عن التاريخ والناس التي تحيا معا في الدولة : ما نسميه السياسة ، حول الطريقة الصحيحة في التفكير : المنطق ، والطريقة الصحيحة في التصرف : الأخلاق ، كتب عن الشعر وجماله ، وأخيرا كتب أفكاره حول إله غير مرئي يحوم بهدوء فوق قبة السماء .

درس الإسكندر كل ذلك ، وبلا شك ، كان طالبا نجيبا . ولقد كان أكثر ما أحب هو قصص الأبطال في الأشعار الغنائية لهومر ، يقال إنه كان يحتفظ بها تحت وسادته ليلا . إلا أن الإسكندر لم يقض جل وقته مشدودا بين دفتي كتاب ، لقد كان يحب الرياضة ، وخصوصا ركوب الخيل أكثر من أي شيء آخر . لم يركب أحد خيلا أفضل منه . ذات مرة ، اشترى والده حصانا فحلا رائع الجمال لم يستطع أحد ترويضه . كان اسمه بوسيفاليس . كلما حاول أحد أن يصعد على ظهره ، كان الحصان يطرحه أرضا . إلا أن الإسكندر اكتشف سبب ذلك ، كان الحصان خائفا من ظله ذاته . عندها ، أدار الإسكندر وجه الحصان باتجاه الشمس حتى لا يرى ظله على الأرض . وبينما كان يمسد براحة يده برقة على الحصان ، امتطى ظهره وقاده حول المكان وكل البلاط يصفق له . ومنذ ذلك الحين أصبح بوسيفاليس حصان الإسكندر المفضل .

عندما ذهب الإسكندر للقادة الإغريق في مدينة كورينث ، استقبلوه جميعا بحرارة وهم يمطرونه بالمديح ، فعلوا ذلك جميعا إلا واحدا ، رجلا غريب الأطوار ، فيلسوفا يدعى ديوجين . كانت أفكاره لا تختلف عن أفكار بوذا . فوفقا لأفكاره ، ممتلكاتنا وكل ما نعتقد أننا نحتاجه تعمل فقط على تشويشنا وتقف بيننا وبين التمتع البسيط بالحياة . لذا ، فقد تخلى هذا الفيلسوف عن كل ما يملك ، وجلس ، عاريا إلا قليلا ، في برميل في ساحة سوق كورينث ، حيث عاش حرا ومستقلا كأنه كلب ضال . برغبة فضولية في مقابلة هذا الفيلسوف ، توجه

الإسكندر إليه حيث يعيش . مرتديا درعه اللامع وريشة خوذته تلوح مع همسات النسيم ، تحرك الإسكندر باتجاه البرميل وقال مخاطبا ديوجين : «أنا معجب بك . أخبرني عن أمنيتك وأنا أحققها لك» . عندها قال ديوجين ، والذي كان مسترخيا تحت خيوط الشمس الذهبية ، «بالتأكيد يا سيدي ، لدي أمنية» ، «حسنا ، وما هي؟» «لقد سقط ظلك علي : فلتبتعد قليلا عن الطريق بيني وبين الشمس» . يقال إن الإسكندر تأثر كثيرا بهذا الموقف حتى إنه قال : «لو لم أكن الإسكندر لتمنيت أن أكون ديوجين» .

ملك مثل هذا ، سرعان ما أصبح محبوبا من الجنود الإغريق كما هو من المقدونيين . كانوا على أهبة الاستعداد للمحاربة من أجله . لذا ، وبثقة شديدة ، تحرك الإسكندر باتجاه بلاد الفرس . تخلى الإسكندر عن كل ممتلكاته لأصدقائه الذين صعقوا وتساءلوا : «ولكن ماذا تركت لنفسك؟» «الأمل» ، يقال إن ذاك كان جوابه . ولم يخنه هذا الأمل . وصل جيشه لآسيا الصغرى أولا . هناك تواجه مع أول جيش للفرس ، وعلى الرغم من أنه كان أكبر من جيشه ، الا أنه لم يكن أكثر من تجمع لمليون جندي بلا قائد فاعل . سرعان ما أجبر الفرس على الهرب ، حيث حارب جيش الإسكندر بشجاعة ، وأشجعهم كان الإسكندر نفسه الذي حارب ببسالة والمعركة على أشدها .

هزيمة آسيا الصغرى هي في الواقع مشهد القصة الشهيرة «العقدة الغوردية» . تلك هي القصة : كان هناك معبد في مدينة غورديوم به عربة قديمة لها مقبض محكم الربط بحزام معقود بقوة ومتانة . سرت نبوءة أنه من يستطيع أن يفك تلك العقدة السحرية سيصبح سيدا لكل العالم . لم يضع الإسكندر الكثير من وقته في حل عقدة هي بالتأكيد أسوء من تلك التي تحل برباط حذائك وأنت في عجلة من أمرك . لقد أتى شيئا لم تسمح لي والدتي بمثله في يوم : لقد أخذ سيفه وببساطة قطع العقدة به . القصة إذن ثنائية المعنى : الإسكندر سيسيطر على العالم توافقا مع النبوءة الأثرية ، وسيفعل ذلك بالسيف ، تماما كما كان .

سيسهل عليك تتبع بقية قصة الفتوحات إذا ما تتبعت الخريطة (صفحة 99) . كان بإمكان الإسكندر مهاجمة بلاد الفرس مباشرة ، ولكن عوضا عن أن يخاطر بتعريض جيشه لهجوم خلفي من المقاطعات الفارسية في فينيقيا ومصر ، اختار

أن يُخضع تلك المناطق أولا . حاول الفرس أن يسدوا عليه الطريق بالقرب من مدينة تدعى إيسوز ، إلا أن الإسكندر حطم جيشهم . قام الإسكندر بتدمير الخيام الملكية الفخمة وعبث بكنوز الملك ، كما أسر زوجة الملك وأخواته كذلك ، إلا أنه عاملهم بأقصى درجات الكياسة والاحترام . كان ذلك في 333 ق .م ، تاريخ يسهل عليك تذكره .

كانت فينيقيا أكثر صعوبة في السيطرة عليها . فعلى مدى سبعة شهور طوال ، حاصر الإسكندر مدينة صور ، والتي كان دمارها ، حين أزف الوقت ، أشد عنفا ووحشية . مصر كانت أكثر سهولة . فسرعان ما استسلم المصريون لأنهم كانوا سعداء بتخلصهم من الفرس . الا أن الإسكندر كان مصرا على أن يكون حاكما حقيقيا لمصر ، من النوع الذي كانوا هم معتادين عليه . توجه الإسكندر عبر الصحراء إلى معبد لإله الشمس وأمر الكهنة بإعلانه ابن الشمس ، وعليه ، الفرعون الشرعي . وقبل أن يغادر مصر ليستكمل حملته ، أنشأ الإسكندر مدينة على البحر أسماها على اسمه : الإسكندرية ، لا تزال هذه المدينة موجودة هناك إلى اليوم ، وقد كانت ، ولزمن طويل ، واحدة من أغنى وأقوى مدن العالم .

الآن فقط توجه الإسكندر إلى بلاد فارس . في غضون ذلك ، جهز الملك الفارسي جيشا ضخما حيث استقر بانتظار الإسكندر بالقرب من مدينة نينوى الأثرية في قصر يدعى غوغاميلا . أرسل الملك رسلا لمقابلة الإسكندر عارضا عليه نصف مملكته ويد ابنته للزواج فقط ليضع القتال جانبا . «لو كنت الإسكندر لقبلت» ، ذاك ما قاله صديق الإسكندر بارمينيوس ، «ولقبلت أنا كذلك ، لو كنت بارمينيوس» ذاك كان رد الإسكندر الذي لم يكن نصف العالم كافيا بالنسبه له . بذلك ، هزم الإسكندر أعظم وآخر الجيوش الفارسية ، حيث هرب ملك الفرس إلى الجبال ليتم اغتياله هناك .

بعدها ، قام الإسكندر بمعاقبة القتلة . أصبح الآن ملكا على كل بلاد فارس . عندها أصبحت بلاد الإغريق ، مصر ، فينيقيا ، فلسطين ، بابل ، آشور ، آسيا الصغرى وبلاد الفرس ، كلها جزءا من امبراطوريته . بدأ الإسكندر في تنظيم هذه المناطق ، حيث يمكن القول إن حكمه يمتد الآن ما بين النيل ومدينة سمرقند .

يمكن أن يكون كل ذلك كافيا بالنسبة لي ولك ، إلا أن الإسكندر كان لا يزال بعيدا عن الرضا . كان يود أن يحكم أراضي جديدة لم يكتشفها آخر بعد . كان يتطلع للتعرف على الشعوب الغامضة البعيدة التي يتحدث عنها التجار القادمون لبلاد فارس محملين ببضائعهم النادرة من الشرق . كان الإسكندر يرغب ، مثل ديونيسيس في الاسطورة الإغريقية ، أن يسافر منتصرا إلى أقاصي الشرق حيث الأراضي الهندية المصقولة بالشمس ، ليتسلم جزيته منهم هناك . لذا ، فقد أمضى وقتا قصيرا في العاصمة الفارسية ، وفي سنة 327 ق .م ، قاد جيشه في اخطر مغامرة عبر الطرق الجبلية غير المعروفة أو المستكشفة مسبقا في اتجاه وادي السند وإلى حيث الهند . إلا أن الهنود لم يستسلموا له طائعين . أدان النساك والمتعبدون في الجبال في خطبهم المحتل القادم من أقاصى الغرب في خطبهم . كما حارب الجنود من طبقة المحاربين ببسالة ، حتى إن الجيش اضطر إلى محاصرة كل مدينة على حدة ، ومن ثم السيطرة عليها .

لم يكن الإسكندر بحد ذاته بأقل بسالة ، كما تبين من لقائه بأحد ملوك الهند . استقر الملك بورس على ضفاف نهر الهندوس انتظارا للاسكندر ومعه جيش ضخم من فيلة الحرب والجنود المشاة . عندما وصل الإسكندر إلى النهر ، كان جيش الملك قد استقر على الضفة المقابلة ، ولم يكن للاسكندر وجنوده من خيار سوى عبور النهر في مواجهة مع جيش العدو . كان نجاحه ها هنا هو أحد أعظم انجازاته ، والأكثر إعجازا كان انتصاره على هذا الجيش في تلك الحرارة الخانقة لبلاد الهند . تم القبض على الملك بورس وأُتي به للاسكندر في قيوده . «ماذا تريد مني ؟» سأل الإسكندر ، «فقط أن تعاملني كما يليق بالملوك» ، «وهذا كل ما تريد؟» «هذا كل شيء» ، جاء الرد ، «لا يوجد ما يقال أكثر من ذلك» . أعجب الإسكندر بالملك أيما إعجاب حتى إنه أعاد إليه مملكته .

ولقد تمنى الإسكندر لو أنه استمر في المسير نحو الشرق البعيد ، إلى حيث الشعوب المجهولة والأكثر غموضا والذين عاشوا في وادي نهر الغانج . إلا أن جنوده كانوا قد اكتفوا . لم يعد الجنود يرغبون في السير إلى نهاية العالم . لقد أرادوا العودة إلى الديار . ولقد تضرع إليهم الإسكندر وترجاهم ، ثم هددهم باستكمال المسير وحده ، ثم قام بحبس نفسه لمدة ثلاثة أيام في خيمته رافضا

تماما الخروج منها . إلا أنه في النهاية كان للجنود ما أرادوا وأجبر الإسكندر على العودة للديار .

ولكن الجميع اتفق على نقطة واحدة : ألا يعودوا من الطريق نفسه الذي أتوا منه . بالطبع ، كان الطريق نفسه سيكون أسهل الاختيارات وأبسطها حيث إنهم كانوا قد سيطروا على كل الأقاليم على هذا الطريق . إلا أن الإسكندر كان يتطلع إلى مناظر جديدة وفتوحات جديدة . لذا ، فقد اتبعوا طريق نهر الهندوس نزولا إلى البحر . هناك ، وضع جزءا من جيشه في سفن وأرسلهم إلى الديار عبر الطريق البحري . أما هو ، فقد اختار لنفسه أن يتحمل مشقات جديدة وعسيرة ، حيث سار مع من تبقى من جيشه في الصحاري القاحلة القاسية . تحمل الإسكندر الحرمان نفسه الذي عانى منه جيشه ، فلم يشرب ماء أو ينم أكثر من أي فرد آخر في الجيش . لقد كان دوما في أول صفوف جيشه .

في إحدى المرات ، هرب الإسكندر من الموت بمعجزة . كانوا في ذلك اليوم يحاصرون قلعة ، حيث وضعوا السلالم في أماكنها استعدادا لتسلق الحوائط . كان الإسكندر أول المتسلقين ، وما أن وصل للقمة حتى تحطم السلم تحت ثقل الجنود المتسلقين أسفله ، تاركا اياه وحيدا على قمة الحائط . صرخ رجاله به أن يقفز عائدا للأسفل ، إلا أنه عوضا عن ذلك ، قفز داخلا المدينة ، وبظهره مستندا على حائط الحصن ، دافع الإسكندر عن نفسه باستخدام درعه أمام احتمالات خسارة هائلة . وفي الوقت الذي تمكن فيه الآخرون من تسلق الحائط لإنقاذه ، كان قد أصيب بسهم . لا بد أن ذلك كان غاية في الإثارة .

في النهاية ، عادوا جميعا للعاصمة الفارسية . إلا أنه ونظرا إلى أن الإسكندر كان قد أحرق العاصمة عندما سيطر عليها ، فإنه اختار أن يؤسس بلاطه في بابل . لم يأت هذا الخيار من فراغ ، فكونه ابن الشمس للمصريين ، ملك الملوك للفارسيين ، وبجيوشه التي تمتد إلى الهند وأثينا ، كان الإسكندر مصرا على أن يثبت للعالم أجمع أنه حاكمهم الشرعي الأوحد .

قد لا يكون الغرور هو ما دفعه لفعل ذلك . فكونه تلميذا لأرسطو ، كان يفهم الطبيعة البشرية ويدرك أن السلطة تحتاج إلى الفخامة والجلال اذا ما أرادت أن تترك الأثر الصحيح . وعليه فقد استخدم المراسم القديمة للبلاط البابلي والفارسي . فكل

من يمثل في حضرته كان عليه أن يجثو على ركبتيه أمامه ويتحدث معه كما لو كان إلها . وعلى طراز الملوك الفارسيين ، كان للاسكندر عدة زوجات ، من بينهن ، ابنة ملك الفرس ، داريوش ، مما وضعه موضع الوريث الشرعي للملك . لم يكن الإسكندر يرغب في أن يُنظر اليه على أنه محتل غريب . كان هدفه هو أن يجمع حكمة وفخامة الشرق بالتفكير المنطقي وحيوية الإغريق ، ومن ثم يخلق شيئا جديدا ورائعا تماما .

إلا أن هذه الفكرة لم تسعد الإغريق والمقدونيين مطلقا . كانوا هم الفاتحين ولذا وجب أن يكونوا أسيادا ، والأكثر من ذلك ، كانوا رجالا أحرارا ، معتادين على حرياتهم . لم يكونوا لينحنوا لأي رجل على وجه الأرض أو ، كما كانوا يقولون ، «يلعقوا حذاء أحد» . مع الوقت أصبح أصدقاؤه وجنوده الإغريق أكثر تمردا ، مما أجبره على إرسالهم لديارهم . لم يستطع الإسكندر تحقيق طموحه العظيم بخلط الشعبين ، على الرغم من أنه قدم مهورا مرتفعة لعشرة آلاف جندي مقدوني وإغريقي ليتمكنوا من الزواج من الفارسيات وأقام حفل زواج عظيم للجميع .

كانت للاسكندر خطط عظيمة . أراد بناء مدن أخرى متعددة كالإسكندرية . أراد تعبيد الطرق وتغيير وجه العالم بحملاته العسكرية سواء أعجب ذلك الإغريق أم لم يعجبهم . تخيل ، في تلك الأيام ، أن تكون لديك خدمة بريدية منتظمة تعمل من الهند إلى أثينا ! إلا أنه وفي منتصف كل مخططاته ، توفي الإسكندر في القصر الصيفي لنبوخذنصر ، عام 323 ق .م . كان الإسكندر يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما ، وهو العمر الذي بالكاد يبدأ به معظم الناس حياتهم .

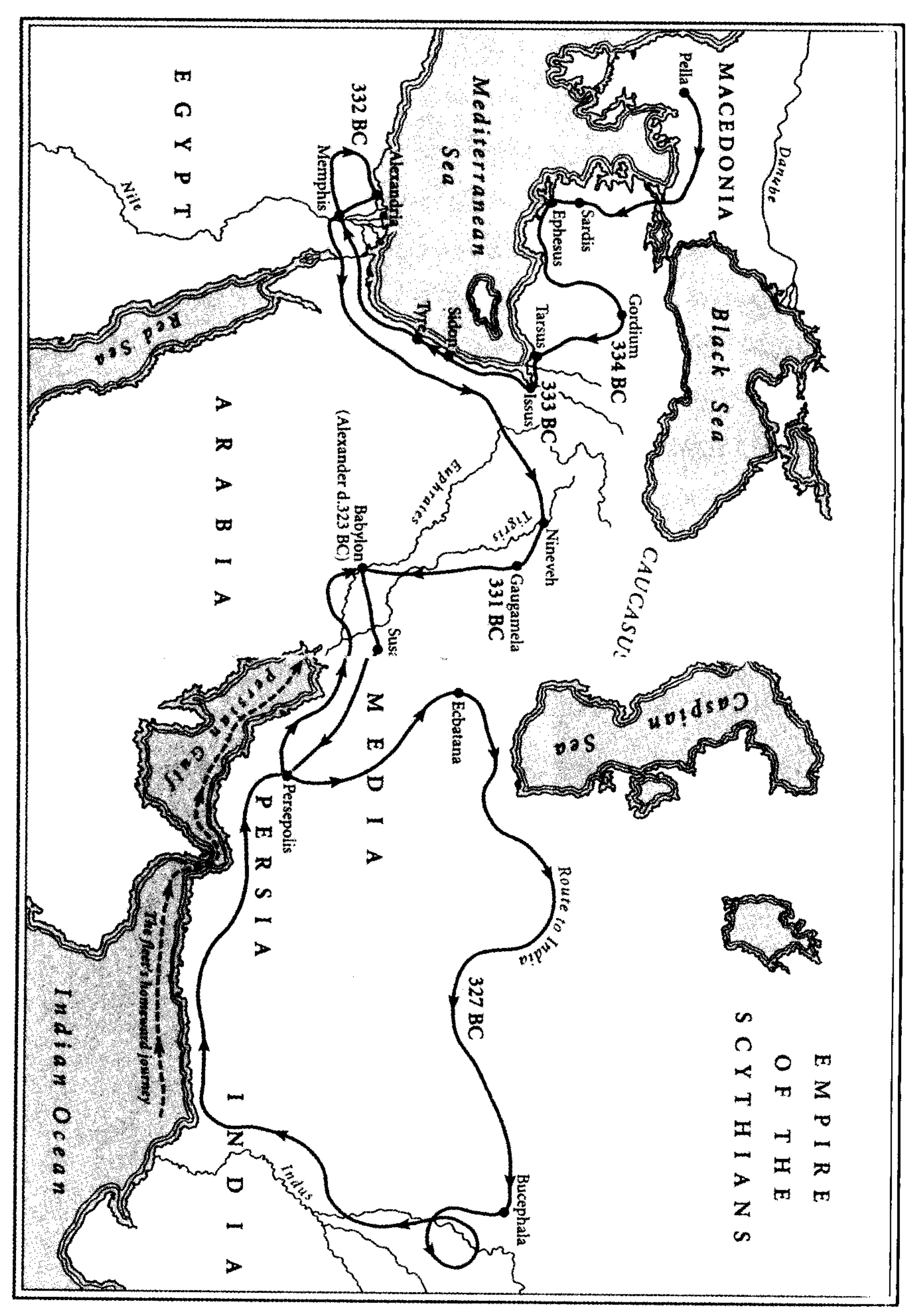
في رده على السؤال حول من يجب أن يخلفه ، قال ، وهو يعاني من الحمى ، «الأكثر استحقاقا» . إلا أنه لم يكن هناك أحد يستحق . كان القادة والأمراء في حاشيته بخلاء ، فاسقين ، مخادعين . تصارع هؤلاء على حكم الامبراطورية حتى انهارت . بعدها حكمت مصر أسرة من قادة الحرب تسمى البطالمة فيما حكم السلوقيون منطقة بلاد الرافدين والأنتاليديون آسيا الصغرى . أما الهند فتم إهمالها ببساطة .

مفتاح الخريطة المقابلة

Persia	فارس
Media	الميديون
Arabia	الجزيرة العربية
Tigris	دجلة
Euphrates	الفرات
Arapian Gulf	الخليج العربي
Indian Ocean	المحيط الهندي
Red Sea	البحر الأحمر
Egypt	مصر
Nile	النيل
The fleet's homeward journey	رحلة عودة الأسطول

Tyre	صور
Memphis	منف
Alexandria	الاسكندرية
Nineveh	نينوى
Gaugamela	غوغاميلا
Babylon	بابل
Susa	سوسا
Persepolis	بيرسبوليس
Ecbatana	اكباتانا
Route To India	الطريق إلى الهند
Bucephala	بيوسيفالا
Indus	السند
India	الهند

Empire of the Scythians	امبراطورية السيثيانيين
Caspian Sea	بحر قزوين
Danube	الدانوب
Black Sea	البحر الأسود
Caucasus	القوقاز
Macedonia	مقدونيا
Pella	بيلا
Sardis	سارديس
Ephesus	إفيسوس
Gordium	غورديوم
Tarsus	تارسوس
Issus	إيسوز
Sidon	صيدا



إذا قمت بتتبع الأسهم ، فستأخذك على خطى الإسكندر في فتوحاته لنصف العالم .

لكن على الرغم من أن الامبراطورية كانت ممزقة ، فإن مشروع الإسكندر العظيم بـدأ يدخل حيـز التنفيذ تدريجيا . فقد اختـرق الفن الإغريقي والـروح الإغريقية بلاد الفرس واسـتكملا طريقهما عبر الهند إلى الصين . في الوقت ذاته ، تعلم الإغريق أن هناك أكثر من مدينتي أثينا وإسبرطة في الوجود ، والمزيد مما يمكن إنجازه بدلا من مجرد إضاعـة العمـر في النـزاع اللامتناهي بين الدوريـين والأيونيين . وحيث إنهم خسـروا القـوة السياسـية الضئيلة التي كانت لهم فـي وقت ما ، فإن الإغريـق اتجهوا ليصبحوا أصحـاب أعظـم قـوة فكرية وجـدت على سـطح الأرض ، تلـك القوة التـي نعرفها بالثقافـة الإغريقية . ولقد تمت حمايتها والمحافظة عليها في قلاع خاصة جدا . هل لك أن تخمن ما تكون هذه القلاع؟ تلك كانت المكتبات . في الإسـكندرية ، على سـبيل المثـال ، كانت هنـاك مكتبة إغريقية احتوت علـى ما يقرب من سـبعمائة ألف لفافة . هذه اللفافات السبعمائة ألف كانت هي الجنود الإغريق الذين انطلقوا ليغزوا العالـم ، وهذه الامبراطورية لا تزال قائمة إلى اليوم .

13

حروب جديدة ومحاربون جدد

«الآن أصبحت روما أعظم مدينة في العالم»

المؤلف

اتجه الإسكندر إلى الشرق فقط . على الرغم من أن كلمة «فقط» قد لا تكون فعليا الكلمة المناسبة هنا ! إلا أن الأراضي الممتدة إلى غرب بلاد الإغريق لم تجذبه - ليست سوى مستعمرتين إغريقية وفينيقية وحفنة من أشباه الجزر كثيفة الغابات والمسكونة من بعض القبائل القروية العنيدة وصعبة المراس . كانت إحدى أشباه الجزر هذه هي إيطاليا ، وإحدى هذه القبائل هي الرومانيين . في عصر الإسكندر الأكبر ، لم تكن الامبراطورية الرومانية أكثر من بقعة أرض صغيرة في قلب ايطاليا ، ولم تكن روما أكثر من مدينة صغيرة بشوارع ملتوية ضمن حوائط المدينة القوية . إلا أن سكان روما كانوا شعبا أبيا . كانوا

يعشقون سرد القصص التي تحكي عن عظمة ماضيهم كما كانوا واثقين من عظمة مستقبلهم . تاريخهم ، كما كانوا يسردونه ، كان يعود لمدينة طروادة الأثرية . فقد قام طروادي يحمل اسم اينيس بالهرب إلى إيطاليا ، حيث انحدر منه الأخوان التوأمان رومولس وريماس ، ابنا مارس إله الحرب ، والذين أرضعتهما ورعتهما ذئبة متوحشة في الغابة . رومولس ، كما تجري الأسطورة ، هو الذي أسس روما ، ولديهم حتى تاريخ لذلك الحدث ألا وهو 753 ق .م ، ولاحقا سيؤرخ الرومانيون للسنوات بداية من ذلك التاريخ كما فعل الإغريق تأريخا من بداية الاحتفالات الأوليمبية . كانوا يقولون : في تلك السنة الفلانية من بعد تأسيس المدينة . فعلى سبيل المثال ، السنة الرومانية الـ100 هي ما نسميها السنة 653 قبل مولد المسيح - أو 653 ق .م .



كان لدى الرومانيين قصص أخرى متعددة حول الماضي المجيد لمدينتهم الصغيرة ، قصص لملوك ، طيبين وأشرار ، وقصص لحروبهم مع المدن المجاورة - كدت أقول القرى المجاورة . الملك السابع والأخير كان اسمه تاركوين العظيم ، وقيل إنه اغتيل على يد أحد النبلاء ويدعى بروتوس . منذ ذلك الحين ، أصبحت السلطة في يد الطبقة النبيلة . هؤلاء كانوا «شرفاء روما» ، - وهذه الكلمة تعني شيئا مثل «آباء المدينة» - على الرغم من أنه في تلك الأيام لم يكن هؤلاء مواطنين بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لقد كانوا عائلات اقطاعية عريقة تمتلك مقاطعات ضخمة من الحقول والمروج ، وكان لهم وحدهم الحق في اختيار المسؤولين الذين يحكمون المدينة ما ان انتهى عصر الملوك .

في روما ، كان أعلى المسؤولين رتبة هو القنصل ، حيث كان دائما هناك اثنان منهما يتشاركان في الحكم ، وكانا يبقيان في منصبهما لمدة سنة واحدة فقط ، بعدها كان لزاما عليهما أن يتنحيا . بالطبع ، لم يكن «الشرفاء» هم الأشخاص الوحيدين الذين سكنوا روما ، وعموما ، إذا ما لم يكن لديك جد شهير أو مقاطعة عظيمة ، فأنت لست من النبلاء . أما الآخرون ، فكان يطلق عليهم «العوام» ، وكان هؤلاء يشكلون طبقة خاصة بهم ، تماما كما هو النظام في الهند . لم يكن للعامي أن يتزوج من الطبقة النبيلة ، كما كانت فرصه في أن يصبح قنصلا أقل بكثير ، حيث لم يكن يسمح له حتى بأن يدلي برأيه في مجلس الشعب المقام في ميدان الإله مارس خارج أسوار المدينة . إلا أن العوام كانوا بذات كثرة وقوة إرادة وعناد الشرفاء . فخلافا لما فعل الهنود دمثو الأخلاق ، هؤلاء لم يخضعوا طواعية . ففي أكثر من مناسبة ، هدد هؤلاء بمغادرة المدينة ما لم تحسن معاملتهم ويتم إعطاؤهم نصيباً من الحقول والمراعي التي كان الشرفاء يفضلون الاحتفاظ بها لأنفسهم . وبعد صراع قاس استمر لأكثر من مائة سنة ، نجح العوام في الحصول على الحقوق نفسها المكفولة للشرفاء . فمن بين القنصلين ، سيكون أحدهما من العوام والآخر من الشرفاء . إذن ، فقد تحققت العدالة ، حيث تواكبت نهاية هذا الصراع العسير مع ظهور الإسكندر الأكبر .

من خلال هذا الصراع ، يمكنك أن تكوّن فكرة عما كان الرومانيون عليه . لم يكونوا بسرعة بداهة وإبداع الأثينيين ، ولم تثر إعجابهم الأشياء الجميلة كالمعمار والتماثيل والشعر ، كما لم يكن التفكر في العالم والحياة موضوعا أساسيا بالنسبة لهم . ولكن ، متى ما عزموا على فعل شيء ، فإنهم يقدمون عليه ، حتى ولو استغرق مائتي سنة ، فهؤلاء كانوا فلاحين وليسوا بحارة هائجين كالأثينيين . كانت بيوتهم وحيوانتهم وأراضيهم ، تلك هي كل ما يهمهم . كانوا قليلي الاهتمام بالسفر ، ولم يؤسسوا أي مستعمرات . كانوا يعشقون مدينتهم الأم وأرضها ودوما مستعدين لعمل أي شيء وكل شيء لدعم قوتها وازدهارها . كانوا مستعدين للحرب من أجلها والموت من أجلها . وإضافة إلى أرضهم الأم تلك ، كان هناك شيء وحيد آخر مهم بالنسبة لهم : قانونهم . ليس هذا هو القانون

العادل المنصف والذي يتساوى أمامه الجميع ، ولكنه فقط القانون ، القانون المنصوص عليه . كانت قوانينهم منقوشة على اثني عشر لوحا برونزيا معروضة في السوق . وقد كانت تلك الكلمات القليلة الصارمة تعني تماما ما تنص عليه ، لا استثناءات ، لا شفقة ، ولا رحمة . فقد كانت تلك قوانين أجدادهم ، ولذا فلابد أنها كانت صحيحة .

هناك العديد من القصص القديمة الرائعة التي تحكي عن حب الرومانيين لأرضهم الأم وولائهم لقوانينها ، قصص عن آباء أسلموا أبناءهم لحكم الإعدام دون أن تهتز لهم شعرة وذلك لأن القوانين حكمت بذلك ، وقصص عن أبطال ضحوا بحياتهم من أجل أبناء وطنهم على أرض المعركة أو في الأسر . وبينما نحن غير ملزمين بتصديق كل كلمة فيها ، إلا أن هذه القصص تعطينا فكرة عما كان متوقعا من الروماني : القسوة والانضباط والذين كان يعتقد أنه من واجبه اظهارهما تجاه نفسه والآخرين متى ما كانت الأرض الأم أو القوانين معنية . لم يكن لشيء أن يهز هؤلاء الرومانيين ، لم يكونوا ليستسلموا أبدا ، ليس حين استولى على مدينتهم وأحرقها عن آخرها رجال قبائل من الشمال يدعون الغال(*) في 390 ق .م . فقد كان كل ما فعلوه أن قاموا باعادة بنائها وتحصينها وتدريجيا أعادوا المدن الصغيرة المحيطة إلى سيطرتهم .

إلا أنه بعد زمن الإسكندر الأكبر لم تعد الحروب الصغيرة على المدن الصغيرة ترضيهم ، وعليه فقد مضوا للسيطرة على شبة الجزيرة بأكملها وذلك ليس ، كما فعل الإسكندر ، في حملة واحدة عظيمة ، وإنما على مراحل مبسطة ، مدينة بعد مدينة ، إقليم بعد إقليم ، وبكل ما يميزهم من عزيمة وإصرار . غالبا ما جرى الأمر على هذا المنوال : فحيث إن روما كانت مدينة قوية ، فقد كانت المدن الإيطالية الأخرى ترغب في أن تصبح حليفة لها . كان ذلك يناسب الرومانيين تماما ، وكل شيء كان يجري بسلاسة مادام الحلفاء مستمرين في السلوك الحسن . ولكن في حال إذا ما نشب خلاف أدى إلى رفض الحليف إطاعة التعليمات الرومانية ، كان ذلك يعني الحرب ، حرب غالبا ما كان ينتصر فيها الجيش أو الفيلق الروماني . وقد حدث في يوم أن طلبت مدينة في جنوب ايطاليا من

(*) الغال كانت قبائل تقطن شمال ما يعرف اليوم بإيطاليا وفرنسا وبلجيكا [المترجمة] .

أميـر وقائد إغريقي يدعى بيروس أن يأتي لنجدتهـا من الرومانيين . وصل الأمير مصحوبـاً بفيلـة الحرب ، حيث تعلم الإغريق استخدامها من الهنود ، ونجح في هزيمـة الفيلـق الرومانـي ، إلا أن هـذه الهزيمة كلفتـه غاليا : لقد فقـد الأمير عددا هائلا من رجاله حتى قيل إنه صرخ قائلا : «انتصار آخر كهذا وسنصبح في عداد المفقوديـن !» لذا ، لا يزال الناس يتحدثون اليوم عن «الانتصار البيروسـي» الذي تحقق بكلفة أعلى مما يجب .

وعليه ، فسـرعان ما سـحب بيروس قواته ، تاركا الرومانيين ليصبحوا أسـيادا على كل الجنوب الايطالي . ولكن حتى هذا لم يكن كافيا بالنسبة لهم . لقد كانوا يهدفون للسـيطرة على صقلية كذلك ، منجذبين إلى أرض الجزيرة الخصبة والتي كانت تنتج محاصيل ممتازة ، وكذلك إلى المستعمرات الإغريقية التابعة لها . إلا أن صقلية لم تعد بعد تابعة للإغريق : لقد أصبحت تحت سيطرة الفينيقيين .

والآن ، كمـا قد تتذكر ، حتى قبل أن يفعل الإغريق ، قام الفينيقيون بتأسـيس مراكـز تجـارة ومدن جديدة حيثمـا ذهبوا . تركزت تلك المراكـز والمدن في جنوب إسـبانيا وعلى سواحل شـمال أفريقيا بشكل رئيسـي . قرطاجة كانت احدى تلك المـدن الافريقية حيث كانت تقـع في مواجهة صقلية مباشـرة . كانت قرطاجة من أغنى وأعظم المدن المحيطة على بعد أميال ، وكان الرومانيون يشـيرون إلى سـكانها الفينيقيـين بمسـمى Punics أو القرطاجيـون الفينيقيـون . كانـت سـفنها تسـافر لأقاصـى البحـار ، ناقلة البضائع من بلد لآخر ، وكذلك ، وبسـبب قربها الشـديد من صقلية ، كانت تجلب معها الحبوب من هناك .

بسـبب كل ذلـك ، أصبـح القرطاجيـون الخصـم الأول الحقيقـي لرومـا ، خصمـا خطيـرا بحـق . فخلافـا للرومانيين ، لـم يكـن القرطاجيـون ليحاربوا بأنفسـهم ، بـل كانوا يمتلكون القـدرة على تأجير المرتزقة للحـرب نيابة عنهم . ففـي الحرب التـي انفجرت فـي صقلية ، اسـتطاع القرطاجيون الفـوز بالمعارك الأوليـة ، حيث لم يمتلك الرومانيون السـفن الكافية ، كما لـم يكونوا معتادين على الرحلات والحروب البحرية وبالكاد يعرفون شيئا عن بناء السفن الحربية . إلا أنـه فـي أحد الأيام ارتطمت سـفينة قرطاجية بالأرض الايطالية . باسـتخدام تلـك السـفينة كنمـوذج ، وبالعمل بسـرعة جنونية ، اسـتطاع الرومانيـون بناء

اسطول كامل لسفن مطابقة تماما لهذا لنموذج في خلال شهرين . كلفهم ذلك كل ما يمتلكون من أموال ، إلا أنهم وبوجود أسطولهم الجديد ، تمكنوا من هزيمة القرطاجيين والذين سرعان ما اضطروا للتنازل عن صقلية للرومانيين . حدث كل ذلك في 241 ق .م .

إلا أن تلك ما كانت سوى بداية الحرب بين المدينتين . لقد استحوذ الرومانيون على صقلية ، قال القرطاجيون لأنفسهم ، إذن لنأخذ نحن إسبانيا . في هذا الوقت الذي نتحدث عنه ، لم يكن هناك أي رومانيون في إسبانيا ، بل فقط القبائل البدائية . ومع ذلك لم يسمح الرومانيون بذلك . وقد حدث أن كان هناك قائد قرطاجي في إسبانيا والذي كان ابنه ، هنيبعل ، شابا مميزا بمعنى الكلمة . وحيث إنه تربى بين الجنود ، فقد خبر هنيبعل كل ما يمكن معرفته من شؤون الحرب ، الجوع والبرد ، الحر والعطش ، السير القسري ليل نهار ، لقد خبر كل ذلك . لقد كان مقداما ، عنيدا بشكل لا يصدق ، قائدا منذ ولد . كان بإمكانه أن يتفوق على عدوه بذكائه الماكر ، كما كان متمكنا من تقدير الموقف في لحظة ، كان صاحب رأس نير . نعم ، لقد كان هنيبعل عملة نادرة : رجلا جعل من الحرب مباراة شطرنج ، مقدرا بعناية كل تحرك قبل الإقدام عليه .

ولكن ، وقبل كل شيء ، كان هنيبعل قرطاجيا صالحا . كان يكره الرومانيين لمحاولتهم إخضاع مدينته الأم ، وقد كان تدخلهم في إسبانيا القشة الأخيرة . غادر هنيبعل اسبانيا فورا إلى ايطاليا مجهزا بفيلة الحرب وبجيش ضخم ، قوة هائلة حقيقية . لكي يصل إلى إيطاليا ، كان عليه أن يقطع بجيشه وكل فيلته كامل الجنوب الفرنسي ، عبر أنهار وفوق جبال وصولا إلى جبال الألب . من الممكن أن يكون قد اختار المعبر الذي يمر على كتف جبل سينيس ، كما نعرفه اليوم . لقد زرت هذه المنطقة شخصيا ، متتبعا ذاك الطريق العريض الملتوي . كيف استدلوا على الطريق في هذه الجبال الموحشة في تلك الأيام ، ودون طرق ليتتبعوها ، هو عمل يستحيل تخيله . فشخصيا ، أن أكون محاطا بوديان سحيقة ومنحدرات وعرة وحواف عشبية زلقة ، ما كنت لأتمنى أن أكون على هذه الارتفاعات بصحبة فيل واحد ، دع عنك أربعين فيلا ، حيث إنه ، وبحلول ذلك الوقت ، أي شهر سبتمبر ، كان الثلج يتجمع على قمم الجبال . إلا أن هنيبعل وجد طريقا للمرور

لجيشه ، ومن ثم فقد وصلوا أخيرا إلى إيطاليا . هناك واجهه الرومانيون ، إلا أنه هزمهم في معركة دموية . لاحقا ، فاجأ جيش روماني ثان مخيمه تحت جنح الظلام ، إلا أن هنيبعل ، والذي تم تحذيره مسبقا ، انقذ نفسه بخطة ماكرة . قيد هنيبعل المشاعل المتقدة إلى قرون قطيع من المواشي ودفع بهم إلى جانب الجبل حيث كان مخيمه . في ظلام الليل ، أخطأ الجنود الرومانيين قطيع الماشية على أنهم جنود هنيبعل وأسرعوا يلحقونهم في مطاردة ساخنة . كم كنت أتمنى رؤية وجوههم بعد أن لحقوا أخيرا بالمطاردين واكتشفوا أنهم أبقارا !

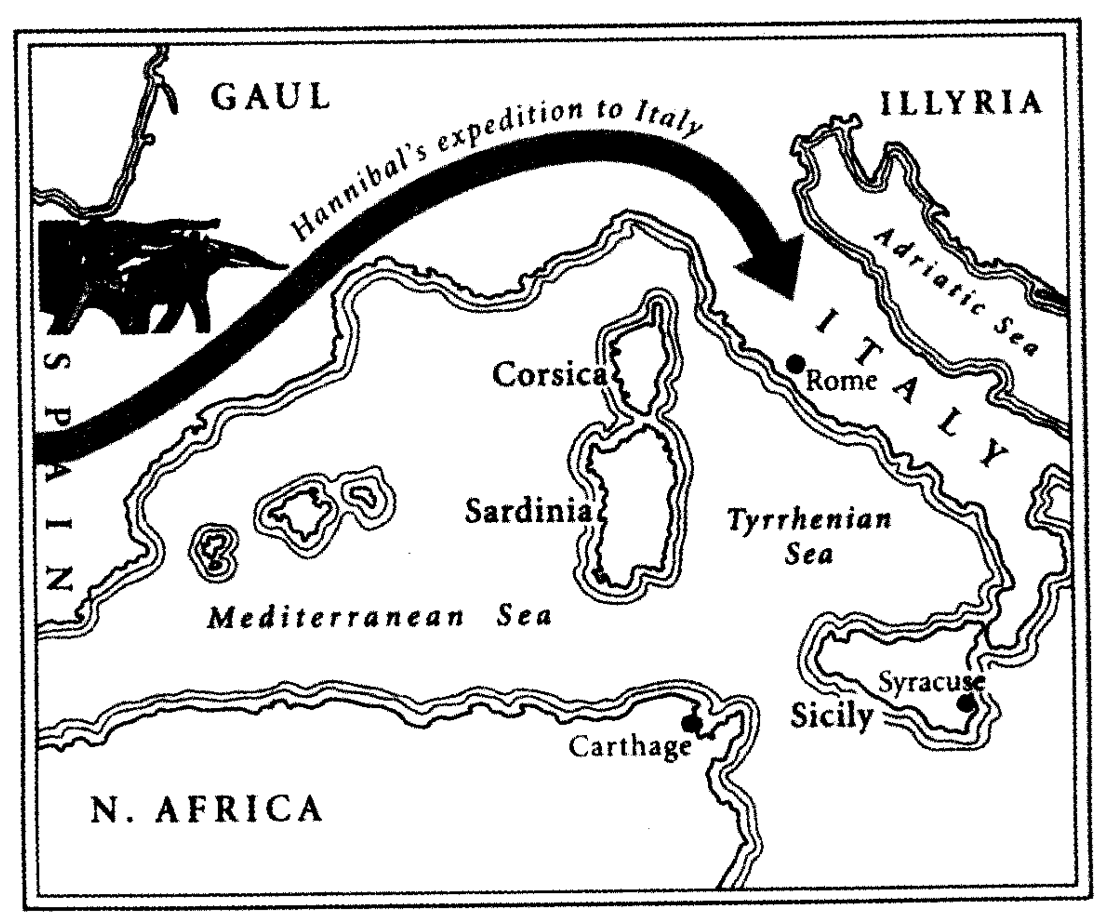
كان للرومانيين قائد موهوب جدا يدعى كوينتس فابيوس ماكسيماس ، والذي أراد تجنب ملاقاة هنيبعل في المعركة . لقد أعتقد ماكسيماس أن هنيبعل لا بد أن يفقد صبره أخيرا ، وكونه على أرض غريبة ، لا بد وأن يرتكب حماقة . إلا أن الرومانيون لم تعجبهم لعبة الانتظار هذه ، وسخروا من كوينتس فابيوس ماكسيماس مطلقين عليه اسم المتردد . وعليه ، وبتجاهل تام لنصيحة ماكسيماس ، هاجم الرومانيين هنيبعل في منطقة تسمى كاناي . هناك ، حسمت هزيمتهم : أربعين ألف قتيل في الجانب الروماني . هذه المعركة ، والتي حدثت في 217 ق .م ، كانت أكثر هزائمهم دموية . إلا أنه وعلى الرغم من انتصاره ، لم يسر هنيبعل إلى روما . مفضلا الحذر ، بقي هنيبعل في مكانه منتظرا التعزيزات العسكرية من الديار . ولقد كانت تلك نقطة التراجع ، فلم ترسل قرطاجة أي قوات جديدة ، عندها جن جنون رجاله ، فسرقوا ونهبوا المدن الايطالية . وعلى الرغم من أن الرومانيين لم يجرأوا على مهاجمته بشكل مباشر بعد ذلك ، إلا أنهم استدعوا كل رجالهم للقتال ، كل واحد من هؤلاء الرجال ، حتى الصبية الصغار والعبيد . كل رجل في ايطاليا أصبح جنديا ، ولم يكن هؤلاء جنودا مرتزقة كجنود هنيبعل ، لقد كانوا رومانيين ، وأنت تعرف ما يعني ذلك . لقد حاربوا القرطاجيين في كل من صقلية وإسبانيا . وأينما حاربوا ، ومادام هنيبعل لم يكن هو الذي يحاربونه ، كانوا ينتصرون .

بعد أربعة عشر عاما في ايطاليا ، عاد هنيبعل أخيرا إلى أفريقيا ، حيث كان رجال بلده في حاجة إليه . وصل الرومانيون ، بقيادة جنرالهم سكيبيو ، إلى مداخل قرطاجة ، وهناك هُزم هنيبعل . سيطر الرومانيون على قرطاجة في 202

ق .م ، حيث أجبروا القرطاجيين على حرق أسطولهم بأكمله وعلى دفع مبلغ كبير من المال لهم . عندها هرب هنيبعل ، حيث سمم نفسه لاحقا حتى لا يقع في أيدي المنتصرين . تشجعت روما متأثرة بفوزها العظيم هذا بعد ذلك واحتلت بلاد الإغريق ، والتي كانت لا تزال تحت الحكم المقدوني وفي وضع غير مسبوق من التمزق والتفكك . بعدها جلب الرومانيون معهم إلى أرض الوطن أجمل الأعمال الفنية من مدينة كورنيث والتي حولوها بعد ذلك إلى رماد .

GAUL	الغال
ILLYRYA	إيليريا
Hannibal's expedition to Italy	حملة هنيبعل إلى إيطاليا
Adriatic Sea	البحر الأدرياتيكي
SPAIN	اسبانيا
ITALY	إيطاليا
Rome	روما
Corsica	كورسيكا
Sardinia	سردينيا
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط
Tyrrhenian Sea	بحر ترهينيا
Sicily	صقلية
Syracuse	سرقوسة/ سيراكوز
Carthage	قرطاجة
N. Africa	شمال أفريقيا

مفتاح الخريطة المقابلة



صراع قرطاجة وروما على ملكية صقلية دفع بهنيبعل ليقود جيشه عبر جبال الألب

توسعت روما كذلك شمالا وصولا إلى أراضي الغال ، والذين ، منذ مائتي سنة مضت ، قاموا باحتلال ونهب روما . سيطر الرومانيون على الإقليم الذي نعرفه اليوم باسم شمال ايطاليا . إلا أن حتى ذلك لم يكن كافيا ، فلا تزال قرطاجة ذات نفوذ قائم ، وهي حقيقة لم يكن ليقبلها الكثير من الرومانيين ، من بينهم تحديدا شريف يدعى كاتو . كان كاتو رجلا محترما عادلا ، إلا أنه كان معروفا بقسوته . ففي أي وقت يجتمع فيه مستشارو المدينة في مجلس الشيوخ ، وأيا كان موضوع النقاش ، يقال إنه دوما ما كان ينهي أي خطبة بالكلمات التالية : «وعليه ، لابد من تدمير قرطاجة» . وفي النهاية كان ذلك تحديدا هو ما فعلوه . لفق الرومانيون ذريعة للهجوم ، إلا أن القرطاجيين دافعوا عن أنفسهم بكل ما يملكون من قوة ، وحتى بعد سقوط المدينة ، كان على الجنود الرومانيين أن يستمروا في الحرب ، من بيت إلى بيت ، وفي الشوارع ولمدة ستة أيام إضافية . عندما تم إرضاخ المدينة

أخيرا ، كان جميع القرطاجيين تقريبا إما قتلى أو أسرى . دمر الرومانيون كل البيوت وحولوا الأرض التي كانت تقوم عليها قرطاجة في يوم إلى أرض خلاء . كان ذلك في 146 ق .م . وكانت تلك نهاية مدينة هنيبعل . الآن أصبحت روما أعظم مدينة في العالم .

14

عدو التاريخ

«محاولة منع الناس من معرفة تاريخهم ليست فكرة جيدة . إذا أردت إنجاز شيء جديد فعليك أولا أن تعرف ما جربه الناس في الماضي وأنجزوه»

المؤلف

اذا كنت دوما ما تجد التاريخ مملا ، فلابد أنك ستستمتع بهذا الفصل من الكتاب .

في الوقت نفسه الذي كان فيه هنيبعل في ايطاليا (بعد سنة 220 ق .م بفترة وجيزة) ، كان يحكم الصين امبراطور يكره التاريخ كثيرا حتى إنه ، في عام213 ق .م ، أمر بحرق كل كتب التاريخ والتقارير والسجلات القديمة ، إضافة إلى كل مجموعات الشعر والأغاني وكتابات كونفوشيوس ولاو تزو . في الواقع ، أمر هذا الامبراطور بحرق كل ما اعتبره هراء غير مفيد . الكتب الوحيدة التي سمح بها هذا الامبراطور كانت كتبا عن الزراعة و بعض المواضيع المفيدة الأخرى وكل من يُمسك وبحوزته أي نوع آخر من الكتب كان يعدم فورا .

كان هذا الامبراطور يدعى شي هوانغ - تي ، أول امبراطور على الصين وأحد أعظم محاربي العالم . لم يولد هذا الامبراطور لعائلة ملكية ، لقد كان ابنا لأحد الأمراء الذين حدثتك عنهم سابقا والذي حكم مقاطعات صينية عدة . كانت مقاطعته تدعى «شين» ، حيث تسمت العائلة باسم هذه المقاطعة ، وفي الغالب ، فإن البلد بأكمله يدعى اليوم «الصين» نسبة إلى هذا الأمير .



هناك أكثر من سبب يحمل الصين لأن تأخذ اسمها من أمير مقاطعة شين . فهو لم ينصب نفسه أول الأباطرة على كل بلاد الصين بأن أرضخ مقاطعاتها الواحدة تلو الأخرى فحسب ، هو كذلك غير بلاد الصين كلها . لقد قام بخلع كل الأمراء وأعاد تنظيم الامبراطورية من الصفر . وإذا ما سألتني عن سبب كرهه للتاريخ وتدميره لكل تلك الكتب ، فذلك لأنه أراد أن يمحو كل أثر للطريقة التي كانت تدار بها الأمور سابقا ، وذلك حتى يتمكن من بناء صين جديدة ، صين تنتمي إليه هو ، بداية من نقطة الصفر . قام هذا الأمير بتعبيد الطرق في كل مكان كما بدأ العمل في مشروع ضخم : سور الصين العظيم . إلى اليوم ، لا يزال هذا السور يعتبر بناء ضخما ، حائطا مزدوجا مصنوعا من الصخر بأبراج مرتفعة وتشكيلات حجرية مختلفة ، يتلوى في طريقه فوق الأراضي المنبسطة ، متخللا الوديان العميقة وصاعدا الطرق الجبلية شديدة الانحدار متتبعا الخط الحدودي للصين للأربعة آلاف ميل كاملة . بنى شي هوانغ - تي هذا السور ليحمي فلاحي وسكان مدن الصين المخلصين المسالمين من القبائل البرية في السهوب ، والذين لا ينفك خيالتهم المحاربون يتجولون في الأراضي الشاسعة لآسيا الداخلية . كان لا بد لهذا السور أن يكون قويا بما يكفي لمقاومة غاراتهم

المستمرة وكل ما يرتكبونه من نهب وقتل . ولقد نجح الأمير في مسعاه . بالطبع ، وعلى مر القرون ، تمت اعادة بناء السور وتدعيمه مرارا وتكرارا ، وهو لا يزال موجودا إلى اليوم .

لم يستمر عهد شي هوانغ - تي طويلا . فسرعان ما صعدت عائلة أخرى إلى عرش ابن السماء . كانت تلك هي عائلة Han «الهان» . لم تجد عائلة الهان أي سبب لإبطال انجازات شي هوانغ - تي الجيدة ، حيث استمرت الصين تحت حكمهم قوية وموحدة . إلا أن عائلة الهان لم تكن معادية للتاريخ ، على العكس تماما ، فقد كانوا يعلمون كم تدين الصين في تطورها لتعاليم كونفوشيوس ، وعليه فقد بدأوا البحث في كل مكان عن كل هذه الكتابات القديمة . وقد اتضح أنه كان هناك العديد من الناس الذين امتلكوا الشجاعة كي لا يحرقوا تلك الكتب . عندها بدأوا بجمع هذه الكتب بحرص شديد حيث تضاعفت عندها أهميتها وقيمتها ، حتى إنه لكي تصبح موظفا حكوميا ، كان لا بد لك أن تعرف كل هذه الكتب وتقرأها .

الصين ، في الواقع ، هي البلد الوحيد في العالم الذي يحكمه وعلى مدى مئات السنوات ليس النبلاء ، ولا الجنود ، ولا حتى الكهنة ، بل يحكمه العلماء . فأينما كان المكان الذي أتيت منه ، غنيا كنت أو فقيرا ، ما دمت تحصلت على درجات مرتفعة في امتحاناتك ، يمكنك أن تصبح موظفا حكوميا ، حيث تذهب الوظيفة الأرفع لصاحب الدرجة الأعلى . الا أن هذه الامتحانات لم تكن سهلة مطلقا . كان عليك أن تتقن كتابة آلاف الرموز ، يمكنك أن تتخيل مدى صعوبة هذا الأمر . الأصعب من ذلك ، كان عليك أن تكون ملما بمحتويات أعداد هائلة من الكتب القديمة وكل قوانين وتعاليم كونفوشيوس وغيره من الحكماء عن ظهر قلب .

إذن ، فقد ذهبت جهود شي هوانغ - تي في حرق الكتب هباء منثورا ، وإذا كنت تعتقده على حق فأنت مخطئ ، فمحاولة منع الناس من معرفة تاريخهم ليست فكرة جيدة . اذا أردت إنجاز شيء جديد فعليك أولا أن تعرف ما جربه الناس في الماضي وأنجزوه .



15

قوانين العالم الغربي

«لم ينظم قيصر شؤون الإمبراطورية فقط ، ولكنه نظم الوقت لذلك»

المؤلف

لم يكن ليخطر ببال الرومانيين أن يقدموا على ما أقدم عليه الإسكندر الأكبر . لم تكن لديهم الرغبة ليحولوا الأراضي التي سيطروا عليها إلى امبراطورية ضخمة موحدة يعامل الجميع فيها على قدم المساواة . بالطبع لا . فكل الأراضي التي اجتاحتها الجيوش الرومانية ، حيث شنت حملات سريعة ومكثفة ، أصبحت مقاطعات رومانية امتلأت مدنها بالجيوش والمسؤولين الرومانيين . نظر المحتلون بتعال إلى السكان الأصليين ، حتى عندما كان هؤلاء السكان من الفينيقيين ، اليهود أو الإغريق ، وجميعها شعوب ذات ثقافة عريقة . فمن وجهة نظر الرومانيين كان هؤلاء يصلحون لشيء واحد فقط : دفع

الأموال . فقد أصبحوا عرضة لضرائب مرهقة ولزم عليهم أن يستمروا في ارسال الحبوب إلى روما بشكل مستمر ولأقصى درجات استطاعتهم .

فإذا ما فعلوا كل ذلك ، كانوا يُتركون بسلام . كان بإمكانهم أن يمارسوا دينهم ويتحدثوا بلغتهم ، كما أنهم وبشكل أو بآخر ، استفادوا كثيرا من كل الأفكار الجيدة التي أتى بها الرومانيون ، مثل تعبيد الطرق على سبيل المثال . العديد من هذه الطرق ، المعبدة بشكل رائع ، أوصلت روما ، مرورا بالأراضي الشاسعة الخالية ومن فوق الممرات الجبلية البعيدة ، إلى أجزاء نائية يصعب الوصول إليها من الامبراطورية . إلا أنه لا بد من القول إن الرومانيين لم يعبدوا هذه الطرق من واقع اهتمامهم بسكان هذه المدن . على العكس تماما ، كان هدفهم النجاح في إرسال الأخبار والجيوش لكل أنحاء الامبراطورية في أقصر وقت ممكن . كان الرومانيون مهندسين عظماء .

كانت أكثر إنجازاتهم المثيرة للإعجاب هي القنوات المائية ، فتلك كانت تنقل الماء من الجبال النائية مرورا بالوديان وإلى حيث المدن ، مياه صافية نقية لتملأ عددا كبيرا من النوافير والحمامات العمومية ، وذلك حتى يستمتع ضباط الأقاليم الرومانيون بكل وسائل الراحة المتوافرة في وطنهم الأم .

كان للمواطن الروماني الذي يعيش بعيدا عن روما مقام خاص ، حيث كان يحيا طبقا للقانون الروماني . فحيثما كان في هذه الامبراطورية الشاسعة ، يمكنه أن يلتفت للمسؤول الروماني ويقول : «أنا مواطن روماني !» كانت تلك الكلمات وصفة سحرية . فإذا ما كان هذا الشخص مُهملا حتى ذلك الحين ، سيكون على الجميع أن يصبحوا غاية في التهذيب والطاعة مباشرة بعد سماع هذه الكلمات .

إلا أنه في تلك الأيام كان القادة الحقيقيون هم الجنود الرومانيين . لقد كان الفضل يعود لهم في تماسك هذه الامبراطورية الضخمة ، يقضون على الثورات متى ما أتت الضرورة ويعاقبون بضراوة كل من يتجرأ ويقف ضدهم . بشجاعتهم ، وخبرتهم ، وطموحهم ، استطاع هؤلاء الجنود ضم أراض جديدة في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق ، تقريبا في كل عقد من عقود حكمهم .

كان الناس ما إن يشاهدوا الصفوف المستقيمة للجنود المدربين بكفاءة عالية وهم يسيرون ببطء بستراتهم المطلية بالمعدن، بدروعهم ورماحهم، بحبالهم وسيوفهم، بمناجيقهم القاذفة للصخور والسهام، حتى يدركوا تماما عدم جدوى المقاومة. كانت الحروب تسلية هؤلاء الجنود المفضلة، فبعد كل انتصار، كانوا يعودون بظَفرهم إلى روما، يقودهم جنرالاتهم، محملين بأسراهم وغنائمهم. كانوا يسيرون على أصوات الأبواق عابرين بين الحشود القادمة لتحيتهم، من خلال بوابات الفخر وأسفل أقواس النصر. فوق رؤوسهم كانوا يحملون الصور واللافتات، وكأنها لوحات إعلانية تستعرض انتصاراتهم. كان الجنرال يقف شامخا في عربته، بإكليل من الغار فوق رأسه، مرتديا العباءة المقدسة التي يرتديها عادة تمثال جوبيتار، كبير الآلهة، في معبده. وكأنه جوبيتار ثان، يصعد الجنرال الطريق شديد الانحدار وصولا إلى العاصمة، حيث حصن روما. وهناك، في المعبد المرتفع فوق كل المدينة، يقدم الجنرال قربانه المهيب امتنانا للرب بينما يعدم القادة المهزومين في الأسفل.

كان القائد صاحب الانتصارات المتعددة والغنائم الكثيرة لجيوشه والأراضي الوافرة لهم ليزرعونها عندما يتقدم بهم العمر ويتقاعدون من الخدمة، هذا القائد كان محبوبا من رجاله وكأنه أب لهم. كانوا ليضحوا بكل ما يملكون من أجله، ليس فقط في الغربة ولكن على أرض الوطن كذلك. فمن وجهة نظرهم، بطل المعركة العظيم هو تحديدا من يحتاجون ليبقي النظام مستتبا على أرض الوطن، حيث لا تتوقف المشاكل أبدا. فروما أصبحت مدينة ضخمة بأعداد هائلة من الفقراء الذين هم بلا عمل وبلا مال. فإذا ما توقفت الأقاليم عن إرسال الحبوب، كان ذلك يعني المجاعة في روما.

فكر اثنان من الاخوة، كانا يعيشان في حوالي سنة 130 ق.م (بعد مرور ستة عشر عاما على هدم مدينة قرطاجة)، في خطة لتشجيع هذه الأعداد الهائلة من الفقراء الجوعى على الرحيل إلى أفريقيا والاستقرار هناك كمزارعين. كان هذان الأخوان هما الأخوين غراكوس Gracchi. إلا أنهما قتلا في خضم الصراعات السياسية.

الإخلاص الأعمى ذاته الذي كان يقدمه الجنود لقائدهم ، كان يذهب كذلك لأي رجل قادر على تزويد الجماهير بالقمح ، وعلى إقامة الاحتفالات والمهرجانات الزاهية . فالرومانيون كانوا يعشقون الاحتفالات ، إلا أن احتفالاتهم كانت تختلف تماما عن تلك التي كان يقيمها الإغريق ، حيث يشارك المواطنون النبلاء في المسابقات الرياضية وينشدون على شرف أب جميع الآلهة . تلك كانت لتبدو احتفالات سخيفة بالنسبة للرومانيين . فمن هذا الرجل الجاد المحترم الذي يسمح لنفسه بأن يغني أمام العامة ، أو أن يخلع ثوبه الروماني(*) الرسمي ذا الطيات المتعددة ليرمي الرماح أمام الجماهير؟ الأفضل ترك هذه الأشياء للأسرى ، فهؤلاء هم من كان عليهم أن يتعاركوا ويتصارعوا ، أن يواجهوا الوحوش الضارية ويمثلوا المعارك الكاملة في الحلبة تحت أنظار الآلاف ، وأحيانا عشرات الآلاف من المشاهدين . ولقد تطور هذا الأمر لدرجات غاية في الجدية والدموية ، إلا أن ذلك تحديدا ما كان يجعله مثيرا بالنسبة للرومانيين ، خصوصا عندما يقومون ، عوضا عن استخدام المحترفين المدربين ، برمي المحكوم عليهم بالإعدام في الحلبة ليتصارعوا مع الأسود والدببة والنمور وحتى الأفيال .

من يقدم عروضا مثل هذه ، مصحوبة بصدقات كريمة من القمح ، كان محبوبا من الجماهير وباستطاعته أن يفعل ما يشاء . وكما يمكنك أن تتخيل ، الكثيرون حاولوا الوصول لذلك . إذا ما تنافس اثنان على السلطة ، قد يحظى أحدهما بالجيش والنبلاء في صفه ، بينما يحظى الآخر بتأييد العامة والفلاحين الفقراء . وفي خضم الصراع الطويل المستمر ، يعلو شأن هذا مرة وشأن ذاك المرة التي تليها . على النمط نفسه هذا ، كان هناك عدوان شهيران يدعيان ماريوس وسولا . كان ماريوس يحارب في أفريقيا ، وبعد عدة سنوات ، جهز جيشه مجددا لينقذ الامبراطورية الرومانية عندما تعرضت للخطر . ففي عام 113 ق .م ، قام بعض البرابرة من الشمال بغزو إيطاليا (كما فعل الدوريون ببلاد الإغريق أو ، بعدها بسبعمائة سنة ، كما فعل الغال بروما) . كان هؤلاء الغزاة هم السمبريين

(*) يسمى التوغة toga [المترجمة] .

Cimbri والتيوتيين Teutones (الجرمانيين) ، وهؤلاء هم أجداد الألمان . حارب هؤلاء بشجاعة فائقة حتى إنهم نجحوا في إجبار الجيوش الرومانية على الهرب ، إلا أن ماريوس وجيشه استطاع أن يوقفهم ومن ثم يهزمهم .

هذا الانتصار جعله أكثر الرجال المحتفى بهم في روما . إلا أنه وفي تلك الأثناء ، كان سولا يحارب في أفريقيا حيث عاد هو كذلك منتصرا . استعد الرجلان للقتال حتى النهاية . قتل ماريوس كل أصدقاء سولا ، وسولا بدوره دون قائمة طويلة بأسماء كل الرومانيين المؤيدين لماريوس ثم قام بقتلهم جميعا ، ليقدم بعدها كل أملاكهم للدولة ، وليحكم هو وجنوده الامبراطورية الرومانية حتى سنة 79 ق .م .

مرورا بكل هذه الأوقات المضطربة ، تغير الرومانيون تغيرا كبيرا . اختفى كل الفلاحين ، حيث قام عدد من الأغنياء بشراء المزارع الصغيرة وأحضروا العبيد ليديروا ممتلكاتهم الضخمة . تعود الرومانيون في الواقع على ترك إدارة كل شؤونهم للعبيد . فلم يكن فقط عمال المناجم والمحاجر من العبيد ، بل حتى المعلمون الخصوصيون لأبناء الشرفاء كانوا معظمهم من العبيد أو أسرى الحروب أو من سلالاتهم . كان هؤلاء يعامَلون على أنهم بضاعة ، يباعون ويشترون كالماشية . كان باستطاعة الملاك أن يفعلوا ما يشاؤون بعبيدهم ، حتى أن يقتلوهم . لم يكن للعبيد أي حقوق اطلاقا . باع بعض السادة عبيدهم ليتصارعوا مع الحيوانات المتوحشة في الحلبة ، وكانوا يعرفون باسم المصارعين Gladiators . في إحدى المرات ، ثار المصارعون على هذه المعاملة ، حيث استحثهم عبد اسمه سبارتاكوس ، فاحتشد من أجله عدد كبير من العبيد من مختلف مقاطعات الدولة . حارب هؤلاء بضراوة ناتجة عن اليأس ، في حين قام الرومانيون بقمع الثورة بكل قوتهم ، والتي من أجلها دفع العبيد ثمنا غاليا فظيعا ، ذاك كان في 71 ق .م .

بحلول ذلك الوقت ، أصبح بعض القادة الجدد هم مدللي الشعب الروماني ، أشهرهم كان غايس يوليوس قيصر . فهم قيصر كذلك كيف يكسب قلوب

العامـة ، حيث جمع مبالغ خياليـة من المال من أجل الاحتفالات الرائعة ومن أجل هدايـا القمح . والأكثر من ذلك ، كان هذا الرجـل قائدا عظيما بحق ، أحد أعظم القادة على الاطلاق . في احدى المرات خرج قيصر للحرب ، لتتسلم روما بعدها بأيـام قلائل رسـالة منه تحتوي على هذه الكلمات اللاتينيـة الثلاث فقط : veni، vidi، vici والتـي تعنـي "وصلت ، رأيت ، انتصرت ." تلك كانت سـرعته في إنجاز عمله !

سـيطر قيصر على فرنسـا – التي عرفت في تلك الأيام باسم الغال – وجعل منها إحدى مقاطعات روما . لم يكن ذلك بالعمل الهين ، حيث إن أهل تلك المنطقة كانوا محاربين شجعانا استثنائيين ، فلم يكن من السهل إرضاخهم . استغرقت الحملة سبع سـنوات ، من سـنة 58 حتى سـنة 51 ق .م . حارب قيصر ضد الهلفيتيين Helvetii (والذين عاشوا فيما يعرف اليوم بسويسرا) والفرنسيين والألمان . عبر قيصر نهر الراين مرتـين وصـولا إلـى الأراضي التي هـي اليوم جـزء من ألمانيـا ، كما عبـر البحر مرتين إلـى إنجلترا ، والتـي تعرف عند الرومانيـين ببريطانيا . فعل قيصر ذلـك ليعلم القبائل المجـاورة درسـا فـي الخوف مـن الرومانيـين واحترامهم . وعلـى الرغم مـن ان الغال اسـتمروا في مقاومتهم اليائسـة ، وعلى مدى سـنوات طويلة ، إلا أن قيصر هاجمهم مـرات متعـددة ، وحيثما يذهب ، كان يتـرك جنوده خلفه للسـيطرة على الأوضاع . وما إن أصبحت الغال مقاطعة رومانية ، حتى تعلـم سكانها سريعا الحديث باللاتينية ، تمامـا كما حدث مـع إسـبانيا . ولهذا السـبب ، فإن الفرنسـية والإسـبانية ، وكلاهما مشتقتان من اللغة الرومانية ، تعرفان باللغات الرومانسية Romance Languages .

بعـد احتـلال الغال ، اتجه قيصر بجيوشـه نحو ايطاليـا . كان الآن قد أصبح أقوى رجـل فـي العالـم . هاجـم قيصر بعض قـادة العالـم ، والذيـن كانوا في السـابق من حلفائـه ، وهزمهـم . وبعـد أن قام بإغواء كليوباتـرا ، ملكة مصـر الجميلة ، تمكن من إضافـة مصر للامبراطورية الرومانية . بعدها بدأ ينظم امبراطوريته الكبيرة . ولقد كان هو الرجل المثالي لهذه المهمة ، حيث كان يمتلك عقلا اسـتثنائيا في قدراته التنظيمية . كان بإمكانه أن يملي رسالتين في ذات الوقت دون أن تختلط أفكاره ، تخيل ذلك !

لـم ينظم قيصر شـؤون الامبراطوريـة فقط ، ولكنه نظـم الوقت كذلك . نظم الوقت؟ ماذا يعني ذلك؟ لقد أصلح التقويم الزمني حتى أصبح شبيها جدا بتقويمنا اليوم من حيث شـهوره الاثني عشـر وسـنواته الكبيسـة . ولقد سـمي هذا التقويم باسـمه : التقويم اليولياني . ولأنه كان رجلا عظيما ، فإن أحد الشـهور قد سـمي كذلك باسـمه : شهر يوليو . إذن فإن شهر يوليو أخذ اسمه من ذلك الرجل نحيل الوجه أصلع الرأس ، والذي كان يحب أن يرتدي اكليلا مصنوعا من الذهب على رأسه ، حيث يخفي جسده الضعيف المريض ذكاء لامعا وإرادة من حديد .

وبما أن قيصر أصبح الآن أقوى رجل في العالم ، فقد كان بإمكانه أن يصبح ملكا علـى الامبراطورية الرومانية ، وما كان ليعترض هو علـى ذلك . إلا أن الرومانيين بـدأوا يغارون منه ، وكذا فعل حتـى أعز أصدقائه ، بروتوس ، ولـم يعودوا يرغبون فـي أن يُحكموا من قبله . وخوفا من أن يؤثـر عليهم قيصر ، فقد قرروا قتله . وفي خلال اجتماع لهم في المجلس ، قاموا بتحويطه شـاهرين خناجرهم ليطعنوه بها . دافع قيصر عن نفسه ، الا أنه عندما لمح بين مهاجميه وجه بروتوس ، تجري القصة علـى أنـه قال : «حتى أنت ، يا بروتوس ، يا ولدي؟» ثم سـمح لهـم بأن ينالوا منه دون أن يبدي أي محاولات أخرى للمقاومة . حدث ذلك في 44 ق .م .

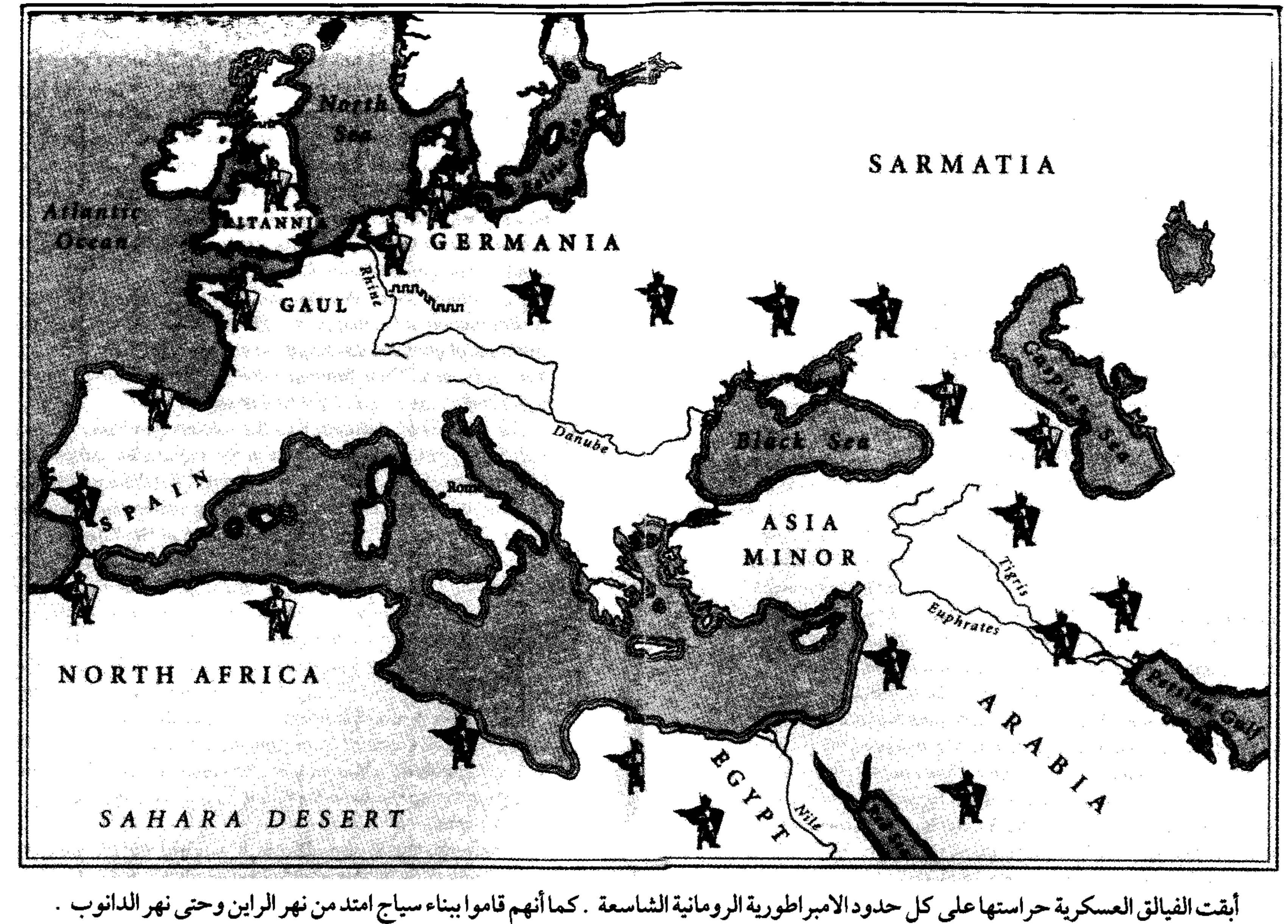
بعـد يوليو يأتي أغسـطس ، كان قيصر أوكتافيوس أوغسـطس هـو ابن قيصر بالتبنـي . بعـد أن حارب أوغسـطس ضد بعض القـادة لفترة طويلة مـن الزمن برا وبحـرا ، نجح أخيـرا في أن يصبح القائد الأوحـد للامبراطورية في عام 31 ق .م ، وأصبح بذلك أول من يحمل مسمى الامبراطور الروماني .

وبمـا أنـه قد تمـت تسـمية أحـد الشـهور باسـم يوليـوس قيصر ، فقـد تحصل أوغسطس على شهر ليسمى باسمه كذلك . ولقد استحق ذلك فعلا . قد لا يكون أوغسـطس رجلا استثنائيا كما كان قيصر ، إلا أنه كان رجلا عادلا حكيما مسيطرا علـى نفسـه طوال الوقـت مما أعطاه الحق في السـيطرة على الآخريـن . يقال إنه لم يعـط أمـرا أو يصدر قـرارا في يوم وهو فـي حالة غضب . فمتى ما شـعر بالغضب يتأجج في نفسه ، كان يبدأ بسرد الحروف الهجائية في صدره ، وما إن يصل إلى

Atlantic Ocean	المحيط الأطلسي
North Sea	بحر الشمال
Britannia	بريطانيا
Baltic Sea	بحر البلطيق
Germania	جرمانيا
Sarmatia	سارماتيا
Gaul	الغال
Rhine	الراين
Danube	الدانوب
Black Sea	البحر الأسود
Caspian Sea	بحر قزوين
Spain	اسبانيا

Rome	روما
Asia Minor	آسيا الصغرى
Tigris	دجلة
Euphrates	الفرات
Persian Gulf	الخليج الفارسي (الخليج العربي)
North Africa	شمال أفريقيا
Egypt	مصر
Nile	النيل
Red Sea	البحر الأحمر
Sahara Desert	الصحراء الكبرى
Arabia	الجزيرة العربية

مفتاح الخريطة المقابلة



أبقت الفيالق العسكرية حراستها على كل حدود الامبراطورية الرومانية الشاسعة. كما أنهم قاموا ببناء سياج امتد من نهر الراين وحتى نهر الدانوب.

النهايـة حتى يكون قد هـدأ تماما . يخبرك هذا التصرف عـن أي نوعية من الرجال كان هـو : رجل متزن حكـم الامبراطورية بالعدل والحكمة . لـم يكن محاربا كل متعتـه الاسـتمتاع بحضور عروض المصارعـة فقط . لقد عاش حياة بسـيطة وكان مقـدرا لفن النحت والشـعر الرفيعـين . وحيث إن الرومانيين كانـوا أقل موهبة من الإغريـق في هـذه الجوانب ، فإنه أمر بعمل نسـخ مـن أرقى المنحوتـات الإغريقية ووضعهـا في قصوره وحدائقه . وقد اتخذ الشـعراء الرومانيـون في عصره ، وهم أشـهر الشعراء الرومانيون على الاطلاق ، من الشعر الإغريقي نموذجا لهم ، حيث إنـه حتـى في تلك الأيـام ، كان الناس لا يزالـون يعتقدون أن أجمل الأشـياء دائما مـا يكـون مصدرهـا بلاد الإغريـق . ولـذات السـبب ، كان يُعتقد أنهـا علامة تميز للروماني أن يستطيع التحدث بالإغريقية أو أن يقرأ للشعراء الإغريق القدامى أو أن يجمع الأعمال الفنية الإغريقية . كان ذلك من حسن الحظ بالنسبة لنا ، فلو لم يقم الرومانيون بكل ذلك ، ما كنا لنسمع عن أي من هذه الأعمال الإغريقية .

16

الأخبار الطيبة

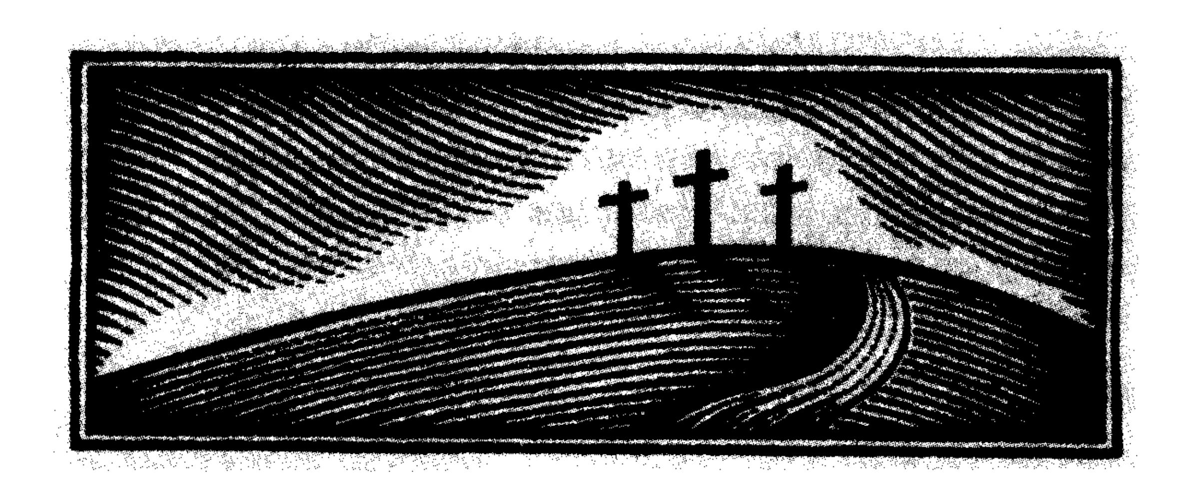
«كان المسيحيون يقولون إن هذا العالم لا بد له أن ينتهي حتى يحل محله عالم آخر أفضل وأكثر نقاء»

المؤلف

حكم أوغسطس من فترة 31 ق . م إلى 14 ب . م(*) ، مما يعني أن السيد المسيح كان قد ولد خلال هذه الفترة . ولد المسيح في فلسطين ، والتي كانت في ذلك الوقت مقاطعة رومانية . يمكنك أن تقرأ عن حياة وتعاليم المسيح في الإنجيل . غالبا ، أنت تعرف أهم التعاليم التي جاء بها : لا يهم أن يكون الإنسان غنيا أو فقيرا ، نبيلا أو متواضع الأصل ، سيدا أو عبدا ، مفكرا عظيما أو غرا صغيرا ، كل البشر هم أبناء الله ، وحب هذا الرب لا حدود له . أمام هذا الإله لا يقف إنسان بلا ذنب ، لكن الرب يشفق على الخطائين . فأكثر ما يهم ليس إطلاق الأحكام ، ولكن الرحمة .

(*) «ب .م» هي ترجمة لـ AD: Anno Domini ، والتي تعني «بعد ميلاد السيد المسيح» [المترجمة] .

أنت تعرف ما هي الرحمة : إنها عطاء ومغفرة الرب النابعة من محبته ، وعليه ، فإننا يجب أن نعامل الآخرين كما نود لو أن الرب ، أبانا ، يعاملنا . لهذا فإن المسيح قد قال : «أحب عدوك ، افعل الخير مع من يكرهك ، بارك من يلعنك ، وصل لمن أساء معاملتك ، إذا ضربك أحدهم على خدك أدر له الخد الآخر . إذا أخذ أحدهم عباءتك ، فلا تمنع عنه سترتك . أعط كل من يسألك ، وإذا أخذ أحدهم ما هو لك ، فلا تطالب باسترجاعه» .



وكما تعلم ، فإن المسيح قضى زمنا قصيرا مسافرا في جميع أنحاء البلاد ، يدرس الناس ويعظهم ، يطبب المرضى ويواسي الفقراء ، وتعلم أيضا أنه اتهم بمحاولته أن يصبح ملكا على اليهود ، وأن أحد القادة الرومانيين ويدعى بونتيوس بيلات حكم عليه أن يصلب على الصليب بالمسامير بتهمة أنه يهودي ثائر . كانت هذه العقوبة المريعة توقَع فقط بالعبيد واللصوص والرعايا التابعين للإمبراطورية ، وليس للمواطنين الرومانيين أبدا . كان ينظر إلى هذه العقوبة على أنها إهانة مخزية ، غير أن المسيح علم الناس أن أعظم مآسي الدنيا تحمل معنى عظيما ، أن الشحاذين ، المعذبين ، المضطهدين ، المرضى والمكروبين ، كلهم مباركون بسبب من محنتهم . وبذلك أصبح المسيح ، الذي استشهد(*) بعد عذاب شديد ، رمزا للتعاليم التي أتى بها للمسيحيين الأوائل . قد لا نستطيع أن نتخيل ما يعنيه هذا

(*) لعل القارئ لا يحتاج إلى بيان أن المؤلف ينطلق في هذه النقطة من عقيدته المسيحية – بطبيعة الحال – وهي تخالف العقيدة الإسلامية التي تنطلق من الآية الكريمة : «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» (النساء : 157) [التحرير] .

اليوم . كان الصلب أسوأ من الشنق ، لكن صليب العار هذا أصبح رمزا للتعاليم الجديدة . لك أن تتخيل ما كان يمكن أن يفكر فيه مسؤول أو جندي روماني ، أو مدرس روماني عميق الثقافة اليونانية ، فخور بحكمته وبلاغته ومعرفته الفلسفية ، عندما سمع تعاليم المسيح من أحد المبشرين العظماء ، ربما الحواري بول في أثينا أو في روما . يمكننا أن نقرأ موعظة الحواري بدل التي ألقاها في خطابه الأول للكورينثيين اليوم :

سأريكم طريقا أعظم : إذا ما تحدثت بلسان البشر والملائكة ، وليس في قلبي المحبة ، فما أنا سوى جرس طنان أو صنج رنان . إذا ما كنت أستطيع أن أرى الغيب فأملك سر كل ما غمض ، وأفقه كل علوم الدنيا ، وأمتلك كل الايمان الذي يمكنني من تحريك الجبال ، وليس في قلبي المحبة ، فأنا لا شيء من دون المحبة . إذا تخليت عن كل ما أملك ، وقدمت جسدي ليحرق ، وليس في قلبي المحبة ، فما ربحت شيئا . المحبة هي المعاناة الطويلة ، هي الطيبة ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تتباهى ، المحبة لا تسيء التصرف ، المحبة لا تسعى إلى مصلحتها ، المحبة لا تستثار بسهولة ، المحبة لا تحمل الضغينة ، لا تسعد المحبة بالشر ولكن تحتفي فقط بالحقيقة . المحبة تقي الجميع ، تثق بالجميع ، دائما تأمل ، دائما تتحمل . المحبة أبدية .

لابد أن الرومانيين ، فور سماعهم موعظة بول قد هزوا رؤوسهم ، فتلك بالكاد كانت لغة القانون ، غير أن الفقراء والمسحوقين سمعوا في كلمات بول شيئا جديدا تماما ، شيئا لم يسمعه أحد من قبل : الإعلان العظيم عن الرحمة الإلهية والتي هي أعظم من أي قانون ، والتي كانت تسمى الإنجيل (Gospel) ، أو البشرى (Good News أو glad tidings) ، وكلها تعني البشرى ، هي ترجمة للكلمة الإغريقية eu-angelion والتي منها تشتق كلمة evangelical والتي تعني إنجيلي أو بروتستانتي . وسرعان ما انتشرت هذه الأخبار الطيبة السعيدة عن رحمة الرب الأب – هذا الإله الفريد الخفي الذي آمن به اليهود قبل فترة طويلة من ولادة المسيح ورسالته – في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية .

بدأ المسؤولون الرومانيون ينتبهون . فكما تعرف ، لم يكونوا ليشغلوا أنفسهم سابقا بالشؤون الدينية ، لكن هذا الوضع كان جديدا . فالمسيحيون ، الذين آمنوا بإله واحد فقط ، كانوا يرفضون نثر العطور أمام تماثيل الإمبراطور ، حيث كان ذلك تقليدا رومانيا منذ أن أصبح لروما إمبراطور . وكما فعل الحكام المصريون والصينيون والبابليون والفرس ، سمح الحكام الرومانيون لأنفسهم بأن يعبدوا كآلهة . كانت تماثيلهم في كل مكان ، وكان متوقعا من كل مواطن صالح أن ينثر بعض الحبوب المعطرة أمام هذه الصور كقرابين . المسيحيون رفضوا أن يفعلوا ، لكن الناس أرادوا إرغامهم على ذلك .

بعد وفاة المسيح على الصليب بثلاثين سنة (كان ذلك بعد نحو 60 سنة من ولادته - في 60 ب . م) ، تولى حكم الإمبراطورية اليونانية إمبراطور لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه . كان اسمه نيرون . لا يزال الناس يرتجفون عند سماعهم اسم هذا الوحش . غير أن الشيء المنفر فعليا حول شخصه هو أنه لم يبدأ حياته كوحش ، كإنسان شرير وشرس خالص ، لقد كان ببساطة ضعيفا ، تافها ، شكاكا وكسولا . تخيل نيرون نفسه شاعرا حيث نظم الأغاني التي كان يؤديها بنفسه . كان يأكل أو بمعنى أصح يتخم نفسه بأندر أنواع الأطعمة الراقية ، وكان مجردا تماما من كل أخلاق أو كرامة . لم يكن معدوم الجاذبية تماما ، لكنه كان هناك شيء متوحش وأناني في ابتسامته . قام نيرون بقتل أمه وزوجته ومعلمه إضافة إلى عدد آخر من الأقرباء والأصدقاء . كان يعيش في رعب دائم من الاغتيال ، فقد كان إنسانا جبانا كذلك .

في أحد الأيام اندلع حريق هائل في روما ، ظل مشتغلا من الصباح إلى المساء ، التهم المنزل تلو الآخر ، والمقاطعة تلو الأخرى ، وشرد مئات الآلاف من الناس ، حيث إنه بحلول ذلك الوقت ، كانت روما قد أصبحت مدينة ضخمة يبلغ عدد سكانها أكثر من مليون شخص ، ماذا تعتقد أن يفعل نيرون في هذا الظرف؟

لقد وقف في شرفة قصره الباذخ ممسكا بقيثارته وأنشد أغنية كان قد ألفها حول حريق مدينة طروادة . فقد رأى أن تلك الأغنية تتماشى مع المناسبة تماما . أثار ذلك سخط الشعب ، فحتى ذلك الوقت لم يكونوا قد كرهوه كثيرا لأنه كان دائما ما يقدم لهم الاحتفالات البهيجة وما كانت قسوته لتظهر إلا على أصدقائه المقربين

ومعارفه . غير أن الإشاعة التي انتشرت كانت تقول إن نيرون بنفسه هو من أضرم النار في روما . لا نعرف مدى حقيقة هذا الأمر ، ولكن على كل الأحوال كان نيرون يعلم أن الناس اعتبروه مسؤولا عن الحريق ، لذا فقد أخذ يبحث عن كبش فداء إلى أن وجده في أحد المسيحيين . كان المسيحيون يقولون إن هذا العالم لا بد له أن ينتهي حتى يحل محله عالم آخر أفضل وأكثر نقاء . بالطبع ، أنا وأنت نعلم أنهم كانوا يعنون الجنة ، غير أنه ولأن الناس عادة لا تصيخ السمع إلى ما يقال ، فإنهم سرعان ما بدأوا يتداولون أن : «المسيحيون يريدون لهذا العالم أن ينتهي لأنهم يكرهون البشرية» ، ويا له من اتهام خطير ، ألا تعتقد ذلك؟

شرع نيرون يعتقل المسيحيين حيث يجدهم ، ثم كانوا يعدمون بوحشية . البعض منهم كانت تمزقه الحيوانات المتوحشة في الحلبة ، بينما حرق آخرون وهم أحياء ، حيث استخدمهم كمشاعل في الحفلات الليلية الضخمة في حديقة منزله . لكن المسيحيين تحملوا كل هذا التعذيب وما تلاه من اضطهاد بشجاعة نادرة . كانوا فخورين أن يكونوا شهودا على قوة دينهم الجديد ، وكان هؤلاء الشهود ، أو الشهداء (martyrs) ، إذا أردنا استخدام الكلمة الإغريقية ، هم من أصبحوا لاحقا القديسين الأوائل . لقد اعتاد المسيحيون أن يصلوا على أضرحة شهدائهم ، والذين دفنوهم في شبكة متكاملة من الممرات وغرف الدفن تحت الأرض والتي تسمى سراديب الموتى والموجودة خارج أسوار المدينة . كانت حوائط هذه السراديب مرسومة بصور بسيطة مستوحاة من قصص الإنجيل : قصة دانييل في عرين الأسد ، قصة شادراخ ، ميشاك ، وأبدنيغو في التنور المحترق ، أو قصة موسى - عليه السلام - وهو يضرب الصخر ليفجر الماء ، وتلك كلها كانت قصصا مذكورة لتذكر المسيحيين بقوة الرب وبالحياة الأبدية .

في هذه الممرات تحت الأرض كان المسيحيون يتجمعون ليلا ليناقشوا تعاليم المسيح ، ليتشاركوا في العشاء الإلهي ، وليشجعوا بعضهم البعض إذا ما تهددهم اضطهاد جديد . خلال القرن التالي ، وعلى الرغم من كل الاضطهاد الذي كان يمارس ضدهم ، فإن المزيد من الرجال والنساء في أنحاء الإمبراطورية بدأوا يؤمنون بـ«البشرى» ، حيث كانوا مستعدين لأن يتحملوا من أجلها العذاب ذاته الذي عاناه المسيح .

لم يكن المسيحيون وحدهم الذين اختبروا قسوة الحكم الروماني ، فلم تكن الأمور أفضل بالنسبة إلى اليهود . بعد مرور سنوات قليلة على عهد نيرون ، تفجرت ثورة ضد الرومانيين في بيت المقدس . طالب اليهود بحريتهم ، وحاربوا بشجاعة وإصرار استثنائيين ضد كل الفيالق التي اضطرت إلى محاصرة مدينة يهودية بعد أخرى ليتمكنوا من هزيمتهم . مدينة بيت المقدس نفسها أصابتها المجاعة خلال السنتين الطويلتين اللتين حاصرها خلالهما تيتوس ، ابن الإمبراطور الروماني فاسباسيانوس . اصطاد الرومانيون الذين كانوا خارج المدينة كل من حاول الهرب ثم صلبوهم . عندما نجح الرومانيون أخيرا في اقتحام المدينة ، في 70 ب . م ، يقال إن تيتوس أمر بترك معبد الرب الواحد بسلام ، غير أن الجنود سرقوا ونهبوا المعبد على رغم كل شيء ، وحملت الأواني المقدسة إلى روما في إشارة إلى النصر ، كما يمكننا أن نشاهد ذلك اليوم في الرسومات المنحوتة على القوس الذي شيده تيتوس في روما احتفاء بانتصاره . دمرت بيت المقدس وتشرد اليهود في اتجاهات الرياح الأربع . وبتأسيس أنفسهم كتجار في مدن متعددة ، فقد اليهود موطنهم الأم تماما . منذ ذلك الحين فصاعدا أصبحوا يتجمعون في مدارس الصلاة ، في مدن مثل الإسكندرية وروما وغيرها من المدن الغريبة ، يزدريهم ويسخر منهم الجميع ، لأنهم حتى وهم بين الوثنيين ، ظلوا متمسكين بعاداتهم القديمة ، يقرأون الإنجيل وينتظرون يسوعهم المسيح ليخلصهم .

17

الحياة في الإمبراطورية وعلى حدودها

«المؤلفون الرومانيون الذين وصلت مؤلفاتهم إلينا كانوا يحذرون رفاقهم من المواطنين مما اعتقدوه أسلوب حياة رومانيا خطيرا، يقوم على الرفاهية المدمرة وإشباع الرغبات»

المؤلف

إذا لم تكن مسيحيا، يهوديا، أو قريبا للإمبراطور، فإن الحياة في الإمبراطورية الرومانية يمكن أن تكون لطيفة وهادئة بالنسبة إليك. يمكنك أن تسافر من إسبانيا إلى الفرات ومن الدانوب إلى النيل على طرق رومانية غاية في الروعة. كانت الخدمة البريدية الرومانية تقوم بعمل زيارات منتظمة للمستعمرات على حدود الإمبراطورية، محملة بالأخبار جيئة وذهابا. في كل المدن العظيمة مثل الإسكندرية أو روما يمكنك أن تحصل على كل ما تحتاج من أجل حياة مريحة. بالطبع، في روما، كانت هناك مقاطعات كاملة مكونة من مبان شبيهة بالثكنات العسكرية، متعددة الطوابق قبيحة البنيان، حيث يعيش

الناس الفقراء . بالمقارنة فإن الدور والبيوت الخاصة بالطبقة الغنية كانت فاخرة التأثيث ومزينة بالأعمال الفنية الإغريقية الجميلة ، وكان لها حدائق صغيرة رائعة تحتوي على نوافير للتبريد . في أشهر الشتاء ، كانت الغرف تدفأ بنوع من التدفئة المركزية ، حيث ينتشر الهواء الحار خلال الطابوق المجوف تحت الأرضيات . كان لكل روماني غني عدة منازل ريفية ، عادة بالقرب من البحر ، وعدد من العبيد ليديروها ، ومكتبات رفيعة المستوى تحتوي على أعمال أفضل الشعراء الإغريق واللاتينيين . كانت بيوت الأغنياء تحتوي كذلك على ملاعبها الرياضية الخاصة بها وأقبيتها الزاخرة بأفضل أنواع النبيذ . إذا ما شعر الروماني بالملل في بيته ، فله أن يتوجه إلى السوق أو قاعات المحاكم أو الحمامات . كانت الحمامات ، أو الثيرمات (therms) ، مبان ضخمة مزودة بقنوات تستجلب المياه من الجبال البعيدة . كانت هذه المباني رائعة التأثيث والتزيين ، وبها قاعات للحمامات الساخنة والباردة ولحمامات البخار ، وقاعات أخرى لممارسة الألعاب الرياضية . لاتزال بقايا هذه المباني الثيرمية الضخمة موجودة . وبأقبيتها مرتفعة الأسقف ، وأعمدتها الرخامية زاهية الألوان ، ومسابحها المبلطة بالأحجار الكريمة النادرة ، كانت تبدو هذه الحمامات كأنها قصور خيالية .



أما ما كان أكبر حجما وأكثر إثارة للإعجاب فهو المسارح . فالمدرج المسرحي الهائل في روما والمعروف باسم الكولوسيوم كان يستوعب ما يقترب من خمسين ألف مشاهد – بعض مدرجاتنا الرياضية الحديثة تستوعب عددا أكبر بقليل –

كانت هذه المسارح تستخدم أساسا لمسابقات العبيد المحاربين وعروض اصطياد الحيوانات ، حيث ، كما تتذكر ، مات الكثير من المسيحيين على أرضها . كانت مدرجات مقاعد المشاهدين ترتفع فوق الحلبة ، فيبدو المسرح مثل قمع بيضاوي ضخم . تخيل الضجة التي كان يحدثها خمسون ألف شخص عندما كانوا يحتشدون جميعا داخل المسرح . كان الإمبراطور يجلس في مقصورته الملكية أسفل سقيفة هائلة رائعة لتحميه من الشمس ، وعندما كان يلقي بمنديله إلى الحلبة ، كانت تلك هي الإشارة لبدء المباريات . عندها يظهر المحاربون ، ووقوفا أمام المقصورة الإمبراطورية ، كانوا يصرخون : «يحيا قيصر ! نحن الذين نوشك على الموت نحييك !» .

غير أننا يجب ألا نعتقد أن الأباطرة لم يكونوا يفعلون شيئا سوى الجلوس في المدرجات المسرحية ، أو أنهم كانوا جميعا كسالى أو مجانين جامحين مثل نيرون . على العكس تماما ، لقد كانوا يقضون معظم وقتهم في المحافظة على السلام في الإمبراطورية . فخلف الحدود البعيدة حولهم كانت تنتظر قبائل بربرية عنيفة لتغير على المقاطعات الغنية وتنهبها . كان الجيرمانيون ، الذين عاشوا في الشمال على الطرف الآخر من الدانوب والراين ، تحديدا مثيرين للقلق ، وقد اصطدم بهم قيصر أثناء حملاته على بلاد الغال . ببنياتهم القوية الطويلة ، كانت هاماتهم ترتفع فوق الرومانيين ، مثيرين فزعهم الشديد . ليس فقط ذلك ، ولكن بلدهم ، الآن ألمانيا ، كانت في تلك الأيام أراضي مستنقعات وغابات مظلمة ، لطالما ضلت الفيالق الرومانية الطريق فيها . غير أنه وببساطة وقبل كل شيء ، لم يكن الجيرمانيون معتادين على الحياة في البيوت الراقية المدفأة مركزيا . لقد كانوا فلاحين ورعاة ، كما كان الرومانيون أنفسهم في يوم سلف ، وكانوا يفضلون أن يعيشوا كما كانوا دوما : في بيوتهم الخشبية بالمزارع المعزولة .

كان الرومانيون المثقفون في المدن يحبون الكتابة حول البساطة الكبيرة في أسلوب حياة الجيرمانيين ، التقشف والزهد المزروعين في عاداتهم ، حبهم للحرب وولائهم لشيوخ قبائلهم . فبجذب الانتباه إلى ما يبدو أنه أسلوب حياة

بسيط وصالح وطبيعي والمتمثل في الحرية التي تبيحها الغابات للقبائل التي يقطنونها ، كان المؤلفون الرومانيون الذين وصلت مؤلفاتهم إلينا يحذرون رفاقهم من المواطنين مما اعتقدوه أسلوب حياة رومانيا خطيرا ، غارقا في الرفاهية المدمرة وقائما على إشباع الرغبات والنزوات .

كان المحاربون الجيرمانيون أعداء خطيرين فعلا . تعلم الرومانيون هذا الدرس باهظ الثمن خلال حكم أوغسطس . في ذلك الوقت ، كان رجل يدعى أرمينيوس قائدا بأحد القبائل الجيرمانية المسماة جيروشي . وكان هذا الرجل يعرف ، بحكم تربيته في روما ، كل شيء عن الفنون الحربية الرومانية . وذات يوم ، بينما كان أحد الجيوش الرومانية يقطع غابة تيوتوبورغ ، قام أرمينيوس بنصب كمين للجيش وأباد كل أفراده . بعد هذا الحادث ، حرص الرمانيون على البقاء بعيدا عن هذه المنطقة ، غير أن الحاجة كانت ملحة بالنسبة إليهم لتأمين حدودهم ضد الجيرمانيين . وعليه ، فإنهم خلال القرن الأول ب . م ، أقدموا على ما أقدم عليه نفسه الإمبراطور شي هوانغ – تي في الصين ، فقد قاموا ببناء سور ، يعرف باسم اللايمز ، على طول الحدود من الراين حتى الدانوب . هذا السور المصنوع من الصخور والمزود بأبراج مراقبة وخنادق كان يقصد به حماية الإمبراطورية من القبائل الجيرمانية المرتحلة . فأكثر ما كان يقلق الرومانيين هو أنه ، وعوضا عن بقائهم بسلام في مزارعهم يفلحون الأرض ، كانت هذه القبائل في حركة دائمة بحثا عن أراضي صيد جديدة أو مراع جديدة . كانوا ببساطة يحملون زوجاتهم وأبناءهم على عربات الثيران ويرتحلون بهم بحثا عن مكان جديد يقيمون فيه .

كان هذا يعني أن الرومانيين كانوا مجبرين على وضع قوات دائمة على الحدود للدفاع عن الإمبراطورية . فعلى طول نهري الراين والدانوب كان هناك جنود من كل بلد موجود تحت الشمس . بالقرب من فيينا ، كان هناك معسكر للمصريين ، والذين بنوا لأنفسهم معبدا على ضفاف الدانوب كرسوه لآلهتهم إيزيس . في هذه البقعة تحديدا توجد مدينة اليوم تدعى يبس حيث تستمر ذكرى إيزيس في اسمها هذا . كان حرس الحدود يعبدون عددا من الآلهة ، هناك إله الشمس الفارسي ،

ميثرا ، على سبيل المثال ، وبعده بفترة قصيرة جاء إله المسيحيين الخفي الفريد من نوعه . غير أن الحياة في هذه المراكز الحدودية لم تكن مختلفة كثيرا عنها في روما . إلى اليوم ، لايزال باستطاعتنا أن نشاهد المسارح الرومانية والحمامات في ألمانيا (في كولون ، ترابر ، أوغسبيرغ ، وريغنسبيرغ) ، في النمسا (في سالسبيرغ وفيينا) ، في فرنسا (في آرل ونيم) ، وفي إنجلترا (في باث) ، إضافة إلى بيوت الموظفين الإمبراطوريين وثكنات الجنود . غالبا ما كان الجنود القدامى يشترون لأنفسهم أرضا في المقاطعة ، ثم يتزوجون من فتيات محليات ويستقرون بجانب المخيم . نتيجة لذلك ، فإن مواطني الأقاليم بدأوا يعتادون تدريجيا على الحضور الروماني ، بينما ارتفع القلق بين هؤلاء الذين يعيشون خلف الراين والدانوب على مر السنين . لم يمر وقت طويل حتى بدأ الأباطرة الرومانيون في قضاء وقت أطول في المدن الحدودية عن قصورهم في روما . من بين هؤلاء الأباطرة رجال غير عاديين ، أحدهم الإمبراطور تراجان . عاش هذا الإمبراطور تقريبا بعد مائة سنة من زمن المسيح ، وقد بقي الناس يتحدثون عن عدالته ودماثة خلقه حتى بعد موته بفترة طويلة .

عبر جنود تراجان الدانوب مجددا إلى ما يعرف اليوم بهنغاريا ورومانيا . وتحويل هذه الأراضي إلى مقاطعة رومانية سيجعل الإمبراطورية أكثر أمانا . كان البلد اذي احتلوه يعرف باسم داسيا . ما كادت داسيا تصبح رومانية وبدأ سكانها في الحديث باللاتينية ، حتى أصبح اسمها رومانيا . غير أن تراجان لم يقد فقط الحملات العسكرية ، لقد جعل تراجان من روما مدينة رائعة بساحات متألقة ، حيث تمت تسوية تلال كاملة بالأرض فقط لخلق المساحات المطلوبة لهذه الساحات . بعدها كلف تراجان مهندسا معماريا إغريقيا ببناء معابد ودكاكين ومحاكم وأروقة ونصب تذكارية . لايزال بإمكانك رؤية آثارها في روما اليوم .

الأباطرة الذين خلفوا تراجان كلهم اعتنوا بإمبراطوريتهم كذلك ودافعوا عن حدودها ، وخصوصا الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، والذي حكم بين 161 و180 وقضى الكثير من وقته في المواقع العسكرية على الدانوب ، في كارنتوم ، وفي فيندوبونا ، وهو الاسم الذي كان يطلق على فيينا سابقا . غير أن ماركوس

أوريليوس كان يكره الحرب . كان رجلا دمثا وهادئا ، كما كان فيلسوفا لم يحب شيئا مثلما أحب القراءة والكتابة . لاتزال لدينا اليوم المذكرات التي احتفظ بها ، وهي التي كتب أغلبها أثناء حملاته الحربية . كان أغلب ما كتبه فيها تقريبا يدور حول التحكم في النفس والتسامح ، وتحمل الآلام والصعاب ، والبطولة الصامتة للمفكر ، تلك كانت أفكارا لتفرح البوذا .

لكن ماركوس أوريليوس لم يتمكن من الانسحاب إلى الغابة للتأمل . كان لابد له أن يعلن الحرب في الريف بالقرب من فيينا ضد القبائل الجيرمانية ، والتي كانت مضطربة تحديدا في ذلك الوقت . يقال إن الرومانيين اصطحبوا معهم الأسود لإخافة العدو عبر الدانوب ، غير أنه بحكم أن الجيرمانيين لم يكونوا قد رأوا أسودا من قبل ، فإنهم لم يصابوا بالخوف مطلقا . ببساطة ، قاموا بقتل ما اعتقدوه كلابا ضخمة . وفي أثناء هذه الحروب ، توفي ماركوس أوريليوس فجأة في المقر الرئيسي في فيندوبونا في 180 ب . م .

قضى الأباطرة الذين خلفوه كذلك وقتا أطول على الحدود وأقصر في روما . لقد كانوا جنودا حقيقيين ، تختارهم قواتهم وغالبا ما يتم إعفاؤهم أو حتى قتلهم بواسطة هذه القوات كذلك . الكثير من هؤلاء الأباطرة لم يكونوا رومانيين ، ولكن غرباء ، لأنه بحلول ذلك الوقت كانت جحافل الجيوش تضم أعدادا صغيرة جدا من الرومانيين بينهم ، فالفلاحون الإيطاليون الذين خرجوا ليحتلوا العالم في وقت مضى اختفوا تقريبا ، بينما تم ضم مزارعهم للمقاطعات الضخمة المملوكة للأغنياء والتي يديرها عبيد غرباء ، حتى الجيش كان مكونا من الغرباء - قد تتذكر المصريين على ضفاف الدانوب . أغلب هؤلاء الجنود كانوا جيرمانيين ، والذين كانوا ، كما تعرف ، جنودا متفوقين . وقد كانت هي تلك الجيوش الغريبة ، والمتمركزة على الجوانب الأربعة للإمبراطورية الشاسعة - على حدود جيرمانيا ، وبلاد فارس وفي إسبانيا وبريطانيا وشمال أفريقيا ومصر وآسيا الصغرى ورومانيا التي تختار جنرالاتها المفضلين ليصبحوا أباطرتهم . بعدها ، تصارع الجميع على السلطة وقتلوا بعضهم البعض ، تماما كما في زمن ماريوس وسولا .

سيطر الارتباك والبؤس في السنوات التي تلت 200 ب . م . لم يكن هناك أحد تقريبا في الإمبراطورية الرومانية ليبقي على النظام سوى العبيد أو الجيوش الغريبة والذين لم يستطيعوا فهم بعضهم بعضا . لم يتمكن الفلاحون في المقاطعات من دفع الضرائب فثاروا ضد ملاك الأراضي . في تلك الأوقات العصيبة عندما أصبحت الأرض في قبضة الأوبئة والفوضى ، وجد الكثيرون العزاء في بشرى الإنجيل . المزيد من الرجال والعبيد تحولوا إلى المسيحية رافضين تقديم الأضحيات للإمبراطور .

وفي ذروة الأزمة نجح رجل من أسرة فقيرة في فرض السيطرة على الإمبراطورية . كان هذا هو الإمبراطور دقلديانوس . وصل دقلديانوس إلى السلطة في العام 284 ثم انطلق محاولا إعادة بناء الإمبراطورية والتي كانت مدمرة في ذلك الوقت . انتشرت المجاعة في كل مكان ، لذا قرر وضع حد أعلى لأسعار كل الأطعمة . لقد اختار دقلديانوس ، بعد أن استوعب استحالة إدارة الإمبراطورية من مكان واحد فقط ، أربع مدن لتصبح عواصمه الإمبراطورية الجديدة ، وعين نائبا ، أو واليا ، في كل منها . وفي سبيل إعادة الاحترام والكرامة لدور الإمبراطور ، فرض دقلديانوس طقوسا ومراسم احتفالية جديدة للبلاط ، مزودا أفراد بلاطه وموظفيه بأثواب غنية بالتطريز وخلابة الجمال . كان بالتحديد مصرا على أن يقدم الشعب الأضحيات للإمبراطور ، وعليه فقد اضطهد المسيحيين في جميع أنحاء الإمبراطورية بلا رحمة . كانت تلك آخر الاضطهادات وأكثرها دموية . وبعد ملك دام أكثر من عشرين سنة ، تخلى دقلديانوس عن منصبه الإمبراطوري ، حيث انسحب ، رجلا مريضا ، إلى قصره في دلماسيا . هناك امتد به العمر ليرى فشل كل معاركه ضد المسيحية .

يقال إن خليفته ، الإمبراطور قسطنطين ، تخلى عن هذا الصراع في مساء معركة ضد غريمه ماكسينتيوس . فقد رأى قسطنطين في منامه الصليب وسمع هذه الكلمات : «تحت هذه الراية ستكون منتصرا» ، وبانتصاره في هذه المعركة ، أصدر مرسوما في العام 313 بالتوقف عن اضطهاد المسيحيين . عن نفسه ، بقي وثنيا فترة طويلة ، ولم يتم تعميده إلا وهو على فراش الموت . لم يعد قسطنطين

يدير الإمبراطورية من روما . في تلك الأيام كان التهديد الرئيسي آتيا من الشرق ، فقد أصبح الفرس أقوياء مرة أخرى ، لذا فقد اختار مستقرا له المستعمرة الإغريقية القديمة بيزنطة الواقعة على البحر الأسود ، والتي سميت على إثر هذا الاختيار مدينة قسطنطين ، أو القسطنطينية ، التي نعرفها اليوم باسم إسطنبول .

بحلول العام 395 ، لم تعد للإمبراطورية الرومانية عاصمتان فقط بل ولايتان : الإمبراطورية الغربية ، المكونة من إيطاليا ، الغال ، بريطانيا ، إسبانيا ، وشمال أفريقيا ، حيث يتكلم الناس اللاتينية ، والإمبراطورية الشرقية ، المكونة من مصر ، فلسطين ، آسيا الصغرى ، وبلاد الإغريق ومقدونيا ، حيث يتكلم الناس الإغريقية . ومنذ العام 380 فصاعدا ، أصبحت المسيحية الديانة الرئيسية في كلتا الولايتين . كان ذلك يعني أن الأساقفة والمطارنة أصبحوا رموزا رفيعة المقام وذوي نفوذ كبير في إدارة شؤون الولاية . لم يعد المسيحيون يتقابلون في ممرات السراديب ، لكن في الكنائس الضخمة ذات الأعمدة الرائعة . أما الصليب ، رمز الخلاص من المعاناة ، فقد أصبح الآن شعار الفيالق الحربية .

18

العاصفة

«لقد كانت تلك هي العاصفة التي اكتسحت الإمبراطورية الرومانية دافعة بها إلى دوامة الهاوية»

المؤلف

هل سبق لك أن شاهدت عاصفة مقبلة في يوم صيفي حار؟ إنه مشهد مذهل وخصوصا على الجبل . في البداية ليس هناك ما يمكن رؤيته ، غير أنك تشعر بنوع من الإرهاق الذي يخبرك بأن شيئا ما في الهواء . بعدها تسمع صوت رعد ، طنينا من هنا ومن هناك ، لا تستطيع تحديد مصدره . وفجأة تبدو الجبال قريبة بشكل غريب ، ليس هناك نسمة رياح ، لكن السحب الثقيلة تتجمع في السماء . الآن تختفي الجبال تقريبا خلف حائط من الضباب . تتسارع السحب من كل الجوانب ، وبعدها لا توجد أي رياح . يرتفع صوت الرعد الآن وكل ما حولك يبدو غريبا وشريرا . تنتظر وتنتظر ، ثم فجأة تنفجر العاصفة . في البداية ، يبدو الأمر كأن الرياح تحررت من حبسها . تهبط العاصفة

إلى الوادي ، الرعد والبرق في كل مكان ، المطر يهطل بزخات ضخمة مدوية ، العاصفة حبيسة شق ضيق في الوادي حيث يتردد صدى قصف الرعد مدويا عبر جوانب الجبل شديدة الانحدار . تلطمك الرياح من كل زاوية ، وأخيرا عندما تتحرك العاصفة مبتعدة ، وتنقشع الغيوم مخلفة في مكانها ليلة صافية ، هادئة ، مضيئة بالنجوم ، سيصعب عليك تذكر أين كانت كل هذه السحب الرعدية ، دع عنك تذكر أي قصف رعدي صنع أي ومضة برق .



الوقت الذي سأحكي لك عنه كان شبيها بقصة العاصفة تلك . فقد اندلعت عاصفة في حينها مكتسحة الإمبراطورية الرومانية الضخمة بأكملها . لقد وصلنا دويها وزمجرتها سابقا ، حيث تجلى هذا الدوي في تحرك القبائل الجيرمانية على الحدود ، في غارات السيمبريين والتيوتيين ، وفي الحملات التي قادها كل من قيصر ، أوغسطس ، تراجان ، ماركوس أوريليوس وآخرون كثر ، في كل محاولاتهم لإبعاد هذه القبائل عن الإمبراطورية .

الآن ، العاصفة قد أقبلت . لقد بدأت في الطرف الآخر من العالم ، تقريبا بالقرب من السور الذي بناه الإمبراطور الصيني شي هوانغ - تي ، عدو التاريخ . وكونهم غير قادرين على توجيه غاراتهم إلى الصين ، فإن الجحافل الآسيوية الآتية من السهوب اتجهت إلى الغرب بحثا عن أراض جديدة تنهبها . هذه المرة كانوا من الهن (*) ، ومثل هؤلاء لم تسبق رؤيتهم في الغرب ، حيث كانوا رجالا صغار الحجم أصفري اللون بعيون مشقوقة ضيقة وندبات مرعبة على وجوههم . بدا هؤلاء كأنهم أنصاف رجال على أنصاف خيول ،

(*) الهن (HUN) يختلفون عن الهان (HAN) ، فالأخيرون كانوا سلالة صينية ، فيما الأوائل كانوا شعبا مرتحلا ظهر عند نهر الفولغا [المترجمة] .

حيث نادرا ما ترجلوا عن ظهور مهورهم الصغيرة السريعة . كانوا ينامون على ظهور الخيل ، يجتمعون على ظهور الخيل ، ويأكلون على ظهور الخيل ذلك اللحم النيئ الذي يطرونه أولا بوضعه تحت سروجهم . بعواء مرعب وأصوات كالرعد كانوا يهاجمون العدو ، ماطرين إياه بالسهام ، قبل أن يلتفوا ويسرعوا بالابتعاد وكأنهم في تراجع سريع . بعدها ، إذا ما تم اللحاق بهم ، فإنهم كانوا يديرون سروجهم مطلقين السهام إلى الخلف على مطارديهم . لقد كانوا شديدي البراعة ، أكثر مكرا وتعطشا للدماء من كل القبائل الأخرى ، حتى إن الجيرمانيين الشجعان فروا من أمامهم .

إحدى هذه القبائل الجيرمانية ، القوط الغربيين (Visigoths) ، لجأت إلى الإمبراطورية الرومانية ، التي وافقت على استقبالهم . بيد أنه لم يمر وقت طويل حتى بدأوا حربا مع مضيفيهم . فقد ساروا إلى أثينا حيث عمدوا إلى نهبها . كما ساروا إلى القسطنطينية كذلك . وأخيرا ، وتحت قيادة ملكهم ألاريك ، إذ اتجهوا إلى إيطاليا حيث حاصروا روما في العام 410 ثم اقتحموها ونهبوها . عندما مات ألاريك ، اتجهوا شمالا ، الآن باتجاه الغال ولاحقا إلى إسبانيا ، حيث استقروا . لكي يدافعوا عن أنفسهم ضد هذه الجيوش ، اضطر الرومانيون إلى استدعاء أعداد كبيرة من قواتهم المقيمة عند نقاط الحماية الحدودية في الغال وبريطانيا ومن ضفاف الراين والدانوب . استغلالا لتلك الفرصة ، قامت قبائل جيرمانية أخرى باقتحام أجزاء متعددة من الإمبراطورية . لقد كانت تلك هي اللحظة التي ينتظرونها منذ مئات السنين .

لهذه القبائل أسماء لايزال بإمكانك رؤيتها على خريطة ألمانيا اليوم : السوابيون ، الفرانكيون ، والألمانيون ، جاءوا عابرين الراين بصرير عربات ثيرانهم المحملة بالزوجات والأطفال وكل بضائعهم ومنقولاتهم . لقد حاربوا وانتصروا ، وكلما سقط منهم أحد ، كان هناك المزيد ليحلوا محله . ذبح الآلاف منهم ، غير أن عشرات الآلاف تبعوهم . كانت هذه الفترة تعرف بفترة النزوح . لقد كانت تلك هي العاصفة التي اكتسحت الإمبراطورية الرومانية دافعة بها إلى دوامة النهاية ، حيث لم تتوقف القبائل الجيرمانية حين وصلت إلى إسبانيا والغال . فالفانداليون (*) ، على سبيل المثال ، احتلوا قرطاجة في العام 439 واستخدموها قاعدة لإطلاق سفن قراصنتهم لنهب وحرق المدن الساحلية ، حيث نهبوا صقلية وعبروا إلى إيطاليا . اليوم لانزال نتحدث عن "vandalism" والتي تعني التخريب ، على الرغم من أن الفانداليين لم يكونوا أسوأ من غيرهم .

(*) هم قبيلة جيرمانية (Vandals) [المترجمة] .

أما الهن، فقد كانوا بالفعل أسوأ. أصبح لديهم الآن ملك جديد: أتيلا. في العام 444 كان هذا الملك في قمة سلطته. هل تتذكر من كان على رأس السلطة في العام 444 قبل ميلاد المسيح؟ لقد كان بيركليس في أثينا. كانت تلك أفضل الأزمنة. غير أن أتيلا كان بكل صورة نقيضا لبيركليس. كان الناس يقولون إنه حيثما مشى هذا الملك، فإن العشب يتوقف عن النمو. فقد قامت جحافله بحرق وتدمير كل ما يعترض سبيلها. بيد أنه على الرغم من كل الذهب والفضة والكنوز التي نهبها الهن، وعلى الرغم من الثياب الأنيقة الرائعة التي كان يرتديها قادتهم، بقي أتيلا رجلا بسيطا، حيث كان يأكل من الصحون الخشبية ويعيش في خيمة بسيطة. لم يعن له الذهب والفضة أي شيء، كانت السلطة هي كل ما يهمه. يقال إنه لم يضحك يوما. لقد كان ملكا مرعبا احتل نصف العالم، وكل من لم يقتل على يديه كان عليه أن يحارب معه. كان جيشه ضخما، وكان العديد من جنوده من الجيرمانيين أغلبهم من القوط الشرقيين (Ostrogoths) (حيث إنه بحلول ذلك الوقت كان القوط الغربيون قد استقروا في إسبانيا). فمن معسكره في هنغاريا، قام أتيلا بإرسال مبعوث إلى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية محملا بالرسالة التالية: «إن سيدي وسيدكم أتيلا قد أمرني بأن أخبركم بأنكم ستقومون بإعطائه نصف إمبراطوريتكم وابنتكم لتكون زوجته». عندما رفض الإمبراطور، استعد أتيلا للتوجه لمعاقبته بجيشه الضخم، وليأخذ بالقوة ما منع عنه. التقى الطرفان في معركة عنيفة على الأراضي الكتلونية في الغال في العام 451. اتحدت كل جيوش الإمبراطورية الرومانية، وبمساندة من القوات الجيرمانية لتطرد الحشود البربرية، وحيث إن النتيجة لم تكن محسومة، فقد اتجه أتيلا إلى روما، كان كل ما يستطيعه الرومانيون وهم في منتهى الذعر والخوف هو أن ينتظروا قدوم الهن. كان الهن يقتربون شيئا فشيئا، وليس للرومانيين أي جيش يحميهم.

فقط عندها تجرأ رجل على تحدي أتيلا ومضيفه: كان هذا الرجل هو البابا ليو والمعروف باسم ليو الأكبر، بمرافقة القساوسة والرايات المقدسة خرج البابا ليلاقي أتيلا. انتظر الجميع أن يقضي الهن على هؤلاء القساوسة، غير أنه تم إقناع أتيلا بالعودة. غادر أتيلا إيطاليا حيث تم إنقاذ روما هذه المرة. وبعد ذلك بسنتين، في العام 453، تزوج أتيلا من أميرة جيرمانية وتوفي في الليلة ذاتها.

لو لم ينقذ البابا الإمبراطورية الرومانية الغربية في ذلك اليوم لكانت محيت من الوجود. وبحلول ذلك الوقت فقد الأباطرة كل سلطاتهم، وكل ما تبقى من قوة أصبح في يد الجنود، الذين كان أغلبهم من الجيرمانيين. وقد جاء اليوم الذي اكتشف فيه

الجنود أنه لا حاجة بهم إلى إمبراطور ، لذا قرروا عزله . كان لآخر الأباطرة الرومانيين اسم عجيب : رومولوس أوغستولوس . إنها لمصادفة غريبة أن يكون اسم مؤسس روما وملكها الأول هو رومولوس وأن يكون اسم أول أباطرتها هو الإمبراطور أوغسطس . عزل آخر الأباطرة ، رومولوس أوغستولوس في العام 476 .

لقد حل جنرال جيرماني يدعى أودواكر محل الإمبراطور معلنا نفسه ملك الجيرمانيين في إيطاليا . كانت تلك نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية وكل ثقافتها اللاتينية ، ومعها كل ذلك الزمن الطويل الذي يعود إلى العصور الغابرة ، والتي تسمى العصور القديمة (antiquity) .

إذن فتاريخ 476 هو مطلع مرحلة جديدة سميت بالعصور الوسطى ، والتي سميت كذلك لغير سبب سوى أنها وقعت بين العصور القديمة والأزمنة الحديثة ، بيد أنه في ذلك الوقت لم يلحظ الناس أن عهدا جديدا قد بدأ . كانت كل الأمور على ارتباكها السابق . القوط الشرقيون ، والذين حاربوا سابقا مع جيش الهن ، استقروا في الإمبراطورية الرومانية الشرقية . أكد لهم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، مدفوعا برغبته في التخلص منهم ، أن ظروفهم ستكون أفضل إذا ما غادروا إلى الإمبراطورية الغربية وسيطروا على إيطاليا . وعليه ، في 493 اتجه القوط الشرقيون ، بقيادة ملكهم العظيم ثيودوريك ، إلى إيطاليا . هناك ، كانت المهمة بالنسبة إلى هؤلاء الجنود المدربين حربيا سهلة وقصيرة المدى في مواجهة تلك الأرض البائسة والممزقة بالحروب . أسر ثيودوريك الملك أودواكر ، لكنه وعد بالإبقاء على حياته . ولكن عوضا عن ذلك ، دعاه ثيودوريك إلى مأدبة وقام بطعنه خلالها حتى الموت .

لطالما تعجبت من قيام ثيودوريك بتصرف متوحش كهذا ، فهو ، وفي محطات أخرى ، كان حاكما عظيما فعلا ، رجلا متميزا جديرا بالاحترام . لقد حرص على أن يعيش القوط بسلام مع الإيطاليين ، كما أنه لم يعط محاربيه أكثر من قطعة أرض ليفلحوها . ولقد وقع اختياره على رافينا ، مدينة موانئ بحرية في شمال إيطاليا لتصبح عاصمته ، وقام ببناء كنائس جميلة مزينة بالفسيفساء الرائعة زاهية الألوان .

كل ذلك كان غير متوقع . وأن يبني القوط الشرقيون لأنفسهم مملكة ضخمة مزدهرة في إيطاليا ، مملكة ستهدد في أحد الأيام الحكم الإمبراطوري في القسطنطينية ، كان ذلك شيئا لا يمكن أن يخطر على بال إمبراطور الشرق والذي لا بد أنه ندم على نصيحته .

ومنذ 527 فصاعدا ، حكم القسطنطينية ملك عظيم ، طموح ، محب للترف اسمه جستينيان . كان الإمبراطور جستينيان مأخوذا بطموح أوحد عظيم ، ذلك أن يستعيد كل الإمبراطورية الرومانية القديمة ويوحدها تحت حكمه . كان لبلاطه كل فخامة الشرق . أما زوجته ، ثيودورا ، فقد كانت راقصة سيرك سابقة ، وكان كلاهما يلبس العباءات الثقيلة المصنوعة من الحرير المرصع بالجواهر ، وسلاسل عظيمة من الذهب واللؤلؤ حول رقبتيهما ، والتي لابد أنها أصدرت أصوات حفيف وخشخشة هائلة عندما كانا يتحركان .

بنى جاستينيان كنيسة ضخمة في القسطنطينية تعلوها قبة هائلة وكان اسمها آيا صوفيا ، كما فعل كل ما بوسعه ليستعيد العظمة المفقودة لروما القديمة . بدأ عمله بأن جمع كل قوانين روما القديمة ، مصحوبة بكل التعليقات التي وضعها عليها العلماء العظام والمشرعون . هذا الكتاب العظيم للقانون الروماني كان يسمى «رسالة أحكام جستينيان» (Pandects of Justinian) . إلى اليوم ، كل من يخطط لأن يصبح محاميا أو قاضيا تجب عليه قراءة هذا الكتاب ، حيث إنه يشكل قاعدة للكثير من قوانيننا الحالية .

بعد موت ثيودوريك ، حاول جستينيان طرد القوط من إيطاليا والسيطرة على البلد ، غير أن القوط دافعوا عن أنفسهم ببسالة ، وقاوموا على مدى عقود من الزمن . ونظرا إلى أنهم كانوا على أرض غريبة وكان سكانها أعداء لهم كذلك ، فلم تكن مهمتهم سهلة . إضافة إلى ذلك ، وعلى الرغم من كونهم مسيحيين ، فإن عقائد إيمانهم كانت مختلفة عن تلك التي هي لأعدائهم من الطرفين ، فعلى سبيل المثال لم يكونوا يؤمنون بالثالوث المقدس (كينونة الرب في ثلاثة أشخاص : الأب ، الابن ، والروح القدس) لذا فقد كانوا يهاجمون ويضطهدون على أنهم كفار كذلك . في النهاية ، قتل معظم القوط في هذه المعارك . بعد آخر معركة ، كل من تبقى ، وكان جيشا من أقل من ألف رجل ، تم تسريحهم من دون أي محاولة للثأر منهم ، حيث تفرقوا مختفين في الشمال . لقد كانت تلك هي نهاية هذه القبيلة العظيمة ، القوط الشرقيين (Ostrogoths) . الآن ، أصبح جستينيان حاكما على رافينا كذلك ، وقد قام ببناء كنائس خلابة هناك والتي زينها بصور رائعة لزوجته ولنفسه .

لكن حكام الإمبراطورية الشرقية لم يستقروا طويلا في إيطاليا ، ففي 586 ، قَدمت شعوب جيرمانية جديدة تدعى اللومبارد من الشمال . تم احتلال الأرض مجددا ، واليوم لايزال جزء من إيطاليا يدعى لومباردي نسبة إليهم . كانت تلك هي آخر دمدمات الرعد في هذه العاصفة . بعدها ، بدأت السحب تنقشع ببطء لتكشف عن ليل العصور الوسطى المضيء بالنجوم .

19

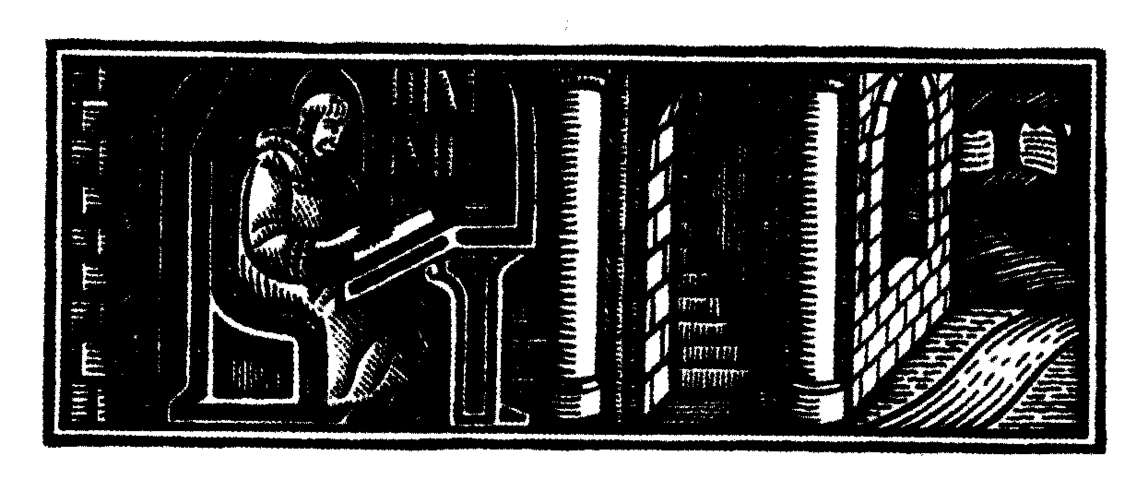
بداية الليلة المضيئة بالنجوم

«كانت هذه الأديرة القليلة المتناثرة هي الأماكن الوحيدة، في تلك الأيام، التي يدور فيها التعلم ونقل المعرفة، وبذلك حفظت كل ذكرى الأفكار الإغريقية والرومانية من الضياع»

المؤلف

قد توافق تماما على أن النزوح الذي حدث كان شبيها بالعاصفة الرعدية، لكنك قد تفاجأ عند سماع أن العصور الوسطى كانت كليلة مضيئة بالنجوم. اسمح لي بأن أوضح. هل سبق لك أن سمعت الناس يتحدثون عن العصور المظلمة؟ ذاك كان الاسم الذي أعطي للمرحلة التي تلت انهيار الإمبراطورية الرومانية، عندما كان أقل القليل من الناس يستطيع القراءة أو الكتابة وبالكاد كان القليلة على علم بما يدور في العالم، لهذا السبب، كان الناس يحبون تداول كل أنواع القصص الغريبة الرائعة، كما كانوا شديدي الإيمان بالخرافات عموما. نطلق عليها «مظلمة» كذلك لأن البيوت في تلك العصور كانت صغيرة ومظلمة، ولأن

الشوارع والطرق السريعة التي بناها الرومانيون قد تدهورت وغزتها الأعشاب ، كما أن مخيماتهم ومدنهم زحف عليها الكلأ حتى غطاها . نسيت القوانين الرومانية الرصينة وحطمت التماثيل الإغريقية الرائعة إلى قطع صغيرة . كل هذا كان واقعا ، ولم يكن بالمفاجئ كذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار كل الانقلابات الرهيبة وسنوات حروب النزوح البائسة .



بيد أن ذلك لم يكن كل شيء في هذا العصر ، لم يكن مظلما تماما . لقد كان أشبه بسماء حافلة بالنجوم ، حيث تعلو كل هذه الرهبة والشكوك التي عاش فيها الناس بجهلهم كالأطفال في الظلام ، فزعين من الساحرات والسحرة ، من الشيطان والأرواح الشريرة ، تعلو كل ذلك سماء الدين الجديد اللامعة المضيئة بالنجوم لتدلهم على الطريق . وكما أنك لا تتوه بسهولة في الغابة عندما ترى مجموعات نجمية مثل الدب الأكبر والنجم القطبي ، لم يعد الناس يضلون كامل طريقهم مهما تعثروا في الظلام . فقد أصبحوا متأكدين من شيء واحد : أعطى الرب الأرواح لكل البشر ، وكلهم متساوون في نظره ، الشحاذون والملوك على السواء . كان هذا يعني أنه لا يمكن أن يكون هناك عبيد بعد ذلك ، أنه لا يمكن معاملة البشر بعد الآن على أنهم أشياء ، أن إلها واحدا خفيا ، خالق العالم كله ، وبرحمته ينقذ البشرية ، يطلب منا أن نكون طيبين . هذا لا يعني أنه في تلك الأيام لم يعد هناك سوى الأناس الطيبين ، فقد كان هناك كذلك المحاربون القساة ، الهمجيون ، المتوحشون وعديمو الرحمة في إيطاليا كما وجدوا في الأراضي التي عاش عليها الجيرمانيون ، والذين كانوا يتصرفون برعونة وشراسة ودموية . غير أنهم في ذلك الوقت عندما كانوا يقدمون

علـى هذه التصرفـات ، كانوا يفعلون بضمير مثقل أكثر ممـا كان في زمن الرومانيين . كانوا يعلمون أنهم أشرارا ، وكانوا يخشون غضب الرب .

تمنى الكثير من الناس أن يعيشـوا حياتهم بالتزام صارم مع إرادة الرب ، فقد هربوا مـن المدن الصاخبة وجموع البشـر حيث يقوى الإغواء لارتكاب الخطايا ، فانسـحبوا إلى الصحراء ، كما فعل النسـاك الهنود ، للصلاة والتوبـة . كان هؤلاء أوائل الرهبان المسـيحيين ، وقـد ظهروا أول ما ظهـروا في الشـرق ، في مصر وفلسـطين . كان أهم شـيء للعديد مـن هؤلاء هـو التوبة ، فقد تعلموا شـيئا عـن التوبة من الكهنـة الهنود والذيـن ، كما قد تتذكر ، كانت لهم طرق خاصة في تعذيب أنفسـهم . وعليه جلس بعـض هؤلاء الرهبـان على قمة الأعمـدة المرتفعة الموجـودة في مراكـز المدن ، حيث بالكاد يتحركون ، وحيث كانوا يقضون حياتهم في التأمل في طبيعة البشرية الآثمة . كان أقـل القليـل من الطعام الـذي يحتاجون إليه يصعـد إليهم في سـلة . هناك كانوا يجلسـون ، فوق كل صخـب المدينة ، راجين أن يقربهم ذلك مـن الرب . كان الناس يسـمونهم «العموديـين» (Stylites) ، وهو تعبير يعني قديسـي العواميد (حيث تأتي من كلمة stylos ، الكلمة الإغريقية التي تعني عمود) .

بيد أنه كان هناك رجل تقي في الغرب ، في إيطاليا ، والذي كان مثل بوذا ، لم يسـتطع أن يجد السـلام الداخلي في حياة التائب الانعزالية . كان هذا راهبا يدعى بنيديكـت ، وهي كلمة تعني «الرجل المبـارك» . كان بنيديكت مقتنعا بأن التوبة لم تكن هي كل ما أراد المسيح ، فالإنسـان يجب ألا يكون خيرا فقط ، ولكن أن يفعل الخير كذلك . وإذا أردت أن تفعل الخير فلا فائدة من جلوسك على عمود . لابد لك أن تعمل . وعليه ، فقد كان شـعاره : «صلِّ واعمل» . وبمسـاعدة عدد من الرهبان الذين اتفقوا مع أفكاره ، كون بنيديكت جماعة ليضع شعاره محل التنفيذ . كانت هـذه النوعيـة مـن الجماعات الرهبانيـة تعرف باسـم «النظـام» (Order) ، وكانت جماعته معروفة باسمه : النظام البنديكتي . الرهبان المنضمون إلى هذا النظام كانوا يعيشـون في الأديرة . وعلى كل من يريد الانضمام إلى الدير وأن يصبح عضوا في النظام بقية حياته أن يأخذ على نفسه ثلاثة عهود : ألا يمتلك شيئا ، أن يبقى من دون زواج ، وأن يطيـع رئيـس الدير والـذي يطلق عليه لقـب «الأب» (Abbot) في كل أمور الحياة .

فور إعلانك راهبا ، فإن عملك لا ينحصر فقط في الصلاة ، على الرغم من أن الصلاة كانت تنفذ بالتزام ، حيث يقام القداس عدة مرات في اليوم ، ولكن متوقع منك كذلك أن تفعل الخير . ومن أجل ذلك تحتاج إلى بعض المهارات والمعرفة . وهكذا أصبح الرهبان البنديكتيون هم الوحيدين الذين اهتموا ، في ذلك الوقت ، بأفكار واكتشافات العصور القديمة . فقد قاموا بجمع كل اللفافات والمخطوطات القديمة التي استطاعوا العثور عليها ، وذلك حتى يتمكنوا من دراستها ، ثم قاموا بعمل نسخ منها للآخرين حتى يتمكنوا من قراءتها . سنة بعد سنة ، ملأوا أوراق المجلدات السميكة بكتاباتهم الجميلة المشوقة ، ناقلين ليس فقط عن الأناجيل وليس فقط قصص حيوات القديسين ولكن حتى الأشعار الإغريقية واللاتينية القديمة . ما كان سيصلنا سوى أقل القليل من تلك الأشعار لولا جهود هؤلاء الرهبان . ليس ذلك فقط ، فقد اجتهدوا كذلك في نقل أعمال أخرى قديمة حول العلوم الطبيعية والزراعة مرارا وتكرارا وهم في غاية الحرص على تجنب أي خطأ . ذلك أنه ، إضافة إلى الإنجيل ، أكثر ما كان يهمهم هو أن يتمكنوا من حرث الأرض كما ينبغي ، حتى يتمكنوا من زراعة الحبوب والقمح ، ليس لأنفسهم فقط ولكن للفقراء كذلك . في هذه الأوقات التي خلت من قوة القانون ، اختفت تماما الخانات الصغيرة التي كانت متناثرة على جوانب الطرق ، وكل من كانت تواتيه الشجاعة ليسافر كان لا بد له أن يبحث عن مأوى خلال الليل في أي دير ، حيث كان الرهبان يحسنون استقبالهم . هناك كان الصمت يحكم الجميع ، مصحوبا بالعمل الجاد والتأمل . كما أخذ الرهبان على عاتقهم تعليم الأطفال الذين يسكنون بالقرب من أديرتهم . علم هؤلاء الرهبان الأطفال القراءة والكتابة والحديث باللاتينية وكيفية فهم الإنجيل . كانت هذه الأديرة القليلة المتناثرة هي الأماكن الوحيدة ، في تلك الأيام ، التي كان يدور فيها التعلم ونقل المعرفة ، وبذلك فقد حفظت كل ذكرى الأفكار الإغريقية والرومانية من الضياع .

لكن مثل هذه الأديرة لم تكن موجودة في إيطاليا فقط ، فقد أراد الرهبان أن يبنوا أديرتهم في الأماكن البرية المنعزلة حيث يكون بإمكانهم أن يعظوا الناس دينيا ، ويعلموهم ، وينظفوا الغابات لتصبح صالحة للزراعة . تم تشييد العديد من الأديرة الأولى في إيرلندا وإنجلترا ، واللتين ، لكونهما جزيرتين ، كانت معاناتهما من عاصفة النزوح أقل . استقرت القبائل الجيرمانية هناك كذلك ، والذين من بينهم كان الأنجلو والساكسون ، حيث تجذرت المسيحية هناك في وقت مبكر .

بعدها بدأ الرهبان بشق طريقهم من الجزر البريطانية إلى مملكات الغال والجيرمانيين، يعظون ويعلمون حيث يذهبون. كان لايزال هناك العديد من الجيرمانيين الذين لم يتحولوا بعد إلى الدين الجديد على الرغم من أن أقوى قادتهم كان مسيحيا، وإن كان بالاسم فقط. هذا القائد كان اسمه كلوفيس، وكان أحد أفراد العائلة الميروفنجية (*). أصبح هذا القائد ملكا على الفرانكيين في عمر الخامسة عشرة، وبخليط من الشجاعة والدسيسة والقتل، أخضع نصف منطقة جيرمانيا وجزءا كبيرا من المنطقة المسماة فرنسا اليوم، والتي أخذت اسمها عن اسم قبيلته، تحت حكمه.

أمر كلوفيس بتعميد نفسه وقبيلته في العام 496، غالبا بسبب اعتقاده أن إله المسيحيين ليس إلا شيطانا قويا يمكن أن يعينه ليحقق انتصاراته. فهو في الواقع لم يكن مخلصا. وقد كان هناك الكثير من العمل الذي ينتظر الرهبان في جيرمانيا، وبلا شك، فقد قاموا بعمل الكثير فعلا. شيدوا الأديرة وعلموا الفرانكيين والألمان كيفية زراعة الفواكه والكروم، مبرهنين للمحاربين البرابرة أن هناك في الحياة أشياء أكثر من مجرد القوة الوحشية وأعمال البطش، فكثيرا ما عملوا كمستشارين للملوك الفرانكيين المسيحيين في البلاط الميروفينجي. ولأنهم كانوا الأفضل في القراءة والكتابة، فقد كلفوا بكتابة القوانين وقاموا بكل أعمال الملك الكتابية. في الواقع، أن تكتب فذلك يعني كذلك أنك تحكم: لقد قام هؤلاء الرهبان بكتابة الرسائل للملوك آخرين وحافظوا على الاتصال بالبابا في روما. كل ذلك كان يعني، في الواقع، أنه أسفل عباءاتهم ذات أغطية الرأس البسيطة، كان هؤلاء الرهبان هم السادة الحقيقيين لمملكة الفرانكيين المضطربة.

واجه رهبان آخرون من بريطانيا تلك المساحات البرية الممتدة من الأراضي والغابات الكثيفة في شمال جيرمانيا والتي نعرفها اليوم باسم هولندا. كانت تلك أماكن غاية في الخطورة للوعظ الإنجيلي، فالفلاحون والمحاربون الساكنون في تلك المنطقة لم يكونوا مسيحيين ولا حتى بالاسم، بل كانوا متمسكين بعقيدة أسلافهم. كانوا يصلون لأودين، إله الحرب، وذلك ليس في المعابد بل في الهواء الطلق، غالبا

(*) إحدى السلالات الفرانكية [المترجمة].

أسفل أشجار قديمة كانوا يعتبرونها مقدسة ، غير أنه في أحد الأيام قام راهب وقسيس إنجليزي يدعى بونيفس بتقديم الوعظ تحت إحدى هذه الأشجار . وفي محاولة منه ليثبت للجيرمانيين الشماليين أن أودين هذا ليس إلا شخصية خيالية ، فقد تناول فأسا محاولا قطع الشجرة المقدسة . توقع الجميع أن تضربه صاعقة من السماء في اللحظة ذاتها ، لكن الشجرة سقطت ولم يحدث شيء . بعدها أتاه عدد كبير من الناس لكي يعمدهم ، حيث إنهم لم يعودوا يؤمنوا بسلطة أودين أو غيره من الآلهة ، لكنه أغضب أناسا آخرين ، وفي العام 754 قام هؤلاء بقتله .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الوثنية في جيرمانيا كانت تشرف على نهايتها . فقبل أن يمر وقت طويل ، بدأ الجميع في ارتياد الكنائس الخشبية البسيطة التي شيدها الرهبان بجوار أديرتهم ، حيث كان الناس بعد انتهاء الصلاة يتوجهون إلى الرهبان بطلب النصيحة حول أمور مثل كيفية علاج بقرة مريضة ، أو كيفية حماية أشجار التفاح من غزو الفراش . كان الأشخاص النافذون كذلك يزورون هؤلاء الرهبان ، ومن بينهم كان الأشد وحشية وهمجية هم من يتبرعون ومن دون تردد للرهبان بقطع كبيرة من الأراضي ، فقد كانوا يأملون أنهم بأعمالهم تلك يستدرون عفو الرب عن ذنوبهم . بهذه الطريقة ، أصبحت هذه الأديرة غنية وقوية ، لكن الرهبان أنفسهم ، في صوامعهم البسيطة الضيقة ، أصبحوا فقراء ، يصلون ويعملون ، كما علمهم القديس بنيديكت .

20

لا إله إلا الله.. محمد رسول الله

«الكتاب الذي بين يديك الآن مصنوع من الورق ، وهو إنجاز آخر ندين به للعرب ، الذين تعلموا صناعته من أسرى الحرب الصينيين»

المؤلف

هل لك أن تتخيل الصحراء؟ الصحراء الحقيقية ، الحارة ، الترابية ، الرملية ، تقطعها قوافل الجمال الطويلة محملة بشحنات من البضائع النادرة؟ الرمال في كل مكان ، وبين الحين والآخر ترى واحدة أو اثنتين من شجر النخيل في الأفق . ولا تكاد تصل إلى تلك النقطة حتى تجد واحة مكونة من نبع ماء هزيل بمائه المخضر اللون . ثم تتابع القافلة مسيرتها . أخيرا تصل إلى واحة أكبر حجما تكمن فيها مدينة ذات بيوت بيضاء مكعبة الشكل مسكونة من رجال بيض الملبس ، سمر اللون ، بشعر أسود وعيون داكنة ثاقبة .

يمكنك أن تستنتج أن هؤلاء الرجال ما هم إلا محاربون . فعلى ظهور خيولهم الرائعة

الرشيقة كانوا يقطعون الصحراء عدوا ، ينهبون القوافل ويحاربون بعضهم البعض ، واحة ضد واحة ، مدينة ضد مدينة ، قبيلة ضد قبيلة . على الأغلب ، لا تزال جزيرة العرب تبدو كما كانت منذ آلاف السنوات ، غير أنه ، وعلى هذه الأرض الصحراوية الغريبة بسكانها المحاربين القلائل ، وقعت أغرب وأروع الأحداث التي سأحكي لك عنها .



إليك ما حدث . في الوقت الذي كان فيه الرهبان يجتهدون في تعليم الفلاحين البسطاء ، وكان الملوك الميروفينجيون يحكمون الفرانكيين – نحو سنة 600م – لم يذكر أحد العرب ، فقد كان هؤلاء العرب مشغولين بالعدو في الصحراء ، حيث يعيشون في الخيام ويحاربون بعضهم البعض . كان لهم معتقد بسيط لم يتفكروا فيه كثيرا . فكما فعل البابليون القدماء ، عبد العرب النجوم ، واتجهت أنظارهم صوب الكعبة الواقعة في واحة مدينة مكة ، وقدسوها واتخذوها مزارا لهم ، وجعلوها قبلتهم في صلاتهم ، يحجون إليها عبر الصحراء ليتعبدوا بجوارها .

في ذلك الوقت كان هناك رجل في مكة يدعى محمد بن عبدالله . كان أبوه ينتمي إلى عائلة رفيعة لكنه لم يكن رجلا غنيا ، حيث كانت عائلته مسؤولة عن رعاية الحجيج . مات عبدالله شابا ، وكان كل ما تركه لابنه محمد هو خمسة جمال ، ولم تكن تساوي الكثير . عندما بلغ محمد السادسة ، توفيت والدته كذلك ، فكان عليه أن يترك المخيم الصحراوي الذي عاش فيه مع أبناء الطبقة الراقية ليكسب قوته من رعي غنم الأغنياء . لاحقا ، قابل محمد أرملة غنية كانت تكبره ببضع سنوات وخرج في عدد كبير من الرحلات خدمة لها كقائد للجمال يوجه القوافل التجارية

عبر الصحراء . تزوج محمد خديجة وعاشا في سعادة معا وأنجبا ستة أبناء . تبنى محمد كذلك ابن عمه الصغير وكان اسمه علي .

كان محمد مفعما بالقوة والنشاط والحيوية ، له شعر ولحية أسودان ، وبأنف نسر ومشية واثقة هادئة ، وكان يحظى باحترام كبير . كان يعرف بين الناس بلقب «الصادق الأمين» ، وأبدى اهتماما مبكرا بالتساؤلات الدينية ، وكان يتمتع بالحوار ليس فقط مع الحجاج العرب القاصدين مزار مكة ، لكن كذلك مع المسيحيين القادمين من الحبشة القريبة ، ومع اليهود ، والذين كانت أعداد كبيرة منهم موجودة في مدن الواحات العربية . في حواراته مع المسيحيين واليهود شيء محدد كان يثير إعجابه دوما : كلاهما تحدث عن عقيدة الرب الواحد الخفي العظيم .

وفي المساء ، جلوسا بجانب ينبوع الماء ، كان محمد يستمتع كذلك بسماع الحديث عن إبراهيم ويوسف ، وعن عيسى المسيح ومريم . وفي أحد الأيام ، وبينما كان في رحلة باغتته تجربة عظيمة . . . لقد ظهر لمحمد الملاك العلي جبريل وخاطبه بصوت هادر : «اقرأ» صرخ فيه الملاك . «ما أنا بقارئ» ، أجاب محمد . «اقرأ !» صرخ به الملاك للمرة الثانية ومجددا للمرة الثالثة ، وذلك قبل أن يأمره ، باسم الرب ، إلهه ، أن يصلي . أسرع محمد عائدا إلى البيت ، مرتجفا وجلا بسبب رؤيته . لم يكن يعرف ما حدث له .

على مدى ثلاث سنوات طوال ، وبينما هو يرتحل ذهابا وإيابا عبر الصحراء ، كان يتأمل في تجربته ، ويقلبها في عقله المرة تلو الأخرى . وبعد مرور هذه السنوات الثلاث ، ظهر له الملاك جبريل للمرة الثانية في بريق من نور سماوي . أخذه الرعب ، جرى محمد إلى البيت وتمدد مرتجفا على سريره يتصبب العرق منه . قامت إليه زوجته فدثرته بعباءته . وبينما هو مستلق هناك ، سمع الصوت مجددا : «يأيها المدثر قم فأنذر» ، جاءه الأمر ، و«ربك فكبر» ، عندها علم محمد أن تلك كانت رسالة الرب ، وأن عليه أن يحذر البشرية من النار وينادي بعظمة الإله الخفي الواحد ، منذ تلك اللحظة أدرك محمد أنه الرسول الذي على لسانه سينقل الرب أوامره للبشرية . اختار الله محمدا هاديا للبشرية ومبشرا بالدين الجديد . في مكة دعا محمد إلى عقيدة الإله الواحد العظيم ، والذي عينه هو ، ليكون رسوله ، غير أن أغلب الناس أعرضوا عنه ما عدا زوجته وبعض أصدقائه وأقربائه الذين آمنوا به .

غير أنه تجلى لكهنة الكعبة ، قادة القبائل الذين كانوا مكلفين بحراستها ، أن (الرسول الكريم) محمدا سيمثل لهم عدوا خطيرا . وعليه فقد منعوا كل من في مكة من التعامل مع عائلة محمد أو القيام بأي أعمال تجارية مع أتباعه . وقد قاموا بتعليق هذا الحظر في الكعبة . كانت تلك ضربة شديدة انطوت على سنوات من الجوع والمعاناة لعائلة النبي وأصدقائه . غير أن محمدا كان قد قابل في مكة بعض الحجاج القادمين من واحة مدينة كانت على خصومة مع مكة لزمن طويل . كان هناك العديد من اليهود في تلك المدينة ، مما كان يعني أن هؤلاء العرب كانوا على دراية بعقيدة الإله الواحد الأحد ، وقد استمعوا باهتمام لدعوة محمد .

أثارت أخبار حديث محمد مع هذه القبائل المعادية لدعوة وارتفاع شعبيته بينهم سخط قادة القبائل حراس الكعبة . وعليه فقد توصلوا إلى قرار قتل النبي بتهمة خيانة أصنامهم ودينهم . كان محمد قد بادر بإرسال أتباعه خارج مكة إلى حيث المدن الصحراوية الموالية له ، وعندما دخل القتلة المكلفون بالمهمة إلى بيته ، كان الرسول الكريم قد خرج من منزله متجها إلى المدينة لينضم إلى أتباعه . تعرف الحادثة بلفظة «الهجرة» ، وقد وقعت في 16 يونيو سنة 622 . بدأ أتباع محمد في تأريخ السنوات من هذا اليوم ، تماما كما فعل الإغريق بعد الألعاب الأولمبية والرومانيون بعد تأسيس روما والمسيحيون بعد ولادة المسيح .

في هذه البلدة التي ستسمى لاحقا المدينة ، أي مدينة الرسول ، استُقبل محمد استقبالا حارا . تراكض الجميع للتهنئة بوصوله عارضين عليه ضيافتهم . ورغبة منه في ألا يغضب أحدا من الناس ، قال محمد إنه سيسكن في البقعة التي تمضي إليها ناقته ، وذلك تحديدا ما فعله . في المدينة ، انطلق محمد يرشد أتباعه الذين استمعوا إليه بإخلاص . شرح لهم محمد كيف أن الرب أظهر نفسه لإبراهيم وموسى ، وكيف بشر الناس على لسان المسيح ، وكيف وقع اختياره الآن على محمد ليكون رسوله .

علمهم محمد ألا يخافوا أي شيء أو أي أحد سوى الرب ، أو الله ، كما تلفظ بالعربية ، وكيف أنه لا طائل من التخوف من المستقبل أو توقع السعادة فيه ، فقد قرر الله مصيرهم في كتاب عظيم . ما سيكون ، سيكون ، وساعة موتنا قد تحددت منذ يوم ولادتنا . لا بد لنا أن نسلم أنفسنا لإرادة الله . فالكلمة التي تحمل معنى «تسليم الإرادة لله» هي «الإسلام» ، وعليه فقد سمى محمد تعاليمه «إسلام» . أخبر محمد

أتباعه أنهم ملزمون بالكفاح من أجل نشر تعاليمه وأن عليهم أن ينتصروا ، كما أخبرهم أن المحارب الشجاع الذي يموت دفاعا عن عقيدته ، من أجل الله والرسول ، تكون الجنة نصيبه ، بينما يذهب غير المؤمنين (الكفار) والجبناء إلى النار . أثناء تبشيره بالرسالة ، أخبر محمد أتباعه عن رؤاه وعن كلمات الوحي المرسلة إليه (تم تجميعها لاحقا في كتاب يعرف باسم القرآن) ، كما زودهم بأجمل وصف للجنة :

[مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿13﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿14﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿15﴾ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿16﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿17﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿18﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿19﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿20﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿21﴾] (*) .

لك أن تتخيل تأثير هذه الجنة الموعودة على شعوب القبائل الفقيرة التي تعيش تحت حرارة الصحراء الحارقة ، وكم سيحاربون ويموتون طواعية من أجل بلوغ هذه الجنة .

وعليه ، قام سكان المدينة بمهاجمة مكة ، ثأرا لنبيهم . في البداية ، حققوا انتصارات حملوا على إثرها الغنائم الثمينة ، لكنهم خسروها جميعا لاحقا . تقدم أهل مكة إلى المدينة ، عازمين على محاصرتها ، إلا أنهم وبعد عشرة أيام فقط أجبروا على التراجع . بعدها جاء اليوم الذي ذهب فيه (الرسول الكريم) محمد ، مصحوبا بألف وخمسمائة مسلح من أتباعه ، حاجا إلى مكة . اعترف أهل مكة ، والذين عرفوا محمدا فقيرا مضطهدا ، اعترفوا به نبيا عظيما ، وذهب العديد منهم طواعية إليه ، وسرعان ما انتشر دين الإسلام وتحكم أتباعه في البلدة بأكملها ، غير أنه عفا عن سكانها بعد أن أفرغ المزار المقدس من الأصنام . كانت قوته وهيبته عظيمتين ، حيث توافد عليه الرسل من جميع الأنحاء لمبايعته . قبل موته بأيام قليلة ، ألقى الرسول الكريم خطبة على حشد من أربعين ألف حاج ، مؤكدا للمرة الأخيرة أنه لا اله إلا الله وأنه هو محمد رسول

(*) سورة الإنسان .

الله ، وأن الحرب ضد غير المؤمنين ، أو الكفار ، لابد أن تستمر . حث محمد كذلك الناس على الصلاة خمس مرات في اليوم ، مواجهين مكة ، وعلى الامتناع عن شرب النبيذ وعلى التمسك بالشجاعة . توفي محمد بعد ذلك بقليل في العام 632 .

أطاع العرب كلمات نبيهم ، وبعد أن قتل كل الكفار في صحرائهم أو تحولوا إلى الإسلام ، بدأوا بالتحرك إلى البلدان القريبة تحت قيادة خلفاء الرسول الكريم محمد ، أبو بكر وعمر . هناك ، بدا كأن الناس قد أصيبوا بالشلل في مواجهة هذه الحماسة الدينية الجامحة . وفي خلال ست سنوات من وفاة محمد ، كان العرب قد حققوا فتوحات في فلسطين وبلاد الفرس ، كما كدسوا كميات ضخمة من الغنائم . بعض جيوش العرب الأخرى هاجمت مصر وقد كانت لاتزال جزءا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، غير أنها في ذلك الوقت كانت قد أصبحت أرضا فقيرة متهالكة ، وفي خلال أربع سنوات كانت قد سقطت في يد الجيوش . لاقت مدينة الإسكندرية العظيمة المصير نفسه .

تنقلت الإمبراطورية العربية من قوة إلى قوة ، تنتشر نيرانها من مكة وفي كل الاتجاهات . وكأن محمدا قد ألقى شرارة متوهجة على الخريطة . فمن بلاد الفرس إلى الهند ، من مصر وعبر كل شمال أفريقيا ، احتدمت النيران . ومن نحو سنة 670 ، قامت الجيوش العربية بمحاولات متعددة للسيطرة على القسطنطينية ، العاصمة الأثرية للإمبراطورية الشرقية الرومانية ، لكن سكانها قدموا دفاعا بطوليا ، حيث تحملوا حصارا دام لمدة سبع سنوات طويلة ، حتى انسحب المسلمون أخيرا . كان على العرب أن يقنعوا بجزر قبرص وصقلية ، والتي هاجموها عبر أفريقيا . بيد أنهم لم يتوقفوا عند ذلك الحد . ففي طريق عودتهم إلى أفريقيا ، عبروا إلى إسبانيا حيث ، وكما قد تتذكر ، هيمن القوط الغربيون على السلطة منذ عصر النزوح . انتصر القائد طارق بن زياد في هذه المعركة التي استمرت سبع سنوات ، حيث أصبحت إسبانيا تحت حكم العرب كذلك .

من هناك وصل العرب إلى مملكة الفرانكيين ، التي يحكمها الميروفينجيون ، حيث تواجهوا مع فرق من المحاربين الفلاحين الجيرمانيين المسيحيين . كان قائد الجيرمانيين يدعى شارل مارتل ، والذي يعني شارل المطرقة ، حيث سمي كذلك لأنه كان معروفا بـ «دق» الناس في المعارك . لقد نجح في الواقع في هزيمة العرب في العام 732 ،

تحديدا بعد مائة سنة من موت النبي . ولو أن شارل مارتل كان قد خسر هذه المعارك في تورز وبواتييه ، في مملكة الفرانكيين الجنوبية ، لسيطر العرب بكل تأكيد على كل الأراضي التي تنتمي اليوم إلى فرنسا وألمانيا . وفي تلك الحالة ، كان من الممكن أن نكون جميعنا مسلمين ، مثل العديد من شعوب العالم اليوم .

لم يستمر كل العرب في كونهم محاربين صحراويين كما كانوا في عصر محمد . بل على النقيض من ذلك ! فما كادت تنخفض حرارة المعارك بعض الشيء ، حتى بدأ العرب في التعلم من الشعوب التي سيطروا عليها وحولوها إلى الإسلام في كل الأراضي التي قاموا بغزوها . فمن الفرس ، تعلموا فخامة الشرق ، كيف يقدرون ويستمتعون بالسجاد والأقمشة الثمينة ، بالأبنية الفخمة المهيبة ، بالحدائق الرائعة ، وبالأثاث والحلي الفاخرة المزينة جميعها بالرسوم الدقيقة .

ولمسح كل آثار ذكرى عبادة الأصنام ، منع المسلمون من صناعة أي شيء شبيه بالبشر أو الحيوان . لذا ، فقد زينوا قصورهم ومساجدهم برسوم متداخلة ، دقيقة ، رائعة الجمال مكونة من خطوط متعددة الألوان سميت نسبة إلى العرب باسم «الأرابيسك» ، ولقد تعلم العرب من الإغريق الذين عاشوا في المدن المحتلة للإمبراطورية الرومانية الشرقية ما يفوق ما تعلموه من الفرس . فعوضا عن حرق الكتب بدأوا في جمعها وقراءتها . وقد انجذبوا تحديدا إلى كتابات المعلم الشهير للإسكندر الأكبر ، أرسطو ، فترجموا مؤلفاته إلى العربية . من أرسطو تعلموا الاهتمام بكل شيء في الطبيعة ، والبحث في أصول كل الأشياء . لقد أخذوا هذه المهمة على عاتقهم باستعداد وحماس كبيرين . لذا فإن أسماء الكثير من العلوم التي تدرسها في المدرسة تأتي من اللغة العربية ، أسماء مثل الكيمياء (chemistry) والجبر (algebra) . الكتاب الذي بين يديك الآن مصنوع من الورق ، وهو إنجاز آخر ندين به للعرب ، والذين تعلموا صناعته من أسرى الحرب الصينيين .

غير أنني ممتن للعرب تحديدا لشيئين ، الأول ، الحكايات الرائعة التي كانوا يروونها ثم قاموا بوضعها في كتاب ألف ليلة وليلة ، أما الثاني ، فهو أكثر روعة من هذه الحكايات ، وإن كنتَ قد لا تعتقد ذلك . انتبه ، إليك هذا الرقم : «12» ، والآن لم تعتقد أننا نقول «اثني عشر» ولا نقول «واحد اثنان» أو «واحد واثنان»؟ «السبب هو» ، ستقول لي «الواحد ليس واحدا في الواقع ولكنه عشرة» . هل تعرف كيف كان الرومانيون يكتبون رقم «12»؟ كانوا يكتبونه هكذا : «XII» وماذا عن رقم «112»؟

يكتبونـه هكذا : «CXII» وماذا عن رقم «1112»؟ يكتبونه هكذا : «MCXII» . فقط تخيل الضرب والجمع بمثل هذه الأرقام الرومانية ! غير أنه باستخدام أرقامنا «العربية» ، أصبحت المهمة سهلة جدا ، وذلك ليس فقط بسبب أن هذه الأرقام جذابة الشكل وسهلة الكتابة ، ولكن لأنها تحتوي على شيء جديد : القيمة المكانية ، أي القيمة التي تُعطى للرقم على أساس من موقعه . فالرقم الذي يوضع على يسار رقمين آخرين لا بد أن يكون رقما مئويا ، لذا نحن نكتب الرقم مائة في صورة واحد متبوع بصفرين .

هل كنت تستطيع أن تأتي بمثل هذا الاختراع المفيد؟ عن نفسي لم أكن لأستطيع فعل ذلك . نحن ندين بهذا الاختراع للعرب ، والذين عن أنفسهم يدينون به للهنود . وفي رأيي ، فإن هذا الاختراع أكثر روعة من كل حكايات «ألف ليلة وليلة» مجموعة . قد يكون شيئا مقدرا أن يهزم شارل مارتل العرب في العام 732 ، لكنه لم يكن شيئا سيئا للغاية أن يؤسس العرب إمبراطوريتهم العظيمة ، لأنه عبر فتوحاتهم المختلفة اجتمعت آراء واكتشافات الفرس ، والإغريق ، والهنود حتى الصينيين ، في إمبراطورية واحدة .

21

الفاتح الذي يجيد الحكم

«قبل أن يُطوى القرن الميلادي ، اختفت الإمبراطورية الرومانية للشعوب الجيرمانية ، هذا الإنجاز الرائع لشارلمان ، فلم يبق منها ولا حتى اسمها»

المؤلف

قراءة هذه القصص قد تجعلك تعتقد أنه من السهولة السيطرة على العالم أو تأسيس إمبراطورية عظيمة بما أن ذلك حدث مرارا وتكرارا في تاريخ العالم . في الواقع ، لم يكن ذلك بالشيء البالغ الصعوبة في الأزمنة القديمة ، لم كان ذلك؟

تخيل كيف كان الوضع بلا جرائد أو بريد . كان أغلب الناس يجهلون ما يدور حتى في المناطق التي تبعد مسافة أيام قلائل عن حيث يقيمون . كان الناس يستقرون في وديانهم وغاباتهم ، يحرثون الأرض ، وتنتهي معرفتهم بالدنيا عند حدود القبيلة المجاورة ، فقد كانوا غير ودودين عموما تجاه هؤلاء إن لم يكونوا في الواقع عدائيين وبشكل صريح .

كانت كل قبيلة تؤذي الأخرى بكل الطرق الممكنة ، تهاجم المواشي وتضرم النيران في المساكن والأراضي .

كل ما كانوا يسمعونه عن العالم الواقع خارج نطاق دنياهم الصغيرة لم يزد عن كونه إشاعات وأحاديث منقولة . فإذا حدث أن ظهر لهم جيش مكون من آلاف الرجال من إحدى الغابات أو أحد الوديان ، لم يكن هناك الكثير الذي يمكنهم عمله . كانوا يعتقدون أنهم محظوظون في أن الذين قُتلوا هم الأعداء من جيرانهم ، فلم يخطر لهم على بال أن دورهم ربما سيكون قادما . وإذا لم يقتلوا ولكن أجبروا فقط على الانضمام إلى هذا الجيش ومهاجمة أقرب جيرانهم معه ، فإن ذلك يكون من دواعي امتنانهم . بهذه الطريقة كبرت الجيوش وتضخمت ، وأصبحت القبيلة منفردة تجد في المقاومة صعوبة أكثر وأكثر ، بغض النظر عن الشجاعة التي يبدونها في المعركة . هكذا انطلق العرب في حملاتهم الحربية ، وكذا فعل شارلمان ، ملك الفرانكيين الشهير ، والذي توشك الآن على سماع قصته .



إذا ما كان الاحتلال أسهل بكثير مما هو عليه اليوم ، فإن الحكم أصعب بكثير . كان الرسل يُبعثون إلى أماكن بعيدة يصعب الوصول إليها ، وكانت الشعوب والقبائل المتحاربة تحتاج إلى التهدئة وإلى محاولة الإصلاح لتتجاوز العداوات والثارات الدموية فيما بينها . إذا أردت أن تكون حاكما جيدا ، فإنه لزاما عليك أن تساعد الفقراء في محنتهم ، وواجب عليك أن توفر للناس شيئا من التعليم

وأن تحافظ على أفكار وكتابات الماضي من الضياع والنسيان . عموما ، كان على الحاكم الجيد في تلك الأيام أن يكون نوعا ما أبا للعائلة الضخمة من رعاياه ، وأن يتخذ كل القرارات الخاصة بهم نيابة عنهم .

كان شارلمان من هذا النوع من الحكام . ولهذا السبب كان يدعى ، وعن استحقاق ، «العظيم» (الكلمة اللاتينية magnus تعني «عظيم») . كان شارلمان حفيد شارل مارتل ، القائد الذي طرد العرب من مملكة الفرانكيين الميروفنجية . لم يكن الملوك الميروفنجيون يحسنون الحكم . كانت لهم شعور منسابة ولحى طويلة ، ولم يكونوا يقومون بشيء أكثر من الجلوس على العرش وترديد الكلمات التي يعلمها لهم مستشاروهم . كانوا يتنقلون على عربات الثيران ، كما الفلاحون ، وليس على الأحصنة ، وكانت تلك وسيلتهم لحضور التجمعات القبلية . أما الحكم الحقيقي فقد كان في يد أسرة قوية ينتمي إليها شارل مارتل وكذلك بيبين ، والد شارلمان . إلا أن بيبين لم يكن مقتنعا بأن يكون مجرد مستشار يسر بالتعليمات في أذن ملكه . كان الحكم في يده ، ولذا فقد رغب في اللقب كذلك ، فقام بإسقاط ملك الميروفنجيين ونصّب نفسه ملكا على الفرانكيين . كانت مملكته تغطي تقريبا النصف الغربي مما يعرف اليوم بألمانيا والجزء الشرقي من فرنسا .

ولكن لا تعتقد أن تلك كانت مملكة مستقرة منظمة ، دولة منضبطة بموظفيها وشرطتها ، أو أنها كانت تشبه الإمبراطورية الرومانية بأي صورة من الصور . ففي ذلك الوقت لم يكن السكان متآلفين كما كانوا أيام الرومانيين ، بل كان هناك عدد من القبائل تتكلم لهجات مختلفة وتحمل عادات مختلفة ، وكانوا يتسامحون مع بعضهم بعضا بقدر أو بأقل قدر مما فعل الدوريون والأيونيون في بلاد الإغريق القديمة .

كان شيوخ القبائل معروفين بلقب الدوق ، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية ducere والتي تعني «يقود» ، وذلك لأنهم كانوا يسيرون إلى المعارك على رؤوس جيوشهم . كانت أراضيهم تعرف بـ Duchies أو الدوقيات . كان هناك عدد من

هذه الدوقيات القبلية في ألمانيا : البافاريون ، السوابيون ، والأليمانيون وآخرون . بيد أن أقواهم كانت دوقيات الفرانكيين ، حيث كانت تستمد قوتها من تحالفاتها مع القبائل الأخرى التي كانت مجبرة على المحاربة في صف الفرانكيين وقت المعارك . أما السيادة المطلقة فقد بدأت في عهد بيبين ، وكما والده ، استخدم شارلمان هذه السيادة عندما أصبح ملكا بدوره ، وذلك في العام 768 .

في البداية ، قام شارلمان باحتلال كل فرنسا ، بعد ذلك قام بالزحف فوق جبال الألب إلى إيطاليا حيث ، كما قد تتذكر ، استقر اللومبارديون في نهاية مرحلة النزوح . عزل شارلمان ملك اللومبارديين ثم سلم السلطة على هذه الأراضي للبابا ، حيث سيصبح حاميا له طوال حياته . بعدها زحف شارلمان إلى إسبانيا حيث حارب العرب ، بيد أنه لم يستقر هناك مدة طويلة .

بعد أن وسّع مملكته باتجاه الجنوب والغرب ، وجه شارلمان اهتمامه باتجاه الشرق . احتلت جحافل جديدة من الفرسان الآسيويين المحاربين ويدعون الأفار Avars ، والذين يشبهون الهن بيد أنهم كانوا بلا قائد عظيم مثل أتيلا ، الإقليم المسمى النمسا اليوم . كانت مخيماتهم مثبتة بمتانة ، كما كانت محمية بحلقات من الأسيجة جعلت من الصعب مهاجمتهم أو الاستيلاء على مخيماتهم . حارب شارلمان وجيوشه الأفار لمدة ثماني سنوات قبل أن يهزموهم تماما حتى لم يبق منهم أثر . بيد أن غزواتهم تلك ، مثل غزوات الهن قبلهم ، قد أجبرت قبائل أخرى على التصدي لهم . كانت تلك هي قبائل السلاف Slavs والذين أسسوا شبه مملكة وإن كانت أقل استقرارا وأكثر اضطرابا من مملكة الفرانكيين . هاجم شارلمان السلاف كذلك ، مجبرا بعضهم على الانضمام إلى جيشه وآخرين على دفع ضريبة سنوية له . بيد أنه ، وخلال كل حملاته تلك ، لم يفقد تركيزه على هدفه : وهو أن يوحد كل هذه القبائل الجيرمانية والدوقيات تحت حكمه يصهرهم في شعب واحد .

في ذلك الوقت ، لم يكن أي جزء من النصف الشرقي لألمانيا ينتمي إلى مملكة الفرانكيين . عاش الساكسونيون هناك وكانوا متوحشين ومولعين بالحرب كما كانت القبائل الجيرمانية في العصور الرومانية . إضافة إلى ذلك ، كانوا لايزالون

وثنيين لا صلة لهم بالمسيحية مطلقا . بيد أن شارلمان كان يعتبر نفسه قائدا لكل المسيحيين ، وفي توجهه هذا لم يكن مختلفا عن المسلمين . وعليه ، فقد حارب شارلمان قائد الساكسونيين ، فيدوكنت ، لسنوات عدة . في كل مرة يستسلم فيها الساكسونيون ، لا يلبثون أن يتسلحوا مجددا لليوم التالي ، عندها يعود شارلمان ليدمر أرضهم . بيد أنه ما كان عليه سوى أن يدير ظهره للساكسونيين ليحاولوا تحرير أنفسهم مجددا . كانوا يتبعون شارلمان طائعين إلى المعركة ثم يلتفون ليهاجموا قواته . في النهاية ، دفعوا ثمن مقاومتهم غاليا : فقد أمر شارلمان بقتل أكثر من أربعة آلاف شخص منهم . كل المتبقين من الساكسونيين قدموا أنفسهم للتعميد من دون أدنى مقاومة ، بيد أنه لا بد أن زمنا طويلا قد مر عليهم قبل أن يتمكنوا فعليا من الشعور بأي عاطفة محبة تجاه الدين .

كانت سلطة شارلمان بحلول ذلك الوقت عظيمة فعلا . بيد أنه ، وكما ذكرت سابقا ، لم يكن ناجحا في غزواته فقط ، لقد كان يعرف كيف يحكم ويرعى شعبه كذلك . كانت المدارس مهمة بالنسبة إليه تحديدا ، وقد استمر في تلقي العلم طوال حياته . كان يتحدث اللاتينية بالمقدرة ذاتها التي يتحدث بها بالألمانية ، كما كان يفهم اللغة الإغريقية . لقد كان متحدثا فصيحا وحاضرا ذا صوت واضح قوي . كان مهتما بكل فنون وعلوم العصور القديمة ، حيث كان يتلقى دروسا في علمي البلاغة والفلك من الرهبان المثقفين في إيطاليا وإنجلترا . بيد أنه وجد في الكتابة صعوبة ، كما يقال ، حيث إن يده كانت معتادة على الإمساك بالسيف عن تتبع صفوف الحروف رائعة الانحناءات باستخدام قلم الريشة الدقيق .

كان شارلمان يعشق الصيد والسباحة . في الأغلب كان يلبس الثياب البسيطة ، فأسفل سترته الحريرية المقلمة كان يلبس قميصا بسيطا من الكتان وبنطالا طويلا مشدودا أسفل الركبتين بحذاء نصفي مطاطي الجانبين ، وفي الشتاء كان يلبس سترة من الفرو فوقها عباءة زرقاء ، ودائما ما كان هناك سيف فضي أو ذهبي المقبض معلق في حزامه . فقط في المناسبات الخاصة كان شارلمان يلبس الثياب المطرزة بالذهب ، الأحذية المزينة بالمجوهرات ، مشبكا ذهبيا ضخما على عباءته ،

وتاجا ذهبيا مرصعا بالأحجار الكريمة . حاول أن تتخيل هذه البنية المهيبة الشاهقة ، في كامل أناقته ، مستقبلا السفراء في قصره المفضل في آخن . كان هؤلاء يُقبلون من كل مكان من مملكته ، أي من فرنسا ، إيطاليا وألمانيا ، ومن مناطق السلافيين ومن النمسا كذلك .

حرص شارلمان على أن يكون مطلعا على كل ما يدور في مملكته وعلى أن تنفذ أوامره بكل إخلاص . عين شارلمان القضاة ، وأمر بتجميع القوانين وتوثيقها كتابيا ، كما رشح الأساقفة وعدل أسعار المواد الغذائية . بيد أن ما كان يشغله هو توحيد كل الألمانيين . لم يكن راغبا في أن يحكم حفنة من الدوقيات القبلية ، بل كان هدفه توحيدهم في مملكة واحدة قوية حيث كان نصيب أي دوق يعترض هو العزل . ومن الجدير بالذكر أنه ، من الآن فصاعدا ، عندما يشير البعض إلى اللغة التي تستخدمها القبائل الجيرمانية ، فإنهم لم يعودوا يقولون الفرانكية أو البافارية أو الأليمانية أو الساكسونية ، بل يقولون ببساطة thiudisk أي الألمانية .

لما كان شارلمان مهتما بكل ما هو ألماني ، فقد أمر الناس بكتابة كل الأغاني التي تدور حول الأبطال والقصص التي غالبا ما أتت من أزمنة حرب النزوح . كانت هذه الأغاني تدور حول ثيودوريك (والذي سُمي لاحقا ديتريش من بيرن) ، وأتيلا ، أو إيتزل ، ملك الهن ، وكذلك سيغفرايد ، قاتل التنين والذي طعنه هاغن الشرير . بيد أن جميع هذه الأغاني مفقودة الآن ، ولا نعرف عنها سوى بعض النصوص المنسوخة بعد أربعمائة سنة من ذلك الوقت .

لم يكن شارلمان يعتبر نفسه ملكا على الشعوب الجيرمانية وقائدا للمملكة الفرانكية فقط ، ولكن كذلك الحامي لكل المسيحيين . وعلى ما يبدو ، كان البابا في روما ، والذي كثيرا ما تمتع بحماية شارلمان ضد اللومبارديين يوافقه الرأي . في ليلة عيد الميلاد ، من سنة 800 ، وبينما كان شارلمان جاثيا للصلاة في كنيسة القديس بيتر العظيمة في روما ، تقدم البابا فجأة واضعا تاجا على رأسه . بعدها جثا البابا وكل الموجودين على ركبهم أمام شارلمان منادين به إمبراطورا جديدا على روما اختاره الرب ليحافظ على سلامة الإمبراطورية . لابد أن شارلمان قد

فوجئ بشدة حيث بدا أنه لم تكن لديه أي فكرة عما كان مخبأ له . الآن ، لبس شارلمان التاج وأصبح أول إمبراطور جيرماني على الإمبراطورية الرومانية المقدسة كما أصبح يقال لاحقا .

كانت مهمة شارلمان هي إعادة وتجديد عظمة وقوة الإمبراطورية الرومانية القديمة . بيد أنه هذه المرة ، وعوضا عن الرومانيين الوثنيين ، سيكون الحكام جيرمانيين مسيحيين ، والذين سيصبحون قادة كل العالم المسيحي . كان ذلك هدف وطموح شارلمان ، كما سيكونان ولزمن طويل لكل الأباطرة الجيرمانيين الذين سيأتون من بعده . بيد أن أحدا لم يقترب من تحقيق هذا الهدف كما فعل شارلمان . كانت الوفود تزور بلاطه من كل أنحاء العالم لتقديم الولاء والطاعة . فالإمبراطور العظيم للإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية لم يكن الوحيد المتلهف إلى تحسين علاقته بشارلمان ، فكذلك كان الأمير العربي العظيم ، الخليفة هارون الرشيد ، في منطقة بلاد الرافدين البعيدة . فمن قصره الرائع في بغداد ، بالقرب من نينوى الأثرية ، كان يرسل الهدايا الثمينة إلى شارلمان : أثواب فخمة ، بهارات نادرة ، فيل ، وساعة مائية ذات تقنية مذهلة ليس لها مثيل في مملكة الفرانكيين . بل من أجل رضا شارلمان سمح هارون الرشيد للحجاج المسيحيين بزيارة قبر المسيح في بيت المقدس من دون عوائق أو مضايقات ، حيث كان بيت المقدس في ذلك الوقت تحت حكم العرب .

تحقق كل ذلك بفضل الذكاء والطاقة والتفوق المؤكدين للإمبراطور الجديد ، كما بدا ذلك بسرعة ووضوح بعد وفاته في العام 814 عندما ، ومع الأسف ، انهار كل شيء . فسرعان ما تقاسم الإمبراطورية أحفاد شارلمان الثلاثة وذلك في صورة ثلاث مملكات منفصلة : ألمانيا ، فرنسا وإيطاليا .

في الأراضي التي كانت تنتمي ذات يوم إلى الإمبراطورية الرومانية ، استمر الناس في استعمال اللغات الرومانسية ، وهي الفرنسية والإيطالية . لن تتحد الممالك الثلاث بعد ذلك أبدا ، حتى الدوقيات القبلية الألمانية ثارت واسترجعت استقلالها . وبينما كان شارلمان على فراش الموت ، أعلن السلافيون تحررهم

مؤسسين مملكة قوية تحت حكم ملكهم العظيم الأول سفاتوبلوك . اختفت المدارس التي أسسها شارلمان ، كما أن فني القراءة والكتابة سرعان ما اختفيا إلا عند حفنة من الأديرة البعيدة . وقامت القبائل الجيرمانية الجسورة في الشمال والدنماركيون والنورمنديون بنهب وتدمير المدن الساحلية بلا رحمة باستخدام سفن القرصنة في المناطق الإسكندنافية . لقد كانوا لا يقهرون ، حيث أسسوا مملكات عدة في الشرق ، بين السلافيين ، وفي الغرب على ساحل ما يعرف اليوم بفرنسا ، حيث لاتزال مدينة نورماندي تحمل اسمهم .

وقبل أن يُطوى القرن الميلادي ، اختفت الإمبراطورية الرومانية للشعوب الجيرمانية ، هذا الإنجاز الرائع لشارلمان ، فلم يبق منها ولا حتى اسمها .

22

الصراع على قيادة الإمبراطورية المسيحية

«عندما يأخذ الناس جانبا من دون آخر عادة ما تجانبهم العدالة»

المؤلف

ليس تاريخ العالم، ومع كل أسف، قصيدة جميلة. إنه تاريخ لا يتغير كثيرا، وغالبا فإن ما يتكرر المرة تلو المرة هي الأشياء البغيضة. وهكذا كان، ولم تكد تمر مائة سنة على موت شارلمان، وفي زمن الفوضى والمحن، حتى غزت جحافل من الفرسان المحاربين من الشرق مرة أخرى، كما فعل الآفاريون والهن قبلهم. لم يكن هناك أي شيء مميز في غزوهم هذا، لقد كان الأمر أسهل وبالتالي أكثر إغراء لسلك الطريق المؤدية من السهوب الآسيوية باتجاه أوروبا عوضا عن الهجوم على الصين. فخلف حماية سور شي هوانغ - تي العظيم، أصبحت الصين دولة قوية منظمة، ذات مدن كبيرة مزدهرة، حيث وصلت الحياة في البلاط

الإمبراطوري وفي بيوت كبار المسؤولين المثقفين إلى درجات من الرفاهية والذوق غير المسبوقة في أي مكان آخر .

وفي الوقت ذاته ، وبينما الناس في ألمانيا يجمعون أغاني الحروب القديمة ، فقط ليقوموا بحرقها سريعا بعد ذلك بحجة أنها وثنية ، والرهبان في أوروبا يقومون بمحاولات خجولة لوضع قصص الإنجيل بالقوافي الجيرمانية والأشعار اللاتينية (كان ذلك في حدود العام 800) ، كانت الصين موطنا لبعض أعظم الشعراء الذين عرفتهم الدنيا . كانوا يكتبون على الحرير بزخارف أنيقة لفرشاة مغطسة في حبر هندي أشعارا موجزة مختصرة ، التي ، بأبسط الأساليب ، تعبر عن الكثير ، حتى إنك لا تحتاج إلى قراءتها أكثر من مرة لترسخ في عقلك للأبد .



وحيث إن الإمبراطورية الصينية كانت محمية ومدارة بإتقان ، وخاضعة لإدارة حازمة ، استمر جحافل الفرسان في توجيه غاراتهم تجاه أوروبا . هذه المرة كان الدور على المجريين . فمن غير البابا ليو أو شارلمان ليوقفهم ، لم تأخذ الأراضي التي هي اليوم هنغاريا والنمسا الكثير من وقتهم ليحتلوها ، كما أنهم قاموا بغزو ألمانيا عاملين فيها نهبا وقتلا .

هذه المخاطر أجبرت الدوقيات القبلية المستقلة على اختيار قائد عام لهم . في العام 919 قاموا باختيار هنري ، دوق ساكسونيا ، ليصبح ملكهم ، والذي نجح أخيرا في طرد المجريين من ألمانيا وإبقائهم خارج الحدود . لم يقم خليفته ، الملك أوتو ، (المعروف بأوتو الأكبر) ، بتدمير المجريين تماما كما فعل شارلمان مع الأفاريين ، ولكن بعد معركة ضارية في العام 955 ، أجبرهم على العودة إلى هنغاريا ، حيث استقروا وبقوا إلى اليوم .

لم يُبقِ أوتو الأكبر على الأراضي التي أخذها من المجريين لنفسه ، بل منحها لأمير كما جرت التقاليد . قام ابنه ، أوتو الثاني بالعمل ذاته عندما منح في العام 976 جزءا مما يعد النمسا السفلى اليوم (المقاطعة حول واغاو) لنبيل ألماني يدعى ليوبولد ، وهو أحد أفراد عائلة بابينبيرغ . وككل النبلاء الممنوحين أرضا من الملك ، بنى ليوبولد لنفسه قصرا وحكم أرضه كأمير ، حيث إنه مادامت استمرت المنحة الملكية ، فلن يكون مجرد مسؤول ملكي ، بل سيد لمقاطعته .

معظم الفلاحين الذين عاشوا على هذه الأراضي لم يعودوا أحرارا كما كان الفلاحون الجيرمانيون في العصور القديمة . لقد كانوا مملوكين للأرض التي يهبها الملك أو للأرض التي يمتلكها النبيل . وكما الخراف والماعز التي ترعى في تلك الأراضي ، كما الغزلان والدببة والخنازير الوحشية في الغابات ، كما الجداول والأحراش ، كما المروج والمراعي والحقول ، كان الناس ينتمون إلى الأراضي التي يحرثونها . كانوا معروفين بلقب عبيد الأرض serfs ، أو بلقب المقيدين bondsmen ، وذلك لأنهم كانوا مقيدين لتلك الأرض . كما لم يكونوا مواطنين أحرارا للمملكة . لم يكن لديهم حق تقرير الذهاب حيث يشاءون ولا حق تقرير حرث حقولهم من عدم حرثها .

«هل كانوا عبيدا كما كان الناس في العصور القديمة؟» ليس تماما ، فكما تتذكر ، فإن مجيء المسيحية قد وضع نهاية للعبودية في أوطاننا . لم يكن عبيد الأرض عبيدا ، لأنهم كانوا مقيدين للأرض ، يذهبون معها حيث تذهب ، والأرض كانت لا تزال مملوكة للملك حتى بعد أن يهبها لنبيل ما . لم يكن من حق النبيل أو الأمير أن يبيع أو يقتل عبيد الأرض كما كان يفعل الأسياد في السابق مع عبيدهم ، بيد أنه كان يستطيع أن يجبرهم على تنفيذ أوامره . كان على عبيد الأرض أن يزرعوا أرضه والعمل من أجله متى ما أمرهم بذلك . كان عليهم أن يرسلوا كميات منتظمة من الخبز واللحم إلى القلعة لإطعام النبيل ، حيث إنه لا يعمل في الحقول . كان النبيل يقضي معظم وقته في الصيد متى ما أراد ذلك ، كما كانت الأرض التي منحها له الملك ، وتسمى إقطاعية ، تعتبر أرضه حيث يرثها ابنه من بعده ، مادام أنه لم يأت بشيء يغضب الملك . في مقابل إقطاعيته تلك ، كل ما كان على الأمير عمله هو أن يصطحب سادة مزارعه وفلاحيه معه إلى المعركة ليحارب من أجل الملك متى ما كانت هناك حرب . وبالطبع ، كثيرا ما كانت هناك حروب .

في ذلك الوقت ، تم منح كل ألمانيا واقعيا بهذه الطريقة لسادة مختلفين ، حيث أبقى الملك على القليل لنفسه ، وكذلك كانت الحال في فرنسا وإنجلترا . في فرنسا ، في العام 987 ، أصبح دوق قوي يسمى هيو كابت ملكا ، بينما في العام 1016 استولى على إنجلترا بحار دنماركي يدعى كنوت ، أو كانوت ، والذي حكم كذلك النرويج وجزءا من السويد ، والذي منح هو كذلك أراضيه كإقطاعيات لأمراء أقوياء .

ازدادت قوة الملوك الألمان بعد انتصارهم على المجريين . قام أوتو الأكبر ، بعد أن هزم الهنغاريين ، بإجبار الأمراء السلافيين والبوهيميين والبولنديين على الاعتراف به كسيد إقطاعي أعلى عليهم جميعا كذلك . كان ذلك يعني أنه كان يجب عليهم أن ينظروا إلى أراضيهم على أنها أمانة لديهم للملك الألماني ، وكانوا مجبرين على إنزال جيوشهم لمساندته وقت الحرب .

بثقة كبيرة في قوته ، زحف أوتو الأكبر إلى ايطاليا ، وخلال زمن من الفوضى المخيفة ، حيث انفجر قتال وحشي بين اللومبارديين . أعلن أوتو إيطاليا إقطاعية ألمانية كذلك ، ومنحها لأمير لومباردي . وحيث إن البابا شعر براحة عظيمة لقدرة أوتو على استخدام سلطته ليوقف النبلاء اللومبارديين على أقدامهم ، فإنه توج أوتو إمبراطورا رومانيا في العام 962 كما حدث مع شارلمان في العام 800 .

وعليه ، ولمرة ثانية ، أصبح الملوك الجيرمانيون أباطرة رومانيين ، وبحكم هذا اللقب أصبحوا كذلك حماة الإمبراطورية المسيحية . كانوا يمتلكون الأراضي التي يحرثها الفلاحون من إيطاليا حتى بحر الشمال ، ومن الراين وإلى ما بعد جبال الألب ، حيث تحول الفلاحون السلافيون إلى عبيد أرض للنبلاء الألمان ، بيد أن الإمبراطور لم يمنح هذه الأراضي فقط للنبلاء ، بل كان كثيرا ما يمنحها للقساوسة والأساقفة والمطران . وكونهم لم يعودوا مجرد كهنة للكنيسة ، فقد حكموا هم كذلك ، مثل النبلاء ، مقاطعات عظيمة وساروا في الحروب على رؤوس جيوش الفلاحين التابعة لهم .

في البداية ، كان الوضع مناسبا للبابا تماما . فقد كان على علاقة طيبة مع كل الأباطرة الرومانيين الذين تولوا حمايته والدفاع عنه ، وكانوا جميعا رجالا تقاة متدينين .

لكن الوضع سرعان ما تغير. لم يقبل البابا بأن يقوم الإمبراطور بتحديد مَن مِن قساوسته يجب أن يصبح أسقفماينز أو تراير أو كولون أو باسو. «تلك مناصب دينية»، كان البابا يقول، «وأنا الذي ينبغي، كرئيس للكنيسة، أن يقررها». بيد أن الحقيقة كانت أن تلك لم تكن مناصب دينية فقط. خذ أسقف كولون، على سبيل المثال، فقد كان وصيا على الأرواح في المقاطعة كما كان أميرها وسيدها في الوقت ذاته. لذا، فقد أصر الإمبراطور على أن الأمر يعود إليه لتقرير من سيصبح أميرا أو سيدا على أرضه. وإذا ما فكرت في الموضوع للحظة، فإنك ستجد أن كليهما، من وجهة نظره، كان على حق. لقد خلقت عملية منح الأراضي للقساوسة معضلة، فسيد كل القساوسة كان البابا، إلا أن سيد كل الأراضي كان الإمبراطور. لم يكن لذلك الوضع إلا أن يخلق مشكلة، وسرعان ما حدث ذلك. هذه المشكلة أصبحت تعرف باسم خلاف التنصيب.

في روما، في العام 1073، أصبح هناك راهب استثنائي التقوى وشديد الحماسة لدينه، والذي كان قد وهب حياته للدفاع عن طهارة وقوة الكنيسة، أصبح هذا الراهب البابا. كان اسمه هايلدبراند، وبصفته البابا، فقد حمل اسم غريغوري السابع.

في تلك الأثناء في ألمانيا، كان ملك فرانكي يجلس على العرش، كان اسمه هنري الرابع. من المهم استيعاب أن البابا لم ير نفسه كرئيس للكنيسة فقط، ولكن كذلك كحاكم معين إلهي على كل المسيحيين على الأرض. في الوقت ذاته، كان الإمبراطور الألماني، كخليفة للأباطرة الرومانيين القدماء ولشارلمان، يعتقد أنه الحامي والقائد الأعلى لكل العالم المسيحي. وعلى الرغم من أن هنري الرابع لم يكن قد توج بعد كإمبراطور، بيد أنه كان يعتقد، بوصفه ملك ألمانيا، أن ذلك كان من حقه. مَن مِن الاثنين يجب عليه أن يتنازل؟

عندما بدأ الصراع بينهما، أصاب العالم اضطراب شديد. البعض كان مع الملك هنري الرابع، بينما ساند آخرون البابا غريغوري السابع. اشترك العديد من الناس في هذا الصراع حتى إنه لدينا اليوم 155 حجة مكتوبة مع وضد الملك من مؤيديه ومعارضيه. عدد من هذه الحجج تصور الملك هنري على أنه رجل شرير شديد العصبية، بينما في حجج أخرى البابا هو المتهم بكونه عديم الرحمة ومتعطشا للسلطة.

أعتقد أننا يجب ألا نصدق أيا من الطرفين ، فما أن نقرر أن كلا منهما ، من وجهة نظره ، كان على حق ، فإن الحديث عن أن الملك هنري كان يسيء معاملة زوجته (كما ادعى معارضوه) أو أن البابا غريغوري نُصّب بابا من دون اتباع الإجراءات الشكلية المعتادة (كما ادعى معارضوه) ، لا يهمنا في أقل القليل . لا يمكننا العودة إلى الماضي لنرى تحديدا ما حدث ولنكتشف إن كانت تلك الادعاءات ضد البابا والملك تحمل أي جانب من الصحة . غالبا ، لم تكن تلك الادعاءات صحيحة ، فعندما يأخذ الناس جانبا من دون آخر فعادة ما تجانبهم العدالة . وعليه ، سأثبت لك الآن كم هو صعب الوصول إلى الحقيقة ، وذلك بعد أكثر من تسعمائة سنة .

يمكننا أن نكون متأكدين من شيء واحد : كان الملك هنري في موقف صعب . كان النبلاء الذين أنعم عليهم بالأراضي (ألا وهم الأمراء الألمان) يقفون ضده . لم يكونوا يرغبون في أن ترتفع سلطة ملكهم حتى لا يزداد تحكمه فيهم . فتح البابا غريغوري باب العداءات عندما منع الملك هنري من الكنيسة ، وأعني بذلك أنه منع أي قسيس من تقديم العشاء المقدس للملك . كان هذا يعرف بالحرمان . بعدها ، أعلن الأمراء أنهم لا يريدون أي علاقة مع ملك محروم ، وأنهم سيقومون باختيار غيره ليحل محله . بطريقة أو بأخرى ، كان على هنري أن يقنع البابا برفع هذا الحظر المريع ، فمصيره كان يعتمد على هذا الرفع . فإذا ما فشل ، فإنه سيخسر عرشه . وعليه ، فقد انطلق وحده ومن دون جيشه إلى إيطاليا ليحاول إقناع البابا برفع هذا الحظر .

كان الفصل شتاءً ، حيث قام كل الأمراء الألمان الذين أرادوا منع مصالحة الملك هنري مع البابا باحتلال كل الطرق والدروب . لذا كان على هنري ، المصحوب بزوجته ، أن يلتحف بمنعطف طويل ، وفي برودة الشتاء والصقيع المجمد للأطراف أخذوا طريقهم عبر الألب ، ربما عبر الممر ذاته الذي استخدمه هنيبعل حين غزا إيطاليا .

في تلك الأثناء ، كان البابا في طريقه إلى ألمانيا ليتفاوض مع أعداء هنري . عندما سمع باقتراب هنري ، أسرع بالهرب لاجئا إلى قلعة في شمال إيطاليا تسمى كانوسا ، مقتنعا بأن هنري وصل بصحبة جيشه . بيد أنه عندما ظهر هنري بمفرده ، متمنيا فقط رفع الحرمان عنه ، دُهش البابا وابتهج كثيرا . البعض يقول إن الملك حضر في لباس

التائبين ، مرتديا عباءة خشنة بغطاء رأس ، وأن البابا أجبره على الانتظار لمدة ثلاثة أيام فـي فناء القلعة ، عاري القدمين على الثلج ، قبـل أن تأخذه الرحمة به ويرفع الحظر . المعاصـرون لتلـك الحقبـة يصفـون حال الملـك بأنـه كان يتذلـل ويترجى البابـا طالبا الرحمة ، والتي منحها البابا أخيرا شفقة منه .

اليـوم لايزال الناس يتحدثون عن «الذهاب إلى كانوسـا» في إشـارة إلى اضطرار أحدهـم إلى إذلال نفسـه أمـام خصمه . ولكـن ، لنسـتمع الآن لأحد أصدقـاء الملك يحكي القصة ذاتها . تلك هي روايته عنها : «عندما رأى هنري كم تدهورت الظروف بالنسـبة إليه ، فكر سـرا في خطة ماكرة . فمن دون أي إنذار لمن حوله ، انطلق هنري ليقابل البابا . كان هدفه ضرب عصفورين بحجر واحد : فمن ناحية سـيُرفع الحرمان عنه ، ومن ناحية أخرى ، وبذهابه شخصيا ، سيمنع البابا من مقابلة أعدائه ، وبالتالي سيتفادى خطرا عظيما» .

وعليه ، فقد رأى أصدقاء البابا رحلة هنري إلى كانوسـا على أنها انتصار سـاحق للبابا ، بينما رآها مؤيدو الملك على أنها نصر عظيم لقائدهم .

مـن هذه القصة لك أن ترى كم يجب أن يكون الإنسـان حريصا عند الحكم على أي خـلاف بـين قوتين متنافسـتين . بيد أن الصـراع لم يقف عند كانوسـا ، أو مع وفاة الملـك هنـري ، والـذي أصبح فـي الواقـع إمبراطورا فـي تلك الأثنـاء ، أو بوفـاة البابا غريغـوري . فعلـى الرغم من أن هنـري نجح في عزل غريغوري ، فـإن إرادة هذا البابا العظيم تغلبت في النهاية . فقد أصبح اختيار الأسـاقفة من حق الكنيسـة ، حيث كان يسـمح للإمبراطـور فقـط بأن يعلـن موافقته على هـذا الاختيار من عدمهـا . فالبابا ، وليس الإمبراطور ، هو من أصبح سيد الإمبراطورية المسيحية .

هـل تتذكر هؤلاء البحارة الشـماليين ، النورمانديين ، والذين سـيطروا على بقعة ممتدة من الأرض على طول السـاحل الشمالي لفرنسا والتي لاتزال تعرف بنورماندي اليـوم؟ سـرعان ما تعلم هؤلاء الحديث بالفرنسـية ، كما فعل جيرانهـم ، بيد أنهم لم يفقـدوا شـهيتهم لرحلات المغامرات البحريـة والغزوات . البعـض منهم ذهب حتى صقليـة ، حيـث تحاربـوا هناك مع العـرب ، ثـم احتلوا جنـوب إيطاليا ليسـتمروا في طريقهم ، تحت سيطرة قائدهم العظيم روبرت جويسكارد ، دفاعا عن البابا غريغوري ضـد هجمـات هنري الرابـع ، بينما قطع آخـرون الامتداد البحري الضيـق الواقع بين

فرنسا وإنجلترا ، والمعروف باسم المعبر الانجليزي ، وتحت قيادة ملكهم ، ويليام (الملقب لاحقا بالفاتح) ، هزموا الملك الإنجليزي (سليل الملك الدنماركي كانوت) في معركة هاستينغز . كان ذلك في العام 1066 ، تاريخ يعرفه كل الإنجليز ، لأنه كان آخر زمن ينجح فيه جيش العدو في وضع أقدامه على التراب الإنجليزي .

أمر ويليام ضباطه بكتابة قائمة تحصر كل قرية أو عقار على الأرض ، حيث أنعم بالعديد منها على جنوده كإقطاعيات . الآن أصبح النبلاء الإنجليز نورمانديين ، وحيث إن النورمانديين القادمين من نورماندي كانوا يتحدثون بالفرنسية ، فإن اللغة الانجليزية لاتزال إلى اليوم خليطا من كلمات من الألمانية القديمة واللغات الرومانسية .

23

فرسان شرفاء

«كان أبناء عبيد الأرض يصبحون عبيدا ، وأبناء الفرسان يصبحون فرسانا . لم يكن الوضع يختلف عنه في الهند القديمة ونظام الطبقات فيها»

المؤلف

مما لا شك فيه أنك قد سمعت بفرسان الزمن القديم ، هؤلاء القادمين من عصر الفروسية . ولا بد أنك قد قرأت كتبا عن الفرسان ومرافقيهم الذين يخرجون بحثا عن المغامرة ، قصص مملوءة بالدروع اللامعة ، والخوذات ذات الريش والخيول الأصيلة ، وشعارات النبالة المرسومة ، والقلاع المنيعة ، والمنافسات والمباريات حيث تقدم السيدات الجميلات الجوائز للمنتصرين ، والشعراء المتجولين ، والفتيات الطريدات ، والرحلات للأرض المقدسة . أجمل ما في ذلك أن كل تلك الأشياء كانت موجودة بالفعل . لم تكن كل هذه البهرجة والرومانسية اختراعا غير حقيقي . ففي يوم

من الأيام ، كان العالم ممتلئا بالفعل بالألوان والمغامرات ، حيث كان الناس يشاركون بمرح في هذه اللعبة الرائعة والغريبة المسماة بالفروسية ، والتي كثيرا ما كانوا يلعبونها إلى حد الموت .

لكن أن السؤال هو متى كان عصر الفروسية تحديدا ، وكيف كان هذا العصر في الواقع ؟ كلمة الفروسية chivalry أتت من الكلمة الفرنسية chevalier والتي تعني «الخيّال» ، حيث بدأت الفروسية مع هؤلاء الخيّالة . فكل من كان يستطيع تحمل تكلفة خيل قتال ، والتي يستطيع أن يذهب بها للمعارك ، كان يعتبر فارسا ، فإذا لم يستطع شراء تلك الخيل ، كان يذهب للحرب ماشيا ولم يكن يعتبر فارسا حينها . كان النبلاء الذين منحهم الملك أراضي يُعتبرون فرسانا كذلك حيث كان على عبيد أراضيهم أن يوفروا العلف لهذه الخيول . بدوره ، يمكن للنبيل أن يُنعم بجزء من إقطاعيته على وكيله أو مدير أعماله ، والذي لا بد أن يكون غنيا بدرجة تؤهله لامتلاك خيل جميل حتى وإن ، كان ضعيف السلطة من نواح أخرى . فإذا ما استدعى الملك هذا السيد اللورد للحرب فإنه يجب عليه أن يرافقه . وعليه فقد كان الوكلاء أو مديرو الأعمال يعتبرون فرسانا كذلك . فقط الفلاحون والخدم الفقراء وصبية المزارع والعمال ، الذين كانوا يذهبون للحروب على أقدامهم ، لم يكونوا يعتبرون فرسانا .



لقد بدأت القصة كلها في عصر الإمبراطور هنري الرابع ، أي أن ذلك كان بعد سنة ألف ميلادية ، واستمرت لعدة قرون في ألمانيا وفي إنجلترا ، ولكن قبل كل شيء ، في فرنسا .

بيد أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا بعد فرسانا كما قد نتخيلهم أنا وأنت . فهذا النوع من الفروسية حدث بالتدريج . في البداية عمل الأمراء والنبلاء على بناء قلاع عظيمة لأنفسهم ، قلاع كان يؤمل منها أن تكون آمنة ضد أي اعتداء . لايزال في إمكاننا مشاهدة مثل هذه القلاع في الأماكن المرتفعة ، أو منتصبة بإباء وتحد على منحدرات صخرية وعرة ، بمدخل أوحد على امتداد مسار ضيق بالغ الصغر .

قبل أن تصل إلى بوابة القلعة ، عادة ما تكون هناك قناة أو خندق عريضان ، أحيانا يكونان ممتلئين بالمياه . أعلى الخندق يكون هناك جسر متحرك بسلاسل حديدية على جانبيه لترفعه في أي لحظة . عند رفع الجسر ، كانت القلعة تصبح حصينة حيث لا يستطيع أحد دخولها . على الجانب الآخر من الخندق توجد جدران سميكة قوية ممتلئة بالثغور لرمي السهام والفتحات لسكب الماء المغلي على العدو . كانت الجدران نفسها متوجة بشرفة ذات فتحات شكلها مثل الأسنان ، حيث يمكنك الاختباء خلفها لمراقبة العدو . بعد هذا الجدار السميك عادة ما يكون هناك آخر ، وأحيانا يكون هناك جدار ثالث ، قبل أن تصل إلى فناء القلعة . الفناء بعدها يفتح على الغرف حيث يعيش الفارس . كانت القاعة ذات المدفأة مشتعلة النيران مخصصة للنساء اللاتي لم يكن تعودن على المشقة كما الرجال .

لم تكن هناك أي راحة في حياة القلاع . كان المطبخ عبارة عن غرفة مصبوغة بسواد السخام ، حيث كان اللحم يشوى على سيخ ضخم فوق قطعة خشب مشتعلة . بالإضافة إلى غرف الفارس وخدمه ، كانت هناك غرفتان أخريان : كنيسة صغيرة حيث كان القسيس الملحق بالقلعة يقيم القداس ، وغرفة التخزين . كانت مساحة التخرين هذه عبارة عن برج ضخم عادة ما يكون في قلب القلعة ، توضع فيه كل مواد التخرين ، وإليه يلجأ الفرسان في حال ما استطاع أعداؤهم التغلب على . . .الجبال ، الخندق ، الجسر المتحرك ، فتحات الماء المغلي والجدران الثلاثة . هنا يتواجه الأعداء وهذا البرج الشاهق حيث يستطيع الفرسان الصمود لحين وصول المساعدة .

وبالطبع ، علينا ألا ننسى الأقبية ، التي كانت عبارة عن زنازين ضيقة متجمدة البرودة موضوعة في أعماق القلعة حيث يلقي الفرسان بسجنائهم . هناك ، كان السجناء يُتركون للذبول والفناء في الظلام إلى أن يموتوا أو يُفتدوا بمبلغ مالي ضخم .

قد تكون رأيت إحدى هذه القلاع . ولكن ، في المرة القادمة التي تفعل ، لا تفكر فقط في الفرسان المرتدين لدروعهم الحديدية الذين كانوا يعيشون هناك . عوضا عن ذلك ، ألق نظرة على الجدران والأبراج وفكر بعض الشيء في الأشخاص الذين قاموا ببنائها . كانت الأبراج تجثم شاهقة على قمم الجبال الصخرية ، الجدران معلقة بين الأجراف . كل ذلك كان من صنع الفلاحين عبيد الأرض ، هؤلاء الرجال المحرومون من الحرية ، المقيدون كما كانوا يسمون . لقد كانوا هم من كسر الصخور وحملها ، ثم سحبوها للأعلى وراكموها بعضها على بعض . وعندما كانت تخور قواهم ، كان على زوجاتهم وأبنائهم أن يحلوا محلهم . كان للفارس أن يأمرهم بعمل ما يشاء . أن تكون فارسا أفضل من أن تكون عبد أرض في أي زمن من الأزمنة .

كان أبناء عبيد الأرض يصبحون عبيدا ، وأبناء الفرسان يصبحون فرسانا . لم يكن الوضع يختلف كثيرا عنه في الهند القديمة ونظام الطبقات فيها .

عند بلوغه السابعة ، كان ابن الفارس يُرسل إلى قلعة أخرى ليتعلم شؤون الحياة . كان يطلق عليه لقب الوصيف ، وكان عليه خدمة السيدات ، يحمل لهن ذيول فساتينهن وربما يقرأ لهن بصوت عال ، حيث إن النساء نادرا ما كن يتعلمن القراءة والكتابة في حين أن الوصفاء كانوا ينالون نصيبهم من التعليم عادة . عند بلوغه سن الرابعة عشرة ، يصبح الوصيف حارسا . لم يكن عليه بعد ذلك أن يبقى في القلعة ليجلس إلى جانب المدفأة ، بل كان مسموحا له بأن يرافق فارسه عندما كان يذهب للصيد أو للحرب . كان على الحارس أن يحمل درع الفارس ورمحه وأن يمده بحربته الثانية في ساحة المعركة عندما تتهشم الأولى . كان عليه أن يطيع سيده في كل الأمور وأن يكون مخلصا له . فإذا ما أثبت نفسه حارسا شجاعا ومخلصا ، كان يُنصب هو بدوره فارسا في عمر الواحد والعشرين في مراسيم تنصيب مهيبة . كان على الحارس أن يصوم ويصلي في كنيسة القلعة أولا . كما كان يتلقى عشاء القداس من القسيس . بعدها ، وفي كامل زيه المدرع ، ولكن بلا خوذته ، أو سيفه أو درعه ، كان يجثو بين شاهدين . يقوم سيده ، الذي كان ينصبه فارسا ، بلمسه على كل من كتفيه وعلى رقبته بالشفرة المسطحة لسيفه بينما ينشد الكلمات التالية :

باسم الرب ووالدته مريم

اقبل تلك الضربة ولا تقبل بعدها ضربة .

كن مستقيما ، صادقا وشجاعا .

أن تكون فارسا خير من أن تكون عبدا .

فقط عندها كان يسمح للحارس بأن ينهض . لم يعد حارسا بعد الآن . إنه الآن فارس يمكنه تنصيب فرسان آخرين ، ويحمل درعه شعار نبالته : أسد ، فهد أو زهرة ، وعادة ما يختار شعارا نبيلا أو وصية يعيش حياته على أساسها . بكل مهابة ، كان يقدم سيفه وخوذته له ، حيث تثبت الأشواك الذهبية على حذائه ذي العنق الطويل ، ويوضع درعه على ذراعه . بعدها ينطلق على حصانه بخوذته اللامعة المزينة بالريش ، برمحه العظيم وعباءته القرمزية فوق درعه الحديدية ، مصحوبا بحارسه الشخصي ليثبت نفسه جديرا بلقب الفروسية .

من كل هذه المراسيم المهيبة ، يتبين لك أن الفارس كان أكثر من مجرد جندي على حصانه ، بل هو تقريبا عضو في «أخوية» ، كما الراهب . فلم تكن الشجاعة كافية حتى تصبح فارسا جيدا . الراهب يخدم الرب من خلال صلواته وعمله الصالح ، والفارس يخدم الرب من خلال قوته . كان من واجب الفارس أن يحمي الضعفاء والعزل المسالمين ، النساء والفقراء ، الأرامل والأيتام . كان يسمح له بسحب سيفه فقط من أجل قضية عادلة ، ولا بد له أن يخدم الرب من خلال كل عمل من أعماله . كان يدين تجاه سيده ، رئيس الفيلق ، بالطاعة التامة ، ومن أجله عليه أن يجازف بكل شيء . كان عليه ألا يكون متوحشا ولا جبانا ، وفي المعركة ، عليه أن يحارب رجلا لرجل ، وليس اثنين مقابل واحد أبدا ، كما أن الخصم المهزوم لا يمكن أن يهان مطلقا . مازلنا نسمي هذا النوع من السلوك فروسية أو شهامة ، لأنه يتسق ومثالية الفارس .

عندما كان الفارس يقع في حب سيدة ، كان يدخل المعارك على شرفها ، ويسافر باحثا عن المغامرات ليفوز بالشهرة من أجل محبوبته . كان ينطق اسمها بتبجيل ملبيا كل طلباتها . هذا السلوك هو كذلك جزء من الفروسية . وإذا ما كان يبدو لك أمرا طبيعيا اليوم أن تسمح لسيدة بالمرور من الباب أولا ، أو أن تنحني لتلتقط لها شيئا أوقعته ، فإن ذلك يعود إلى حقيقة أنه في داخلك بقايا من طريقة تفكير هؤلاء الفرسان القدماء الذين كانوا يعتقدون أنه من واجب السيد المهذب أن يحمي الضعفاء ويحترم النساء .

في أوقات السلام ، يستعرض الفارس كذلك شجاعته ومهاراته في ألعاب الفروسية المعروفة بمباريات البطولة . يتجمع الفرسان من بلدان مختلفة ليختبروا قوتهم في مباريات الحرب تلك . بثيابهم المدرعة كاملة ، الفرسان يعدون بخيولهم بعضهم تجاه بعض بأقصى سرعة ، كل يبذل أقصى جهده ليطيح بالآخر من على حصانه برماحهم المثلومة . تقدم سيدة القلعة للفائز جائزة ، عادة ما تكون إكليلا من الزهور . لإرضاء السيدات ، كان على الفارس أن يقوم بأكثر من مجرد التفوق في أعمال البطولة . كان عليه أن يتصرف بطريقة متواضعة ونبيلة ، ألا يلعن أو يشتم كما اعتاد الجنود أن يفعلوا ، كما أن عليه أن يتقن لعبة الشطرنج وفن الشعر وغيرها من فنون السلام .

كثيرا ما كان الفرسان في الواقع شعراء عظاما ، يكتبون القصائد الغنائية التي تمجد النساء اللواتي يحبون ، فيخبرون عن جمالهن وفضائلهن . تغنى الفرسان كذلك بفضائل فرسان آخرين من الماضي . كانت هناك قصص شعرية مطولة ، تحكي عن الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة ، في بيرسيفال (أو بارسيفال) ولوهينغرن ورحلات البحث عن الكأس المقدسة (الكأس التي شرب منها السيد المسيح خلال العشاء الأخير) ، عن قصة الحب غير السعيدة لتريستن وأيزولد ، وكذلك قصص تحكي عن الإسكندر الأكبر والحرب الطروادية .

يتجول الشعراء من قلعة إلى قلعة ، يتغنون حول سيغفريد ، قاتل التنين ، وثيودوريك ، ملك القوط (الذي أصبح فيما بعد ديتريش من بيرن) . هذه الأغاني ، والتي كانت تغنى في النمسا على الدانوب في ذلك الوقت ، وهي ضمن أولى الأغاني التي نعرف ، حيث إن تلك التي نُسخت في عصر شارلمان فُقدت جميعا . وإذا ما قرأت قصة سيغفريد في قصيدة نايبيلونغن الغنائية ، فستجد أن جميع المحاربين الفلاحين الجيرمانيين القدماء كانوا يتصرفون كما الفرسان الحقيقيين . حتى أتيلا المرعب من قبيلة الهن ، وهو يحتفل بمهابة بزواجه على أرملة سيغفريد ، كريمهيلد ، في فيينا ، تم تقديمه في هذه القصص على أنه ملك فارس نبيل .

كما تعرف ، فإن واجب الفرسان الأول هو النضال من أجل الرب ومن أجل المملكة المسيحية . ولم يمر وقت طويل قبل أن تتاح لهم فرصة رائعة لتحقيق ذلك . كان ضريح السيد المسيح في بيت المقدس ، كما كانت فلسطين بأكملها ، في يد

العرب . لذا ، عندما قام مبشر عظيم في فرنسا ، وكذلك البابا ، الذي جعله انتصاره على الملوك الألمان أقوى حاكم للمملكة المسيحية ، بتذكيرهم بواجبهم للمساعدة في تحرير الضريح ، فإن عشرات الآلاف من الفرسان المسيحيين صرخوا بكامل حماستهم : «إنها إرادة الرب ! إنها إرادة الرب !» .

تحت قيادة الفارس الفرنسي ، غودفري من بويلون ، انطلق جيش عظيم بمحاذاة الدانوب في العام 1096 ، في البداية إلى القسطنطينية ومن ثم عبر آسيا الصغرى باتجاه فلسطين . كان هؤلاء الفرسان وتابعوهم يحملون صلبانا من القماش الأحمر مدروزة على أكتافهم ، وكانوا يسمّون الصليبيين . كان هدفهم تحرير الأرض التي ارتفع فيها صليب المسيح ذات يوم . وعندما وصلوا أخيرا ، وبعد سنوات طوال من المعارك والمصاعب التي لايمكن تخيلها ، إلى جدران بيت المقدس ، يقال إنه بلغ بهم التأثر لرؤية المدينة المقدسة ، والتي عرفوها من الإنجيل ، حد البكاء الشديد وتقبيل الأرض التي كانوا يقفون عليها . بعدها قاموا بمحاصرة المدينة والتي دافع عنها الجنود العرب ببسالة ، بيد أنها سقطت في أيديهم أخيرا .

إلا أنهم ما إن دخلوا بيت المقدس حتى توقفوا عن التصرف بوصفهم فرسانا أو مسيحيين . لقد قاموا بذبح كل المسلمين وارتكبوا أعمالا وحشية بشعة . بعدها قاموا بأعمال تكفيرية ليتوبوا من أفعالهم ، وبينما هم يغنون المزامير المقدسة ، تقدموا حفاة إلى حيث ضريح السيد المسيح .

قام الصليبيون بتأسيس المملكة المسيحية لبيت المقدس ، حيث أصبح غودفري من بويلون الحامي لها . غير أنه ولكونه صغيرا وضعيفا وشديد البعد عن أوروبا وواقعا بين مملكات المسلمين ، فإن هذا البلد الصغير كان تحت هجوم مستمر من قبل المحاربين العرب . كان ذلك يعني أنه في إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، كان القساوسة يستحثون الفرسان باستمرار على الخروج في حروب صليبية جديدة . لم تكن كل تلك الحروب ناجحة .

بيد أن لهذه الحروب الصليبية نتيجة واحدة طيبة ، على الرغم من أنها ما كانت لتسعد الفرسان مطلقا . ففي الشرق البعيد ، اكتشف المسيحيون الثقافة العربية ، مبانيهم ، مفهومهم عن الجمال ، وعلومهم . وفي خلال مائة سنة من الحروب الصليبية الأولى ، تُرجمت أعمال معلم الإسكندر الأكبر ، أي كتب أرسطو ، من

العربية إلى اللاتينية حيث كانت هذه الأعمال تُقرأ وتُدرس بحماسة في إيطاليا وفرنسا وألمانيـا ، وإنجلتـرا . اندهـش النـاس عندما اكتشـفوا كم تشـابهت الكثير مـن تعاليم أرسـطو مع تعاليم الكنيسـة ، فما لبثوا أن ملأوا المجلدات اللاتينيـة الضخمة بالأفكار المعقـدة حول الموضوع . كل ما تعلمـه العرب واختبروه خلال فتوحاتهم حول العالـم نُقـل الآن إلـى أوروبا على أيدي الصليبيين . من جوانب عـدة ، كان المثال الذي قدمه هؤلاء العرب الذين نظر إليهم الفرسـان على أنهم أعداء لهم هو السـبب الرئيسي في تحويل محاربي أوروبا البرابرة إلى فرسان شرفاء بحق .

24

أباطرة عصر الفروسية

«إن كل ما حققته الحملات الصليبية الأخرى من خلال التضحيات العظيمة وخسارات الأرواح الكثيرة ، حققه فريدريك من دون أي حرب مطلقا»

المؤلف

في أيام القصص الخيالية تلك ، الحافلة بالألوان والمغامرات ، كانت هناك عائلة جديدة من الفرسان تحكم في ألمانيا . أخذت هذه العائلة اسمها ، هوهينستوفن ، من اسم قلعتهم . كان أحد أفراد هذه العائلة هو الإمبراطور فريدريك الأول ، الذي لقبه الإيطاليون ببربروسا نظرا إلى لحيته الحمراء النارية المهيبة . الآن ، قد تتساءل لم اختار التاريخ أن يذكره باسمه الإيطالي ، خصوصا أنه قبل كل شيء ، كان فريدريك الأول إمبراطورا ألمانيا . السبب ببساطة أنه قضى معظم وقته في إيطاليا حيث حدثت كل مآثره التي جعلته مشهورا هناك . لم يكن البابا وكل سلطته في منح تاج روما الإمبراطوري للملوك الألمان هو كل ما جذب بربروسا إلى إيطاليا . لقد

كان مُصرا كذلك على أن يحكم كل إيطاليا لحاجته إلى المال . «ألم يكن في استطاعته الحصـول على المال من ألمانيا؟» ، أسـمعك تتسـاءل . لا ، لم يكن باسـتطاعته ذلك ، ففي تلك الأيام لم تكن هناك أي أموال في ألمانيا مطلقا .

هل سبق لك أن تساءلت : لِمَ يحتج الناس فعليا إلى المال؟ «ليعتاشوا بالتأكيد !» ، أسـمعك تقول . بيد أن هذا السبب ليس صحيحا بشكل دقيق . جرب أن تأكل قطعة عملـة معدنيـة . الناس يعتاشـون على الخبـز والأطعمـة الأخرى ، ومن يـزرع قمحه بنفسـه ويصنع خبزه لا يحتاج إلى المال أكثر مما كان روبنسـون كروزو(*) يحتاج إليه ، كمـا لا يحتاج إليه من يحصل على خبـزه بالمجان . هكذا كان الوضع في ألمانيا . كان عبيد الأرض يزرعون حقولهم ويقدمون عشـر محصولهم للفرسـان والرهبان الذين كانوا يملكون الأرض .



«ولكـن من أين حصل الفلاحون على محاريثهم وعلى الأغطية والحبال والأشـياء الأخرى التي كانوا يحتاجون إليها لحيواناتهم؟» . في الواقع كانوا في الأغلب يحصلون على هذه الأشياء بالمبادلة . فإذا ما كان فلاح يمتلك ثورا ، على سبيل المثال ، بيد أنه كان يفضل أن يكون لديه سـتة خراف ليحصل منها على الصوف كي يصنع لنفسـه سـترة ، فإنـه كان يحصـل على هذه الخراف بأن يسـتبدلها من عند جاره بشـيء من عنده . وإذا مـا ذبح الثور وقضى ليالي الشـتاء الطويلة صانعا من قرنيه كوبي شـرب جميلين ، فإنه

(*) روبنسـون كروزو هو عنوان رواية ، واسـم الشـخصية الرئيسـية فيها ، للكاتب دانيال ديفو ، وهي تحكي قصة الشاب الإنجليزي روبنسون الذي تتحطم سفينته على جزيرة مهجورة ليعيش فيها وحيدا سنوات طوالا [المترجمة] .

في إمكانه مبادلة أحد الكوبين ببعض الكتان الذي يزرعه جاره ، والذي يمكن لزوجته أن تحيكه لتصنع منه معطفا . كان هذا النظام يعرف بالمقايضة . وعليه فإن الناس في ألمانيا في تلك الأيام استطاعوا تدبر أمورهم تماما من دون مال ، حيث كان معظمهم إما فلاحين أو ملاك أراض . حتى الأديرة لم تكن تحتاج إلى المال ، حيث كانت تمتلك أراضي كثيرة وكان الناس الأتقياء إما يهبونها أو يوصون بها لهم بعد مماتهم .

بخلاف الغابات الشاسعة والحقول الصغيرة والقليل من القرى والقلاع والأديرة ، لم يكن هناك شيء آخر تقريبا في كل المملكة الألمانية ، ما يعني أنه لم تكن هناك أي مدن . والناس يحتاجون إلى الأموال في المدن . فصناع الأحذية وتجار الأقمشة والكتبة لا يستطيعون إطفاء جوعهم وعطشهم بالجلود والأقمشة والحبر . كانوا يحتاجون إلى الخبز . ولكن هل لك أن تتخيل أن تزور صانع الأحذية وتدفع له الخبز مقابل حذائك ليعتاش منه؟ وفي كل الأحوال ، إن لم تكن خبازا ، فمن أين ستحصل على الخبز؟ «من الخباز !» نعم ، ولكن ماذا ستعطي الخباز في المقابل؟ «ربما في إمكاني مساعدته في العمل» . ولكن ماذا إذا ما لم يكن في حاجة إلى مساعدتك؟ أو إذا كنت قد وعدت السيدة التي تبيع الفاكهة بتلك المساعدة؟ إذن ، سيكون الوضع غاية في التعقيد إذا ما تعامل الناس الذين يعيشون في المدن بنظام المقايضة .

لذلك ، اتفق الناس على شيء موحد ليقايضوا به والذي يرغب فيه ومن ثم يقبله الجميع هو شيء يسهل تقاسمه وحمله في كل مكان ، لن يفسد أو يفقد قيمته إذا ما خزنته لفترة . قرر الناس أن أفضل ما يمكن استعماله هو المعدن ، أي الذهب أو الفضة . كل الأموال كانت مصنوعة من المعدن ، حيث كان الأثرياء يتجولون بمحافظهم المعلقة على أحزمتهم والمعبأة بالعملات الذهبية . كان هذا يعني أنه في إمكانك أن تعطي صانع الأحذية مالا مقابل الحذاء ، مما يمكنه من استعمال هذا المال ليشتري الخبز من الخباز ، والذي بدوره يمكنه أن يعطيه للفلاح مقابل الدقيق ، ومن ثم يمكن للفلاح أن يستخدم مالك هذا لشراء محراث جديد ، حيث لا يمكن للفلاح أن يجد ذلك المحراث في حديقة جاره للمقايضة .

غير أنه كان هناك عدد ضئيل من المدن في ألمانيا في أيام الفروسية تلك ، لذا ، فإن حاجة الناس إلى المال كانت قليلة جدا ، على عكس الوضع في إيطاليا حيث كان المال مستخدما منذ العصور الرومانية . فدوما ما كانت في إيطاليا مدن عظيمة وتجار

عديدون بأكياس من المال على أحزمتهم والمزيد منها مخبأ في صناديقهم الضخمة .

كانت بعض هذه المدن تقع على البحر ، مثل البندقية التي تقع في الواقع في منتصف البحر بين عنقود من الجزر الصغيرة حيث لجأ السكان هربا من الهن . ثم كانت هناك مدن بحرية عظيمة أخرى مثل جنوا وبيزا ، والتي أبحرت سفنها في أعماق البحار لتعود من الشرق بالأقمشة الفاخرة ، البهارات النادرة والأسلحة الثمينة . كانت هذه البضائع تباع في الموانئ ، حيث تُباع مجددا داخل البلاد في مدن مثل فلورنسا ، فيرونا ، أو ميلان ، فتحول الأقمشة إلى ألبسة ، أو ربما إلى رايات أو خيام . بعدها ، تذهب تلك المصنوعات إلى فرنسا ، والتي تحتوي عاصمتها باريس على ما يقرب من مائة ألف من السكان ، أو إلى إنجلترا ، أو حتى إلى ألمانيا . بيد أنه لم تذهب الكثير من هذه البضائع إلى ألمانيا ، حيث لم يكن هناك الكثير من المال لتُشترى به مثل هذه الأشياء .

وعليه ، فقد ازداد ثراء الناس الذين يعيشون في المدن أكثر فأكثر ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يملي عليهم أوامره ، فهم ليسوا فلاحين ولا ينتمون إلى إقطاعية أي شخص آخر . بيد أنه ، وحيث لم يتم منحهم أي أرض ، فإنهم لم يكونوا أسيادا كذلك . لقد كانوا يحكمون أنفسهم ، تماما كما كان يفعل الناس في العصور القديمة . كانت لديهم محاكمهم القانونية كما كانوا أحرارا ومستقلين في مدنهم مثل الرهبان والفرسان . هؤلاء المواطنون (يسمون burghers في ألمانيا أو bourgeoisie أي البرجوازيين في فرنسا) كانوا يعرفون بلقب الطبقة الثالثة أو العامة أو العوام .

تعيدنا تلك النقطة أخيرا إلى الإمبراطور بربروسا الذي كان في حاجة إلى المال . فكإمبراطور روماني مقدس ، كان يريد أن يكون الحاكم الفعلي لإيطاليا ، وأن يتلقى الجزيات والضرائب من المواطنين الإيطاليين . بيد أن المواطنين لم يكونوا ليتجاوبوا مع شيء من هذا . كان هؤلاء معتادين على حريتهم وغير راغبين في التخلي عنها . وعليه فقد اصطحب بربروسا جيشا عبر جبال الألب حيث استدعى عددا من الفقهاء المشهورين في العام 1158 والذين أعلنوا رسميا وعلنيا بأن لبربروسا ، كإمبراطور روماني مقدس ووريث لقياصرة الروم ، كل الحقوق التي كانت لأسلافه منذ ألف سنة مضت .

لم تعر المدن الإيطالية هذا الإعلان أي اهتمام ، فقد بقوا على رفضهم للدفع . وعليه فقد قاد الإمبراطور جيشه ضدهم ، وتحديدا ضد ميلان ، المدينة الواقعة في

قلب العصيان . يقال إنه كان في قمة الغضب بسبب رفضهم حتى إنه أقسم ألا يضع تاجه على رأسه حتى يخضع هذه المدينة . ولقد حافظ على قسمه ، حيث إنه فقط عندما سقطت ميلان ، ودُمرت تماما ، أقام بربروسا مأدبة ظهر فيها هو وزوجته بتاجيهما ، مرة أخرى ، على رأسيهما .

لكن بغض النظر عن عدد الحملات العظيمة والناجحة التي قادها ، ما كان على بربروسا إلا أن يعطيهم ظهره ويتوجه عائدا إلى الديار حتى يبدأ هدير الثورة مرة أخرى . أعاد الميلانيون بناء مدينتهم مرة أخرى رافضين الاعتراف بحاكم ألماني . في المجموع قاد بربروسا ست حملات ضد إيطاليا ، بيد أن شهرته دائما ما كانت تفوق نجاحه .

كان ينظر إليه على أنه نموذج مثالي للفارس . كان شديد القوة ، عقليا وجسديا . كما كان كريما ، يحسن إقامة الاحتفالات . اليوم نسينا نحن كيف تكون الاحتفالات الحقيقية . قد تكون حياتهم اليومية ، مقارنة بحياتنا ، قاسية ورتيبة ، بيد أن الاحتفال في تلك الأيام كان شيئا لا يمكنك تخيله . كانت الاحتفالات باذخة ومهيبة بشكل يفوق الوصف ، كأنها من قصة خيالية . أقام بربروسا أحدها في مينز عندما نُصّب أبناؤه فرسانا ، وذلك في العام 1181 ، وقد دعي إليها أربعون ألف فارس مع كل حرسهم ومرافقيهم . أقام هؤلاء في خيام زاهية الألوان حيث نزل الإمبراطور وأبناؤه في أعظمها ، وكانت مصنوعة من الحرير وواقعة في منتصف المخيم . توهجت النيران في كل الأنحاء حيث الثيران الكاملة والخنازير البرية وعدد لا يحصى من الدجاج كلها تشوى على قممها . قدِم الناس من كل مكان مرتدين جميع أنواع الأزياء ، المشعوذون والبهلوانات والشعراء المتجولون الذين كانوا يغنون كل الأغاني العظيمة القديمة في المساء بينما يستمتع الناس بالوليمة . يا له من منظر ذاك الذي كان ! حتى الإمبراطور نفسه كان يستعرض مهاراته مبارزا أبناءه بينما يراقبهم كل النبلاء في البلد . احتفال كهذا كان يستمر أياما عدة ، وحتى بعد أن ينتهي بمدة طويلة ، يستمر الشعراء المنشدون بالغناء حوله .

وكفارس حقيقي ، خرج بربروسا أخيرا في حملة صليبية . كانت تلك الحرب الصليبية الثالثة في العام 1189 . شارك في هذه الحملة كذلك كل من ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد والملك الفرنسي فيليب . انطلق هؤلاء عبر البحر ، بيد أن بربروسا اختار الذهاب برا ثم مات غرقا في نهر في آسيا الصغرى .

وقد كان حفيده فريدريك الثاني من هوهينستوفين رجلا استثنائيا أكثر من جده ، رجلا أعظم ، وفي العموم محبوبا أكثر من بربروسا . ترعرع فريدريك الثاني في صقلية ، وبينما كان لايزال طفلا غير قادر على الحكم بنفسه ، اشتعلت الكثير من المشاكل في ألمانيا بين العائلات العظيمة المتنافسة على من ستكون له السيادة . البعض فضل فيليب ، ابن بربروسا الأصغر ، بينما اختار آخرون أوتو ، المنتمي إلى أسرة ويلف . أعطى هذا الوضع للناس ، الذين ما كانوا بالأساس قادرين على تحمل بعضهم بعضا ، سببا آخر للنزاع . فلو ساند أحدهم فيليب ، أيد جاره أوتو ، حيث استمر هذا العرف السعيد للطائفتين المتنافستين - المعروفتين في إيطاليا بالغولفيين والغبلينيين - سنوات عدة ، حتى بعد موت فيليب وأوتو بفترة طويلة .

في غضون ذلك ، كان فريدريك يكبر في صقلية ، وأعني بالفعل أنه كان يكبر بجسده وعقله . كان الوصي عليه ، البابا إينوسينت الثالث ، أحد أهم الرجال عبر التاريخ . حيث إن ما حارب من أجله غريغوري السابع ، العدو اللدود للملك الألماني هنري الرابع ، بكل قوته وفشل في تحقيقه ، تمكن إينوسينت الثالث من إنجازه . لقد كان فعلا سيد المملكة المسيحية . ولكونه رجلا ذا ثقافة وذكاء استثنائيين ، فقد حكم جميع أمراء أوروبا ، وليس فقط قادة الكنيسة الروحانيين ، حتى إن سلطته وصلت إلى إنجلترا . وذات يوم عندما رفض الملك جون تنفيذ أوامره ، قام بحرمانه كنسيا ومنع أي قسيس من إقامة احتفالات القداس في إنجلترا . ولقد غضب النبلاء الإنجليز غضبا شديدا على ملكهم حتى إنهم سحبوا منه كل سلطاته . في العام 1215 كان على الملك أن يقسم قسما صارما بألا يخالف إرادتهم أبدا . كان هذا القسم هو «الماغنا كارتا» ، الميثاق العظيم الذي وضع الملك جون ختمه عليه ، والذي بموجبه أعطى الملك للبارونات مجموعة كبيرة من الحقوق والتي يتمتع بها المواطنون الإنجليز إلى اليوم . غير أنه كان لايزال على إنجلترا أن تدفع الضرائب والجزيات للبابا إينوسنت الثالث ، فقد كانت سلطته عظيمة إلى هذه الدرجة .

لم يكن فريدريك الثاني من هوهينستوفين شديد الذكاء فقط ، لقد كان شابا جذابا ومحبوبا كذلك . ولكي يستحوذ على عرشه كملك للألمان ، فقط انطلق من صقلية ، فعليا بمفرده ، في مغامرة على ظهر جواده والتي أخذته من خلال إيطاليا وعبر الجبال السويسرية إلى كونستانس . بيد أنه وفور وصوله اكتشف أن عدوه ،

أوتو ، كان سائرا إليه على رأس جيشه . كان الأمل يبدو ضئيلا بالنسبة إلى فريدريك . بيد أن مواطني كونستانس ، مثل كل الذين قابلوه وعرفوه ، كانوا مفتونين به حتى إنهم احتشدوا مسرعين لإغلاق أبواب المدينة . عندما وصل أوتو بعد ساعة بالضبط ، كل ما كان يستطيع فعله هو أن يستدير عائدا .

وكونه كسب مودة كل الأمراء الألمان كذلك ، وجد فريدريك نفسه فجأة حاكما عظيما ، سيدا على كل فلاحي ألمانيا وإيطاليا . وعليه ، دخلت السلطتان في صراع مجددا ، تماما كما في أيام البابا غريغوري السابع وهنري الرابع . بيد أن فريدريك لم يكن هنري . لم يذهب فريدريك إلى كانوسا ، ولم يكن يعتزم التماس رحمة البابا . فمثل البابا اينوسينت الثالث تماما ، كان فريدريك مقتنعا بأنه منذور ليحكم العالم . كان فريدريك يعرف كل شيء يعرفه إينوسينت ، فقد كان إينوسنت قبل كل شيء وصيا عليه . كما كان يعرف كل ما يعرفه الألمان ، فقد كانوا أقرباء لعائلته . وأخيرا كان يعرف كل ما يعرفه العرب ، فقد ترعرع في صقلية . قضى فريدريك الكثير من سنوات حياته في صقلية ، وهناك كان لديه الكثير ليتعلمه والذي يفوق ما سيحصل عليه من أي مكان آخر في الدنيا .

وقد وقعت صقلية تحت حكم الجميع : الفينيقيين ، الإغريق ، القرطاجيين ، الرومانيين ، العرب ، النورمان ، الإيطاليين والألمان . قريبا ، سيأتي الدور على الفرنسيين . لا بد أن وضع المدينة كان شبيها بوضع برج بابل ، بيد أن الناس هناك لم يفهموا شيئا أو يتعظوا من الأحداث ، في حين أن فريدريك انتهى به الأمر ليتفهم كل ما يمكنه تفهمه ومعرفته ، حيث لم يقتصر الأمر على اللغة ، ولكن شمل كذلك فروعا كاملة من العلوم . كان فريدريك يكتب الشعر ، وكان صيادا بارعا ، حتى إنه كتب كتابا حول تدريب الصقور وقد كان الناس يصطادون بها في تلك الايام .

فوق كل هذا ، كان فريدريك محيطا بالأديان . بيد أن شيئا واحدا استعصى عليه فهمه : لم كان الناس يخوضون الحروب باستمرار . كان يرغب في أن يقيم حوارات مع المسلمين المثقفين على الرغم من أنه كان مسيحيا مخلصا . عندما سمع البابا بالهمس حول هذا الموضوع غضب كما لم يغضب من قبل . وعلى وجه التحديد كان هذا البابا هو المسمى غريغوري . كان غريغوري يحمل قوة سلفه البابا إينوسينت الثالث ، وإن لم يكن يحمل حكمة ذاتها . لقد أراد من فريدريك أن يخرج في حملة صليبية أيا كان

الثمن ، وهدد بعزله كنسيا إن لم يفعل . لذا ، وفي النهاية ، نفذ فريدريك المهمة . غير أن كل ما حققته الحملات الصليبية الأخرى من خلال التضحيات العظيمة وخسارات الأرواح الكثيرة ، حققه فريدريك من دون أي حرب مطلقا : لقد سُمح للحجاج المسيحيين بزيارة الضريح المقدس من دون أي مخاوف من أن يهاجمهم أحد ، حيث اعتُبرت كل الأراضي المحيطة ببيت المقدس تابعة لهم . وكيف تمكن من فعل ذلك؟ لقد جلس فقط مع السلطان الذي حكم المنطقة حيث توصلا إلى اتفاق .

كان الطرفان سعيدين بمجرى الأمور الذي جنبهما الحرب ، بيد أن أسقف بيت المقدس لم يكن راضيا ، حيث إن أحدا لم يستشره في الموضوع . لذا ، فقد اشتكى عند البابا بأن الإمبراطور كان ودودا بقدر زائد على الحد مع العرب ، مما أقنع البابا بأن فريدريك تحول إلى الإسلام . لكن الإمبراطور فريدريك الثاني لم يبال . لقد احتفى بأنه أنجز للمسيحيين أكثر من أي شخص آخر ، وعليه فقد توج نفسه ملكا على بيت المقدس حيث إنه لم يكن هناك قسيس ليقبل بتتويجه وقوفا ضد رغبات البابا .

بعدها ، أبحر فريدريك عائدا إلى الديار ، محملا بالهدايا التي أعطاه إياها السلطان : فهود الصيد والجمال ، أحجار نادرة وأشياء أخرى غريبة متعددة . ولقد جمع مجموعة من هذه الأشياء في صقلية ووظف فنانين عظماء ليعملوا لديه ، حيث كان يهتم ويستمتع بالأشياء الجميلة متى ما تعب من مشاغل الحكم . بيد أنه وبكل تأكيد قام بدوره في حكم البلاد . لم يكن فريدريك يحبذ عادة وهب الأراضي كإقطاعيات . فعوضا عن ذلك ، عيّن مسؤولين ، والذين عوضا عن أن يهبهم الأراضي ، كان يدفع لهم أجورا شهرية . فبما أن تلك هي إيطاليا ، فقد كان الناس يستخدمون النقود أصلا . وعليه فقد حكم بالعدل ولكن كذلك بصرامة شديدة .

كان فريدريك مختلفا عن كل الآخرين حوله حتى إنه لم يكن في مقدور أحد أن يفهم ما يحاول هو إنجازه ، وأقلهم فهما كان البابا غريغوري الذي كان يسمي فريدريك «عدو المسيح» ، في حين أن الآخرين كانوا يدعونه معجزة العالم . في ألمانيا البعيدة ، القليل من الناس انتبهوا لإمبراطورهم الغريب وكل آرائه العجيبة . ولأن الناس عجزوا عن فهمه ، كانت حياته صعبة . حتى ابنه تحول ضده وأثار المشاكل بين الألمان ، كما رحل أفضل وأحب مستشاريه ذاهبا إلى البابا وتاركا فريدريك وحيدا تماما . ومن بين كل مخططاته المبتكرة والعملية التي كان يود أن يُظهرها للعالم ، أقل

القليل رأى النور . ولأنه لم يستطع تنفيذ مخططاته ، تحول تدريجيا وعلى نحو متزايد إلى رجل ساخط شديد العصبية . وهكذا توفي في سنة 1250 .

توفي ابن فريدريك ، مانفريد ، في صراع على السلطة عندما كان لايزال شابا صغيرا ، كما أخذ الأعداء حفيده ، كونرادين ، أسيرا لديهم حيث قطعوا رأسه في نابولي في عمر الرابعة والعشرين . تلك كانت نهاية هذه العائلة الحاكمة العظيمة من الفرسان ، عائلة الهوهينستوفين .

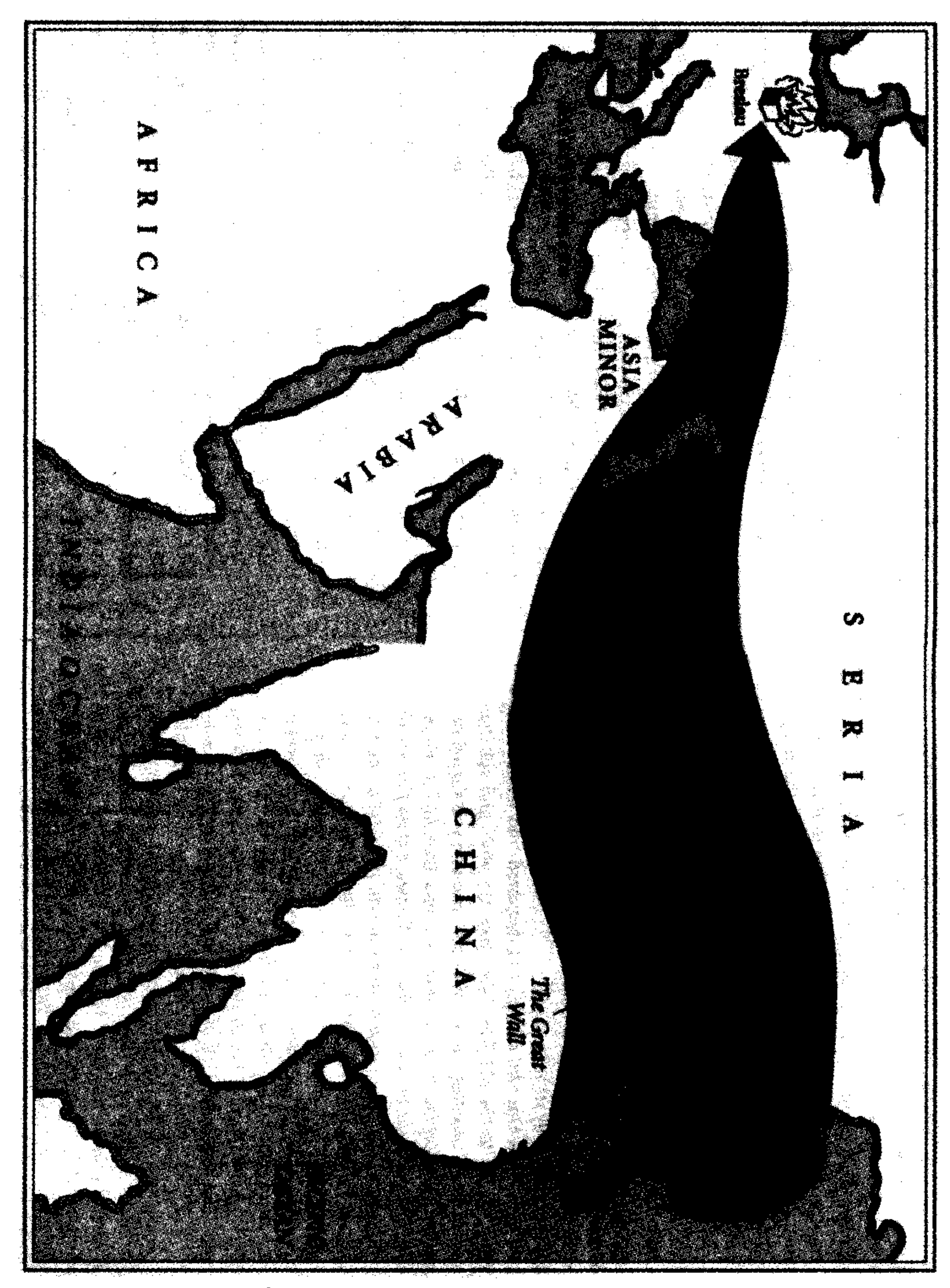
ولكن ، بينما كان فريدريك لايزال يحكم في صقلية ويتصارع مع البابا ، اجتاحت العالم كارثة لم يستطع أي منهما أن يمنعها . فقد أقبلت جحافل جديدة من الفرسان المحاربين من آسيا . هذه المرة كانوا المغول ، الأكثر ترويعا بين الجميع . فحتى سور شي هوانغ - تي العظيم لم يستطع ردعهم . تحت قيادة جنكيز خان ، أقدموا أولا على احتلال الصين ، حيث سرقوا ونهبوا بوحشية فظيعة . بعدها ، أتى الدور على بلاد فارس ، والتي على إثرها اتبعوا طريق الهن والأفاريين والمجريين نحو أوروبا . ولقد اندفعوا أولا إلى هنغاريا ومن ثم إلى بولندا ، زارعين الرعب والدمار حيثما ذهبوا . وأخيرا ، في العام 1241 ، وصلوا إلى مدينة الحدود الألمانية بريسلاو ، والتي سيطروا عليها وأحرقوها تماما . حيثما ذهبوا كان الذبح يحل معهم . لم ينج من أيديهم أحد . كانت إمبراطوريتهم أعظم ما عرف العالم . لك أن تتخيل : من بكين إلى بريسلاو ! إضافة إلى ذلك ، وفي غمار غزواتهم ، تغيرت جيوشهم من جحافل بربرية إلى محاربين مدربين بإتقان مصحوبين بقادة غاية في الدهاء . لم تستطع المملكة المسيحية صنع أي شيء لوقفهم . فقد انهزم جيش عظيم من الفرسان أمامهم . وبعدها ، وحين أصبح الخطر في أوجه ، مات إمبراطورهم في مكان ما من سيبيريا ، وعاد المغول مخلفين خلفهم أرضا خربة جدباء .

في ألمانيا أسفر موت آخر أفراد عائلة هوهينستوفين عن أقصى درجات الفوضى . لم يستطع الناس الاتفاق على ملك جديد وعليه لم يتم اختيار أحد . وحيث إنه لم يكن هناك ملك ولا إمبراطور ولا أي شخص آخر في القيادة ، فقد تحولت الحياة إلى غابة . ببساطة ، كان القوي ينهب كل ما للضعيف . أطلق الناس على هذا الوضع حق القوة ، أو «قانون قبضة اليد» . بالطبع القوة ليست حقا ، وهي ليست منصفة ، هي ببساطة خطأ .

كان النـاس يعرفون كل هذا حق المعرفة ، وقـد وصلوا إلى حدود اليأس ، متمنين لو أمكنهـم العـودة إلى الأيام الخوالـي . بالطبع يمكنك أن تتمنى ، ويمكنـك أن تحلم ، ولكن أحيانـا إذا أدمنت الاسـتمرار في التمني والحلم ، فسـتصل بك الحال إلـى أن تصدق أن ما تبتغيـه قـد تحقق . وعليه ، فقد بدأ الناس إقناع أنفسـهم بأن الإمبراطـور فريدريك لم يمت حقا ولكنه واقع تحت رقية سـحرية وموجود في جبل مسحور ، حيث هو جالس ينتظر . ولقد كان لهذه الفكرة تأثير عظيم . لا أدري إن كنت اختبرت نفسك وأنت تحلم بشخص ما ليظهر في البداية كشـخص منفرد ، ثم لاحقا كشـخص آخر ، وبعدها ، وبطريقة ما ، كالشخصين كليهما في الوقت ذاته؟ فذلك هو ما حدث . حلم الناس أن حاكما عظيما وحكيمـا وعـادلا (ذاك كان فريدريـك الثانـي من صقلية) كان جالسـا فـي أعماق جبال كيفهوزر حيث سيعود ذات يوم ليعلن أهدافه . وفـي الوقت ذاته ، حلم الناس كذلك ، أن لهذا الحاكم لحية عظيمة (كان ذاك هو جد فريدريك ، فريدريك الأول بربروسا) ، وأنه كان عظيـم القوة بحيث سـيقضي على كل أعدائه مؤسسـا مملكة بروعـة وعظمة المملكة التي كانت في أيام احتفال مينز العظيم .

SIBERIA	سيبيريا
Breslau	بريسلاو
ASIA MINOR	آسيا الصغرى
MONGOLS	المغول
Rome	روما
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط
ARABIA	الجزيرة العربية
The Great Wall	السور العظيم
CHINA	الصين
PACIFIC OCEAN	المحيط الهادي
AFRICA	أفريقيا
INDIAN OCEAN	المحيط الهندي

مفتاح الخريطة المقابلة



ذلك كان حجم الإمبراطورية العظيمة للمغول المحاربين عندما هددوا كل أوروبا بعد تدمير بريسلاو .

وكلما تدهورت الأمور وازدادت سوءا ، تعاظم اعتقاد الناس بوقوع معجزة . لقد تخيلوا الملك نائما داخل الجبل ، حيث بقي نائما لفترة طويلة حتى إن لحيته الحمراء النارية نمت متفرعة في الطاولة الصخرية التي كان متكئا عليها . ولمرة واحدة كل مائة سنة ، يصحو الملك ويسأل تابعه إذا ما كانت الغربان لاتزال تحلق فوق الجبل ، وفقط حين يرد

عليه التابع قائلا «لا يا سيدي ، لا يمكنني رؤيتها» سينهض الملك ويشق الطاولة بسيفه ويدمر الجبل الذي حبسته فيه تلك الرقية السحرية حيث يخرج راكبا جواده مرتديا درعه اللامع مصحوبا بكل رجاله . يمكنك أن تتخيل ما سيظنه الناس بتلك الفكرة اليوم !

بيد أنه في النهاية لم يظهر أي شبح خارق ليصلح العالم ، بل فقط ظهر فارس نشط وقادر وذو رؤية بعيدة ، والذي كانت قلعته ، الهابزبيرغ ، أو قلعة الصقر ، تقع في سويسرا . كان اسمه رودولف ، وقد اختاره الأمراء ليكون ملكا على الألمان في العام 1273 ، آملين أن فارسا فقيرا ومغمورا مثله سيكون طيعا وضعيفا . بيد أنهم لم يحسبوا حسابا لذكائه وفطنته . قد يكون بدأ بالقليل من الأراضي ، ولذلك بالقليل من السلطة ، بيد أنه كان يعرف طريقة بسيطة جدا للحصول على المزيد من تلك الأراضي ، ومعها المزيد من السلطة .

حارب رودولف ضد الملك الثائر أوتاكار من بوهيميا ، ثم هزمه وصادر جزءا من مملكته . ولكونه الملك ، كان مخولا لفعل ذلك . بعدها ، في العام 1282 ، وهب الأراضي ذاتها ، والتي تصادف أن كانت هي النمسا ، لأبنائه ، وقد شكل ذلك قاعدة لسلطة عائلته . استطاع الهابزبيرغيون تقوية تلك السلطة بعدد من الإقطاعيات المتلاحقة ، وبالزواج والتوريث ، حتى أصبحوا واحدة من أكثر العائلات النبيلة في أوروبا هيبة وتأثيرا . لا بد من القول إنهم حكموا إقطاعية عائلتهم الشاسعة (والتي أعني بها النمسا) أكثر مما حكموا الإمبراطورية الألمانية ، وذلك على الرغم من ألقابهم كملوك وأباطرة ألمان . كانت هذه الأراضي محكومة من قِبل قادة آخرين ، دوقات وأساقفة وكونتات ، والذين عاشوا جميعا كأمراء ، متمتعين بسلطة غير محدودة تقريبا على مقاطعاتهم . غير أنه ومع آخر الهوهينستوفيين انتهى عصر الفروسية الحقيقي .

25

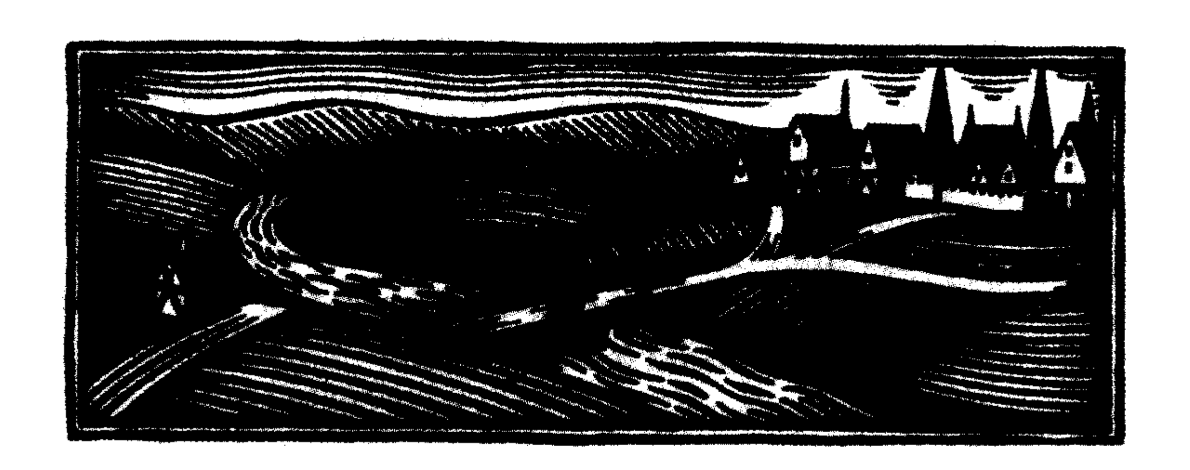
مدن ومواطنون

خلال المائة سنة التي مرت بين موت فريدريك بربروسا في العام 1190 ورودولف الأول من هابزبيرغ في العام 1291، تغيرت أوروبا بطرق عديدة أكثر مما يمكن تخيله. وكما قلت سابقا، في عهد بربروسا، كانت هناك مدن قوية، بالدرجة الأولى في إيطاليا، والتي كان مواطنوها يمتلكون الشجاعة الكافية لمعارضة الإمبراطور وحمل السلاح ضده، في حين أنه، في ذلك الوقت، كانت ألمانيا في معظمها بلد الفرسان والرهبان والفلاحين. بيد أنه وفي خلال المائة سنة اللاحقة تغير الوضع في ألمانيا إلى درجة يصعب معها التعرف عليها بشكلها الذي كانت عليه في السابق. أخذت العديد من الحملات الصليبية الشرقية الألمان بعيدا عن

«كان سيئا جدا أن تكون يهوديا، ولكن الوضع يصبح أسوأ إن كنت ممن تمعنوا طويلا في الإنجيل ثم بدأوا التشكك في بعض الجوانب من تعاليمه»

المؤلف

ديارهم حيث أسسوا علاقات تجارية في البلدان البعيدة . لم يعودوا يستبدلون الثيران بالخراف ، أو الأكواب المصنوعة من قرون الثور بالأقمشة ، حيث إنهم ، هم كذلك ، أصبحوا يستخدمون المال . وحيث يوجد المال ، تكون هناك أسواق حيث يمكن شراء أنواع عديدة من البضائع . لم يكن من الممكن إقامة هذه الأسواق في أي مكان . كان يجب أن تقام في أماكن محددة محمية بالأسوار والأبراج ، عادة بالقرب من قلعة . وكل من يقيم كشكا في أحدها ليتاجر فيه يصبح كمواطن غير مقيد بعبودية أرض المالك . كان الناس يرددون «هواء المدينة يجلب الحرية» ، وذلك لأن المواطنين في المدن الكبيرة لم يكونوا ليطيعوا أحدا سوى الملك .



بيد أنه يجب عليك ألا تعتقد أن الحياة في مدينة ما في العصور الوسطى كانت كما هي اليوم بأي شكل من الأشكال . معظم المدن كانت صغيرة ، مكونة من متاهات متعرجة من الأزقة بالغة الصغر والبيوت الضيقة ذات الأسقف المرتفعة المدببة . عاش التجار والحرفيون في هذه المدن مع عائلاتهم في مساحات صغيرة مكتظة . وعندما كان التاجر يذهب في إحدى رحلاته ، كان يصحبه في العادة حراس مسلحون ، وذلك لأن العديد من الفرسان ، في تلك الأيام ، كانوا قد نسوا كل ما يتعلق بالفروسية وأصبحوا تقريبا قطاع طرق . كانوا يجلسون في قلاعهم المرتفعة ، ينتظرون مرور التجار ليسرقوهم . بيد أن مواطني هذه المدن لم يتحملوا هذه الحال لفترة طويلة : كانوا يمتلكون المال وكان في استطاعتهم استئجار الجنود . نتيجة لذلك ، كانت هناك معارك مستمرة بين المواطنين التجار والفرسان اللصوص ، والتي في الأغلب ما انتصر فيها المواطنون .

كان الحرفيون ، مثل الخياطين وصناع الأحذية وصناع الأقمشة والخبازين وصناع الأقفال والرسامين والنجارين ونقاشي الأحجار وفنيي البناء ، كلهم ينتمون إلى مجموعات أو اتحادات تعرف بالنقابات . كان الانضمام إلى نقابة مجموعة مثل الخياطين تقريبا في صعوبة الانضمام إلى تلك الخاصة بالفرسان ، الذين يخضعون لأحكام الفروسية الصارمة . لا يستطيع أي شخص كان أن يصبح خياطا محترفا . في البداية لا بد لك أن تقضي وقت خدمة كمتدرب مبتدئ ، بعدها تصبح عاملا مسافرا حيث تذهب في رحلات حتى تتعرف على المدن الأخرى وعلى الطرق المختلفة في العمل . الشباب المبتدئون كهؤلاء كانوا يسافرون على أقدامهم ، حيث يقضون عادة سنوات في التجوال بين البلدان المختلفة قبل العودة إلى ديارهم أو عثورهم على مدينة فيها متسع لخياط فني . لم تكن المدن الصغيرة في حاجة إلى العديد من الخياطين ، وقد حرصت النقابات على ألا يكون عدد الفنيين في أي حرفة أكبر من كمية العمل المتاحة لهم . كان على العامل المسافر أن يستعرض مهارته وذلك عن طريق إتمام عمل فني مميز (ربما معطف فاخر) وفقط حينها يتم تدشينه احتفاليا كمحترف ويسمح له بالانضمام للنقابة .

كان لكل نقابة أحكامها وقواعدها ، رايتها وشعاراتها الرفيعة ، تماما مثل الفرسان . وبالطبع ، فشعاراتهم لم يكونوا يحترمونها دوما كذلك . ولكن على الأقل كانت لديهم شعارات . فعضو النقابة كان ملزما بمساندة زملائه الأعضاء وبألا يسرق تجارتهم ، كما يجب عليه ألا يخدع زبائنه بالبضائع الرخيصة . كان من المنتظر منه أن يحسن معاملة المتدربين والعمال المسافرين ، وأن يفعل كل ما في وسعه للمحافظة على السمعة الجيدة لمهنته ومدينته . كان يُعتبر ، إذا جاز التعبير ، أحد حرفيي الرب ، تماما كما كان الفارس محاربا يقاتل من أجل الرب .

وفي الواقع ، بينما كان الفرسان يضحون بأرواحهم في الحملات الصليبية لتحرير ضريح المسيح ، فإنه كثيرا ما كان المواطنون والحرفيون يضحون بثرائهم وبقوتهم وبصحتهم عندما كان الأمر يتعلق ببناء كنيسة في مدينتهم . كان يجب على الكنيسة أو الكاتدرائية الجديدة أن تكون أكبر وأكثر روعة وفخامة من أي مبنى يمكن للمدن المجاورة أن تفاخر به . كانت المدينة بأكملها تتشارك في هذا الطموح ، حيث يسخر كل المقيمين أنفسهم لهذا المشروع . كان يُستدعى أفضل فنيي البناء لرسم المخططات ،

بينما كان يتعهد نقاشو الحجر بتقطيع الأحجار ونحت التماثيل ، والرسامون برسم صور مذبح الكنيسة وتلوين النوافذ التي يجب أن تبرق كالجواهر داخل الكنيسة . ولكن ما يفوق في أهميته صاحب الفكرة أو من صمم المبنى أو شيده ، كانت حقيقة أن تلك الكنيسة هي نتاج عمل المدينة بأكملها ، قربان مجتمعي للرب . ليس لك إلا أن تتطلع إلى أحدها لترى الفكرة ، فهذه الكنائس لم تعد تلك القلاع الضخمة والتي كانت لاتزال تشيد في ألمانيا في عهد بربروسا ، ولكنها أصبحت قاعات رائعة ذات قباب مرتفعة بأعمدة رفيعة وأبراج أجراس رشيقة ، ومساحة في داخلها تكفي للمدينة بأكملها عندما تجتمع للاستماع للوعاظ . فبحلول ذلك الوقت ، ظهرت نظم أديرة جديدة أصبح الرهبان فيها أقل اهتماما بحرث التربة حول أديرتهم أو بنسخ المخطوطات ، فقد اختاروا ، عوضا عن ذلك ، أن يتجولوا في الأرض كمتسولين ، يعظون الناس حول التوبة ويشرحون لهم النصوص المقدسة . كان الناس يتوافدون إلى الكنائس للاستماع لهم ، فيبكون بحرقة على ذنوبهم ، ويقطعون العهود بإصلاح أخطائهم وبأن يحيوا وفقا لتعاليم المسيح حول الإحسان والمحبة .

ولكن ، وكما الصليبيون ، والذين باسم التقوى نفذوا تلك المذابح المروعة في بيت المقدس ، كان هناك العديد من المواطنين الذين فشلوا في الإصغاء للدعوة بإصلاح حياتهم في خطب التوبة تلك ، وعوضا عن ذلك تعلموا أن يكرهوا كل هؤلاء الذين لم يكونوا على عقيدتهم ذاتها . كان اليهود ، قبل الجميع ، هم هدفهم ، وكلما أرادوا أن يكونوا أكثر تقوى ، زادوا في الإساءة لهم وتعذيبهم . لا بد أن تضع في اعتبارك أن اليهود كانوا القبيلة الوحيدة من العصور القديمة التي بقيت في أوروبا . فالبابليون والمصريون والفينيقيون والإغريق والرومانيون والغال والقوطيون إما أنهم هلكوا جميعا وإما اندمجوا مع شعوب أخرى . فقط اليهود ، والذين تدمرت دولتهم مرارا وتكرارا وتحملوا كل تلك الأوقات العصيبة عندما كانوا يضطهدون ويطاردون من بلد لآخر ، نجحوا في البقاء والاستمرار . فبعد ألفي سنة ، كانوا لايزالون ينتظرون بأناة ظهور مخلصهم ، المسيح . ولأنه كان محظورا عليهم امتلاك الحقول ، لم يستطيعوا أن يصبحوا فلاحين ، دع جانبا أن يصبحوا فرسانا . كما لم يكن يسمح لهم بمزاولة أي حرفة . كان العمل الوحيد المتاح لهم هو التجارة ، ولذا ، كان ذلك هو كل ما زاولوه . وحتى في ذلك الوقت ، كان يسمح لهم بالسكن فقط في أماكن

محـددة من البلـدة ، وبارتداء أنـواع معينة من الملابـس . بيد أنه وبمـرور الوقت تمكن البعض منهم من كسب الكثير من المال الذي طالما استدان منه الفرسان والمواطنون من دون القدرة على السـداد . خلق هذا الوضع المزيد من الكره تجاه اليهود ، حيث كانوا يُهاجمون ويُسـلبون باسـتمرار . ولأنهـم لم يكونوا يملكون القـوة ولا الحق في الدفاع عن أنفسـهم ، فقد أصبحوا عاجزين تماما ، إلا إذا اختار الملك أو القسـيس أن يقف في صفهم ، ولكن ذلك كان نادرا ما يحدث .

كان سـيئا جدا أن تكـون يهوديا ، ولكن الوضع يصبح أسـوأ إذا كنت ممن يمعنون طويلا في الإنجيل ثم بدأوا التشكك في بعض الجوانب من تعاليمه . كان هؤلاء يدعون المهرطقـين ، والاضطهاد الذي عانوه كان فظيعـا . كان كل من يحكم عليه بالهرطقة يُحـرق حيا أمام العامة ، تماما كما حدث مع المسـيحيين في عصر نيرون . مدن كاملة دُمـرت لمكافحة الهرطقة ومقاطعات كاملة تبددت وضاعت . ولقد شُـنت الحملات الصليبية ضدهـم ، تماما كما شُـنت ضد المسلمين . كل ذلك تم بسواعد هؤلاء الناس ذاتهـم الذيـن ، من أجل إله الرحمة وبشـراه السـارة ، كانوا يبنون هـذه الكاتدرائيات المهيبـة ، تلك المبانـي التي ، بأبراجها المرتفعة وشـرفاتها المزخرفـة العظيمة ، بنوافذها الزجاجيـة الملونة تلمع كالجواهر في الظلام وبـالآلاف من تماثيلها ، كانت تبدو لتقدم رؤية مجيدة لمملكة السماء .

كانت في فرنسا مدن وكنائس قبل أن يكون هناك أي منها في ألمانيا . كانت فرنسا أكثر غنى ، وكان تاريخها أقل اضطرابا . إضافة إلى ذلك ، فإن ملوك فرنسا سرعان ما وجدوا منفعة في مواطني الطبقة الثالثة . بعد نحو سـنة 1300 ، فإنهم نادرا ما منحوا الأراضـي للنبـلاء ، بل احتفظـوا بها لأنفسـهم بدلا من ذلـك ، حيث كانـوا يدفعون لهـؤلاء المواطنين لقاء إدارتهم لها (تماما كما فعل فريدريك الثاني في صقلية) . نتيجة لذلـك ، امتلـك الملوك الفرنسـيون المزيد من الأراضـي ، والأراضي فـي تلك الأيام ، كمـا تعلـم ، تعني العبيـد والجنـود والسـلطة . بحلول العـام 1300 ، أصبـح الملوك الفرنسـيون أقوى سـيادة ، حيث إنه في ذلك الوقت فقط بدأ الملك الألماني ، رودولف من هابسـبيرغ ، يبسط نفوذه عن طريق منح الأراضي لأقربائه . إضافة إلى ذلك ، فإن الفرنسيين لم يحكموا فرنسـا فقـط ، ولكن جنوب إيطاليا كذلـك . لم يكد يمر وقت طويـل حتـى أصبحت سـلطتهم عظيمة جدا حتى إنـه في العام 1309 اسـتطاعوا أن

يجبروا البابا على مغادرة روما والإقامة في فرنسا حيث يمكنهم أن يراقبوه من كثب . أقام البابوات في قصر عظيم في آفينون محاطين بأعمال فنية رائعة ، ولكنهم كانوا في الواقع سجناء . ولهذا السبب ، ويتذكر أسر البابليين لليهود (والذي استمر ، كما تعرف ، من العام 597 إلى العام 538 ق . م) ، فإن هذه الفترة من 1305 الى 1376 كانت تعرف بالأسر البابلي للبابوات .

غير أن ملوك فرنسا كانوا لايزالون غير قانعين . فكما تتذكر ، احتلت أسرة نورماندية إنجلترا في العام 1066 واستمروا في حكم إنجلترا منذ ذلك الحين . حولهم هذا الوضع رمزيا إلى فرنسيين ، وعليه ، رعايا لملوك فرنسا والذين على إثر ذلك أصبح في إمكانهم المطالبة بالسيادة على إنجلترا إضافة إلى فرنسا . ولكن ، عندما لم يولد وريث للعرش للعائلة المالكة الفرنسية ، فإن ملوك إنجلترا ادعوا ، لأنهم ذوو قرابة وتابعون للملوك الفرنسيين ، بأنه يحق لهم الآن حكم فرنسا إضافة إلى إنجلترا . تحول النزاع الذي تلا ذلك إلى صراع مريع . بدأ هذا الصراع في العام 1337 واستمر لأكثر من مائة سنة . فما بدأ كمنافسة فروسية بين بعض الفرسان تحول إلى حرب يُدفع فيها المال لجيوش عظيمة من الجنود ليحارب بعضها البعض . لم يكن هؤلاء الجنود أعضاء في تنظيم عام كبير حيث تكون المعركة بالنسبة إليهم مهنة نبيلة ، ولكنهم رجال فرنسيون وإنجليز عاديون ، يحارب بعضهم بعضا من أجل استقلال أراضيهم . فاز الإنجليز بالمزيد من الأراضي لأنفسهم ، حيث احتلوا أجزاء أكبر من فرنسا ، لأسباب أقلها أن ملك فرنسا ، الممسك بزمام السلطة وقت نهاية هذه الحرب ، كان قليل الفطنة وغير كفؤ .

بيد أن الفرنسيين لم يكونوا يرغبون في أن يحكمهم الغرباء . عندها ، حدثت المعجزة . راعية غنم بسيطة في السابعة عشرة من عمرها تدعى جان دارك شعرت بأن الرب يناديها للمهمة ، ونجحت في إقناع الفرنسيين بوضعها على رأس جيش ، في لباس مدرع كامل ، وقد دفع ذلك بالإنجليز خارج الأرض . «فقط عندما يعود الإنجليز الى إنجلترا يعم السلام» كانت تقول . بيد أن الإنجليز أخذوا بثأرهم ، فقد أسروها وحكموا عليها بالموت بتهمة مزاولة السحر . وفي العام 1431 حُرقت جان دارك مقيدة إلى عمود . ولكن ربما لا يكون اعتقادهم أنها ساحرة أمرا مفاجئا . أفلا يبدو وكأنه سحر أن تستطيع فتاة فلاحة غير متعلمة بسيطة ، وبمفردها ، متسلحة فقط

بشجاعتها وإيمانها العميق ، أن تمحو كل الهزائم المتراكمة لما يقرب من قرن من الزمان فقط في سنتين ، وأن تعيد التاج إلى ملكها؟

ومع ذلك ، فزمن حرب المائة سنة هذا كان زمن تألق ومتعة لا يمكن تصورهما ، زمن توسعت فيه المدن ، حيث لم يعد الملوك العظماء يقبعون في عزلتهم القمية في حصونهم المنعزلة ، ولكنهم اختاروا ، عوضا عن ذلك ، أن يسكنوا بلاطات الملوك والأمراء الأغنياء الأقوياء . في فلاندرز وبرابانت (بلجيكا الجديدة) ، ولكن ، قبل أي مكان آخر ، في إيطاليا ، كانت الحياة رائعة بحق . هنا كانت المدن المزدهرة والتجارة في الأقمشة الثمينة كالحرير والأقمشة المطرزة ، حيث تقدم كل وسائل الراحة والرفاهية الممكنة . كان الفرسان والنبلاء يحتفلون في البلاط مرتدين أثوابهم الرائعة كثيفة التطريز . وعندما كانوا يرقصون في حلقات مع سيداتهم ، في القاعات المهيبة وفي حدائق الورد على أنغام العود والكمان ، كنت أحب أنا كذلك أن أكون هناك معهم . كانت الفساتين التي ترتديها السيدات أكثر فخامة وأناقة من ملابس الرجال . وكن يرتدين أغطية رأس طويلة ومدببة مثل أبراج الكنائس ، وكانت تعلق على قمتها أوشحة طويلة فخمة . وكانت النساء وهن مرتديات أحذيتهن المدببة وأثوابهن الفخمة التي تلتمع بخيوط الذهب ، يبدون كأنهن دمى جميلة . كم كن تعساء في قاعاتهن الممتلئة بالدخان في تلك الحصون القديمة . الآن ، كن يعشن في قلاع فسيحة وبهيجة ، ذات أبراج وأسوار وآلاف النوافذ ، وفي غرف مزينة بالمفروشات لامعة الألوان ، حيث كانت الحوارات راقية ومهذبة . وعندما كان السيد النبيل يقود سيدته إلى قاعة الحفل ، حيث الوليمة المبسوطة أمامهما بكل روعتها ، كان يمسك يدها بخفة بإصبعين اثنين فقط ، موسعا بين أصابعه الأخرى قدر استطاعته . بحلول ذلك الوقت كانت القراءة والكتابة شائعتين في المدن ، حيث كانتا ضرورة للتجار والحرفيين ، كما أن العديد من الفرسان كانوا يحبون توجيه قصائد فنية جميلة لسيداتهم الجميلات .

لم تعد المعرفة محصورة على حفنة من الرهبان يسكنون صوامعهم . فبعد العام 1200 بوقت قصير ، كان الطلبة من البلدان القريبة والبعيدة يتدفقون بأعدادهم الغفيرة إلى جامعة باريس الشهيرة ، حيث كانوا يدرسون ويتجادلون كثيرا حول آراء أرسطو وكيف أن هذه قد تتفق أو لا تتفق مع ما هو مكتوب في الإنجيل .

أسلوب الحياة هذا ، في كل من المدينة والبلاط ، وصل إلى ألمانيا أخيرا ، وتحديدا إلى بلاط الإمبراطور الألماني . كان بلاط الإمبراطور في ذلك الوقت في براغ . فبعد وفاة رودولف من هابسبيرغ ، تم انتخاب عائلات ملوك وأباطرة آخرين . ومنذ العام 1310 كانت عائلة لوكسمبورغ هي التي تحكم من عرشها في براغ . بيد أن الحقيقة كانت أنه في ذلك الوقت بالكاد شمل هذا الحكم أي أراض ألمانية إطلاقا . كانت السلطة مجددا في يد أمراء فرادى حكموا مستقلين في مناطق مثل بافاريا ، سوابيا ، وورتيمبيرغ والنمسا . كان الفرق الحقيقي الوحيد بين الإمبراطور الألماني وهؤلاء الأمراء أن الإمبراطور كان أكثرهم قوة . كانت أرض اللكسمبورغيين هي بوهيميا ، حيث كان تشارلز الرابع ، الحاكم العادل المحب للفخامة ، يحكم المنطقة من براغ منذ العام 1347 . لم يكن الفرسان في بلاطه أقل نبلا من الفرسان الفلاندريين ، وكانت الرسومات في قصوره بروعة تلك الموجودة في آفينون . في العام 1348 أسس هو كذلك جامعة في براغ ، كانت تلك الجامعة الأولى للإمبراطورية الألمانية .

لم يكن بلاط زوج ابنته ، رودولف الرابع ، والمعروف بلقب «المؤسس» في فيينا بأقل روعة من بلاط تشارلز الرابع . كما ترى ، لم يعش أي من هؤلاء الحكام في حصن معزول بعد ذلك ، كما أنهم لم يعودوا يجوبون العالم في حملات عسكرية مشوقة . كانت قلاعهم تبنى في مراكز مدنهم . تلك الحقيقة وحدها تخبرك كم أصبحت هذه المدن مهمة . بيد أن تلك كانت البداية فقط .

26

عصر جديد

«هذا الاهتمام البهيج الجديد تماما بالعالم ، بالأشخاص الموهوبين وبالأشياء الجميلة ، بآثار وكتب الإغريق والرومان ، سرعان ما انتشر من فلورنسا في كل الاتجاهات»

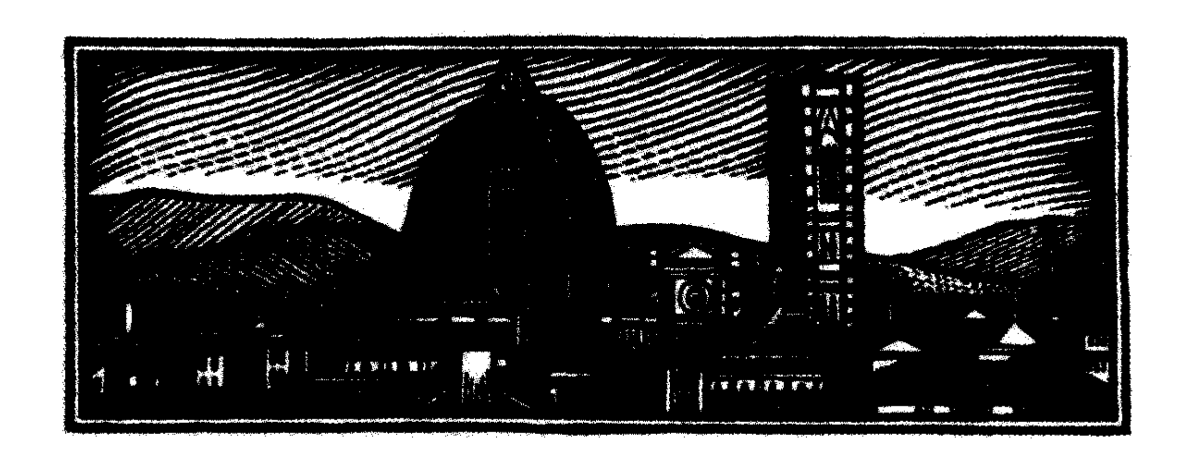
المؤلف

هل سبق لك أن وجدت كتاب تمارين مدرسيا قديما ، أو أي شيء آخر سبق لك أن كتبته ، وبتصفحه أصابك الذهول لمدى ما تغيرت أنت في وقت قصير؟ هل ذهلت لأخطائك ولكن كذلك للأشياء الجميلة التي كتبتها؟ بيد أنه في ذلك الوقت لم تلحظ أنت أنك كنت تتغير . حسنا ، إن تاريخ العالم مماثل لهذا الوضع .

كم سيكون لطيفا لو أن المنادين فجأة كانوا ليجوبون الطرقات صائحين : «نرجو الانتباه ! إن عصرا جديدا على وشك البدء !» غير أن الأمور لا تسير على هذا النحو : فالناس تغير آراءها من دون حتى أن تلحظ ذلك ، ثم فجأة يصبحون مدركين لهذا التغيير ، كما تفعل

أنـت عندمـا تنظـر في كتب المدرسـة القديمـة . بعدهـا يعلنون بكل فخـر : «نحن العصر الجديد» ، وغالبا ما يضيفون : «كم كان الناس أغبياء !» .

حدث شـيء مماثل في العام 1400 في مدن إيطاليا ، تحديدا في المدن المزدهرة الكبيـرة في منتصـف إيطاليا ، وفي فلورنسـا تحديدا . كانت لديهـم نقابات هناك كذلك ، وكانوا قد شـيدوا كاتدرائية عظيمة . بيد أن فلورنسـا لم يكن فيها أي من الفرسـان النبـلاء الموجودين في فرنسـا وألمانيا . ولوقت طويـل ، تجاهل المواطنون الفلورنسيون أوامر أباطرتهم الألمان ، وبحلول ذلك الزمن كانوا قد أصبحوا أحرارا ومسـتقلين كمـا مواطني أثينا القديمة . وبمرور السـنوات ، أصبح هـؤلاء المواطنون الأحرار الأثرياء التجار منهم والحرفيون يهتمون بأشـياء مختلفة تماما عن تلك التي كان يهتم بها الفرسان والحرفيون في العصور الوسطى .



لـم يعد هـدف كل رجـل أن يصبـح محاربـا أو حرفيـا فيكرس حياتـه لخدمة مجـد الـرب . فما كان يهم هو أن تصبح شـيئا لنفسـك ، أن يكـون لك رأس على كتفيك وأن تحسـن استعماله ، أن تفكر وتحكم بنفسك ، أن تتصرف طبقا لحكمك الخـاص مـن دون الحاجة إلى مشـاورة الآخرين ، وعوضا عن اللجـوء إلى الكتب القديمة لمعرفة كيف كانت الأمور تُسـير في الماضي ، أن تسـتخدم عينيك وتتصرف طبقـا لذلك . ذاك ما خلص إليه الوضع حقا : أن تسـتخدم عينيك وتتصرف طبقا لذلك . كانت الاسـتقلالية والقدرة والذكاء والمعرفة والمهارة هي كل ما كان يؤخذ فـي الاعتبار . لـم يعد الناس يسـألون أولا عن طبقتك أو مهنتـك أو دينك أو البلد الذي أتيت منه . كانوا يقولون : أخبرنا بما يمكنك فعله .

وفجأة في نحو العام 1420 ، لاحظ الفلورنسيون أنهم لم يعودوا الشعب نفسه الذي كان في العصور الوسطى . كانت لهم اهتمامات مختلفة ، حيث تغير تقديرهم للأشياء التي كانوا يعتبرونها جميلة . فبالنسبة إليهم أضحت الكاتدرائيات والرسومات القديمة كئيبة وجامدة ، كما أصبحت التقاليد الغابرة مزعجة مضجرة . وخلال بحثهم عن شيء يعجبهم أكثر ، شيء حر مستقل وغير متكلف ، اكتشفوا العصور القديمة . وهنا أنا أعني كلمة اكتشفوا حرفيا . لم يشغلهم كثيرا أن الناس في تلك العصور كانوا وثنيين ، ما أثار دهشتهم هو ما كان يستطيع عمله هؤلاء ، كيف كانوا يتناقشون ويتناظرون بحرية وانفتاح ، بالحجج ونظائرها ، حول كل ما في الطبيعة والعالم ، كيف أن كل ما في الوجود كان يثير اهتمامهم . كان هؤلاء ليصبحوا مثلهم الأعلى .

بدأ عندها بحث كبير عن الكتب المكتوبة باللاتينية ، حيث سعى الناس إلى الكتابة بلاتينية تماثل في وضوحها ودقتها تلك التي كان يستخدمها الرومانيون القدماء . تعلم الناس كذلك الإغريقية ، وعليه فقد اكتشفوا الأعمال الرائعة للأثينيين في عصر بيركليس . بعدها ، سرعان ما أصبح الناس مهتمين بسيميستوكليس وإليكساندر ، بقيصر وأوغسطس أكثر من اهتمامهم بشارلمان أو بربروسا . لقد بدا لهم كما لو أن كل الفترة بداية من العصور القديمة كانت حلما ، كما لو أن مدينة فلورنسا الحرة على وشك أن تصبح أثينا أو روما . شعر الناس فجأة بأنهم يشهدون إعادة ولادة العصر القديم الغابر للثقافة الإغريقية والرومانية . هم أنفسهم شعروا بأنهم يولدون من جديد من خلال اكتشاف هذه الأعمال الأثرية ، ولهذا السبب أصبحت هذه الحقبة من التاريخ تعرف في إيطاليا باسم Rinascimento أو كما نعرفها بالفرنسية باسم Renaissance ، أي الولادة الجديدة أو النهضة . كل ما حدث منذ ذلك الحين ألقوا بلائمته على القبائل الجيرمانية البربرية التي دمرت الإمبراطورية . كان الفلورنسيون عازمين على فعل كل ما في وسعهم لإعادة إحياء روح العصور القديمة .

كانوا متحمسين لكل ما هو روماني ، لكل التماثيل الرائعة والمباني الخلابة المهيبة والتي تتوزع أطلالها في جميع أنحاء إيطاليا . في السابق ، وقد نبذت على أنها «أطلال الوثنيين» ، كانت هذه الآثار مرفوضة ومرعبة . الآن ، اكتشف الناس فجأة جمالها ، حيث عاد الفلورنسيون لبناء العواميد من جديد .

بيد أن الناس لم يطلبوا الأشياء القديمة فقط ، لقد أعادوا النظر في الطبيعة ، هذه المرة بالعيون المتجددة غير المتحيزة للأثينيين الذين وُجدوا لنحو ألفي سنة قبلهم . اكتشفوا بذلك جمالا جديدا في العالم ، في السماء والشجر ، في البشر والزهور والحيوانات . بدأوا يرسمون هذه الأشياء كما يرونها . لقد أفسحت الروحانية والفخامة المهيبة لرسومات النصوص المقدسة في كتب الرهبان وعلى نوافذ الكاتدرائيات الطريق لأسلوب أصبح طبيعيا وتلقائيا ، مملوءا بالألوان والحيوية ، إلا أنه دقيق ومطابق للحقيقة كما أرادوه أن يكون . فاستخدام عينيك والتصرف طبقا لذلك أنتج أفضل الفنون ، وهذا يفسر لم وُجد أعظم الرسامين والنحاتين في فلورنسا في ذلك الوقت .

كما أن هؤلاء الرسامين لم يجلسوا فقط أمام رسوماتهم مثل الحرفيين الجيدين ليقدموا ما رأوه . لقد أرادوا أن يفهموا ما يرسمون . في فلورنسا ، كان هناك فنان على وجه الخصوص شعر بأن إنتاج اللوحات الجيدة بالنسبة إليه ليس كافيا ، مهما بلغت درجة جمالها ، ولقد كانت لوحاته هي الأجمل وبمراحل . لقد أراد أن يفهم تماما كل الأشياء التي كان يرسمها وكيف كانت ترتبط بعضها ببعض . كان اسم هذا الفنان هو ليوناردو دافينشي ، والذي عاش من 1452 إلى 1519 وكان ابنا لفتاة عاملة في مزرعة . لقد أراد أن يعرف كيف يبدو الإنسان عندما يبكي وعندما يضحك ، وكذلك ما يبدو عليه الجسم البشري من الداخل ، العضلات والعظام والأعصاب . وعليه ، فقد طلب من المستشفيات أن يعطوه جثث الموتى ، والتي قام بتشريحها واستكشافها . كان هذا فعلا غير مسبوق في ذلك الوقت ، غير أن دافينشي لم يتوقف عند ذلك ، فقد درس كذلك النباتات والحيوانات بطريقة جديدة ، وتساءل حول ما يجعل الطيور قادرة على الطيران . قاده ذلك إلى التساؤل حول ما إذا كان البشر يستطيعون

الطيـران كذلـك . لقد كان هو أول إنسـان يقود بحثـا دقيقا ومتقنا حـول إمكان صنع طائـر صناعي أو آلة طيـران . لقد كان مقتنعا بأنه في يوم ما سـيتحقق ذلك . لقد كان مهتما بكل ما في الطبيعة . كما أنه لم يقصر نفسه على قراءة كتابات أرسطو ومفكري العـرب فقط . لقد كان راغبا باسـتمرار في معرفة ما إذا كان مـا يقرؤه صحيحا أم لا . لذا ، وقبل كل شـيء كان يسـتخدم عينيه ، وبتلك العينين رأى أكثر مما رآه أي إنسـان غيره من قبل ، ذلك لأنه كان دوما يسأل نفسه أسئلة حول ما يرى . فكلما أراد معرفة سـبب شيء ما ، مثلا ، لم تحدث الدوامات أو لم يرتفع الهواء الحار ، كان يقوم بعمل تجربة . كان لديه القليل من الوقت لعلوم معاصريه ، حيث كان أول شـخص يتقصى أسـرار الطبيعة عن طريق التجارب . قدم ليوناردو الرسـوم التخطيطية كما سجل كل ملاحظاته على قصاصات ورقية وفي دفاتر عديدة متراكمة . إن تصفح كل خربشـاته وملاحظاته ليثير الإعجاب المسـتمر بأن يسـتطيع إنسـان واحد دراسـة وتحليل أشـياء متعددة مختلفة ، أشياء لم يكن معروفا عنها شيء في حينها والقليل من الناس اهتموا بمعرفة شيء عنها .

غير أن القليل من معاصريه كانوا يعرفون شيئا ولو يسيرا عن كل الاكتشافات التي كان يأتي بها هذا الرسـام الشـهير ، أو حتى كانوا يعرفون بآرائه الجديدة غير المألوفة . كان ليونـاردو أعسـر وكان يكتب بحـروف صغيرة كتابة المـرآة ، أي بخط معكوس ، وهـو خـط تصعـب قراءته بشـدة . كان ذلـك على الأغلـب مقصودا ، حيـث إنه في تلك الأيام لم يكن من الأمان دوما التمسـك بالآراء المسـتقلة . بين ملاحظاته نجد هذه الجملـة : «الشـمس لا تتحـرك» ولا أكثر مـن ذلك ، بيـد أن هذه الجملـة كانت كافية لتخبرنا أن ليوناردو كان يعلم أن الأرض تدور حول الشـمس ، وأن الشـمس لا تدور حـول الأرض كل يـوم ، كما كان يُعتقد على مدى آلاف السـنين . ربما قصر ليوناردو نفسه على هذه الجملة لأنه كان يعلـم أن الإنجيل لا يقول ذلك ، وأن العديد من الناس كانوا يعتقدون أن ما يقوله الإنجيل عن الطبيعة لا يمكن أن ينكره أحد أو يناقضه ، على الرغـم مـن أن الأفكار التي كان يحتويها الإنجيل أتى بها اليهود الذين عاشـوا من ألفي سنة مضت ، عندما تمت كتابة الإنجيل لأول مرة .

غير أنها لم تكن فقط المخاوف من الاتهام بالهرطقة تلك التي جعلت ليوناردو يحتفظ بكل اكتشافاته الرائعة لنفسه . لقد كان يفهم الطبيعة البشرية جيدا وكان يعرف أن الناس ستستخدم هذه الاكتشافات لتقتل بعضها البعض . في مكان آخر ، هناك ملحوظة بخط يد ليوناردو تقول : «إنني أعرف كيف يمكن لإنسان أن ينتظر تحت الماء وأن يبقى حيا لفترة طويلة من دون طعام . بيد أنني لن أنشر هذه المعلومة أو أبوح بها لأي أحد . فالناس أشرار وسيستخدمون هذه المعلومة ليقتلوا ، حتى في قاع البحر . سيصنعون فتحات في هياكل السفن ويغرقونها بكل من عليها من الناس» . للأسف ، فإن المخترعين الذين جاءوا بعده لم يكونوا جميعا عظماء كما كان ليوناردو دافينشي ، حيث كشفوا للناس كل ما كان ليوناردو غير راغب في إظهاره لهم .

في عصر ليوناردو عاشت في فلورنسا أسرة شديدة الثراء والسلطة . كانوا تجار صوف ومصرفيين ، وكان اسمهم عائلة ميديتشي . وكما كان بيركليز في أثينا القديمة ، كانوا هم ، من خلال نصائحهم ونفوذهم ، من حدد مسيرة التاريخ في فلورنسا فعليا خلال كل الفترة ما بين 1400 و1500 . كان الأهم بينهم هو لورينزو دو ميديتشي ، والمعروف بلقب «العظيم» ، حيث إنه أحسن استغلال ثرائه الكبير مضفيا على العديد من الفنانين والعلماء برعايته وحمايته . فمتى ما قابل شابا موهوبا ، فإنه كان يأخذه فورا إلى منزله ويأمر بتعليمه . قد يعطيك وصف لتقاليد منزل لورنزو فكرة عن الكيفية التي كان يفكر فيها الناس في ذلك الوقت . لم يكن هناك ترتيب للجلوس على طاولة الطعام في منزله . فعوضا عن جلوس الأكبر سنا والأكثر احتراما على رأس المائدة متقدما الجميع ، كان في الواقع أول الحضور هو من يجلس مع لورينزو دو ميديتشي ، حتى إن كان لا يزيد عن كونه تلميذا يافعا عند أحد الفنانين . حتى السفير ، إذا ما وصل متأخرا ، كان يأخذ مكانه في آخر الطاولة .

هذا الاهتمام البهيج الجديد تماما بالعالم ، بالأشخاص الموهوبين وبالأشياء الجميلة ، بآثار وكتب الإغريق والرومان ، سرعان ما انتشر من فلورنسا في كل

الاتجاهـات ، فالاكتشـافات الجديـدة سـرعان مـا تظهر وتنتشـر بين النـاس . كان الفنانـون العظمـاء يُستدعون لبلاط البابا ، والـذي أصبح الآن مجـددا في روما ، وذلك لكي يشـيدوا القصـور والكنائس على الطراز الجديـد وليزينوها باللوحات والتماثيـل . كان ذلك تحديدا هو الوضع عندما شـغل الأسـاقفة الأغنياء من عائلة ميديشـي منصب البابـا . عندها ، جلبوا أعظم فناني إيطاليـا إلى روما ، حيث قدم هـؤلاء أهـم أعمالهم . بكل تأكيد ، فإن هذا الأسـلوب الجديد تمامـا في النظر إلى الأمور لـم يكن ليُقبل دوما بارتياح من المتدينين الكبار في السـن . لـم يكن البابوات فـي هذه الفترة قساوسـة وأوصيـاء على الأرواح في المملكة المسـيحية قدر ما كانوا أمراء مهيبين ، عازمين على السيطرة على كل إيطاليا ، والذين في خلال هذا الوقت بددوا مقادير هائلة من الأموال على أعمال فنية عظيمة من أجل عاصمتهم .

هـذا الحس بإعادة إحياء العصور القديمة الوثنية انتشـر تدريجيـا في مدن ألمانيا وفرنسـا وإنجلتـرا . هناك أيضا ، بـدأ الناس بالاهتمـام بالآراء والمفاهيـم الجديدة ، وكذلـك بقراءة الكتب اللاتينية الجديدة ، والتي أصبح الحصول عليها أسـهل كما أصبحت أسعارها أقل بكثير منذ سنة 1450 ، بعد أن أتى ألماني باختراع عظيم في تلك السنة ، اختراع لا يقل أهمية عن اختراع الحروف الذي قدمه الفينيقيون . كان ذلـك هو اختراع الطباعـة . كان هذا الاختراع معروفا منـذ وقت طويل في الصين وعلى مدى عقود في أوروبا ، حيث يُدهن الحبر الأسـود على الخشـب المحفور ثم يُضغـط على الـورق . بيد أن اختراع غوتينبيرغ كان مختلفـا . فعوضا عن الطباعة من ألواح كاملة من الخشـب ، صنع غوتينبيرغ حروفـا منفصلة من المعدن ، والتي يمكـن صفهـا وتثبيتهـا في إطار ومـن ثم الطباعة بهـا لأي عدد من المـرات . عندما يتـم الانتهاء من طباعة النسـخ المطلوبة من الصفحة ، يمكـن تفكيك الإطار وإعادة اسـتخدام الحـروف مـرة أخـرى بترتيـب مختلـف . كانـت العملية بسيطة وغير مكلفـة ، وبـكل تأكيد كانت أكثر بسـاطة وأقـل تكلفة من قضاء الناس للسـنوات الطوال وهـم ينسخون الكتب بمشقة بأيديهم ، كما اضطر العبيد الإغريق والرومان وكذلك الرهبان إلى أن يفعلوا . وعندها سرعان ما تشكل عدد كبير من الطابعات

في ألمانيا ، وإيطاليا وغيرها من الأماكن ، حيث تم شراء وقراءة الكتب المطبوعة والأناجيل وغيرها من الكتابات بحماسة كبيرة ، ليس فقط في المدن الأوروبية ، ولكن في الأرياف كذلك .

بيد أن اختراعا آخر في ذلك الوقت كان له تأثير أكبر في العالم . كان ذلك هو اختراع البارود . مرة أخرى ، كان الصينيون في الأغلب يعرفون بهذا الاختراع منذ زمن طويل ، غير أنهم استخدموه في الأغلب ليصنعوا الألعاب النارية . لقد كان في أوروبا ، بداية من سنة 1300 ، أن بدأ الناس يستخدمونه في المدافع لإطلاق النار على الحصون والناس . وقبل أن يمر وقت طويل ، بدأ الجنود في حمل بنادق ضخمة وثقيلة في أياديهم . كانت الأقواس والسهام لاتزال أسرع وأكثر فعالية ، حيث يمكن لنبال إنجليزي محترف أن يطلق 180 سهما في خمس عشرة دقيقة ، وهو تقريبا الوقت الذي يستغرقه جندي لتعبئة صندوق البارود ، إشعال فتيل الشحنة وإطلاقه مرة واحدة . على الرغم من ذلك ، فإن البنادق والمدافع كانت مستخدمة خلال حرب المائة سنة ، وبعد سنة 1400 أصبح استخدام هذه الأسلحة أكثر انتشارا .

بيد أن مثل هذه الأسلحة ليست للفرسان ولا تتفق مع شيمهم . لم يكن هناك أي شهامة في إطلاق رصاصة من بعد على جسم رجل . كما تعرف ، ما كان يفعله الفرسان هو أن يعدوا باتجاه بعضهم محاولين إسقاط بعضهم البعض عن السرج . الآن ، ولحماية أنفسهم من الرصاص ، كان لا بد لهم أن يتخلوا عن ستراتهم الحديدية من أجل دروع أكثر صلابة ووزنا . وبارتدائهم لهذه الملابس المدرعة من رؤوسهم لأخمص أقدامهم لا بد أنهم بدوا كالرجال الحديديين ، ولا بد أن منظرهم كان يثير الذعر ، بيد أن هذه الدروع كانت ساخنة بشكل لا يطاق ، كما أنها كانت غير عملية ، حيث كان الفرسان بالكاد يستطيعون الحراك . لهذا السبب ، ومهما كانت شجاعتهم في القتال ، لم يعد هؤلاء الفرسان يثيرون خوف العدو . في العام 1476 قاد فارس شهير ومحارب وأمير دوقية بورغندي ، والمعروف باسم تشارلز الجسور ، جيشا من الفرسان في دروعهم للسيطرة على سويسرا . بيد أنه فور وصولهم فاجأهم فلاحو ومواطنو مورتن بالظهور أمامهم ،

وحيث إنهم كانوا يحاربون على أقدامهم ، فقد تمكنوا من إسقاط كل الفرسان وببساطة من على خيولهم ثم ضربهم بالهراوات حتى الموت ، ومن ثم الاستيلاء على كل الخيام والسجاد النفيس الرائع الذي جلبه الفرسان معهم في حملة السيطرة هذه . يمكنك أن ترى هذه النفائس اليوم في بيرن عاصمة سويسرا . وقد بقيت سويسرا حرة ، بينما كان يوما عصيبا على الفرسان .

لهذا ، فإن الإمبراطور الألماني الذي كان يحكم في نحو العام 1500 كان معروفا بالفارس الأخير . كان اسمه ماكسميليان ، وكان أحد أفراد عائلة هابسبيرغ والذين نمت قوتهم وزاد ثراؤهم باستمرار منذ عصر الملك رودولف . منذ العام 1438 انتشرت سلطة هابسبيرغ لأبعد من حدود بلدهم النمسا ، وقد كان تأثيرهم قويا لدرجة أن كل الأباطرة الألمان الذين تم اختيارهم منذ ذلك الوقت كانوا من عائلة هابسبيرغ ، بيد أن الأمراء والنبلاء الألمان تسببوا في المتاعب الكثيرة لهم ، ولم يكن ماكسميليان ، الفارس الأخير ، استثناء . لقد مارسوا سلطات لا محدودة على إقطاعياتهم كما أصبحوا في تردد متزايد لمرافقة إمبراطورهم للمعركة عندما كان يأمرهم بذلك .

مع ظهور الأموال والمدن والبارود ، أصبح منح الأرض بفلاحيها في مقابل الخدمات العسكرية نهج نهجا غابرا كما الفروسية . ولذلك عندما خرج ماكسميليان لمحاربة الملك الفرنسي من أجل أملاكه الإيطالية أخذ معه جنودا مأجورين عوضا عن أتباعه الإقطاعيين . كان هؤلاء الجنود يسمون مرتزقة . كان هؤلاء وحوشا أفظاظا جشعين يتبخترون في ملابسهم الغريبة ، ولم يكونوا ليفكروا في شيء سوى النهب . وحيث إنهم كانوا يحاربون من أجل المال وليس من أجل وطنهم ، فإنهم كانوا ينحازون إلى الشخص الذي يدفع لهم أكثر . كلف هذا الإمبراطور مبالغ ضخمة من المال لم يكن يملكها ، لذا فقد كان مجبرا على الاقتراض من التجار الأغنياء في المدن ، وهذا بدوره كان يعني أنه يستوجب عليه أن يبقي على علاقات جيدة مع هذه المدن ، مما أزعج الفرسان الذين شعروا على نحو متزايد بأنهم لم يعودوا ضروريين أو مرغوبا فيهم .

مثل هذه المشاكل أزعجت ماكسميليان ، فكما الفرسان في العصر القديم ، كان هو يفضل بشدة أن يمتطي حصانه في المباريات ، وأن يكتب الأشعار الجميلة عن مغامراته ليقدمها إلى محبوبته . لقد كان خليطا غريبا من الجديد والقديم ، فقد كان مبهورا بالفن الحديث ، وكان دائم الطلب من الرسام الألماني العظيم ، ألبريخت دورير ، والذي تعلم الكثير من الإيطاليين ولكنه في الواقع علم نفسه المزيد ، أن يعمل لوحات ومنحوتات على شرفه . ومن خلال هذه الرسومات الفنية الرائعة للوجه بيد أول الفنانين الألمان الجدد ، يمكننا في الواقع أن نرى كيف كان شكل الفارس الأخير . هذه الأعمال ، بالإضافة إلى رسومات ومباني الفنانين الإيطاليين العظماء ، هي في الواقع المنادون الذين صاحوا : «نرجو الانتباه ! لقد بدأ عصر جديد !» واذا ما أسمينا العصور الوسطى سماء مضاءة بالنجوم ، فيجب علينا أن ننظر إلى هذا العصر الوليد الجديد ، والذي بدأ في فلورنسا ، كفجر جديد مشرق .

27

عالم جديد

«لم يكن (كولومبوس) قادرا على الاعتراف بأن فكرته العظيمة كانت غلطة، وأن الأرض أكبر بكثير مما كان يتخيل»

المؤلف

إن ما كنا ندعوه تاريخ العالم حتى الآن هو في الواقع تاريخ ما لا يزيد على نصف العالم. معظم الأحداث وقعت حول منطقة البحر الأبيض المتوسط، في مصر، منطقة الرافدين، فلسطين، آسيا الصغرى، بلاد الإغريق، إيطاليا، إسبانيا، وشمال أفريقيا، أو غير بعيدة عن هذه المناطق في ألمانيا، فرنسا، وإنجلترا. وقد ألقينا نظرة سريعة باتجاه الشرق، باتجاه الإمبراطورية الصينية المحصنة، وباتجاه الهند، التي كانت خلال الفترة التي تهمنا الآن محكومة من عائلة ملكية مسلمة، بيد أننا لم نهتم بما يقع غرب أوروبا القديمة، فيما وراء بريطانيا. لم يهتم أحد بهذه المناطق. ذات مرة، لمحت حفنة من البحارة الشماليين أرضا موحشة، وذلك في أعماق الغرب، غير أنهم

سرعان ما تراجعوا ، فلم يكن هناك ما يستحق أن يأخذوه . كان البحارة المقدامون ، مثل الإسكندنافيين ، قليلين ، وعلى كل حال ، من هؤلاء الذين يجرؤون على الإبحار عبر المجهول ، وربما عبر محيط لا ينتهي ، تاركين خلفهم سواحل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا .

هذا المشروع الخطير أصبح ممكنا فقط بوجود اختراع جديد . هذا الاختراع أتى كذلك ، وكدت أضيف كلمة «بالطبع» ، من الصين . كان هذا الاختراع نتاج اكتشاف أن قطعة من الحديد الممغنط عند تعليقها حرة في الهواء دوما تتجه باتجاه الشمال . لا بد أنك حزرت هذا الاختراع : إنه البوصلة . استعمل الصينيون منذ زمن البوصلات في رحلاتهم عبر الصحاري ، والآن ، تسربت أخبار عن هذه الأداة السحرية عن طريق العرب لتصل أخيرا إلى أوروبا إبان الحروب الصليبية ، في نحو العام 1200 . بيد أنه في ذلك الوقت نادرا ما كانت البوصلة تُستعمل ، فقد كان الناس مندهشين وخائفين منها . غير أن خوفهم أفسح المجال تدريجيا لفضولهم ، وربما لشيء أكثر من الفضول . ففي هذه الأراضي البعيدة ، قد يكون هناك كنوز ، ثروات دفينة جاهزة للاستيلاء لها ، بيد أن أحدا لم يجرؤ على الإبحار عبر المحيط الغربي ، فقد كان هائلا ومجهولا جدا ، وما هو يا ترى ينتظر البحارة هناك عند الجانب الآخر؟



لقد حدث أن أصبح رجل إيطالي من جنوى مهووسا بهذه الفكرة . كان هذا الرجل معدما ولكنه مغامر طموح ، قضى وقتا طويلا منكبا على كتب الجغرافيا القديمة ، وقد كان اسمه كولومبوس . حقا ، أين سينتهي بك المطاف إذا ما استمررت في الإبحار غربا؟ لا بد أنه سينتهي بك المطاف في الشرق ! أليست الأرض دائرية مثل الكرة؟ هذا ما يقال في العديد من الكتابات القديمة . وإذا ما أبحرت غربا فالتففت

نصف المسافة حول العالم ثم رسوت في الشرق ، ساعتها ستكون عندئذ في الصين ، في جزر الهند الرائعة ، تلك الأراضي الغنية بالذهب والعاج والبهارات النادرة . وبمساعدة البوصلة ، كم سيكون الإبحار عبر المحيط أكثر بساطة من السير في رحلة طويلة وشاقة عبر الصحاري وعبر سلاسل الجبال المخيفة كما فعل الإسكندر ذات مرة ، وكما استمرت قوافل التجارة تفعل عندما كانت تجلب أقمشة الحرير من الصين إلى أوروبا . اعتقد كولومبوس أنه عبر هذا المسار الجديد تصبح جزر الهند على بعد أيام معدودة عوضا عن فترة الشهور التي تستغرقها الرحلة الأرضية ، وأينما كان يذهب ، كان يحدث الناس عن خطته ، بيد أنهم كانوا يضحكون عليه ويدعونه بالمغفل ، ولكنه أصر على رأيه : «أعطوني سفنا ! أعطوني فقط سفينة واحدة ، وسآتيكم بالذهب من الشرق الخلاب» .

توجه كولومبوس إلى إسبانيا ، هناك ، في العام 1479 ، اتحد حكام مملكتين مسيحيتين بروابط المصاهرة حيث كانوا مشغولين بحملة عنيفة لطرد العرب ، والذين ، كما تعرف ، كانوا قد حكموا إسبانيا لما يزيد على السبعمائة سنة ، ليس فقط من عاصمتهم الرائعة غرناطة ، ولكن من مملكتهم بأكملها . لم يُظهر البلاط الملكي في البرتغال ولا ذاك الذي في إسبانيا الكثير من الحماس لمخططات كولومبوس ، بيد أنه وُضعت أمام علماء وبحارة جامعة سالامانكا الشهيرة من أجل النظر فيها . بعد أربع سنوات أخرى من الانتظار والالتماس علم كولومبوس أن الجامعة رفضت خطته . صمم عندها على مغادرة إسبانيا وتجربة حظه في فرنسا . في طريقه ، صادف أن قابل راهبا لم يكن سوى كاهن الاعتراف الخاص بالملكة إيزابيلا من قشتالة ، كان مفعما بالحماس تجاه مشروع كولومبوس ، أقنع الراهب الملكة بمنح كولومبوس فرصة مقابلة أخرى ، بيد أن كولومبوس كاد يفسد الفرصة تماما من جديد . لم تكن المكافأة التي طلبها ، إذا ما نجحت مخططاته بالقليلة أبدا : كان يريد أن يمنح رتبة فارس ، أن يُعين برتبة عميد بحري ونائب (ممثل للملك) على كل الأراضي التي يكتشفها ، كما أنه سيبقي على عُشر نسبة الضرائب التي سيحصلها هناك وأكثر من ذلك . عندما رفض الملوك طلبه غادر إسبانيا فورا إلى فرنسا . إذا ما اكتشف أي أراض ، فستصبح تابعة للملك الفرنسي الآن ، مما أرعب إسبانيا . استسلم الملوك وقاموا باستدعاء كولومبوس ، حيث تمت الموافقة على كل

مطالبه . أُعطي كولومبوس سفينتين شراعيتين في حالة رديئة ، فلن تكون الخسارة كبيرة إذا ما غرقتا ، واستأجر هو سفينة ثالثة .

وعليه أبحر كولومبوس عبر المحيط باتجاه الغرب ، عازما على بلوغ شرق الجزر الهندية . غادر كولومبوس إسبانيا في 3 أغسطس 1492 حيث تأخر كثيرا بسبب رسوه على إحدى الجزر ليصلح إحدى سفنه . بعدها باشر الإبحار مجددا أكثر فأكثر باتجاه الغرب من دون أي أثر للجزر الهندية بعد ! عندها ، بدأ رجاله يتململون ، تحولت لهفتهم إلى يأس وأصبحوا راغبين في العودة . وعوضا عن أن يخبرهم كولومبوس بمدى بعدهم عن الديار ، كذب عليهم . وأخيرا في 11 أكتوبر 1492 ، في الثانية صباحا ، أُطلق مدفع من أحد السفن معلنا «الأرض أمامنا(*)» .

امتلأ كولومبوس بالفخر والبهجة . وأخيرا ها هي الجزر الهندية ، هؤلاء الناس الودودين على الساحل لابد أنهم هنود ، أو ، وكما كان يسميهم الإسبان ، إنديوس . بالطبع ، أنت تعلم أنه كان مخطئا . لم يكن كولومبوس في أي مكان بالقرب من الهند ، بل كان على جزيرة قريبة من أمريكا . وبفضل خطئه هذا ، مازلنا نسمي سكان أمريكا الأصليين بالهنود والجزر التي حط عليها كولومبوس بالجزر الهندية الغربية . كانت الهند الحقيقية (أو الجزر الهندية الشرقية) لاتزال تبعد مسافة كبيرة جدا ، أكبر من تلك التي بينهم وبين إسبانيا خلفهم . كان على كولومبوس أن يبحر لمدة شهرين آخرين ليصل إلى تلك الجزر ، وبالأحرى كان ليفنى هو ورجاله على نحو تعس وما كان ليصل إلى هدفه أبدا . بيد أنه في ذلك الوقت ، كان يعتقد أنه وصل إلى الجزر الهندية ، وعليه فقد استولى على الجزيرة باسم الملكية الإسبانية . خلال رحلاته اللاحقة ، استمر في إصراره على أن الأراضي التي اكتشفها كانت الجزر الهندية . لم يكن قادرا على الاعتراف بأن فكرته العظيمة كانت غلطة ، وأن الأرض أكبر بكثير مما كان هو يتخيل . لقد كان المسار الأرضي إلى الجزر الهندية أقصر بكثير من الرحلة عبر المحيطين الأطلسي والهندي بأكملهما . إلا أن كولومبوس لم يكن قادرا على التفكير سوى في كونه نائبا للملك على الجزر الهندية ، أرض أحلامه .

(*) في العادة يستخدم تعبير Land ahoy للإشارة إلى ظهور أرض أمام البحارة ، وهو تعبير قديم كان شائعا في البحرية البريطانية وبين القراصنة [المترجمة] .

قد تعلم بأنه منذ ذلك التاريخ في 1492 -السنة التي اكتشف فيها المغامر الحالم كريستوفر كولومبوس أمريكا بالصدفة فقط لأنها كانت تعترض طريقه - يقال إن العصر الحديث قد بدأ . إلا أن التاريخ الذي تم اختياره ليحدد بداية العصور الوسطى ، 467 ، يبدو أنه اختيار أكثر وضوحا ، فقد كانت تلك هي السنة التي سقطت فيها الامبراطورية الرومانية في الغرب ومعها امبراطورها ، هذا الإمبراطور صاحب الاسم الغريب : روموليوس أوغسطولوس . بيد أنه في العام 1492 لم يكن عند أي شخص أدنى فكرة ، ولا حتى كولومبوس نفسه ، بأن هذه الرحلة قد تعني أكثر من مجرد مصدر جديد للذهب في أراض غير معروفة .

بالطبع ، استُقبل كولومبوس فور عودته استقبال الأبطال ، بيد أنه خلال رحلاته اللاحقة جعله غروره وطموحه وطمعه وخياله الجامح مكروها إلى الحد الذي دفع بالملك إلى اعتقال عميده البحري ونائبه وإحضاره من الجزر الهندية الغربية إلى الديار مقيدا بالسلاسل . احتفظ كولومبوس بهذه السلاسل بقية حياته ، حتى بعد أن عاد إليه الرضا الملكي والاحترام والغنى . لقد كانت تلك إهانة لم يستطع نسيانها أو غفرانها .

اكتشفت السفن الإسبانية الأولى ، والتي كانت تحمل كولومبوس ومرافقيه ، فقط الجزر التي لم يكن لدى سكانها البسطاء الطيبين سوى القليل ليقدموه لهم . كل ما كان يهم المغامرين الإسبان هو الوصول إلى مصدر للحصول على ذهب للخواتم والتي كان بعضهم يضعها في أنفه . أشار سكان الجزر باتجاه الغرب ، وعليه اكتُشفت اكتشاف أمريكا . لقد كان الإسبان في الواقع يبحثون عن أرض إلدورادو الأسطورية . وبقناعتهم التامة بوجود هذه الأرض ، كان الإسبان يتخيلون مدنا كاملة مسقفة بالذهب . كان هؤلاء المدعوون الفاتحون (conquistadores) ، والذين تركوا إسبانيا بحثا عن أراض جديدة ليسيطروا عليها من أجل ملكهم وليستغنوا منها سلبا ونهبا ، رجالا أفظاظا ، وليسوا بأفضل من القراصنة كثيرا ، مدفوعين بطمع نهم للمزيد من المغامرات المجنونة ، قام هؤلاء باستغلال وخداع السكان الأصليين بكل مكان ذهبوا إليه . لم يردعهم شيء ولم ينفروا من أي وسيلة مادام الأمر يتعلق بالذهب . لقد كانوا شجعانا بشكل لا يوصف وقساة

غلاظا لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم كذلك . وكان أكثر ما يحزن في الأمر أن هؤلاء الرجال لم يكتفوا بوصف أنفسهم بالمسيحيين ، ولكنهم دائما ما أصروا على أن كل الأعمال الوحشية التي كانوا يرتكبونها ضد الوثنيين كانت تتم من أجل المملكة المسيحية .

أحد هؤلاء المحتلين تحديدا ، وقد كان طالب قانون سابقا يدعى هيرناندو كورتيز ، كان مأخوذا بطموح جامح . لقد أراد أن يسير عميقا إلى قلب البلد وأن يستولي على كل كنوزه الأسطورية . في 1519 انطلق كورتيز من الساحل مترئسا 150 جنديا إسبانيا وثلاثة عشر فارسا وعددا من المدافع . لم يكن الهنود قد شاهدوا رجلا أبيض من قبل ، كما أنهم لم يروا حصانا من قبل كذلك . اقتنع هؤلاء ، بعد أن أصابهم الرعب من مشهد المدافع ، بأن هذه العصابات الإسبانية هي في الحقيقة مكونة من سحرة أقوياء ، أو ربما آلهة . إلا أنهم قاموا بعدة محاولات شجاعة للدفاع عن أنفسهم ، فقد هاجموا الجنود نهارا حين كانوا يزحفون إلى ديارهم وليلا وهم في مخيماتهم . إلا أن كورتيز انتقم انتقاما فظيعا منذ البداية ، حيث أحرق القرى وقتل الآلاف من الهنود .

وقبل أن يمر وقت طويل وصل رسل من ملك قوي يقع بلده في أعماق القارة . تمنى هؤلاء الرسل أن يعود كورتيز أدراجه وأعطوه هدايا نفيسة من الذهب والريش الملون . إلا أن هذه الهدايا زادت من فضوله وطمعه ، وعليه فقد استمر في المسير صامدا في وجه متاعب تفوق الخيال ، ومجبرا العديد من الهنود على الانضمام إلى جيشه كما كان الفاتحون العظماء يفعلون دوما . وأخيرا ، وصل إلى مملكة الملك العظيم الذي أرسل الرسل المحملين بالهدايا . كان اسم هذا الملك مونتيزوما ، وكان بلده يسمى المكسيك ، كما كانت تسمى عاصمته بالاسم نفسه كذلك . انتظر مونتيزوما بكل احترام إقبال كورتيز وقوته الصغيرة خارج المدينة والتي كانت تقع على جزيرة وسط سلسلة عظيمة من البحيرات . ولقد دهش الإسبان عندما اقتيدوا عبر طريق معبد طويل إلى المدينة حيث شاهدوا روعة وجمال وفخامة هذه العاصمة العظيمة والتي كانت كبيرة بحجم أي مدينة في أوروبا . كانت لها طرق مستقيمة عريضة وعدد كبير من القنوات والجسور ، كما كان فيها العديد من الميادين والأسواق التجارية العظيمة والتي كان يجوبها عشرات الآلاف من الناس يوميا ليشتروا ويبيعوا .

في تقريره لملك إسبانيا كتب كورتيز : «يتاجرون هنا في جميع أنواع البضائع : في الأطعمة ، وفي المجوهرات المصنوعة من الذهب والفضة والرصاص والنحاس والعاج والمحار وصدفة سرطان البحر والريش ، في الأحجار المصقولة وغير المصقولة ، في الكلس والطابوق ، في الأخشاب الخشنة والمصنعة . . .» في بعض الشوارع ، يقول كورتيز : كانوا لا يبيعون سوى الطيور والحيوانات من كل الأنواع ، بينما في شوارع أخرى كانوا يبيعون عددا لامتناهيا من أنواع النباتات . تحدث كورتيز عن الصيدليات ودكاكين الحلاقين ، عن المخابز والخانات ، عن التجار الذين يبيعون نباتات الحدائق النادرة والفواكة ، عن أدوات وأصباغ النقش ، وعن كيف يجلس في السوق ثلاثة قضاة باستمرار ، حاضرين للفصل في أي خلاف يمكن أن يقوم بين الناس . يصف كورتيز كذلك معابد المدينة الضخمة ، والتي يبدو كل منها بحجم مدينة كاملة ، بأبراجها الطويلة وغرفها المزينة بألوان زاهية والمغطاة بصور ضخمة مرعبة للآلهة التي تُقدم لها قرابين إنسانية مفزعة .

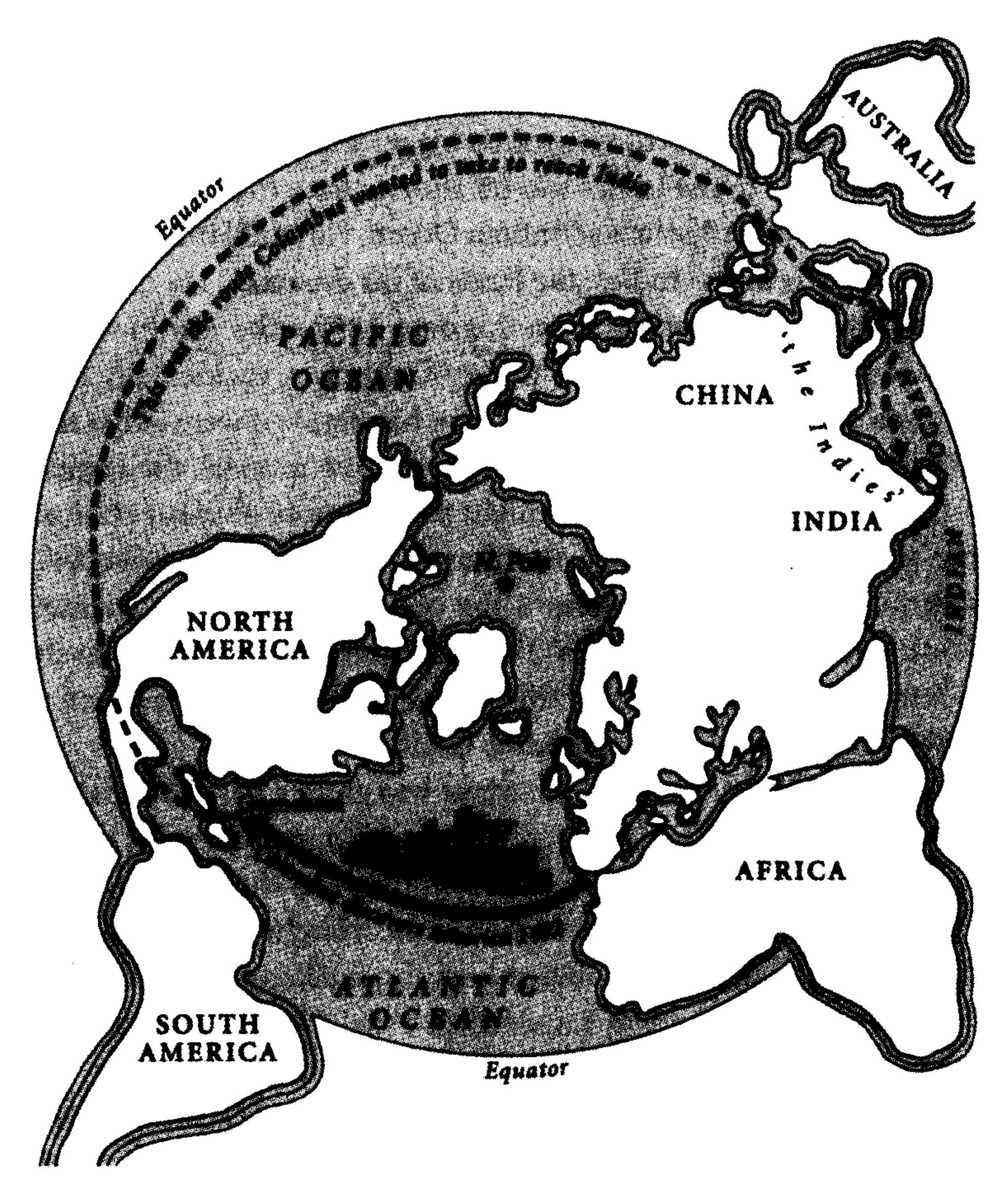
لقد كان كورتيز منبهرا تحديدا بقصر مونتيزوما الملكي . لم يكن لدى إسبانيا ، كما قال ، ما يمكن أن يُقارن به . كان هذا القصر على ارتفاع طوابق عدة ، مرفوعا على أعمدة مكسوة بحجر اليشم الكريم . تطل ردهاتها الضخمة على مناظر لا تصل العين إلى نهايتها . أسفل القصر يمتد منتزه رائع ، ببرك طيور وحديقة حيوانات ضخمة تحتوي على مختلف أنواع الحيوانات البرية المحبوسة في الأقفاص . كان يقوم على خدمة مونتيزوما بلاط فاخر من المسؤولين رفيعي المستوى والذين كانوا يبدون له أقصى درجات الإذعان . كان يغير ثيابه أربع مرات في اليوم ، فيظهر دوما بأردية جديدة ومختلفة لا يلبسها مجددا أبدا . كان من يقترب يطاطئ رأسه ، وعندما كانوا يحملونه في شوارع المكسيك على المحفة ، كان على الناس أن يلقوا بأنفسهم على الأرض أمامه حيث يجب ألا يُشاهدوا وهم ينظرون إلى وجهه .

استخدم كورتيز الخديعة ليوقع بهذا الملك العظيم . وكما لو أن الشلل قد أصابه بسبب استهتار وعجرفة هؤلاء ، لم يحرك مونتيزوما إصبعا في مواجهة الدخلاء البيض . فطبقا لمقولة أثرية ، فإن آلهة بيض ، أبناء الشمس ، سيأتون يوما ما من الشرق ليسيطروا على المكسيك ، وقد اعتقد مونتيزوما أن الإسبان هم هؤلاء الآلهة . بيد أنهم في الواقع تصرفوا كما لو كانوا شياطين بيضا . فلقد استغلوا المراسم في أحد المعابد ليهاجموا ويقتلوا كل

المكسيكيين النبلاء ، مدركين أن هؤلاء لن يكونوا مسلحين . في أحداث العنف التي تلت ذلك أجبر كورتيز مونتيزوما على مناشـدة الجماهير الغاضبة من على سطح القصر ، غير أن النـاس تجاهلته ، ثم قاموا بإلقاء الأحجار على ملكهم ، حيث سـقط مونتيزوما بجرح قاتل . في مذبحة لاحقة ، استعرض كورتيز شجاعته الحقيقية فقد تمكنت فرقته الإسبانية الصغيرة من الهرب ، وبأعجوبة ، من المدينة وهي في أوج اضطرابها ، محملين بالمرضى والجرحـى ، حيـث قاموا بشـق طريقهم عائدين إلى السـاحل عبر هـذه الأرض المعادية . بالطبع ، سـرعان ما عاد هـو بفرق جديدة أحرقت ودمرت هذه المدينـة الرائعة بأكملها . وتلك ما كانت سـوى البداية ، فهناك ، وفي أماكن أخرى من أمريكا ، مضى الإسبان في إبادة الشـعوب الهندية المهذبة القديمة وبأبشـع الطرق . إن هذا الفصل من تاريخ البشـرية يشهد لنا بالخزي والعار كأوروبيين حتى إنني أفضل ألا أقول المزيد عنه .

Equator	خط الاستواء
Australia	أستراليا
This was the route. . .	الطريق الذي أراد كولومبوس أن يسلكه للوصول إلى الهند
Pacific Ocean	المحيط الهادي
China	الصين
India	الهند
N. Pole	القطب الشمالي
North America	أمريكا الشمالية
Africa	أفريقيا
Guanahani	غواناهاني
Atlantic Olean	المحيط الأطلسي
South America	أمريكا الجنوبية
Colombus discovers	كولومبوس يكتشف أمريكا 1492
the Indies	الهند الشرقية

مفتاح الخريطة المقابلة



كانت الرحلة البحرية العظيمة التي قام بها كولومبوس قصيرة إذا ما قارنتَها بالرحلة التي كان ينوي القيام بها . أفضل طريقة لمقارنة الرحلتين هي النظر إلى الكرة الأرضية من منظور القطب الشمالي .

في تلك الأثناء ، اكتشف البرتغاليون الطريق البحري الصحيح إلى الجزر الهندية ، حيث لم يكن مسلكهم تجاه السكان الأصليين أفضل بكثير من مسلك الإسبان . لم تعن كل حكمة الهند القديمة أي شيء بالنسبة إليهم . هم كذلك أرادوا الذهب ، ولا شيء غيره . في النهاية ، وصلت كميات كبيرة من الذهب إلى أوروبا

من الهند وأمريكا فازداد المواطنون غنى وازداد الفرسان والإقطاعيون فقرا . وحيث إن كل السفن كانت تبحر باتجاه الغرب ، وتعود من الغرب كذلك ، كانت الموانئ الغربية لأوروبا هي الأكثر استفادة ، فقد نمت قوتها وأهميتها . ولم تكن تلك هي فقط موانئ إسبانيا والبرتغال ، ولكن كذلك موانئ فرنسا وإنجلترا وهولندا . بيد أن ألمانيا لم تؤد أي دور في هذه الفتوحات التي تمت عبر البحار ، حيث كان لدى الألمان العديد من المشاكل التي يجب التعامل معها في الديار .

28

دين جديد

كما تتذكر ، كان هناك بابوات تحكم في روما بعد العام 1400 ، كانوا يهتمون بالقوة والفخامة أكثر من اهتمامهم بأدوارهم كقساوسة ، حيث كانوا هم من كلفوا أشهر الفنانين ببناء الكنائس الرائعة . كان هذا الوضع حقيقيا بالتحديد بالنسبة إلى اثنين من بابوات ميديشي ، واللذين ينتميان إلى تلك العائلة التي عملت الكثير من أجل هيبة وتجميل فلورنسا . فخلال فترتي حكمهما ، ارتفعت أضخم وأروع المباني في سماء روما . فكنيسة القديس بيتر القديمة ، تلك الكنيسة التي كان يُعتقد أن قسطنطين الأكبر هو الذي شيدها والتي تُوج فيها شارلمان إمبراطورا ، كانت شديدة البساطة والاعتيادية بالنسبة

«لم يكن لوثر وحيدا في طريقة تفكيره ووعظه التي انتهجها في تلك السنوات»

المؤلف

إلـى ذوقهم . وعليه فقد خططوا لبناء كنيسـة جديدة ، أكبـر بكثير وأجمل من أي من سـابقاتها ، والتي ستكلف الكثير من المال . بيد أن مصدر هذه الأموال لـم يكن مهما بالنسـبة إلى بابوات ذلك الوقت على قدر أهمية الحصول عليها لاسـتكمال كنيستهم الرائعة . ومن خلال حرصهم على إرضاء البابا ، قام القساوسة والرهبان بتجميع الأموال بطريقة لا تتواءم وتعاليم الكنيسـة ، فقد أجبروا المؤمنين المخلصين علـى الدفـع مقابل المغفرة عـن ذنوبهم ، حيث أسـموا هذه العمليـة «بيع صكوك الغفران» . وقد قاموا بذلك على الرغم من تعاليم الكنيسة والتي تقول بأن المذنبين التائبين هم فقط من يمكن أن يُمنحوا المغفرة .



كان هنـاك فـي ويتينبيـرغ ، ألمانيـا ، فـي ذلك الوقـت راهـب ينتمي إلـى رهبانية الأغسـطينيين . كان اسـمه مارتن لوثر . وعندما وصل ، في العـام 1517 ، أحد باعة صكوك الغفران تلك إلى ويتينبيرغ ليجمع المال من أجل كنيسة القديس بيتر الجديدة ، والتي كان يشرف على إنشائها هذه السنة رافائيل ، أشهر فناني العالم ، كان لوثر عازما على لفت الأنظار إلى الأسلوب المنافي للدين في هذه الطريقة في جمع الأموال . فقد قام بتعليق ما يشبه الإعلان على أبواب الكنيسة ، كتب عليه خمس وتسعون أطروحة أو نقطة محل النقاش ، يسـتنكر من خلالها هذه التجارة بالغفران السـماوي . أكثر ما كان صادما بالنسـبة إلى الوثر هو أن الناس يمكـن أن يصدقوا أن بإمكانهم التكفير عن خطاياهم بالمال ، بأن رحمة الرب المتسـامحة الحرة يمكن شـراؤها . كان دائما ما يرى نفسـه آثمـا يعيش ، كمـا كل الآثمين ، في خـوف من غضب الرب . شـيء أوحد قد ينقـذه مـن عقاب الرب وهـو رحمة الـرب اللامتناهية والتي ، كمـا كان لوثر يعتقد ،

لا يمكـن شـراؤها ، حيـث إنه إذا اسـتطاع الإنسـان شـراؤها ، فإنها لا يمكـن أن تكون رحمـة . فأمام الرب ، الذي يرى كل شـيء ويعلم كل شـيء ، حتى الإنسـان الطيب آثـم ويسـتحق العقاب . وحده الإيمـان برحمة الرب المقدمة بلا ثمـن يمكن أن ينجيه ، ولا شيء غير ذلك .

ومن خلال المجادلات المريرة التي تفجرت حول موضوع الصكوك ومفاسـدها ، اتخـذت آراء لوثر نبـرة متزايدة الإصرار والقوة ، في كل مـن تعاليمه وكتاباته . «فقط الإيمـان هـو ما يهـم» ، كان لوثر يقـول و«كل ما عـداه غير ضـروري» ، وذلك ينطبق كذلـك علـى الكنيسـة والقساوسـة الذين ، عنـد إقامتهم للقـداس ، يتشـفعون نيابة عـن المؤمنين ليضمنوا لهم قسـطا من رحمة الرب كذلك . رحمـة الرب لا تحتاج إلى وسيط . كل ما يحتاجه الفرد لكي يتم إنقاذه هو اعتقاده الراسخ وإيمانه بالرب . الإيمان يعنـي تصديـق كل القصص الغامضة في الإنجيل ، الاعتقاد بأننا نأكل جسـد المسـيح ونشـرب دمه من الكأس عندما نسـتقبل القربان المقدس . لا يمكن لإنسـان أن يساعد آخر في الحصول على رحمة الرب . فكل مؤمن هو ، إذا جاز التعبير ، قسيس نفسه . فقسـيس الكنيسة لا يزيد على كونه معلما ومسـاعدا ، ومن هذا المنطلق فله أن يعيش مثـل غيره من الرجال ، وله حتى أن يتزوج . يجـب على المؤمن ألا يقنع بقبول تعاليم الكنيسة ، بل يجب عليه أن يتطلع للإنجيل لمعرفة غرض الرب وأن يسعى إليه بنفسه . طبقا لرأي لوثر ، فإن الحقيقة موجودة فقط في الإنجيل .

لـم يكن لوثـر أول من واتتـه مثل هـذه الأفكار . فقبـل ذلك بمائة سـنة كان هناك قسـيس يدعـى يـان هوس والـذي كان يـدرس الأفكار نفسـها في بـراغ . في 1415 استُدعي أمام هيئة من كبار الشـخصيات الكنسية في كونسـتانس ، وعلى الرغـم من التعهـد بأن تكـون الإجراءات الامبراطوريـة آمنة ، إلا أنه تم حرق يـان هوس باعتباره مهرطقـا . كمـا تم اضطهـاد وقتل العديـد من أتباعه في سلسـلة من المعـارك الطويلة والدموية التي دمرت نصف بوهيميا .

وكان المصير نفسـه سـيصيب لوثر وأتباعه ، غير أن الزمن قد تغير . فبصورة عامة كان لاختـراع الطباعـة الفضـل الأكبر في شـراء وقـراءة مؤلفات لوثر فـي كل ألمانيا . كانت تلك المؤلفات مكتوبة بأسلوب مفعم بالحيوية والإثارة ، وأحيانا كثيرة بأسلوب خشـن غيـر منمق . لقد كسـب الكثير مـن الناس بحججـه . عندما سـمع البابا بهذه

الكتابات والحجج ، هدد بعزل لوثر كنسيا . غير أن التأييد الذي حصل عليه لوثر كان قد أصبح عظيما جدا في هذه المرحلة حتى إنه لم يعد يأبه لهذه التهديدات . قام لوثر بإحراق رسالة البابا علنا ، وعندها تم عزله كنسيا بالفعل . بعدها ، أعلن لوثر أنه وكل أتباعه تركوا الكنيسة بشكل كامل . على إثر ذلك ، دخلت ألمانيا في اضطراب عنيف ، وأخذ العديد من الناس جانب لوثر ، حيث إن البابا المحب للرفاهية ، وبكل ما يملك من ثروة ، لم يكن محبوبا على الإطلاق في ألمانيا . كما أن الأمراء الألمان لم يبدوا اعتراضاً كبيرا ، حيث إنه إذا ما خسر الأساقفة والمطران سلطتهم ، فإن ممتلكات الكنيسة الضخمة ستعود إليهم . وعليه فقد انضموا هم كذلك للحركة الإصلاحية ، وهو الاسم الذي أُطلق على محاولة لوثر لايقاظ التقوى المسيحية القديمة .

في ذلك الوقت - أي في 1519 - توفي الإمبراطور «الفارس الأخير» ماكسيميليان ، حيث أصبح حفيده ، تشارلز الخامس من بيت هابزبيرغ ، والذي كان كذلك حفيدا للملكة الإسبانية ، إيزابيلا من قشتالة ، الإمبراطور الألماني الجديد . كان تشارلز يبلغ من العمر فقط تسعة عشر عاما ، لم يطأ خلالها أرض ألمانيا ، حيث عاش فقط في بلجيكا ، هولندا وإسبانيا ، والتي كانت جميعها جزءا من ميراثه . وكونه ملك إسبانيا ، فقد حكم كذلك أمريكا المكتشفة حديثا ، حيث قام كورتيز مؤخرا بفتوحاته . وعليه ، فإن كل من أراد أن يتملقه ، يمكنه أن يقول إن مملكته لا تغيب عنها الشمس (كون الوقت يكون نهارا في أمريكا عندما يكون ليلا هنا) . وقد كان لمملكته الضخمة - والتي ضمت أراضي هابزبيرغ المتوارثة القديمة التي هي النمسا ، البلدان المنخفضة(*) المتوارثة عن تشارلز الجسور من بورغندي ، إسبانيا والامبراطورية الألمانية ، منافس أوحد في أوروبا ، ذاك كان فرنسا . غير أن المملكة الفرنسية ، تحت قيادة ملكها البارع فرانسيس الأول ، وعلى الرغم من كونها أصغر بكثير من امبراطورية تشارلز الخامس ، كانت أكثر توحدا وغنى واستقرارا . شرع هذان الملكان الآن في حرب طويلة جدا وشديدة التعقيد حول إيطاليا ، أغنى دولة في أوروبا . ساند البابوات المتعاقبون الملك الأول ، ثم الثاني ، إلى أن نَهبت قوات الامبراطور الألمانية روما أخيرا في 1527 ، ودُمرت ثروات إيطاليا .

(*) Low Countries ، وهي تضم بلجيكا ، هولندا ولوكسومبورغ ، والتي تعرف كذلك باسم بينيلوكس Benelux Countries نسبة إلى الحروف الأولى من أسماء البلدان الثلاثة . تسمى هذه الدول بالمنخفضة نظرا إلى كون معظم أراضيها على ساحل بحر الشمال منخفضة عن سطح البحر أو مرتفعة بنسبة قليلة جدا عنه [المترجمة] .

غير أنه عندما اعتلى تشـارلز الخامس العرش في البداية ، وذلك في 1519 ، كان شابا شديد الورع ، ولايزال محتفظا بعلاقات ممتازة مع البابا ، وتواقا ، ما إن تم تتويجه في آخن ، إلى حل موضوع المهرطق لوثر . كان القبض على لوثر هو أبسـط الحلول ، إلا أن فريدريك ، دوق ساكسـونيا ، وأمير ويتينبيرغ ، حيث كان لوثر يعيش ، لم يكن ليسـمح بذلـك . كان هـذا الأميـر ، والمعروف بفريدريـك الحكيم ، سيصبح الحامي الأكبر للوثر وفي يوم ما سينقذ حياته .

لـذا ، بدلا من ذلك ، أمر تشـارلز الخامس هذا الراهب الثائـر بالمثول أمام البرلمان الأول الذي كان سيعقده في ألمانيا . كان ذلك في وورمز في 1521 . كان كل الأمراء ورجـالات الامبراطورية العظماء موجودين في مجلـس بدا باهرا مهيبا . حضر لوثر أمامهـم مرتديا قلنسـوة الرهبـان ، حيث كان قد أعلن مسـبقا أنه على اسـتعداد لنبذ تعاليمه إذا ما تم إثبات خطئها عن طريق الإنجيل ، حيث كما تعلم ، كان لوثر سيقبل فقـط ما هـو مكتوب في الإنجيل ككلمـة الرب . لم يكن الأمـراء والنبلاء المجتمعون راغبـين فـي أن يُحاصـروا فـي حـرب كلمات مـع دكتور علـم اللاهـوت المتحمس والمثقـف هـذا ، وعليه ، أمـر الامبراطور لوثـر بنبذ تعاليمـه ، فقام لوثـر بطلب مهلة يوم للتفكير . لقد كان عازما على التمسـك باقتناعاته ، حيث كتب في ذلك الوقت لصديـق قائلا : «حقيقة ، لن أنبذ حرفا واحدا منها ، سـأضع ثقتي في المسـيح» . في اليوم التالي ظهر مجددا أمام الأمراء والنبلاء المجتمعين في البرلمان وقدم خطابا طويلا باللاتينيـة والألمانيـة ، مسـتعرضا كل معتقداته . ولقـد قال إنه يعتـذر إذا ما كان ، في أوج حماسـته للدفاع عن نفسـه ، قد تسبب في أي اسـاءة ، غير أنه استدرك فقال إنه لا يمكن أن يتسـبب في اسـاءة . طلب منه الامبراطور الشـاب ، والذي في الغالب لم يفهم كلمة مما قيل ، أن يجيب عن الأسئلة بوضوح وأن يدخل في صميم الموضوع . وقد عقب لوثر على ذلك بكل حرارة بأنه فقط للحجج المأخوذة من الإنجيل أن تجبره على سـحب آرائه : «إن ضميري مرتبط بكلمة الرب ، ولهذا السـبب لا يمكنني ولن أقـوم بالتراجع عن أي شـيء ، فمن الخطر أن يتصرف الإنسـان بمـا يخالف ضميره ، وليساعدني الرب ، آمين» .

عندهـا مـرر البرلمان مرسـوما يُعلن فيـه أن لوثر طريـد للعدالة ، مما يعنـي أنه غير مسـموح لأحد بتزويده بالطعام أو المسـاعدة أو المأوى . فإذا فعل أحدهـم ذلك ، فإنه

سيصبح طريدا للعدالة كذلك ، كما ستكون حال كل من يُقبض عليه وهو يشتري أو يقتني كتبه ، هذا ولن يُعاقب أحد على مقتله . لقد كان ، كما قيل له ، «حرا كعصفور» . بيد أن نصيره ، فريدريك الحكيم ، قام بخطفه ونقله سرا إلى قلعته ، وارتبورغ . هناك ، عاش لوثر متخفيا تحت اسم مستعار ، حيث استغل فرصة وجوده في الحبس الاختياري هذا للعمل على ترجمة الإنجيل إلى الألمانية حتى يستطيع الجميع قراءته والتفكير في معانيه . غير أن ذلك لم يكن بالسهولة التي يبدو عليها . كان لوثر عازما على أن يجعل جميع الألمان قادرين على قراءة إنجيله ، لكن في تلك الأيام لم تكن هناك لغة يمكن لجميع الألمان قراءتها : كان البافاريين يكتبون بالبافارية والساكسونيون بالساكسونية . لذا ، كان على لوثر أن يخترع لغة يفهمها الجميع ، وعليه ، ومن خلال ترجمته للإنجيل ، استطاع أن يصنع لغة هي في الواقع ، وحتى بعد مرور ما يقرب من خمسمائة سنة ، لا تختلف كثيرا عن الألمانية التي يكتبها الناس اليوم .

بقي لوثر في وارتبيرغ إلى أن سمع في يوم أن خطبه وكتاباته أصبحت تترك أثرا لم يعجبه مطلقا . فقد أضحى أتباعه اللوثريون أكثر عنفا في حماستهم منه هو بحد ذاته . كانوا يقومون بإلقاء اللوحات خارج الكنائس ، ويروجون أنه من الخطأ تعميد الأطفال ، حيث يجب أن يقرر كل لنفسه إذا ما أراد أن يعمد . كان الناس يدعونهم بألقاب مثل محطمي الصور (Iconoclasts) ودعاة تجديد التعميد (Anabaptists) . إضافة إلى ذلك ، كان هناك جانب في تعاليم لوثر له أثر عميق عند الفلاحين الفقراء الذين أخذوه على محمل الجد ، فقد قال لوثر إنه يجب على كل فرد أن يطيع صوت ضميره ، وليس أي شخص آخر ، وأنه ، ودون الخضوع لأي إنسان ، على الفرد أن يسعى حرا ومستقلا من أجل رحمة الرب . فهم عبيد الأرض الفلاحون العاملون في الإقطاعيات أن هذه التعاليم تعني أنهم يجب أن يصبحوا أحرارا . مسلحين بالمناجل ومضارب القمح ، اتحد هؤلاء في عصابات ، حيث قتلوا ملاك الأراضي وهاجموا الأديرة والمدن . وجه لوثر كامل القوة في كتاباته وخطاباته الوعظية الآن ضد محطمي الصور والمنادين بتجديد التعميد والفلاحين ، كما استخدمها سابقا في مهاجمته للكنيسة ، وعليه فقد ساعد في قمع ومعاقبة العصابات المتمردة . هذا التفكك والافتقاد للاتحاد

بين البروتستانتيين ، كما كان يُسمى أتباع لوثر ، أثبت فائدته العظيمة للكنيسة الكاثوليكية القوية المتحدة .

لم يكن لوثر وحيدا في طريقة تفكيره ووعظه التي انتهجها في تلك السنوات . في زيوريخ اتخذ قسيس يدعى زوينغلي مسارا مشابها ، وفي جنيف نأى رجل مثقف آخر ، يدعى كالفين ، بنفسه عن الكنيسة ، غير أنه على الرغم من تشابه تعاليمهم ، لم يستطع أتباعهم أن يتسامحوا ، فضلا عن أن يتعايشوا بعضهم مع بعض .

بيد أن البابوية منيت الآن بخسارة جديدة وأعظم أثرا . كان الملك هنري الثامن يجلس على العرش في إنجلترا وكان متزوجا من كاثرين من آرغون ، وهي عمة للامبراطور تشارلز الخامس ، غير أنه لم يكن يحبها . بدلا عنها كزوجة ، كان هنري يرغب في الزواج من سيدة في خدمتها تدعى آن بولين . عندما طلب من البابا ، كرئيس للكنيسة ، منحه الطلاق ، رفض البابا . لذا ، في 1533 ، سحب هنري الثامن بلده من تبعية الكنيسة الرومانية مؤسسا كنيسة خاصة به ، كنيسة سمحت له بالطلاق الذي يريد . استمر هنري الثامن في اضطهاد أتباع لوثر ، لكن إنجلترا خسرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية للأبد . لم يكد يمر وقت طويل حتى مل هنري من آن بولين كذلك ، وعليه أمر بقطع رأسها . بعد أحد عشر يوما ، تزوج هنري مرة أخرى ، بيد أن زوجته ماتت قبل أن يقوم بإعدامها . طلق هنري الزوجة الرابعة وتزوج بخامسة ، والتي أمر بقطع رأسها كذلك . أما الزوجة السادسة فقد عاشت إلى ما بعد موته .

أما بالنسبة إلى الامبراطور تشارلز الخامس ، فقد سئم امبراطوريته الشاسعة ، بكل مشاكلها والفوضى التي تحيق بها ، وكل المعارك المتوحشة المتزايدة التي تتم باسم الدين . أمضى الامبراطور حياته محاربا : ضد الأمراء الألمان والذين كانوا أتباعا للوثر ، ضد البابا ، ضد ملوك إنجلترا وفرنسا ، وضد الأتراك الذين قدموا من الشرق في 1453 حيث احتلوا القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، لينطلقوا بعدها لتدمير هنغاريا وصولا إلى مداخل فيينا ، عاصمة النمسا في 1529 ، والتي حاصروها من دون نجاح .

وكونه قد سئم امبراطوريته ، بشمسها التي لا تغيب ، نصب تشارلز الخامس أخاه فيرديناند حاكما على النمسا وامبراطورا على ألمانيا ، كما أعطى إسبانيا وهولندا لابنه

فيليب . بعدها انسحب تشارلز ، في 1556 ، شيخا عجوزا ومحطما ، إلى دير سان جيرونيمو الإسباني ، حيث يقال إنه كان يقضي وقته هناك في إصلاح ونظم كل الساعات . لقد أراد أن تُقرع أجراس هذه الساعات جميعها في وقت واحد . عندما فشل في ذلك ، تخبرنا القصة أنه قال : «كيف عزمت سابقا على محاولة توحيد كل شعوب امبراطوريتي ، عندما لم أنجح ، ولو لمرة ، في أن أقنع بضع ساعات بأن تطلق أجراسها معا» . هكذا مات تشارلز وحيدا وساخطا ، أما بالنسبة إلى ساعات امبراطوريته السابقة ، فكلما دقت معلنة مرور ساعة ، كانت أجراسها تتباعد أكثر فأكثر .

29

الكنيسة في حالة حرب

«في عصر الإمبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية هي لغة العالم . الآن ، على العالم أن يتعلم الإنجليزية»

المؤلف

في إحدى المعارك بين الإمبراطور تشارلز الخامس والملك الفرنسي فرانسيس الأول ، أصيب فارس إسباني شاب إصابة خطيرة . كان اسمه إغناطيوس من لويولا . في فترة تشافيه الطويلة المؤلمة فكر هذا الفارس عميقا في حياته السابقة كرجل شاب نبيل ، انغمس في قراءات من الإنجيل ومن حيوات القديسين . وبينما يفعل ذلك ، خطرت له فكرة تغيير حياته . سيستمر في كونه محاربا كما كان في السابق دوما ، غير أنه سيخدم قضية مختلفة تماما : إنها قضية الكنيسة الكاثوليكية ، كونها معرضة للخطر بسبب لوثر ، زوينغلي ، كالفين ، وهنري الثامن .



لكن عندما تعافى أخيرا، لم ينطلق ببساطة ليحارب في واحدة من الحروب العديدة التي تفجرت بين اللوثريين والكاثوليكيين. لقد انضم إلى الجامعة. هناك، بحث إغناطيوس، وفكر مليا، ليعد نفسه للمعركة التي اختار أن يخوض، فقد بدا واضحا له أنه إن كنت تريد أن تُخضع الآخرين فعليك أولا أن تُخضع نفسك. وعليه، وبصرامة لا يمكن تخيلها، عمل إغناطيوس على تحسين نفسه، نوعا ما كما فعل بوذا ولكن بهدف مختلف في الاعتبار. مثل بوذا، أراد إغناطيوس أن يخلص نفسه من كل رغباتها. غير أنه عوضا عن محاولة التخلص من كل الآلام الإنسانية هنا على الأرض، أراد إغناطيوس أن يكرس نفسه، جسدا وروحا، لخدمة الكنيسة. بعد سنوات من التمرين، وصل إلى مرحلة استطاع من خلالها أن يمنع نفسه وبنجاح من التفكر في أفكار معينة، أو، إذا رغب، أصبح باستطاعته أن يتخيل شيئا بوضوح جلي في ذهنه وكأنه يراه أمامه. كان استعداده قد اكتمل، ولم يتوقع استعدادا أقل من أصدقائه. وعندما بلغوا جميعا القدرة ذاتها على التحكم الحديدي في أفكارهم، كونوا أخوية رهبانية تدعى جمعية يسوع، حيث كان أعضاؤها يعرفون باليسوعيين (الجزويت).

قدمت هذه المجموعة الصغيرة المكونة من النخبة المثقفة نفسها إلى البابا للعمل من أجل الكنيسة، وفي 1540 تم قبول عرضهم. بدأت معركتهم فورا باستخدام كل قوة واستراتيجيات الحملات العسكرية. كان أول ما فعلوه هو أن عالجوا الانتهاكات التي أدت إلى الخلاف مع لوثر. في تجمع عظيم للكنيسة أقيم في ترينت بجنوب تايرول، والذي استمر من 1545 إلى 1563، تم الاتفاق على تغييرات وإصلاحات عززت من قوة ومهابة الكنيسة. الآن، سيعود القساوسة لكونهم قساوسة، لا أمراء

يحيون حياة باذخة ، ستوجه الكنيسة عنايتها إلى الفقراء ، وقبل كل شيء ستتخذ الكنيسة خطوات لتثقيف الناس . وهنا حقق اليسوعيون ، كخدام مخلصين مدربين ومثقفين للكنيسة ، ذواتهم . فكمعلمين يمكنهم نشر أفكارهم ليس فقط بين العامة ، ولكن بين النبلاء كذلك ، من خلال تدريسهم في الجامعات . ولم ينتشر نفوذهم فقط من خلال عملهم كمعلمين ووعاظ دين في الأراضي البعيدة ، بل كثيرا ما كان يتم تعيينهم في بلاطات الملوك ككهنة للاعتراف كذلك . وحيث إنهم كانوا رجالا ذوي ذكاء وفطنة ، مدربين على قراءة الأنفس ، فقد تم تعيينهم في أفضل المناصب للتأثير على وتوجيه قرارات رجالات الدولة الاقوياء .

هذه الحركة لإعادة إحياء التقوى القديمة ، ليس من خلال الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن من خلال تجديدها ، ومن ثم التحدي الفعال لحركة الإصلاح ، هذه الحركة تعرف بحركة مكافحة الإصلاح . أصبح الناس غاية في التزمت والصرامة خلال هذه الفترة من الحرب الدينية ، لربما بتزمت وصرامة إغناطيوس من لويولا . اختفت بهجة الفلورنسيين بعظمة وفخامة قادتهم ، ومرة أخرى أصبح ما يريده الناس من أي رجل هو التقوى والاستعداد لخدمة الكنيسة . توقف النبلاء عن ارتداء الأثواب الفضفاضة الزاهية ، حيث أصبحوا الآن يشبهون الرهبان في أثوابهم الضيقة السوداء قاسية الملمس ذات الأطواق البيضاء ، والتي تتدلى فوقها وجوههم الكئيبة المكفهرة بلحاهم المدببة . كان كل نبيل يحمل سيفا في حزامه متحديا كل من يهين شرفه بدعوته للمبارزة .

كان هؤلاء الرجال ، بتعابيرهم الحذرة المرسومة وشكلياتهم الصارمة ، محاربين أشداء لا مثيل لإصرارهم عندما يحاربون من أجل معتقداتهم . لم تكن ألمانيا البلد الوحيد الممزق بالصراع بين الأمراء البروتستانتيين والكاثوليك . أكثر الحروب شراسة كانت تلك التي في فرنسا ، حيث كان البروتستانتيون يعرفون باسم الهوغونوتيين Huguenots أو المسيحيين الفرنسيين . في 1572 دعت الملكة كل نبلاء المسيحيين الفرنسيين إلى حفل زفاف في البلاط الملكي ، وفي ليلة القديس بارثولوميو أمرت باغتيالهم جميعا . هكذا كانت الحروب في تلك الأيام .

لم يكن أحد أشد صرامة أو أشد تصلبا في الرأي أو أشد قسوة من قائد جميع الكاثوليكيين . كان ملك إسبانيا فيليب الثاني ابنا للامبراطور تشارلز الخامس . كان

بلاطه رسميا صارما ، كل حركة فيه منظمة : من الذي يجب أن يركع عند رؤية الملك ومن يمكنه أن يلبس قبعة في حضرته ، بأي ترتيب تتم خدمة هؤلاء الجالسين للعشاء على الطاولة الملكية ، وبأي ترتيب يدخل النبلاء لحضور قداس الكنيسة .

كان الملك فيليب قائدا ذا ضمير حي ، أصر على التعامل مع كل قرار بل كل رسالة بنفسه . كان يعمل من الفجر حتى المساء مع مستشاريه ، والذين كان العديد منهم رهبانا . كان هدفه في الحياة ، كما كان يراه ، أن يقتلع كل مظاهر عدم الإيمان من جذورها . في دولته ، أحرق آلاف الناس على العواميد بتهمة الهرطقة - ليس فقط البروتستانتيون ، ولكن اليهود والمسلمين والذين عاشوا هناك منذ الزمن الذي كانت فيه إسبانيا تحت حكم العرب . وحيث إنه اعتقد نفسه الحامي والمدافع عن الدين ، تماما كما فعل الامبراطور الألماني قبله ، فقد جمع قواته بقوات أسطول فينيسي وهاجم الأتراك ، والذين لم تتوقف قوتهم البحرية عن التنامي منذ احتلالهم القسطنطينية . انتصرت القوات المتحالفة المسيحية ، حيث دمر الأسطول التركي تماما في ليبانتو في 1571 .

أما حربه ضد البروتستانتيين فقد كانت أقل نجاحا ، ربما يكون قد حالفه النجاح في القضاء عليهم في الديار بإسبانيا ، غير أن هذه لم تكن الحال في الأماكن الأخرى . فكما كانت الحال زمن والده ، فإن البلدان المنخفضة (بلجيكا وهولندا) كانت كذلك جزءا من امبراطوريته ، حيث كان الكثير من المواطنين المقيمين هناك من البروتستانتيين ، وخاصة في المدن الشمالية الغنية . حاول فيليب عمل كل ما في وسعه ليجبرهم على التخلي عن دينهم ، بيد أنهم لم يستسلموا له . وعليه ، فقد أرسل نبيلا إسبانيا ليصبح حاكما عليهم ، والذي كان أكثر تعصبا وصرامة من فيليب بحد ذاته . كان دوق ألبا ، بوجهه النحيف الشاحب ، ولحيته الهزيلة المدببة ونظرته الجليدية ، تماما من هذا النوع من المحاربين الذي يفضله فيليب . بدم بارد ، حكم دوق ألبا على عدد كبير من المواطنين والنبلاء بالإعدام شنقا . وأخيرا ، نفد صبر الناس ، حيث قامت معركة دموية عنيفة انتهت في 1579 بتحرير كل المدن البروتستانتية في البلدان المنخفضة وطرد القوات الإسبانية منها . الآن ، كمدن حرة وغنية ومستقلة ومقدامة ، يستطيعون هم كذلك تجربة حظهم عبر البحار ، في الهند وأمريكا .

إلا أن أقسى هزائم ملك إسبانيا فيليب الثاني كانت لاتزال قادمة في الطريق . ففي إنجلترا ، كانت الملكة اليزابيث الأولى ، ابنة الملك هنري الثامن ، تجلس على العرش . كانت إليزابيث غاية في الذكاء ، قوية الإرادة وحازمة ، غير أنها كانت مغرورة قاسية . كانت مصرة على الدفاع عن إنجلترا ضد الكاثوليكيين الكثر الذين كانوا لا يزالون متواجدين في البلاد والذين عذبتهم بلا هوادة . كانت قريبتها ، ميري ستيوارت ، ملكة أسكتلندا الكاثوليكية ، امرأة ذات سحر وجمال عظيمين ، وقد كانت هي كذلك تؤمن بحقها في العرش الإنجليزي . قامت اليزابيث بحبسها ومن ثم إعدامها ، كما ساعدت اليزابيث المواطنين البروتستانتيين في البلدان المنخفضة في حربهم ضد فيليب ملك إسبانيا . استشاط فيليب غضبا ، حيث صمم على الاستحواذ على إنجلترا وإعادتها للكاثوليكية أو تدميرها تماما .

وقد قام بتأسيس أسطول ضخم بتكلفة مهولة ، مكون من 130 سفينة شراعية هائلة محملة بما يقرب من ألفي مدفع وما يزيد على عشرين ألف رجل . قد تقرأ الكلمات بسرعة ، ولكن حاول أن تتخيل 130 سفينة شراعية في البحر . كان هذا هو الأسطول الحربي (الأرمادا) الذي لا يقهر . عندما بدأ الأسطول في الإبحار من إسبانيا في 1588 ، محملا بالمدافع الثقيلة والأسلحة والأطعمة والمؤن التي تكفي لستة أشهر ، بدا من الاستحالة أن تنجح جزيرة إنجلترا الصغيرة في مقاومة مثل هذه القوة العظيمة ، بيد أن هذه السفن الحربية المحملة الثقيلة كانت بطيئة وعصية على المناورات . تفادى الإنجليز المواجهة ، وتحركوا كرا وفرا في سفنهم الخفيفة ، مهاجمين السفن الإسبانية . في إحدى الليالي قاموا برمي طلقات نارية في قلب الأسطول الإسباني ، حيث نشروا الذعر والإرباك في الأسطول وفرقوه في كل الاتجاهات . انحرفت العديد من السفن على طول الشاطئ الإنجليزي ثم غرقت في عواصف عنيفة . بالكاد تمكن نصف أسطول الأرمادا من العودة للديار حيث لم تنجح ولا سفينة واحدة في الرسو على شاطئ إنجليزي . لم يظهر فيليب أي علامة على خيبة أمله . يقال إنه استقبل قائد الأسطول بحرارة وشكره قائلا : «على كل ، أنا أرسلتك لتحارب رجالا وليس عواصف وأمواجا» .

إلا أن الإنجليز لم يطاردوا الإسبان خارج مياههم فقط ، لقد قاموا بمهاجمة سفن التجارة الإسبانية على الشواطئ الأمريكية والهندية ، وبمساعدة الهولنديين ، فإنهم

سرعان ما حلوا محل الإسبان في العديد من الموانئ التجارية الغنية . فبدءا من أمريكا الشمالية ووصولا إلى شمال المستعمرات الإسبانية ، أقام هؤلاء محطات تجارية عدة تماما كما فعل الفينيقيون ذات مرة ، ولجأ العديد من الرجال والنساء الإنجليز الذين اضطُهدوا أو نُفوا خلال الحروب الدينية إلى تلك المحطات حيث وجدوا الحرية .

في الواقع ، لم تكن الموانئ ولا مراكز التجارة الهندية تحت الحكم الإنجليزي والهولندي ، بل كانت محكومة من قبل تجار هذين البلدين الذين تكاتفوا للمتاجرة ولجلب الكنوز من الجزر الهندية إلى أوروبا . كانت هذه التجمعات من التجار تعرف بشركات الهند الشرقية . كانوا يستأجرون الجنود ويرسلونهم إلى داخل البلاد ، حيث يقومون بمعاقبة المواطنين المحليين غير المطيعين والذين يرفضون التخلي عن بضائعهم بأسعار زهيدة . هذه المعاملة تجاه هنود الهند كانت أفضل بعض الشيء من تلك التي أبداها الفاتحون الإسبان تجاه هنود أمريكا . في الهند كذلك ، كانت السيطرة على المقاطعات الساحلية من قبل التجار الإنجليز والهولنديين شديدة السهولة نظرا إلى غياب الوحدة بين الأمراء الهنود . عندها ، سرعان ما بدأت شعوب أمريكا الشمالية والهند في استخدام لغة جزيرة صغيرة على الساحل الشمالي الغربي لفرنسا . كانت هذه الجزيرة هي إنجلترا ، امبراطورية عالمية جديدة في طور التشكيل . في عصر الامبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية هي لغة العالم . الآن ، على العالم أن يتعلم الإنجليزية .

30

أوقات عصيبة

«فوق كل هذا الشقاء واليأس ، بدأ جنون مرعب في إصابة أعداد متزايدة من الناس : إنه الخوف من التعويذات الشريرة ، من الشعوذة والسحر»

المؤلف

في مقدوري ، لو رغبت ، أن أكتب فصولا عدة أخرى حول الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت . غير أنني لن أفعل . لقد كان عصرا مريعا . فسرعان ما تداخلت الأحداث حتى لم يعد الناس يفقهون لمَ أو ضد من يحاربون . لم يكن للأباطرة الهابيزبيرغيين الألمان ، والذين يحكمون أحيانا من براغ وأحيانا من فيينا ، أي قوة حقيقية خارج النمسا وجزء من هنغاريا . لقد كانوا رجالا أتقياء طمحوا إلى استعادة عظمة الكنيسة الكاثوليكية في جميع أنحاء امبراطوريتهم . بيد أنهم سمحوا للبروتستانتيين ، ولفترة محددة من الزمن ، بإقامة شعائرهم الدينية ، إلى أن ، انفجرت ثورة في بوهيميا ذات يوم .

في 1618 ، ألقى بروتستانتيون ساخطون بثلاثة من مستشاري الامبراطور الكاثوليكيين من نافذة قلعة براغ . سقط هؤلاء على كومة

روث للحيوانات ، ولم يصبهم أذى كبير ، غير أن هذا الحدث - المعروف بوصف Defenestration of Prague (حادثة القذف من النافذة في براغ) - أعطى إشارة البدء في حرب مريعة استمرت لثلاثين سنة . ثلاثون سنة . تخيل ! لو سمع أحدهم بحادثة القذف وهو في العاشرة من العمر ، كان عليه أن ينتظر حتى بلوغ الأربعين ليختبر السلام . هذا لو عرفه أصلا ، حيث سرعان ما تحولت الحرب إلى مجزرة وحشية حين عبثت جحافل من الجنود قليلي الأجور من الدول البعيدة والقريبة بالديار ، ينهبون ويقتلون . كانت غنائم عمليات النهب هي ما جذب أكثر الرجال وحشية ودناءة من كل الأمم إلى صفوف هذه الجيوش . أصبح الإيمان بالمعتقد طي النسيان . حارب البروتستانتي في الجيوش الكاثوليكية ، والكاثوليكي في الجيوش البروتستانتية . عانى الأصدقاء والأعداء على حد سواء من جشع هؤلاء . فأينما كانوا يضربون خيامهم ، كانوا يطالبون بالطعام ، وقبل كل شيء بالشراب من الفلاحين المحليين . فإذا ما رفض أحد الفلاحين إعطاءهم ما يريدون ، فإنهم يستولون عليه بالقوة أو يقومون بقتله . في ملابسهم المرقعة بالخرق وقبعاتهم الضخمة ذات الريش ، بسيوفهم متدلية من أحزمتهم وبنادقهم الحاضرة للاستخدام ، كانوا يتجولون في المدن ، فيحرقون ويقتلون ويروعون الفلاحين العزل المسالمين بدافع من شرور أنفسهم وفسقهم الخالصين . لم يكن لشيء أن يوقفهم . كان قائدهم هو الشخص الوحيد الذي يطيعونه ، وإذا ما فاز بمحبتهم ، فإنهم يتبعونه بإخلاص أعمى .



أحد هؤلاء القادة في صفوف الامبراطور كان يدعى والينستين ، والذي كان نبيلا قرويا فقيرا ذا طموح وقدرات عالية . قاد والينستين جيوشه إلى شمال ألمانيا ليسيطر على المدن البروتستانتية . وبفضل مهارته واستراتيجياته ، أوشكت الحرب أن تُحسم لمصلحة الامبراطور والكنيسة الكاثوليكية . غير أن دولة جديدة دخلت في هذا الصراع . كانت

تلك هي السويد التي كانت تحت إمرة حاكمها القوي الورع البروتستانتي غوستافوس أدولفوس . كان هدف أدولفوس هو انقاذ المعتقد البروتستانتي وتأسيس امبراطورية بروتستانتية عظيمة تحت قيادة السويد . أعاد السويديون الاستيلاء على شمال ألمانيا ، وكانوا في طريقهم إلى النمسا عندما سقط غوستافوس أدولفوس في المعركة ، في العام 1632 (السنة الرابعة عشرة من هذه الحرب المروعة) . وعلى الرغم من ذلك ، وصل العديد من كتائبه إلى أطراف فيينا حيث أعملوا فيها الخراب .

انضمت فرنسا كذلك إلى الحرب . الآن قد تعتقد أن الفرنسيين ، بما أنهم كاثوليك ، سيأخذون جانب الامبراطور ضد البروتستانتيين في شمال ألمانيا والسويد . بيد أن الحرب كانت قد توقفت عن كونها حربا دينية منذ زمن طويل . كل دولة كانت تتطلع للحصول على كل ما يمكن أن تحصل عليه في غمرة هذا الارتباك العام . وحيث إن حاكمي بيت هابيزبيرغ ، امبراطور ألمانيا وملك إسبانيا ، كانا القوتين المسيطرتين في أوروبا ، سعى الفرنسيون ، تحت قيادة وزيرهم خارق الذكاء ، الكاردينال ريشيليو ، إلى استغلال الموقف لتمكين فرنسا من أن تصبح قوة أوروبا العظمى . وكان هذا هو السبب في أن حارب جنود فرنسا ضد جنود الامبراطور .

في تلك الأثناء أصبح والينستين ، كونه جنرال الامبراطور ، في قمة سطوته . كان جيشه يقدسه ، حيث حارب جنوده الأشداء من أجله ومن أجل تحقيق أهدافه عوضا عن أن يحاربوا من أجل الامبراطور أو المعتقد الكاثوليكي ، حيث كانوا غير مبالين بكليهما . على أثر ذلك ، أصبح والينستين يرى نفسه أكثر فأكثر الحاكم الشرعي . فمن دونه ومن دون قواته كان الامبراطور ضعيفا عاجزا . لذا فإنه اتخذ قرارا شخصيا بإجراء محادثات مع العدو حول اتفاق سلمي محتمل ، متجاهلا كل أوامر الامبراطور . قرر الامبراطور أن يعتقله ، غير أنه في العام 1634 ، وقبل أن يتمكن من تحقيق ذلك ، قُتل والينستين على يدي قائد إنجليزي كان في يوم صديقه .

على الرغم من كل ذلك ، استمرت الحرب لأربع عشرة سنة إضافية ، لتصبح أكثر وحشية ودموية . قرى كاملة أُحرقت ، مدن نُهبت ، نساء وأطفال قُتلوا وسُرقوا وخُطفوا . بدا أنه لانهاية لكل ذلك . استولى الجنود على ماشية الفلاحين وسحقوا محاصيلهم . حولت المجاعة والأوبئة وقطعان الذئاب المتجولة مساحات شاسعة من ألمانيا إلى أرض خراب . وبعد كل هذه السنوات من المعاناة المزرية ، اجتمعت وفود الحكام المتعددين أخيرا في العام 1648 ، وبعد محادثات طويلة ومعقدة ، اتفقوا على صيغة سلام أعادت الظروف بشكل أو بآخر إلى ما كانت عليه في البداية ، قبل أن تبدأ حرب الثلاثين سنة . فما

كان بروتستانتيا سيبقى بروتستانتيا. وستبقى الأراضي التي يحكمها الامبراطور، النمسا، هنغاريا، وبوهيميا، كاثوليكية. وبموت غوستافوس أدولفوس، خسرت السويد معظم نفوذها الذي كانت قد اكتسبته، حيث بقيت متمسكة فقط ببعض الأراضي التي كانت قد احتلتها في شمال ألمانيا وعلى الساحل البلطي. كانت وفود الكاردينال ريشيليو هي الوحيدة التي نجحت في تأمين عدد من القلاع والمدن الألمانية بالقرب من الراين لمصلحة فرنسا، مما جعل من الوزير الفرنسي المراوغ المنتصر الحقيقي الوحيد في حرب لم تكن تعنيه أصلا.

كانت ألمانيا محطمة، فبالكاد نجا نصف سكانها، وهؤلاء كانوا معدمين تماما. غادر الكثيرون منهم إلى أمريكا، فيما حاول آخرون التطوع في الجيوش الأجنبية، حيث لم يكونوا يعرفون شيئا في الحياة غير الحرب.

وفوق كل هذا الشقاء واليأس، بدأ جنون مرعب في إصابة أعداد متزايدة من الناس: إنه الخوف من التعويذات الشريرة، من الشعوذة والسحر. كان الناس يؤمنون بالخرافات في العصور الوسطى، حيث كانوا يعتقدون في أشياء مثل الغول والأشباح، كما قد تتذكر، غير أن الوضع لم يبلغ سوءا مثل هذا.

بدأت الأمور تأخذ منحى أسوأ في عصر البابوات المحبين للسيطرة والفخامة، العصر الذي نعرفه باسم عصر النهضة، عندما كانت كنيسة القديس بيرت الجديدة في طور البناء وصكوك الغفران معروضة للبيع. لم يكن هؤلاء البابوات أتقياء، بيد أن ذلك جعلهم أكثر إيمانا بالخرافات. كانوا يخافون الشيطان وكل أنواع السحر التي يمكن تخيلها. حيث كان كل واحد من البابوات الذين عاشوا في القرن السادس عشر والذين ترتبط أسماؤهم بأجمل الأعمال الفنية مسؤولين كذلك عن المراسيم المرعبة والتي تدعو إلى مطاردة واصطياد الساحرات والسحرة من دون أي رحمة، خاصة في ألمانيا.

قد تتساءل: كيف يمكن مطاردة شيء غير موجود ولم يكن في يوم موجودا أبدا. هذا تحديدا ما جعل الوضع غاية في السوء. فإذا ما كانت هناك امرأة غير محبوبة في قريتها، ربما لغرابة أطوارها، أو كونها تتسبب شيئا من الضيق للناس، فإن أي شخص يمكنه أن يقول فجأة «هذه المرأة ساحرة! إنها السبب في تلك العواصف البردية التي تجتاحنا!» أو «أنها هي التي تتسبب في آلام الظهر» (في الواقع، لايزال الناس يستخدمون، في كل من اللغة الإيطالية والألمانية، تعبير «أذى الساحرة» عند حديثهم عن آلام الظهر). بعدها يتم اعتقال المرأة والتحقيق معها، حيث يسألونها إن كانت في حلف معين مع الشيطان. بالطبع، فإن هذه المرأة ستكون مرعوبة وستنكر هذه التهمة. غير أنهم سيعذبونها ويشوشون تفكيرها

لفترة طويلة وبأسلوب مروع ، حتى إنها ، وبعد أن تصل إلى حالة كأنها نصف ميتة من الألم ، ستعترف بأي شيء يأسا . هنا ينتهي الأمر . فبما أنها اعترفت بكونها ساحرة ، فسيتم إحراقها حية . عادة ، وبينما هي تحت التعذيب ، سيسألونها إذا ما كانت هناك ساحرات أخريات يمارسن السحر معها . وفي لحظات ضعفها قد تتفوه بأي اسم يخطر على بالها ، آملة أن يتوقف عذابها . بعدها يتم اعتقال أخريات بدورهن وتعذيبهن حتى يعترفن ومن ثم يحرقن . كان الخوف من الشيطان والسحر شائعا في تلك الفترة البغيضة بعد حرب الثلاثين سنة . في المقاطعات الكاثوليكية والبروتستانتية على حد السواء ، حُرق الآلاف والآلاف من الناس ، حيث عجز القليل من القساوسة اليسوعيين الذين احتجوا ضد هذا الجنون ، عن إيقافه . عاش الناس في تلك الأيام في خوف دائم من المجهول ، من القوى السحرية ومن الأعمال الشيطانية . هذا الخوف يفسر بعض الفظاعات التي ألحقت بالآلاف من الأبرياء .

إلا أنه ما كان رائعا بحق ، على الرغم من كل ذلك ، هو أنه في ذلك الوقت الذي كان الناس فيه بقمة إيمانهم بالخرافات ، كان لايزال هناك البعض الذين لم ينسوا آراء ليوناردو دافينشي وغيره من الفلورنسيين العظماء ، هؤلاء الناس الذين استمروا في استخدام أعينهم لكي يتمكنوا من رؤية العالم وفهمه . هؤلاء هم من اكتشف السحر الحقيقي ، سحرا يسمح لنا بالنظر في الماضي والنظر في المستقبل ، يمكننا من معرفة تكوين نجم يبعد مليارات الأميال عنا والتنبؤ الدقيق بالموعد القادم لكسوف الشمس ومن أي المواقع على الكرة الأرضية سيكون مرئيا .

كان هذا السحر هو علم الرياضيات . بالطبع ، لم يخترع هؤلاء الناس هذا العلم ، فلطالما كان التجار قادرين على الجمع والطرح . غير أنهم أصبحوا أكثر إدراكا لعدد الأشياء الموجودة في الطبيعة والمحكومة بالقوانين الحسابية . كيف للساعة ببندول بطول 981 ملليمترا أن تحتاج تحديدا لثانية واحدة لكل أرجحة ، وما أسباب ذلك . أطلقوا على مثل هذه الأمور قوانين الطبيعة . كان ليوناردو دافينشي قد قال مسبقا بأن «الطبيعة لا تكسر قوانينها» . وعليه فقد كان معلوما وعن يقين أنه إذا ما أَخَذْت أي حدث طبيعي فقمت بقياسه وتسجيل نتيجته بدقة ، فإنك ستكتشف أنه ، في وجود الظروف ذاتهما ، ستكون النتيجة دوما ذاتها ، فبكل تأكيد ، مهما تم تكرار الحدث فلا يمكن للنتيجة أن تكون مختلفة . كان هذا اكتشافا مذهلا ، وسحرا أعظم بكثير من ذاك الذي ألصق بأولئك الساحرات البائسات . فالآن ، الطبيعة بأكملها ، النجوم وقطرات الماء ، الصخور المتساقطة وأوتار الكمان المتذبذبة ، لم تعد جميعها عقدة واحدة غير مفهومة ترعب الناس وتقلقهم . إذا ما عرفت الصيغة الحسابية الصحيحة ، تكون لديك رقية سحرية لكل شيء . يمكنك أن تقول لوتر الكمان :

«لتصدر نغمة A ، لابد لك أن تكون بهذا الطول ومشدودا بذلك القدر وأن تتحرك إلى الأمام والخلف 435 مرة في الثانية» . وستبرهن النغمة الصادرة عن الوتر صحة كلامك .

كان أول من فهم القوة السحرية الخارقة لتطبيق الحسابات الرياضية على الأشياء في الطبيعة هو إيطالي يدعى غاليليو غاليلي . كرس غاليليو العديد من السنوات للملاحظة وتحليل ووصف مثل هذه الحسابات عندما ، أبلغ عنه أحدهم ذات يوم لأنه كتب تحديدا ما لاحظه ليوناردو ولكن لم يفسره . ما كتبه كان التالي : الشمس لاتتحرك ، على العكس ، انها الأرض التي تتحرك حول الشمس بصحبة بقية الكواكب . كان هذا الاكتشاف قد تحقق سابقا على يدي عالم بولندي يدعى كوبرنيكس ، وذلك بعد سنوات عدة من الحسابات الرياضية . تم نشر هذا الاكتشاف في العام 1543 ، ولم يمض وقت طويل على موت ليوناردو وقبل موت كوبيرنيكس ذاته بفترة قصيرة ، إلا أنه تم شجب النظرية على أنها هرطقة مخالفة للمسيحية وذلك من قبل الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . أشار هؤلاء إلى فقرة في العهد القديم يطلب فيها جوشوا ، المحارب العظيم ، من الرب ألا يسمح للظلام بالهبوط حتى يُدمر عدوه . في استجابه لصلواته ، نقرأ : «توقفت الشمس ساكنة والقمر صمت ، حتى انتقم الناس لأنفسهم من أعدائهم» . اعتقد الناس أنه إذا ما قال الإنجيل بأن الشمس توقفت بسكون ، فإن الشمس لا بد أن تكون متحركة بطبيعتها ، وأن يقال بأن الشمس لاتتحرك كان ذلك هرطقة تعارض ما جاء في الإنجيل . وعليه ، ففي 1632 وعندما كان تقريبا في السبعين من عمره ، استُدعي غاليليو ، الذي كرس حياته للبحث العلمي ، أمام المحكمة الدينية والمعروفة باسم محكمة التفتيش ، حيث أجبر على الاختيار بين أن يُحرق بتهمة الهرطقة أو أن ينكر نظريته الخاصة بدوران الأرض حول الشمس . وقع غاليليو بيانا يقول فيه بأنه آثم مسكين حين قال بأن الأرض تدور حول الشمس . كانت هذه هي الطريقة التي تفادى بها عقوبة الحرق ، والتي كانت مصير الكثير من أسلافه . غير أنه ، بعد أن وقع هذا البيان ، يقال إنه تمتم قائلا «إلا أنها تدور» .

بيد أن كل هذه الأفكار الثابتة لم تستطع في النهاية أن تمنع أفكار ومنهجيات وكل اكتشافات غاليليو من التأثير على أعداد متزايدة من الناس وإلهامهم . وإذا ما استطعنا اليوم ، بفضل الصيغ الحسابية ، أن نجعل الطبيعة تعمل ما نريد ، حتى أصبح لدينا التلفون والطائرة والكمبيوتر ، وكل أنواع التكنولوجيا المعاصرة الأخرى ، فإننا يجب أن نكون ممتنين لكل هؤلاء الذين بحثوا في القوانين الرياضية للطبيعة ، مثل غاليليو ، في وقت كان هذا العمل فيه يساوي في خطورته أن تكون مسيحيا في زمن نيرون .

31

ملك منحوس وملك محظوط

«أن ترتدي ملابسك مثل الملك ، أن تحمل عصاك مثله ، أن تعتمر قبعتك كما يفعل ، كان ذلك هدف كل رجال البلاط»

المؤلف

كانت الدولة المهمة الوحيدة التي لم تشارك في حرب الثلاثين سنة هي إنجلترا . يا لحظ الإنجليز ، لك أن تقول . لكنهم كانوا يمرون بأوقات عصيبة كذلك ، حتى إن كانت النهاية ، عندما جاءت ، على غير درجة الدمار التي كانت في ألمانيا . الآن قد تتذكر أنه في 1215 وقع ملك إنجلترا جون ميثاق الحريات العظيم ، الماغنا كارتا ، والذي قدم فيه وعدا رسميا بأنه هو وخلفاءه لن يتصرفوا مطلقا من دون مشاورة البارونات والنبلاء أولا . على مدى أربعمائة سنة حافظ الملوك الإنجليز على هذا الوعد ، بيد أنه عندما تولى ملك جديد ، وهو تشارلز الأول ، حفيد الملكة ماري ستيوارت التي قُطع رأسها ، العرش ، لم يكن راغبا في الالتزام بهذا الاتفاق . لم يعجبه أن يكون ملزما بمشاورة النبلاء والأعضاء المنتخبين في برلمانه . كان يفضل أن يحكم كما يشاء مما كلف الدولة الكثير من المال .



لـم يـرض الإنجليز عن هذه الحال مطلقـا . كان العديد منهم بروتسـتانتيين متعصبين صارمـين ، يدعـون البيوريتانيـين ، والذيـن كانـوا يحتقـرون بشـدة كل أشـكال الثـراء والتباهـي . كان قائدهـم في هذا الصـراع الذي تفجر بين مؤيـدي البرلمان ومؤيدي الملك والذي قسـم البلد إلـى نصفين فلاح وعضو برلمان يدعى أوليفـر كرومويل . (كان الناس يدعون مؤيدي كرومويل بلقب مسـتديري الـرؤوس (Roundheads) وذلك لأنهم كان يقصـرون شـعورهم ، على عكـس النبلاء ذوي الشـعور الطويلـة والذين كانوا يسـمون الموالين) . كان كرومويل رجلا عميق التدين وقائدا شـجاعا حازما وقاسـيا . كان جنوده مدربين تدريبا جيدا ومتحمسـين بشـكل لا يقل عنه . بعد معارك عدة ، تم اعتقال الملك ومثـل للمحاكمـة في ويستمينسـتر ، حيث تمـت ادانتـه بالخيانة العظمـى . رفض الملك الاعتـراف بالمحكمـة ، ولـم يبد أي محاولـة للدفاع عن نفسـه ، فقد كان يؤمـن بأن الرب وحده يمكن أن يكون قاضيا على ملك إنجلترا . حُكم على تشـارلز بالموت ، وفي 1649 قُطعت رأسـه . حكـم أوليفر كرومويـل إنجلترا بعدهـا ، ليس كملك ، ولكن كـ «القائد الأعلـى الحامي للكومنولث» كما كان يصف نفسـه . لم يكن ذلـك مجرد لقب ، حيث إنـه قام تحديـدا بعمل ما ورد فيه . فاتباعـا لخطى الملكة إليزابيث ، كرس كرومويل نفسـه لزيـادة قوة إنجلتـرا ، وذلك من خلال مسـتعمراتها في أمريكا ومسـتوطناتها التجارية في الهند ، وعن طريق بناء أسطول قوي وتوسعة التجارة البحرية ، كما فعل كل ما في وسعه لإضعـاف جيران إنجلترا من الهولنديين . لكن بعد وفاته ، سـرعان ما حكم الملوك إنجلترا من جديد . ولكن الحكومة أصبحت الآن أقل صعوبة في إدارتها عن السـابق واسـتمرت في التدرج في سـهولة إدارتها . ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ ملك إنجليزي آخر على خرق العهود القديمة المنصوص عليها في الماغنا كارتا .

كان الوضع أكثر سهولة بالنسبة إلى ملوك فرنسا . هناك ، لم يكن لديهم ميثاق عظيم . كما أنهم حكموا دولة مزدهرة جيدة الكثافة السكانية لا يحيق بها خطر الانهيار حتى بعد الحروب الدينية الفظيعة . ولكن ، فوق كل شيء ، كان الحاكم الفعلي لفرنسا في زمن حرب الثلاثين سنة هو ذلك الوزير الموهوب الذي لا يقهر ، الكاردينال ريشيليو . حقق الكاردينال لفرنسا على الأقل قدر ما حقق كرومويل لإنجلترا ، إن لم يكن أكثر . كان ريشيليو بارعا تحديدا في الانتصار على الفرسان والنبلاء . وبالمهارة والخديعة - مثل لاعب الشطرنج الجيد الذي يعرف كيف يستغل كل حركة محولا الفائدة الصغيرة إلى أخرى كبيرة - قلص ريشيليو من سلطاتهم حتى استطاع أن يستحوذ عليها جميعا لنفسه ، بما في ذلك ، كما رأيت ، سلطة فرنسا في أوروبا . وحيث إنه ساعد في إضعاف الإمبراطور الألماني في حرب الثلاثين سنة ، وحيث إن إسبانيا انتهت إلى الفقر وإيطاليا إلى التفكك ، وحيث إن إنجلترا لم تكن بعد عظيمة القوة ، فإنه بحلول وقت وفاة ريشيليو كانت فرنسا قد أصبحت الدولة المهيمنة في أوروبا . وبعد مرور سنة على وفاة الكاردينال ، في 1643 ، اعتلى الملك لويس الرابع عشر العرش . كان في الرابعة من عمره حينها ، ولايزال إلى اليوم الحائز على الرقم القياسي العالمي لمدة حكمه . حكم لويس حتى 1715 : أي لمدة اثنتين وسبعين سنة . والأكثر من ذلك ، لقد كان حاكما فعليا ، ليس بالطبع عندما كان طفلا ، ولكن حالما توفي الوصي عليه ، الكاردينال مازاران (كان مازاران خليفة الكاردينال ريشيليو) أصر لويس على أن يحكم بنفسه . ولقد أعطى أوامره بألا يُصدر أي جواز سفر لأي فرنسي إلا بموافقته هو . كان رجالات البلاط مستمتعين بتصرفاته ، معتقدين أن اهتمامه ليس أكثر من نزوة ملك صغير السن لا بد أن يتعب سريعا من الحكم ، لكنه لم يفعل . فبالنسبة إلى لويس ، لم تكن الملكية مجرد مصادفة ولادة . لقد كان الوضع أشبه بإعطائه دور البطولة في مسرحية يجب عليه أن يؤديها بقية حياته . لم يتعلم أحد من قبل أو منذ ذلك الحين هذا الدور بهذا الإتقان ، ولم يؤده أحد بهذا القدر من المهابة والالتزام بالقواعد حتى النهاية .

كل السلطات التي كانت في يد ريشيليو ، ولاحقا في يد مازاران ، استحوذ عليها لويس الرابع عشر الآن لنفسه . كان للنبلاء القليل من الحقوق بجانب مشاهدتهم له يؤدي دوره . كان هذا العرض الصارم - الذي يدعى بالنهوض (lever) - يبدأ باكرا ، في الثامنة صباحا ، عندما كان يتكرم بالاستيقاظ . كان يبدأ بالدخول إلى غرفة نومه الأمراء أصحاب الدم الملكي مصحوبين بالحاجب والطبيب . بعدها كانت تقدم له

باحتفالية كبيرة وعلى ركب محنية باروكتان مجعدتان مرشوشتان، مثل شعر الفرس المنساب. تبعا لمزاجه، كان يختار واحدة منهما، ومن ثم يُدخل نفسه في ثوب مهيب قبل أن يُجلس نفسه بجانب السرير. فقط عند هذه المرحلة، كان يُسمح للنبلاء في أعلى المراتب والدوقات بالدخول إلى غرفة نومه، وبينما تُحلق ذقن الملك، كان يدخل عليه أمناؤه وضباطه ومختلف مسؤوليه كل في دوره. بعدها كانت الأبواب تفتح على اتساعها للسماح بدخول حشود من كبار الشخصيات المهيبة - المارشالات، المحافظين، أمراء الكنيسة، والمفضلين عند الملك - حيث يحضرون جميعا للتحديق بإعجاب في المنظر المهيب لجلالة الملك وهو يرتدي ثيابه.

كان كل شيء منظما لآخر تفصيل دقيق. كان أعظم الشرف يتجلى في أن يؤذن لأحدهم ليقدم للملك قميصه، والذي تتم تدفئته بعناية أولا. كان هذا الشرف يخص شقيق الملك أو، في حال غيابه، الشخص التالي في المرتبة. كان الحاجب يمسك بأحد الأكمام، ويمسك دوق بالآخر، ليتمكن الملك من إدخال نفسه في القميص. وهكذا تستمر الطقوس، حتى يرتدي الملك ثيابه كاملة: جوارب حريرية زاهية الألوان، بنطالا حريريا قصيرا، صديريا مزركشا من الساتان، ووشاحا أزرق سماويا، بسيفه على جنبه، وبمعطف مطرز وياقة من الدانتيل يقدمها له مسؤول كبير يحمل لقب حارس ياقات الملك على صينية من الفضة. يغادر الملك بعدها غرفة نومه، بقبعة مريشة على رأسه وعصاة في يده، مبتسما أنيقا، ليدخل القاعة الكبرى ملقيا بتحية مهذبة طيبة على كل واحد من الموجودين، بينما يفغر الجميع أفواههم متطلعين إليه بتعابير مشدوهة معلنين أنه اليوم أجمل من إله الشمس أبولو، وأقوى من هرقل، بطل الإغريق القديم. لقد كان هو الشمس التي وهبها الله بحد ذاتها، الملك الشمس، والذي تعتمد الحياة بأكملها على دفئه ونوره. قد يبدو لك تماما مثل الفرعون حين تمت تسميته بابن الشمس. غير أنه كان هناك فرق واحد كبير. كان المصريون القدماء يصدقون ذلك بالفعل، بينما بالنسبة إلى لويس الرابع عشر كان الموضوع مجرد لعبة، حيث يعلم هو وكل الحاضرين أنها ليست أكثر من طقوس رسمية، أداء تمثيلي رائع تم التدرب عليه جيدا.

في حجرة الانتظار، بعد صلاة الصبح، كان الملك يعلن برنامج اليوم. تلي ذلك عدة ساعات من العمل الحقيقي الذي كان يقوم به لتكون له سلطة شخصية على كل شؤون الدولة. عدا ذلك، كانت هناك الكثير من رحلات الصيد، كما كانت هناك الحفلات الراقصة والعروض المسرحية التي يقدمها الشعراء والممثلون العظام، والتي كان

يستمتع بها البلاط ويحضرها الملك كذلك باستمرار . كان لكل وجبة مراسيمها التي لا تقل إرهاقا ومهابة عن تلك المسماة بالنهوض ، حتى إن إيواءه في السرير كان عرضا معقدا كعروض الباليه ، والذي ينتج عنه أحيانا بعض اللحظات الكوميدية . فعلى سبيل المثال ، كان على الجميع أن ينحنوا أمام سرير الملك ، مثل المؤمنين المخلصين أمام مذبح الكنيسة ، حتى عندما لا يكون الملك في سريره . ومتى ما كان الملك يلعب الورق أو يتجاذب أطراف الحديث كان هناك دوما أسراب من الناس الملتفة حوله على مسافة تحفظ احترامه ، متعلقين بكل كلمة يقولها .

أن ترتدي ملابسك مثل الملك ، أن تحمل عصاك مثله ، أن تعتمر قبعتك كما يفعل ، كان ذلك هدف كل رجال البلاط . أما هدف النساء فقد كان إسعاده ، حيث كن يلبسن أطواق الدانتيل والأثواب الأنيقة ذات الحفيف والمصنوعة من أغنى أنواع الأقمشة والمزينة بالأحجار الكريمة . كانت الحياة تدور حول البلاط تُؤدى كمشهد تمثيلي في أروع القصور التي رأتها عين إنسان . كانت القصور شغف لويس الرابع عشر الكبير . كان لديه قصر يدعى فيرساي بناه لنفسه خارج باريس . كان هذا القصر بحجم مدينة تقريبا ، بعدد لا يحصى من الغرف المكسوة بالذهب والدمقس(*) وثريات الكريستال والآلاف من المرايا وأثاث كان جميعه منقوشا بالذهب ومنجدا بالمخمل والحرير . تزينت حوائط القصر بالعديد من اللوحات الرائعة حيث يمكن للناس أن يروا لويس بهيئات مختلفة ، تظهره إحداها مرتديا لباس أبولو وهو يقبل البيعة من كل شعوب أوروبا . ما كان أعظم من القصر نفسه هو حديقته ، كان كل ما فيها خلابا ، كل جزء منها مدروس ومتكلف . ليس لشجرة أن تنمو تلقائيا ، ولا لشجيرة أن تحتفظ بشكلها الطبيعي . كان كل ما هو أخضر يُقص ويُشذب ويصاغ في حوائط من أوراق الشجر الخضراء ، في أسيجة مقوسة ، مروج شاسعة ، مشاتل أزهار حلزونية ، وطرق مشجرة ومدرجات ، تتناثر في جوانبها التماثيل والبحيرات والنوافير . وحيث إنهم مجبرون على أن يمضوا حياتهم في البلاط الملكي ، كان الدوقات العظماء في ذلك الوقت يتمشون ، بصحبة سيداتهم ، صاعدين وهابطين الممرات المفروشة بالحصى ، متبادلين عبارات ذكية لماحة حول الطريقة التي أدى بها السفير السويدي انحناءته أخيرا ، وأشياء أخرى على هذا المنوال .

تخيل تكلفة مثل هذا القصر ومثل طريقة الحياة تلك ! كان للملك وحده مائتا خادم ، وكانت تلك فقط بداية قصة البذخ . غير أن لويس الرابع عشر كان محاطا بوزراء أذكياء ،

(*) نوع فاخر من الأقمشة مكون أساساً من الحرير والساتان [المترجمة] .

وفي الغالب كانوا رجالا ذوي أصول متواضعة تم اختيارهم على أساس من قدراتهم البارزة. كان كل هؤلاء الرجال خبراء في استخراج الأموال من البلد. كانوا يحرصون على التحكم الشديد في التجارة الخارجية حيث كانوا يشجعون المهارات والصناعات الفرنسية قدر استطاعتهم. لكن التكلفة الحقيقية كانت تقع على الفلاحين، الذين كانوا مثقلين بالضرائب المعيقة والفرائض من كل نوع. وبينما كان الناس في البلاط يأكلون في أطباق من الذهب والفضة، مغمورين بأشهى الأطعمة المختارة، كان الفلاحون يأكلون البقايا والأعشاب.

لكن تلك الحياة في البلاط لم تكن هي الأكثر تكلفة. كانت الحروب التي استمر في شنها لويس الرابع عشر أكثر تكلفة بكثير، وكانت بلا هدف سوى تقوية سلطته على حساب الدول المجاورة. فبجيشه الهائل والفائق التجهيز، قام باحتلال كل من هولندا وألمانيا، مستوليا، على سبيل المثال، على ستراسبورغ من الألمان من دون أن يقدم أي ذريعة حقيقية لتصرفاته. لقد كان يعتقد نفسه سيدا على كل أوروبا، وعلى نحو ما كان كذلك. كان كل الرجال العظماء في أوروبا يقلدونه. وعليه فسرعان ما حصل كل أمير ألماني، حتى هؤلاء الذين لم يكونوا يمتلكون أكثر من رقعة أرض بائسة، على قلعته الضخمة الخاصة به على طراز قصر فيرساي، بكل ذهبه وأقمشته الدمقسية، بأسيجته المشذبة، وبالرجال في باروكاتهم العظيمة والنساء المتأنقات في أثوابهن الضخمة، بكل سماسرته ومتملقيه.

لقد حاولوا أن يقلدوه بكل طريقة، بيد أن شيئا ما كان على الدوام مفقودا. لقد تحولوا فعلا إلى ما كان لويس الرابع عشر يكتفي بتمثيله: شيء مثل دمى الملوك الكوميدية، بمظاهر فارغة وملابس فاخرة براقة. كان لويس الرابع عشر بحد ذاته يمثل ما هو أكثر من ذلك. وفي حال لم تصدقني فإنني سأقتبس شيئا من الرسالة التي كتبها لحفيده عندما كان يستعد للمغادرة ليصبح ملكا على إسبانيا: «لا تقرب أبدا هؤلاء الذين يزيدون في تملقك، ولكن تمسك، عوضا عن ذلك، بهؤلاء الذين يغامرون بإزعاجك من أجل مصلحتك. لا تهمل عملك أبدا لمصلحة متعتك، نظم حياتك حتى يصبح فيها وقت للاسترخاء والتسلية. أعط أمور الحكم كل انتباهك. ثقف نفسك قدر المستطاع قبل اتخاذ أي قرار. اعمل كل ما في وسعك لتتعرف على الرجال المتميزين، بحيث تتمكن من الاستعانة بهم متى ما احتجت إليهم. كن مهذبا مع الجميع، لا تسئ لأي إنسان». كانت تلك هي فعليا المبادئ التي يسترشد بها ملك فرنسا لويس الرابع عشر، خليط رائع من الغرور والعذوبة والبذخ والوقار واللامبالاة والطيش والعمل الجدي الخالص.

32

وفي هذه الأثناء.. ننظر شرقا...

بينما كان لويس الرابع عشر يحشد بلاطه في باريس وفيرساي ، عانت ألمانيا محنة جديدة : الأتراك . فكما تعلم ، قبل ذلك بمائتي سنة مضت (في 1453) ، كان الأتراك قد سيطروا على القسطنطينية وأسسوا إمبراطورية إسلامية عظيمة ، المعروفة باسم الإمبراطورية العثمانية ، والتي تندمج تحتها مصر ، فلسطين ، بلاد الرافدين ، آسيا الصغرى ، واليونان ، وبعبارة أخرى ، كامل الإمبراطورية الرومانية الشرقية القديمة ، والتي ، لا بد من القول ، لم يبق من عظمتها وفخامتها الكثير . تحت قيادة زعيمهم القوي ، سليمان المعظم ، استمروا في فتوحاتهم إلى ما بعد الدانوب وهزموا الجيش المجري في 1526 . تم قتل كل النبلاء المجريين تقريبا بمن فيهم الملك . وبعد أن احتلوا الجزء الأكبر من بلاد المجر ، حاول الأتراك الاستيلاء على فيينا ، بيد أنهم سرعان ما

«أعطت هذه الانتصارات الكثير من الثراء والقوة للبلاط الإمبراطوري في فيينا ، وبدأت النمسا في بناء القلاع المهيبة والأديرة الرائعة على الطراز المتألق الجديد الذي يسمى الباروك»

المؤلف

تراجعوا . كما تتذكر ، تحطم أسطولهم في 1571 على يدي الملك فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، وحلفائه الفينيسيين . غير أنهم كانوا لايزالون دولة قوية ، حيث كان من يحكم في بودابست هو باشا أو حاكم تركي . كان العديد من المجريين بروتيستانت ، وعندما قُتل ملكهم تحولوا إلى رعايا معارضين للإمبراطور الكاثوليكي ، حيث حاربوا ضده في الحروب الدينية . بعد حرب الثلاثين سنة استمرت هذه الثورات إلى أن طلب النبلاء المجريون ، في أحد الأيام ، المساعدة من جيرانهم الأتراك .



كان السلطان ، كما كان يدعى الحاكم التركي ، سعيدا بالاستجابة لهذا الطلب . كان يرغب في حرب منذ فترة طويلة حيث تزايدت قوة جنوده ومحاربيه باستقرارهم في البلاد . كان يخشى أن يفقد سيطرته عليهم ، لذا كان مسرورا بإرسالهم للقتال . فإذا ما انتصروا ، كان ذلك خيرا عظيما ، وإذا ما خسروا فإنه سيتخلص منهم . لك أن ترى أي نوع من الناس كان هذا السلطان ! وعليه ، في 1683 حشد السلطان جيشا ضخما من كل الزوايا الأربعة من إمبراطوريته . أحضر الباشوات من بلاد الرافدين ومصر جنودهم ، كما تجمع التتار ، العرب ، اليونانيون ، المجريون ، والرومانيون جميعا في القسطنطينية تحت قيادة الوزير الأعظم ، أو رئيس الوزراء ، كارا مصطفى ، وتجهزوا للمسير إلى النمسا . كان هناك ما يزيد على المائتي ألف منهم ، مدججين بالسلاح ، مرتدين الأزياء والعمامات الغريبة الملونة ، حاملين ألوية تبدي شعارهم : الهلال .

لم تكن جيوش الإمبراطور ، المتمركزة في المجر ، في حال يمكنها من تحمل هذا الاعتداء ، وعليه فقد تراجعوا تاركين الطريق إلى فيينا ممهدا أمام الأتراك . مثل كل المدن في ذلك الوقت ، كانت لدى فيينا تحصينات مجهزة . وُضعت هذه التحصينات الآن في أماكنها على وجه السرعة وجُلبت المدافع والمؤن . كان على عشرين ألف جندي أن يحموا المدينة لحين وصول الإمبراطور وحلفائه للمساعدة . غير أن الملك وحاشيته كانوا

قد هربوا ، أولا إلى لينز ثم إلى باساو . وعندما رأى أهل فيينا الدخان متصاعدا من القرى البعيدة والضواحي وقد أشعل الأتراك فيها النيران ، رحل ما يقارب الستين ألفا منهم عن المدينة في تيار لا ينتهي من العربات والمركبات .

وصل الآن سلاح فرسان الأتراك ، حيث حوط جيشهم الضخم فيينا وبدأ بإطلاق رصاصات المدافع على الأسوار وإضعافها بالمتفجرات . قاوم أهل فيينا بكل قوتهم . مر شهر ، وبانقضاء كل يوم من أيامه كان الخطر يتزايد حيث ظهرت المزيد من الفجوات في الأسوار ، ولم تصل أي مساعدة . بدأت الأوبئة والأمراض الفظيعة تكتسح المدينة ، وكانت أكثر فتكا من الرصاصات التركية بكثير . كانت المؤن في انخفاض على الرغم من المهمات الجريئة التي كان يقوم بها الجنود عائدين منها بثور أو اثنين . وبمرور الوقت وجد الناس أنفسهم يدفعون عشرين أو ثلاثين كورونة من أجل قطة ، وهو مبلغ ليس بصغير في تلك الأيام ، خصوصا من أجل وجبة مريعة كهذه ! كانت الأسوار على وشك الانهيار عندما وصلت أخيرا القوات الإمبراطورية إلى فيينا . أصبح بإمكان أهل المدينة أن يتنفسوا أخيرا . لكن القوات الإمبراطورية من النمسا وألمانيا لم تأت بمفردها . فقد أعلن الملك البولندي ، جان سوبيسكي ، والذي وقع سابقا معاهدة تحالف مع الإمبراطور ضد الأتراك ، عن استعداده للمساعدة في مقابل امتيازات مهمة والتي شملت شرف القيادة العليا التي أرادها الإمبراطور لنفسه ، وعليه فقد ضاع وقت ثمين في المفاوضات . في النهاية ، اتخذ جيش سوبيسكي موقعه على المرتفعات أعلى فيينا ، ومن هناك هاجموا الأتراك في الأسفل . بعد معركة عنيفة ، فر الأتراك دون حتى أن يطووا خيامهم ، تاركين مخلفات ثمينة للجنود الإمبراطوريين . كان المخيم ، المكون من أربعين ألف خيمة منصوبة في خطوط مرتبة مستقيمة مفصولة بممرات ضيقة ، يبدو كأنه مدينة صغيرة ، كان ذلك مشهدا خلابا بالفعل .

واصل الأتراك انسحابهم . ولو أنهم نجحوا في الاستيلاء على فيينا لكان الوضع مروعا بذات الدرجة التي سيكونها لو أن المسلمين العرب هزموا تشارلز مارتل في تورز وبواتيه منذ ألف سنة مضت .

بيد أن القوات الإمبراطورية دفعت بهم إلى الخلف أكثر فأكثر ، في حين عاد رجال سوبيسكي إلى ديارهم . هذا وقد كان جنرال فرنسي بارز يقود الجيش النمساوي في هذه المطاردة المنتصرة . إنه الأمير يوجين من سافوي ، رجل رفض لويس الرابع عشر انضمامه إلى جيشه بسبب مظهره البسيط العادي . في السنوات اللاحقة ، استولى يوجين على

دولـة بعد دولة من الأتراك ، حيث أُجبر السلطان على التخلي عن كل بلاد المجر ، والتي أصبحت جزءا من النمسا . أعطت هذه الانتصارات الكثير من الثراء والقوة للبلاط الإمبراطوري في فيينا ، والآن بدأت النمسا في بناء القلاع المهيبة والأديرة الرائعة على الطراز المتألق الجديد والذي يسمى الباروك . في تلك الأثناء ، استمرت السلطة التركية في الانحدار ، لأسباب ليس أقلها ظهور عدو جديد وعظيم خلفهم ، كان ذلك هو روسيا .

إلى الآن لم نسمع شيئا عن روسيا . لقد كانت عبارة عن مساحات برية شاسعة من الغابات ذات السهوب العظيمة في الشمال . كان ملاك الأراضي يحكمون الفلاحين بقسوة فظيعة والحاكم يحكم الفلاحين بقسوة أفظع . في حوالي 1580 كان أحد قياصرة روسيا يعرف باسم إيفان الرهيب ، وهو اسم على مسمى . فمقارنة به ، كان نيرون لطيفا . في تلك الأيام لم يعر الروس الكثير من الانتباه لأوروبا وما كان يجري فيها . كانوا منشغلين بالحرب فيما بينهم ويقتل بعضهم بعضا . وعلى الرغم من كونهم مسيحيين ، فإنهم لم يكونوا تحت سلطة البابا . كان قائدهم الروحاني هو أسقف أو بطريرك الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية . لذا ، لم يتعاملوا كثيرا مع الغرب .

في 1689 ، أي بعد ست سنوات من حصار الأتراك لفيينا ، صعد قيصر جديد على العرش . كان ذلك هو بيتر ، المعروف باسم بيتر العظيم(*) . لم يكن بيتر أقل بربرية أو وحشية من العديد من أسلافه ، كما لم يكن أقل ولعا باحتساء الشراب أو أقل عنفا . غير أنه كان عازما على أن يصوغ إمبراطوريته على طراز الدول الأوروبية ، مثل فرنسا ، إنجلترا ، أو الإمبراطورية الألمانية . كان يعرف المطلوب : المال ، التجارة ، والمدن . ولكن كيف حصلت الدول الأخرى على هذه الأشياء؟ لقد انطلق باحثا عن الإجابة . في هولندا ، رأى موانئ عظيمة وسفنا ضخمة كانت تبحر مسافات وصولا إلى الهند وأمريكا من أجل التجارة . كان يريد سفنا كهذه ، وكان يحتاج إلى أن يعرف كيف يتم صنعها . ومن دون تردد ، عمل في وظيفة نجار سفن ، في البداية في ورشة بناء السفن الهولندية ولاحقا في حوض بناء السفن الخاص بالبحرية الملكية في إنجلترا ، وذلك ليتعلم فن الصناعة بنفسه . بعدها عاد إلى الديار مصطحبا معه فريقا من الحرفيين المهرة ليبنوا سفنه .

كل ما كان يحتاج إليه الآن هو ميناء ، وعليه فقد أعطى الأوامر للبدء في بنائه . كان يرغب في مدينة مطلة على البحر ، تماما مثل تلك التي شاهدها في هولندا . غير أن الساحل في شمال روسيا لم يكن سوى أرض مستنقعات ضحلة ، تنتمي في الواقع

(*) أو بطرس الأكبر .

إلى السويد ، والتي كان بيتر الأكبر في حرب معها . لم يثنه كل ذلك عن عزمه . فقد تم تجميع الفلاحين من الأراض الريفية المجاورة ليقوموا بتجفيف المستنقعات وردمها . كان لديه ثمانون ألف عامل يكدحون هناك ، حيث سرعان ما نهض ميناء حقيقي من بين المستنقعات ، أسماه بيتر ميناء القديس بيترسبيرغ . بعدها ، كان لا بد من تحويل الروس إلى أوروبيين حقيقيين . كان لزاما عليهم أن يتوقفوا عن ارتداء قفاطينهم التقليدية ذات التنانير الطويلة ، كما لم يكن يُسمح لهم بإطالة شعورهم ولحاهم . من الآن فصاعدا ، كان عليهم أن يرتدوا الثياب المشابهة لثياب الفرنسيين أو الألمان . كل من يحتج أو يختلف مع تجديدات بيتر كان يجلد ثم يعدم ، حتى ابنه . لم يكن بيتر رجلا لطيفا ، لكنه حقق مبتغاه . وربما لم يتحول الروسيون إلى أوروبيين بين ليلة وضحاها ، غير أنهم أصبحوا الآن مستعدين لدخول الساحة كلاعبين في مباريات أوروبا الدموية من أجل السلطة .

اتخذ بيتر الأكبر الخطوة الأولى . لقد هاجم السويد التي أصبحت ، بعد انتصارات غوستافوس أدولفوس في حرب الثلاثين سنة ، أقوى دولة في شمال أوروبا . قد لا يكون لحاكم السويد في زمن بيتر ذات التقوى والفطنة التي كانت لغوستافوس أدولفوس ، لكنه كان من أكثر المغامرين الذين عرفهم العالم تميزا . اعتلى الملك الشاب تشارلز الثاني عشر السلطة في 1697 . لقد بدا كأنه قفز من بين صفحات كتب المغامرة الشهيرة التي تركتني مسحورا عندما كنت صبيا في فيينا ، فمن الصعب فعلا تصديق مغامراته وأعماله البطولية . لقد كان متهورا بقدر ما كان شجاعا ، فضلا عما لم يقل ! لقد حارب هو وجيشه بيتر الأكبر واستطاع أن يهزم جيشا يفوق جيشه قوة بخمسة أضعاف . بعدها احتل بولندا واندفع في مسيرته مكملا الطريق إلى روسيا من دون أن يهتم بانتظار جيش سويدي آخر كان في الطريق إليه لتقديم المساعدة . استمر في مسيره ، متوغلاً في روسيا ، دوما على رأس قواته ، خائضا في الأنهار مجتازا المستنقعات ، من دون أن يصادف أي مقاومة من الجيش الروسي . حل الخريف ثم الشتاء ، هذا الشتاء الروسي المرير القارس ، ولم تتح الفرصة بعد لتشارلز الثاني عشر ليثبت شجاعته أمام العدو . فقط عندما أصبح رجاله نصف موتى من الجوع والبرد والإرهاق ، ظهر الروس أخيرا وألحقوا هزيمة هائلة بهم . كان ذلك في 1709 . مرغما على الهروب ، وصل تشارلز إلى تركيا . وهناك بقي لمدة خمس سنوات يحاول عبثا إقناع الأتراك بمحاربة الروس . وأخيرا في 1714 ، وصلته الأخبار من السويد بأن رعاياه قد اكتفوا من مغامرات ملكهم في تركيا . كان النبلاء على وشك اختيار حاكم جديد .

Norway	النرويج
Sweden	السويد
Russia	روسيا
Poland	بولندا
Austria	النمسا
Ottoman Empire	الإمبراطورية العثمانية
Denmark	الدنمارك
Prussia	بروسيا
German Empire	الإمبراطورية الألمانية
Black Sea	البحر الأسود
Adriatic Sea	البحر الأدرياتيكي
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط
Baltic Sea	بحر البلطيق
Stockholm	ستوكهولم
Moscow	موسكو
Stralsund	سترالسوند
Warsow	وارسو

Vienna	فيينا
Bender	بندر
Adrianople	إدريانوبل
Constantinople	القسطنطينية
Peter the Great founds st. Petersburg	بيتر العظيم يؤسس مدينة بيترسبيرغ 1703
Charles XII victory at Narva	انتصار تشارلز الثاني عشر في نارفا
Charles XII invasion of Russia	تشارلز الثاني عشر يغزو روسيا 1707
Frederikshåld	هالدن
Charles d. 1718	وفاة تشارلز 1718
Charles XII defeat at Poltava	هزيمة تشارلز الثاني عشر في بولتاف 1709
Charles XII ride home	رحلة تشارلز الثاني عشر إلى الديار 1714

مفتاح الخريطة المقابلة



هـذه الخريطة تبين الطريق الـذي اتخذه تشارلز الثاني عشر ، ملك السويد ، الشاب المغامر الجريء والذي سار مخترقا بولندا وصولا إلى روسيا ، ولاحقا مسابقا الزمن إلى سترالسوند منطلقا من تركيا ، ملاقيا حتفه وهو يحاصر قلعة في النرويج .

متنكـرا في صورة ضابط ألمانـي وبصحبة مرافق واحد فقط ، عبر تشـارلز الحدود التركيـة من دون تأخير ، مسـابقا الزمن ، يعدو بحصانه بأسـرع ما يمكـن طوال النهار وينام في عربات البريد مسـاء ، للعودة إلى سترالسوند في شمال ألمانيا ، حيث كانت جزءا من السـويد في تلك الأيام ، وذلك في رحلة مجنونة من سـتة عشر يوما انطوت على كل أنواع المغامرات المحفوفة بالمخاطر بمروره في أراضي العدو . لم يستطع حاكم القلعـة أن يصـدق عينيـه ، كان مسـتيقظا في سـريره لفـوره ، عندمـا رأى ملكه يقف أمامـه ، فمثـل كل الآخرين ، كان يعتقد أن الملك في مكان ما في تركيا . كانت المدينة سـعيدة بالظهور الدراماتيكي لتشـارلز الثاني عشـر ، غير أنه ما إن وصل حتى سـقط ببسـاطة في السـرير ونام فترة طويلـة جدا . كانت قدماه متورمتين مـن ركوبه الطويل علـى حصانـه حتى إنهم اضطروا إلى شـق حذائه من فوق قدميـه . لكن الحديث عن اختيـار ملـك جديد توقف تماما . لم يسـتقر تشـارلز طويلا في السـويد قبل أن يشـرع في مغامرة عسـكرية جديـدة . لقد ناصب العداء كلا من إنجلتـرا ، وألمانيا ، والنرويج والدنمـارك حيث كانـت النرويج علـى رأس قائمته . توفي تشـارلز بينما كان يحاصر قلعـة نرويجية في 1718 ، مصابا بطلقة نارية ، يقال إنها أتت من بين صفوفه ، حيث إن الدولة وببسـاطة لـم تعد تحتمل المزيد من الحروب . بإزاحة هذا العدو من طريقه ، استطاع بيتر الأكبر ، الذي كان يدعو نفسه الآن إمبراطور روسيا بأكملها ، أن يزيد من عظمة إمبراطوريته ، متوسعا في كل الاتجاهات : في اتجاه أوروبا ، تركيا ، بلاد فارس ودول آسيا .

33

عصر جديد حقًا

«في عالم المنطق، يمكنك أن تستخدم الحجج لتقنع الآخرين بصحة آرائك، ولكن حين يتعلق الأمر بمعتقدات الآخرين - لأنها تخرج عن نطاق البرهان العقلي - فيجب أن يتم التعامل معها باحترام وتسامح»

المؤلف

إن استطعت أن تتحدث إلى سيد من عصر الحصار التركي، فسيكون هناك العديد من الأشياء التي ستفاجئك حوله: الطريقة التي يتكلم بها، الكلمات اللاتينية والفرنسية العديدة التي يستخدمها، التحولات الملتفة والمدروسة في عباراته، عادته في الميل إلى الانزلاق لاستخدام الاقتباسات اللاتينية التي لايمكن للكثيرين فهمها، وانحناءاته المهيبة الوقورة. قد تتشكك أنت، على ما أعتقد، أنه أسفل هذه الباروكة الوقورة هناك رجل بشهية كبيرة للطعام الجيد والخمور الفاخرة. ولا بد أنك، مع اعتذاري عن ذكر ذلك، لن تستطيع أن تخطئ ملاحظة أنه أسفل هذا الدانتيل الفاخر، هذا التطريز والحرير، فإن هذا الرجل المتزين، المتعطر، المتبرج يموج برائحة كريهة، حيث إنه نادرا ما كان يغتسل.

غير أن شيئا لا يمكن أن يعدك للصدمة التي ستصيبك فور أن تبدأ بسماع آرائه :
لا بد من ضرب كل الأطفال ، الفتيات الصغيرات (لسن أكثر من طفلات في الواقع) لا بد أن يتزوجن (ومن رجال بالكاد يعرفنهم) ، قدر الفلاح هو أن يكدح وألا يشتكي ، لا بد من جلد المتسولين والمتشردين ثم وضعهم في الأصفاد وعرضهم في السوق ليسخر منهم الجميع ، يجب إعدام اللصوص وتقطيع القتلة إلى قطع أمام الناس ، يجب حرق الساحرات وغيرهن من المشعوذين الذين يغزون البلد ، يجب التضييق على الناس أصحاب العقائد المختلفة ، بحيث يُعاملون كمنبوذين أو يُلقى بهم في الأقبية المظلمة ، رؤية مذنب أخيرا في السماء لا بد أنها تعني أحداثا سيئة في المستقبل ، من المعقول ، كحماية من الوباء القادم ، والذي حصد العديد من الضحايا أخيرا في فيينا ، أن تُلبس شارة يد حمراء ، وأخيرا ، السيد كذا وكذا ، صديق إنجليزي ، لديه مشروع قوي وممتاز لبيع الزنوج الأفريقيين في أمريكا كعبيد : يا لها من فكرة رائعة لهذا السيد الوجيه خصوصا أن الهنود الأمريكيين خريجي السجون لا يجيدون الأعمال اليدوية ، كما يعلم الجميع .



ستسمع هذه الآراء ليس فقط على لسان رجل فظ أو أخرق ، بل كذلك من أكثر الناس ذكاء وتقوى في جميع مناحي الحياة ومن كل الأمم المختلفة . فقط بعد العام 1700 بدأت الظروف تتغير تدريجيا . فتلك المعاناة المريعة واسعة الانتشار التي قاساها الأوروبيون خلال حرب الأديان البائسة جعلت الناس يتساءلون إن كان من الصواب فعلا الحكم على شخص ما طبقا لمعتقده . ألم يكن الأكثر أهمية هو أن تكون إنسانا طيبا صادقا؟ ألم يكن من الأفضل أن

يتعايش الناس بغض النظر عن أي اختلافات في الآراء أو المعتقدات؟ أليس من الأفضل لو أنهم احترموا بعضهم بعضا وتسامحوا مع اقتناعاتهم المختلفة؟ كانت تلك أول وأهم فكرة صرح بها الناس الذين كانوا يتداولون مثل تلك الأفكار : مبدأ التسامح . فقط في الأمور الدينية يمكن لاختلافات الرأي أن تحدث . فليس لإنسان عاقل أن يختصم حول حقيقة أن حاصل جمع اثنين زائد اثنين يساوي أربعة . وعليه فإن المنطق ، أو التفكير الجمعي السليم ، كما يطلقون عليه كذلك ، هو ما يمكنه بل ويجب أن يوحد كل البشر . في عالم المنطق ، يمكنك أن تستخدم الحجج لتقنع الآخرين بصحة آرائك ، ولكن حين يتعلق الأمر بمعتقدات الآخرين ، وكونها تخرج عن نطاق البرهان العقلي ، فيجب أن يتم التعامل معها باحترام وتسامح .

وعليه ، فقد أصبح المنطق ثاني أهم شيء بالنسبة إلى هؤلاء الناس . أُعيد اكتشاف التفكير المنطقي الواضح حول البشرية والطبيعة في أعمال الإغريق والرومانيين القدماء ، وكذلك في الأعمال الخاصة بالفلورنسيين خلال عصر النهضة . ولكن ، وفي أكثر من أي أعمال أخرى ، كان المنطق يسود أعمال رجال مثل غاليليو ، الذي انطلق ليتحرى بكل شجاعة سحر المعادلات الرياضية الموجودة في الطبيعة . لم تلعب الاختلافات في المعتقد أي دور في مثل هذه الأمور : كان هناك فقط التجارب والأدلة . المنطق وحده كان يفسر مظاهر الطبيعة وطريقة عمل الكون ، هذا المنطق المُعطى بمقادير متساوية لكل البشر في كل العالم .

وحيث إن المنطق مُعطى للجميع ، فإنه يتبع ذلك تساوي جميع البشر في القيمة ، وكما تتذكر ، كان ذلك تحديدا من تعاليم المسيحية : أن جميع البشر متساوون أمام الرب . غير أن من يوعظون ويروجون للتسامح والمنطق دفعوا بجدلهم خطوة للأمام : فهم لم يقولوا فقط بأن كل البشر متساوون جوهريا ، لقد طالبوا بأن تتم معاملتهم على حد سواء كذلك ، حيث إن كل إنسان ، كمخلوق أنعم الرب عليه بالمنطق ، له حقوق لا يمكن أو لا يحق لأحد أن يحرمه إياها : حقه في أن يختار طريقه وأن يختار الكيفية التي يحيا بها ، أن يكون حرا في أن يتصرف أو يمتنع عن التصرف طبقا لما يمليه عليه منطقه وضميره . الأطفال كذلك لا يجوز أن يُدرسوا بالعصاة ولكن بالمنطق ، حتى يستطيعوا التوصل إلى فهم الفرق بين

الصواب والخطأ . والمجرمون ، هم كذلك بشر ، هم أخطأوا بلا شك ، غير أنه لايزال بالإمكان مساعدتهم لإصلاح سبل حياتهم . لقد كان مريعا ، وفقا لما جادل به هؤلاء ، أن يوسم خد إنسان أو جبهته بالحديد الملتهب بسبب خطأ أوحد ، وسم يترك أثرا سيحمله هذا الإنسان لبقية حياته حتى ليقول الناس : «هذا الرجل مجرم» . لقد كان هناك شيء ، أكد هؤلاء كذلك ، يحظر على الإنسان أن يُهان في العلن ، كان ذلك يسمى الكرامة الإنسانية .

كل هذه الأفكار ، والتي كانت تُناقش منذ العام 1700 فصاعدا أولا في إنجلترا ولاحقا في فرنسا ، أصبحت تسمى التنوير ، حيث إن من كانوا يحملونها أرادوا أن يحاربوا ظلام الخرافات بنور المنطق الخالص .

كثيرون من الناس اليوم يعتقدون أن التنوير قدم فقط ما هو بديهي ، وأن الناس في تلك الأيام كانت لديهم نظرة مبسطة حول الأسرار العظيمة للطبيعة والعالم . هذا حقيقي ، غير أنه لابد لك أن تعي أن ما يبدو بديهيا لنا لم يكن كذلك مطلقا آنذاك ، وأن الأمر تطلب الكثير من الشجاعة والتضحية والمثابرة ليستمر الناس في تكرار هذه الحقائق حتى تبدو بديهية لنا اليوم . وبالطبع ، لابد لك أن تعي كذلك أن المنطق لا يستطيع ، ولن يستطيع في يوم ، أن يقدم لنا مفتاح كل الأسرار ، على الرغم من أنه كثيرا ما وضعنا على الطريق الصحيح .

خلال فترة المائتي سنة التي تلت التنوير جرت دراسة وتفسير المزيد من أسرار الطبيعة عن كل ما تم في الألفي سنة الماضية . لكن ما يجب ألا تنساه أبدا هو أهمية التسامح والمنطق والإنسانية في حياتنا ، تلك المبادئ الرئيسية الثلاثة في التنوير . وبفضل تلك المبادئ الثلاثة لم نعد نأخذ شخصا مشتبها في ارتكابه جريمة فنعذبه بطريقة لا إنسانية على المخلعة(*) حتى ، بعد أن يفقد عقله ، يعترف بأي شيء نريد . علمنا المنطق أنه لا وجود لما يسمى بالسحر ، لذا لم تعد المزيد من الساحرات تحرق على العمود . (آخر مرة اتُهمت امرأة بتهمة السحر في إنجلترا كان في العام 1712) . لم تعد الأوبئة تُحارب بالوسائل الخرافية ، ولكن بشكل رئيسي بوسائل النظافة والاستقصاء العلمي لأسبابها . لم يعد لدينا عبيد أو فلاحون مملوكون

(*) المخلعة هي لوح تعذيب يمدد عليه الشخص ويربط من أطرافه ويشد حتى تنخلع هذه الأطراف [المترجمة] .

للأرض بعد الآن . كل المواطنين محكومون بالقوانين نفسها وللنساء حقوق الرجال ذاتها . ندين بكل ذلك للمواطنين والكتاب الشجعان الذين تجرأوا بالدفاع عن هذه الأفكار . ولقد كان الوضع يتطلب الكثير من الجسارة . هذا ، وقد افتقر هؤلاء الناس أحيانا إلى الفهم الصحيح فتصرفوا بطريقة جائرة في صراعهم مع العادات الغابرة التي تمسك بها الناس لفترة طويلة ، غير أنهم خاضوا معركة طويلة وصعبة للفوز بالتسامح والمنطق والإنسانية .

ولقد كان يمكن للمعركة أن تأخذ وقتا أطول بكثير وتتطلب تضحيات أعظم لولا أن بعض قادة أوروبا حاربوا في الصفوف الأولى من أجل مبادئ التنوير . أحد أوائل من فعل ذلك كان فريدريك الأكبر ، ملك بروسيا .

كما تعلم ، فإن لقب الإمبراطور ، والذي تنقل خلال عدة أجيال في بيت هابزبيرغ ، لم يعد بحلول ذلك الوقت أكثر من مجرد لقب مهيب . كانت السلطة الحقيقية للهابزبيرغيين تقع على النمسا ، بلاد المجر ، وبوهيميا ، بينما في ألمانيا كانت السلطة في يد عدد كبير من الأمراء الذين حكموا بافاريا ، ساكسونيا ، والعديد من الدول الأخرى الكبيرة والصغيرة . كانت الأراضي البروتيستانتية في الشمال هي من بين تلك التي لم تعر الكثير من الانتباه للإمبراطور الكاثوليكي في فيينا منذ حرب الثلاثين سنة ، وكانت أقوى هذه الإمارات هي بروسيا . فمنذ عهد حاكمها العظيم فريدريك ويليام الأول ، والذي حكم من 1640 إلى 1688 ، استحوذت بروسيا على المزيد والمزيد من أراضي السويد ، حتى أعلن أمراؤها أخيرا في 1701 أنفسهم ملوكا . كانت بروسيا إمارة محاربين صارمة ، لا يعرف نبلاؤها شرفا أعظم من الخدمة كضباط في الجيش المميز لملكهم .

الآن ، ومنذ العام 1740 ، كانت بروسيا تحت حكم ملكها الثالث ، فريدريك الثاني ، والذي كان ينتمي إلى عائلة هوهينزوليرن . كان هذا الملك ، المعروف باسم فريدريك الأكبر ، بلا شك أحد أكثر الرجال ثقافة في عصره . كانت له علاقات صداقة مع عدد من الرجال الفرنسيين الذين كانوا يبثون الآراء التنويرية في كتاباتهم ، وقد كتب هو بنفسه كثيرا حول الموضوع بالفرنسية . فهو ، على الرغم من كونه ملكا لبروسيا ، كان يزدري اللغة والعادات الجيرمانية ، والتي ، كنتيجة لحرب الثلاثين سنة ، كانت في حالة مزرية . كان هدفه وواجبه ، كما كان يراهما ، هو أن يجعل

من بروسيا دولة نموذجية ، مبينا بذلك قيمة أفكار أصدقائه في فرنسا . كان يحب أن يقول إنه يرى نفسه الخادم الأول للدولة : الوصيف ، ان جاز التعبير ، وليس المالك . ومن خلال هذا الدور فإنه اهتم بكل تفصيل في مشروعه لوضع هذه الأفكار الجديدة محل التنفيذ . أحد أوائل الأشياء التي أمر بها كان إلغاء الممارسة البربرية للتعذيب ، كما أعفى الفلاحين من بعض واجباتهم الثقيلة تجاه ملاك الأراضي . كذلك ، كان مهتما دائما على وجه الخصوص بأن تكون العدالة قائمة بين كل رعاياه من أفقرهم إلى أقواهم وأعظمهم ، كان ذلك شيئا نادرا في تلك الأيام .

غير أنه وفوق كل شيء ، كان يريد أن يجعل من بروسيا أقوى الإمارات الجيرمانية وأن يحطم سلطة النمسا الإمبراطورية . لم يكن يتوقع أي صعوبات في هذا الشأن . كانت النمسا محكومة من امرأة ، الإمبراطورة ماريا تيريزا . عندما صعدت إلى العرش في العام 1740 ، بعمر الثلاث والعشرين سنة فقط ، اعتقد فريدريك أنها اللحظة المناسبة للاستحواذ على إحدى ممتلكات الإمبراطورية . وعليه فقد قاد جيشه المدرب جيدا إلى مقاطعة سيليزيا واستحوذ عليها . منذ ذلك الحين فصاعدا ، سيقضي الملك معظم ما تبقى من حياته محاربا إمبراطورة النمسا . ولقد كان وضع جيشه هو الأكثر أهمية بالنسبة إليه على الدوام ، حيث كان يدرب قواته باستمرار من دون كلل ، حتى أصبح لديه أفضل جيش في العالم على الإطلاق .

لكن ماريا تيريزا كانت خصما أصعب بكثير مما توقع في البداية ، وإن لم تكن من دعاة الحرب بطبيعتها . كانت عميقة التدين ، كما أنها كانت أما أولا وقبل كل شيء . كان لديها ستة عشر من الأبناء . وعلى الرغم من أن فريدريك كان عدوا لها ، فإنها اتخذته قدوة في تقديم الكثير من الإصلاحات في النمسا كذلك . فكما فعل فريدريك ، قامت ماريا تيريزا بإلغاء التعذيب ، كما قدمت الكثير من التسهيلات في حياة الفلاحين ، واهتمت خصيصا بتأسيس التعليم الجيد في أنحاء بلادها . كانت ترى نفسها ، وبكل صدق ، أما لشعبها ، حيث لم تكن تتظاهر بمعرفتها لكل الإجابات وحدها . كانت تختار أكثر الناس تأهيلا ليكونوا مستشاريها ، من بينهم رجال يمكنهم أن يتماسكوا في مواجهة فريدريك خلال الحروب الطويلة ، ليس فقط على أرض المعركة ، ولكن كذلك كمبعوثين إلى كل البلاطات الأوروبية ، حيث استطاعوا أن يفوزوا بالتعاطف تجاه قضيتها . حتى فرنسا ، التي كان لها موقف

مضـاد مـن الإمبراطورية على مدى قـرون ، تم الفوز بها أخيـرا ، حيث قدمت بعدها ماريا تيريزا ابنتها ماري أنطوانيت للزواج من ملك فرنسـا المقبل لويس السـادس عشر كضمان للصداقة الجديدة .

وجـد فريدريك نفسـه محاطا الآن بالأعداء من كل الجهات : النمسـا ، فرنسـا ، السـويد ، وروسيا ، والتي أصبحت الآن إمبراطورية قوية ضخمة . ومن دون أن ينتظر حتـى يعلنوا عليه الحرب ، قام فريدريك باحتلال ساكسـونيا ، والتي كانت معادية له كذلك . انطلق بعدها لشـن حرب مريرة اسـتمرت سبع سنوات طوال ، حيث كانت المسـاندة الوحيدة له خلالها تأتي من البريطانيين . غيـر أن صلابته آتت ثمرها ، فعلى الرغـم مـن تفوق أعدائه في القوة ، فـإن النتيجة لم تتوقف عند عدم خسـارته الحرب فقط ، بل تمكن من الاحتفاظ بسيليزيا كذلك .

منـذ العـام 1765 لـم تعد ماريـا تيريزا تحكـم النمسـا بمفردها ، فقد حكـم ابنها جوزيـف معها ثم تولـى الحكم كاملا بعد وفاتها باسـم الإمبراطـور جوزيف الثاني . لقد كان مناضلا متحمسـا للأفـكار التنويرية أكثر حتى مـن فريدريك أو والدته . كان التسـامح والمنطق والإنسانية هي كل ما له قيمة بالنسبة إليه . لقد أبطل جوزيف حكم الإعدام وعبودية الفلاحين . كما أصبح البروتيستانتيون قادرين على التعبد بحرية مرة أخرى ، وعلى الرغم من كونه هو نفسه كاثوليكيا صالحا ، فقد صادر بعض الأراضي والثـروات مـن الكنيسـة الكاثوليكية . لقد كان مقعـدا ، وكونه يدرك أنـه قد لا تكون لديـه فترة طويلـة ليحكم ، كان يتخذ قراراته بحماس ولهفة واسـتعجال جعلت هذه القـرارات أسـرع وأكثر فجائية وفي العموم أكثر مما يسـتطيع أتباعـه أن يتحملوا . كان لديـه الكثيـر مـن المعجبين ، لكن شـعبه كان يحبه أقل ممـا كانوا يحبـون والدته الأكثر حرصا وتدينا .

وفي الوقت ذاته الذي كانت تشهد فيه النمسا وألمانيا انتصار الآراء التنويرية ، كان مواطنـو العديد من المسـتعمرات البريطانية في أمريكا يرفضون الاسـتمرار في كونهم رعايـا بريطانيين أو أن يدفعوا الضرائب لبريطانيا . ولقد قادهـم بينجامين فرانكلين في صراعهم من أجل الاسـتقلال ، وقـد كان مواطنا عاديا يقضي معظم وقته في دراسـة العلـوم الطبيعية ، حيث - وفي سـياق دراسـته هذه - قام باختـراع مانعة الصواعق . لقد كان رجلا بسيطا مستقيما ، نشيطا وجادا في عمله . وتحت قيادته وقيادة أمريكي

آخر ، يدعى جورج واشنطن ، نظمت المستعمرات البريطانية وموانئ التجارة نفسها في اتحادات ، والتي ، بعد صراع طويل ، طردت الجنود البريطانيين من سواحلها . الآن ، بإمكانهم هم كذلك أن يتبنوا مبادئ الفكر الجديد . في العام 1776 أعلنوا الحقوق المقدسة لكل البشر في الحرية والمساواة لتصبح المبادئ الأساسية لدولتهم الجديدة . غير أنه بالنسبة إلى العبيد الزنوج في مزارعهم ، استمرت الحياة ببساطة على ما كانت عليه في السابق .

34

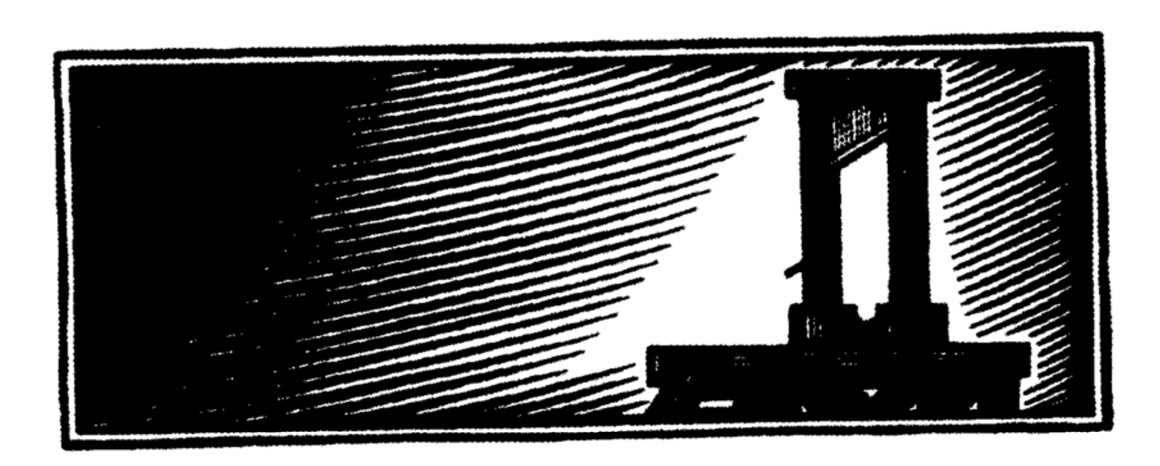
ثورة عنيفة جدًّا

«سيكون لأي مواطن في فرنسا الحق في أي وظيفة، وسيكون للجميع الحقوق ذاتها والواجبات نفسها تجاه الدولة، إنها حقوق الإنسان، كما كانت تسمى»

المؤلف

شعرت كل الدول بأن أفكار التنوير كانت عادلة ومنصفة، وعليه فقد حكموا وفقا لها. وحتى إمبراطورة روسيا، كاثرين العظمى، كانت تتبادل الرسائل بانتظام مع مفكري التنوير الفرنسيين. كان الاستثناء الوحيد هم ملوك فرنسا الذين كانوا يتصرفون وكأنهم لا يعلمون أو يهتمون بهذه الآراء الجديدة. كان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر، خليفتا ملك الشمس، فاقدي الأهلية وقانعين بمجرد تقليد مظاهر القوة الخارجية لسلفهم العظيم. لقد استمرت الحياة بالأبهة والعظمة ذواتيهما. كانت المبالغ الهائلة تُصرف على الترفيه والعروض الأوبرالية، على أعداد متزايدة من القصور الجديدة والمتنزهات العظيمة ذات الأسيجة المقلمة، على أسراب من الخدم

وموظفي البلاط المرتدين الدانتيل والحرير . لم يكن يعنيهم مصدر المال ، حيث سرعان ما أصبح وزراء المالية خبراء في الاحتيال ، يغشون ويبتزون للحصول على المال على نطاق واسع . كان الفلاحون يعملون حتى يتساقطوا من الإعياء ، كما كان المواطنون مجبرين على دفع ضرائب ضخمة . في أثناء ذلك في البلاط الملكي ، وفي خضم الأحاديث المتبادلة التي لم تكن دوما ذكية أو طريفة ، بدد النبلاء الأموال في ألعاب القمار .



ولكن إذا حدث أن غادر نبيل إقطاعي القصر وقفل عائدا إلى مقاطعته ، تصبح الحال أسوأ بالنسبة إلى الفلاحين . فسيعصف هو وأتباعه بالديار ملاحقين الأرانب الوحشية والثعالب ، حيث تسحق حوافر خيولهم الحقول المعتنى بها ، والويل للفلاح الذي يعترض ! سيكون محظوظا أن ينجو ببضع جلدات على وجهه من سوط خيل سيده ، فالنبيل الإقطاعي كان كذلك قاضيا على فلاحه وبإمكانه أن يعاقبه كما يشاء . الإقطاعي الذي يتمتع باستحسان الملك يمكنه أن يتحصل على رسالة منه تقول ببساطة : «يُحبس السيد --------- . توقيع : الملك لويس الخامس عشر» . كان النبيل يملأ مكان الاسم بنفسه ، بحيث إن كل من يغضبه ولأي سبب ، كان يختفي ببساطة .

غير أنه في البلاط الملكي ، كان هؤلاء السادة أنيقين ، متزينين ، معطرين ، يتمشون بحفيف أرديتهم المصنوعة من الحرير والدانتيل . وحيث إنهم كانوا مرهقين من البذخ والأبهة الثقيلين لعصر الملك لويس الرابع عشر ، فإنهم كانوا يفضلون أسلوب الحوار الخفيف والأقل رسمية . وعوضا عن الشعر المستعار

الـذي كان يغطي الرأس بشـكل كامل ، أصبحوا الآن يرتـدون ذاك الخفيف أبيض اللون ذا الضفيرة الصغيرة في الخلف . لم يكن لأحد أن يفوقهم مهارة في الرقص والانحنـاء ، إلا إن كن سـيداتهم ، الموثقات بشـدة برباطات مشـداتهن ، تتصاعد تنانيـر فسـاتينهن وتدور مثل الأجـراس العملاقـة . وبينما كان كل هؤلاء السـادة والسـيدات رفيعي المقـام يتجولون في حدائق القصور الملكيـة ، كانت مقاطعاتهم تتدهـور والفلاحـون يموتون جوعـا . غير أنهم هـم كذلك كانوا يملـون أحيانا من هذه الحياة المصطنعة التي تدور حول الأناقة والتكلف ، وعليه فقد اخترعوا تسـلية جديـدة . لقد انهمكوا في لعبة البسـاطة والطبيعة ، والتـي كانت تبنى على الإقامة في أكواخ رعاة خلابة كانوا يبنونها على أراضي قصورهم ، حيث يعطون أنفسهم أسـماء الرعاة والراعيات المأخوذة من الأشـعار الإغريقية . ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعية أو أكثر بساطة من ذلك؟ !

وفـي خضم هذه الفوضى البراقة للأناقة والرشـاقة والتهذيـب المفرط ظهرت ابنة ماريـا تيريزا ، مـاري أنطوانيت . كانت فتاة صغيرة جدا ، بالكاد تبلغ الرابعة عشـرة ، عندمـا أصبحت زوجة ملك فرنسـا المقبـل . وبالطبع ، فإنها اعتقـدت أن الأمور على ما يجب أن تكون . لقد ألقت بنفسـها بكل سـعادة في كل الحفـلات الخيالية الراقصة التنكرية والأوبرالية ، حيث مثلت في المسـرحيات ، فكانت راعية غنم سـاحرة ورأت أن الحيـاة في القصور الملكية الفرنسـية رائعة بحق . غير أن أخاهـا الأكبر ، الإمبراطور جوزيف الثاني ، ووالدتها حذراها مرارا وتكرارا حتى تعيش حياتها ببسـاطة وتتفادى إثـارة المزيد من السـخط بين الفقـراء بالتبذير والطيـش الأرعنين . فـي العام 1777 ، أرسـل الإمبراطور جوزيف رسـالة طويلـة وجادة لها يقول فيهـا : «لا يمكن للأمور أن تستمر على هذا المنوال ، ستندلع ثورة رهيبة إن لم تفعلي شيئا لمنعها» .

لكن الأمور استمرت على ذلك المنوال اثنتي عشرة سنة إضافية . وعندما جاءت الثورة ، كانت أكثر فظاعة بسـبب ذلـك . بحلول ذلك الوقت كان البلاط قد بدد كل ثـروات البلد . لم يبق شـيء ليغطي التبذيـر اليومي الرهيب . في العـام 1789 ، قرر الملك لويس السـادس عشـر أخيـرا الدعوة إلى اجتمـاع القطاعات الثلاثـة في البلد : النبـلاء ، رجال الديـن ، والبرجوازيين ، ليشـيروا عليه بالطريقة التي يـرمم بها الموارد المالية للبلد .

بيد أن كل مقترحاتهم ومطالبهم لم ترق للملك ، حيث طلب من رئيس التشريفات إعطاء الأمر لممثلي القطاعات بمغادرة القاعة . وما كاد يفعل ذلك ، حتى سُمع صوت متقد لرجل غاية في الذكاء يدعى ميرابو مناديا : «اذهب فأخبر جلالته أننا هنا بحكم إرادة الشعب ، ولن نغادر أماكننا إلا على أسنة الرماح !» .

لم يسبق لأحد أن خاطب ملك فرنسا بهذا الشكل مطلقا . لم تكن لدى موظفي البلاط أدنى فكرة عن الكيفية التي يجب أن يتصرفوا بها ، وبينما كانوا يشاورون بعضهم بعضا ، استمر ممثلو النبلاء ورجال الدين والبرجوازيين المجتمعين في نقاشاتهم حول ما يمكن فعله تجاه الأزمة الاقتصادية . لم تكن النية مبيتة لدى أي أحد لإسقاط الملك . كل ما كانوا يرومون هو تقديم أشكال الإصلاح التي اعتمدتها الدول الأخرى . بيد أنه وعلى الرغم من أن الملك كان رجلا ضعيفا ومترددا لم يكن يحب شيئا أكثر من أن يتعامل مع الفخار ويصنع الأشياء ، الأقفال تحديدا ، فإنه لم يكن معتادا تلقي الأوامر ، حيث لم يخطر بباله أن يجرؤ أحد في يوم على معارضته . وعليه فقد استدعى القوات لتفض الاجتماع للقطاعات الثلاثة بالقوة . ثار غضب أهل باريس الذين وضعوا كل أملهم في هذا الاجتماع . تجمعت الحشود منطلقة إلى سجن الدولة ، الباستيل الرهيب ، حيث كان العديد من مفكري التنوير محبوسين ، وحيث جمهرة كاملة من الناس الأبرياء يُعتقد أنها محتجزة . لم يجرؤ الملك على إطلاق النار على رعاياه خوفا من رفع درجة السخط بين الحشود . وعليه فقد تم اقتحام القلعة الحصينة وقتل حارسها . اندفعت الحشود في شوارع باريس منتصرة ، مستعرضين السجناء المحررين ، مع أنه قد تبين أن الأشخاص الوحيدين الذين كانوا في السجن في ذلك الوقت كانوا من عامة المجرمين .

إبان ذلك ، كان الممثلون المجتمعون قد توصلوا إلى قرارات استثنائية . لقد أرادوا تفعيل مبادئ التنوير بكليتها ، وخصوصا تلك التي تقول بأن المنطق ، لكونه شائعا بين البشر ، يشير إلى أن الجميع متساوون ، ويجب أن يعاملوا على هذا الأساس أمام القانون . ومما أسعد الجميع أن بادر النبلاء المجتمعون بقيادة الطريق ، وذلك بأن تخلوا عن كل مميزاتهم وعلى الملأ . سيكون لأي مواطن في فرنسا الحق في أي وظيفة ،

وسيكون للجميع الحقوق ذاتها والواجبات نفسها تجاه الدولة ، إنها حقوق الإنسان ، كما كانت تسمى . ولقد أُعلن أنه من الآن فصاعدا سيكون الشعب هو الحاكم الحقيقي ، والملك ما هو سوى ممثل لهم .

وكما قد تتخيل ، فإن ما عناه مجلس هذه القطاعات الثلاثة فعليا هو أن الحاكم موجود ليخدم الشعب وليس العكس ، وأنه لم يعد يُسمح له بأن يتعسف في استخدام سلطاته . بيد أن الباريسيين الذين قرأوا القرار في الصحافة فهموا فكرة سيادة الشعب على أنها تعني شيئا مختلفا تماما . لقد اعتقدوا أنها تعني أن الناس في الشوارع والأسواق ، والذين يُعرفون بلقب «العامة» ، سيكونون هم الحكام . وعندما استمر الملك في رفضه القرار العقلاني حيث دخل في محادثات سرية مع بلاطات أجنبية ، طالبا العون ضد شعبه ، خرج موكب تحت قيادة نساء السوق متجها إلى قصر فيرساي . قام هؤلاء بقتل الحراس ، ثم اندفعوا داخلين إلى الغرف الخلابة بثرياتها الرائعة ومراياتها والدمقس المعلق على جدرانها ، مجبرين الملك وزوجته ، ماري أنطوانيت ، مع أبنائهما وحاشيتهما على العودة إلى باريس حيث أصبحوا تحت سيطرة الشعب .

أقدم الملك وعائلته على محاولة فردية للهرب إلى الخارج ، غير أنه واكب هذه المحاولة إقامة الطقوس والرسميات لشخص متجه إلى حفل تنكري في البلاط الملكي ، فسرعان ما تم التعرف عليهم وإعادتهم ، حيث وُضعوا تحت حراسة مشددة . قرر المجلس الوطني في تلك الأثناء إجراء العديد من التغييرات . تمت مصادرة كل ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، كما صودرت ممتلكات النبلاء الذين هربوا إلى الخارج خوفا من الثورة . بعدها ، قرر المجلس أن يرشح الناس ممثلين جددا ليصوتوا على القوانين .

وعليه ، في 1791 قدم عدد كبير من الشباب إلى باريس من كل أنحاء فرنسا ليقدموا نصائحهم . لكن ملوك وحكام أوروبا الآخرين كانوا قد اكتفوا بما حصل . لم يكن الأمر أنهم شعروا بأن لويس يستحق مساندتهم ، فقد كانوا يزدرون سلوكياته ، كما أنهم لم يأسفوا تماما لرؤيتهم قوة فرنسا تتقلص . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يجلسوا متفرجين بينما يجرد حاكم ملكي مثلهم من قوته . وعليه فقد أرسلت بروسيا والنمسا بعض القوات إلى فرنسا لحماية الملك . أثار ذلك جنون الشعب ، وضج البلد بأكمله بسبب هذا

التدخل غير المرحب به . كان كل نبيل أو مؤيد للملك يُعد خائنا ومتحالفا مع المتواطئين الغرباء مع البلاط . كانت الحشود الثائرة تجر النبلاء من أسرّتهم في الليل ، حيث يُلقون في السجون ويُقتلون . كانت كل دقيقة تمر تزداد فيها الأمور سوءا . وسرعان ما أصبح لزاما أن ينتزع كل ما له علاقة بالماضي من جذوره وأن يدمر .

بدأ ذلك بالملبس . تخلى مؤيدو الثورة عن لبس الشعر المستعار والبنطال القصير والجوارب الحريرية ، واعتمروا القلنسوة الحمراء على رؤوسهم والبنطال الطويل كما لايزال البعض يفعلون إلى اليوم . كان هذان أكثر بساطة وأرخص ثمنا . بثيابهم تلك ، خرج الناس إلى الشارع صارخين : «الموت لكل الأرستقراطيين ! الحرية ! المساواة ! الإخاء !» وفيما يخص الإخاء ، فقد كان لليعاقبة (*) - كما كان أكثر الأحزاب عنفا يسمى - فهم غريب للكلمة . لم يكونوا فقط ضد الأرستقراطيين ، لقد كانوا ضد كل من يختلف معهم في الرأي ، وكل من يغضبهم كان يفقد رأسه . وقد تم اختراع آلة خاصة تسمى المقصلة ، كانت تقوم بالمهمة بسرعة وكفاءة . كما تم تأسيس محكمة خاصة ، والمعروفة باسم المحكمة الثورية ، ويوما بعد يوم ، كانت تحكم على الناس بالإعدام حيث كانوا يُقصلون في ساحات باريس .

كان قادة الحشود الهائجة أشخاصا استثنائيين . كان أحدهم ، ويدعى دانتون ، خطيبا حماسيا ، رجلا جريئا منعدم الضمير ، أثرت خطبه القوية في الناس وحرضتهم على الإمعان في مهاجمة مؤيدي الملك . أما روبيسبيير فقد كان على العكس من دانتون . لقد كان محاميا قاسيا ورصينا وجافا ، يلقي خطبا طويلة لا تنتهي يحرص على أن يذكر فيها أبطال الإغريق والروم . بمظهر مثالي دوما ، كان يصعد درجات منبر المجلس الوطني متحدثا فقط عن الفضيلة ، الفضيلة عند كاتو ، الفضيلة عند ثميستوكليس ، الفضيلة في قلب الإنسان عامة ، ونفور هذا القلب من الرذيلة . ولأنه لابد من كراهية الرذيلة ، كان لابد من قطع رؤوس أعداء فرنسا ، حتى تنتصر الفضيلة ! ومن كانوا أعداء فرنسا تحديدا؟ بالطبع هم كل من اختلف معه في آرائه . وعليه فقد تسبب روبيسبيير في قتل المئات من مناوئيه باسم فضيلة القلب الإنساني . ولكن عليك ألا تظنه منافقا . في الغالب كان هو مقتنعا أنه على الطريق

(*) The Jacobins وكان هؤلاء يمثلون أحد أهم الأحزاب السياسية إبان الثورة الفرنسية ، وقد سموا نسبة إلى دير كانوا يلتقون فيه [المترجمة] .

الصحيح . لم يكن لأحد أن يرشوه بالهدايا أو يؤثر فيه بالدموع . لقد كان مرعبا ، حيث كان هدفه نشر الرعب ، الرعب بين أعداء المنطق كما كان يطلق عليهم .

حتى الملك لويس السادس عشر تم عرضه أمام محكمة الشعب حيث حُكم عليه بالإعدام لأنه ناشد الغرباء المساعدة ضد شعبه ، وسرعان ما أُعدمت ماري أنطوانيت بعدها . في موتهما ، أبدى كلاهما من الكرامة والعظمة ما فاق كل ما أبدوه في حياتهما . ثار سخط حقيقي في الخارج بسبب إعدامهما حيث تحركت قوات عدة إلى باريس . غير أن الشعب لم تكن لديه أي نية للتخلي عن حريته التي نالها حديثا . جُمع الرجال ليحاربوا من جميع أنحاء فرنسا ، حيث هُزمت الجيوش الألمانية ، بينما في باريس ، وقبل ذلك ، في المدن الإقليمية حيث المعارضة لليعاقبة كانت على أشدها ، كان عهد الإرهاب(*) يشتد ويقوى .

أعلن روبيسبيير وممثلو القطاعات أن المسيحية خرافة غابرة ، حيث ألغوا فكرة الرب بمرسوم . عوضا عن الرب ، كان على الناس أن يعبدوا المنطق ، حيث اقتيدت عروس شابة ترتدي ثوبا أبيض وعباءة زرقاء ممثلة إلهة المنطق عبر المدينة في مهرجان موسيقي . وسرعان ما أصبح كل ذلك دون القدر الكافي من الفضيلة بالنسبة إلى روبيسبيير . عندها أُصدر مرسوم جديد يعلن أن الرب موجود فعلا وأن روح الإنسان خالدة . بدا روبيسبيير بذاته وكأنه قسيس لوجود أعلى ، كما أصبح يُطلق على الرب ، يلبس قبعة مزينة بالريش ويحمل طاقة من الورد في يديه . لا بد أن منظره كان سخيفا ، ولا بد أن العديد من الناس كانوا يضحكون حين يرونه . بيد أن سيطرته كانت تقترب من نهايتها . فقد اكتفى دانتون من قطع الرؤوس اليومي داعيا إلى الرحمة والمحبة . كانت ردة فعل روبيسبيير على ذلك أن قال : «فقط المجرمون يطلبون الرحمة نيابة عن المجرمين» . وعليه ، فقد قُطعت رأس دانتون كذلك ، حيث تحقق لروبيسبيير انتصاره الأخير . لكن بعد واحدة من خطبه المطولة ، والتي أصر فيها على أن الإعدامات بالكاد كانت قد بدأت ، وأن أعداء الحرية لايزالون منتشرين في كل مكان ، وأن الرذيلة لاتزال منتصرة وأن البلد لايزال في خطر ، فقد حدث ، ولأول مرة ، أن لم يصفق أحد . عوضا عن ذلك حل على الجموع سكون الموتى . بعد ذلك بأيام قلائل ، قطعت رأس روبيسبيير نفسه .

(*) Reign of Terror .

هُـزم أعداء فرنسـا ، حيـث قُتل النبـلاء أو طُردوا خـارج فرنسـا أو خضعوا لأن يكونوا مواطنين من العامة . تحققت المسـاواة أمام القانون ، وتوزعت أملاك الكنيسة والطبقـة الحاكمـة بين الفلاحـين الذين تحـرروا من العبوديـة الإقطاعيـة . كان لكل رجل فرنسـي حـر أن يختار مهنتـه وأن يتطلع إلـى أي وظيفـة . كان الناس منهكين من الصراع راغبين في التمتع بثمار نصرهم العظيم هذا بسـلام واسـتقرار . تم إلغاء محكمة الثورة ، وفي 1795 تم ترشيح خمسة رجال ليكونوا مجلسا يدير البلد وفقا لدستوره الجديد .

فـي أثنـاء ذلـك وصلت أفـكار الثـورة الفرنسـية لما وراء الحدود ، حيـث قوبلت بحماس شـديد فـي الدول المجـاورة . كونـت بلجيكا وسويسـرا جمهوريـات مبنية كذلك على مبادئ حقوق الإنسـان والمساواة ، حيث قدمت المساعدة العسكرية لهذه الجمهوريـات من الحكومة الفرنسـية . ولقـد كان أن ظهر ، في إحـدى رُتب الجيوش الفرنسية ، ضابط شاب سيثبت ذات يوم أنه أقوى من كل الثورة الفرنسية .

35

الفاتح الأخير

«خلال وقت طويل لم يكن لأي قدر من الإلهام أو البطولة أن يناظر عظمة نابليون»

المؤلف

إن أكثر ما أحببت حول تاريخ العالم هو أنه حقيقي ، إن كل الأشياء الاستثنائية التي نقرأ عنها قد حدثت حقيقة . الأكثر من ذلك ، فإن ما حدث هو في الواقع أكثر إثارة وإدهاشا بكثير من أي شيء يمكننا أن نحكيه . سأحكي لك الآن قصة واحدة من أكثر هذه المغامرات إذهالا وتشويقا ، والتي كانت على الرغم من ذلك حقيقة كما حياتك وحياتي . لقد وقعت ليس في الزمن البعيد ، لقد كان جدي حيا وقتها ، حيث كان في مثل عمرك .

تبدأ القصة هكذا : توجد جزيرة بالقرب من إيطاليا ، جبلية ، مشمسة وفقيرة ، تدعى كورسيكا . على هذه الجزيرة عاش محام وزوجته مع ثمانية من أولادهما . كان اسمه بونابرت . في الوقت الذي وُلد فيه ثاني أبنائه ، نابليون ، في

1769 ، كانت الجزيرة قد بيعت قبل فترة قصيرة لفرنسا عن طريق الجنويين . لم يرق هذا الأمر للكورسيكيين ، حيث كانت هناك العديد من المعارك مع الحكام الفرنسيين . كان من المخطط لنابليون الصغير أن يصبح ضابطا ، فأرسله والده في سن العاشرة إلى مدرسة عسكرية في فرنسا . كان نابليون فقيرا ، بالكاد كان والده يستطيع إعالته ، مما جعله منطويا وتعسا لا يلعب مع أقرانه من التلاميذ . «كنت أقبع في زاوية في المدرسة» - كما كان يقول لاحقا - «حيث كنت أجلس وأحلم بما يرضي قلبي . وعندما كان يحاول رفاقي الاستيلاء على زاويتي ، كنت أدافع عنها بكل ما أملك من قوة ، كنت أعرف وقتها وفطريا أن إرادتي ستنتصر فوق إرادة الآخرين ، وأن كل ما أريده سيصبح ملكا لي» .



تعلم نابليون كثيرا حيث كانت لديه ذاكرة رائعة . في السابعة عشرة من عمره أصبح ملازما ثانيا في الجيش الفرنسي ، وفي تلك الأثناء أُعطي لقب «العريف الصغير» بسبب قصر قامته . ولقد كاد يموت جوعا . كان يقرأ كثيرا بحيث لا يفوته شيء لا يقرأه . وعندما انفجرت الثورة بعد ثلاث سنوات في 1789 ، أرادت كورسيكا أن تحرر نفسها من الحكم الفرنسي . عاد نابليون إلى الديار ليحارب الفرنسيين ، غير أنه سرعان ما عاد إلى باريس حيث إنه ، وكما كتب في رسالة في ذلك الوقت ، «فقط في باريس يمكن للمرء أن يفعل أي شيء» . وكان محقا . ففي باريس نجح هو في تحقيق شيء . فلقد صادف أن خدم أحد أبناء بلدة نابليون بوصفه ضابطا كبيرا في جيش أرسله الثوار لتحطيم المقاومة في مدينة طولون الإقليمية . اصطحب هذا الضابط ذاك الملازم ذا الخمسة والعشرين عاما معه ، ولم يندم أن فعل . قدم نابليون نصحا قويا ودقيقا حول مكان نصب المدافع واتجاه تصويبها ، مما أوقع بالمدينة سريعا . وترقى إلى

جنرال بعد هذه الحادثة . غير أنه في تلك الأوقات الصعبة ، لم تكن تلك الترقية علامة مؤكدة على حياة مهنية ناجحة . فحيث إنك صديق لطرف معين ، فأنت عدو للطرف الآخر . وعندما سقطت الحكومة ، والتي كانت مشكلة من أصدقاء روبيسبيير ، قُبض على نابليون كذلك . صحيح أنه تم إطلاق سراحه سريعا ، ولكن كعقوبة على صداقته مع اليعاقبة ، فقد نابليون درجته وسُرح من الجيش . أصبح عندها معوزا فقيرا وبدا له المستقبل كالحا . بيد أنه ، ومرة أخرى بفضل أحد معارفه ، قُدم اسمه للرجال الخمسة لمجلس الحكم الباريسي ، والذين أوكلوا إليه مهمة تدمير «مسيرة عنيفة» نظمها مجموعة من النبلاء الشباب . لم يتردد نابليون في إطلاق النار على الجمهور مفرقا المسيرة . تكريما له على ذلك ، أعيد نابليون إلى رتبة جنرال وأعطي القيادة على رأس جيش صغير أُرسل إلى إيطاليا لينشر آراء الثورة الفرنسية .

لقد بدت المهمة مستحيلة . كان الجيش يفتقر إلى كل شيء . كانت فرنسا معدمة وفي حال فوضى تامة . في 1796 ، مع بداية الحملة ، تكلم الجنرال نابليون (والذي كان يوقع الآن باسم «بونابرت» على الطريقة الفرنسية) بإيجاز لقواته : «أيها الجنود ! أنتم تقريبا عراة وجوعى . تدين لكم الحكومة بالكثير ولكنها لا تستطيع السداد . غير أنني سأقودكم إلى أكثر الأراضي خصوبة في العالم . مقاطعات غنية ومدن عظيمة ستقع في أياديكم ، وفي تلك ستجدون الفخر والمجد والثروات . أيها الجنود ! هل تنقصكم الشجاعة والقدرة على الصمود؟» . بهذه الكلمات ألهم نابليون جنوده ، ولقد كانت مهارته عظيمة في مواجهة القوة الفائقة لأعدائه حتى أنه حصد الانتصارات أينما ذهب . وفي خلال أسابيع قليلة من بدء الحملة تمكن من الكتابة في رسالة من القيادة إلى الجنود : «أيها الجنود ! في خلال أربعة عشر يوما تمكنتم من الفوز بستة انتصارات ، استوليتم على واحد وعشرين راية وخمسة وخمسين مدفعا . لقد انتصرتم في المعارك بلا مدافع ، عبرتم الأنهار بلا جسور ، سرتم المسافات العظيمة دون أحذية ، نمتم في العراء دون البراندي(*) وأحيانا كثيرة دون خبز . إنني لأسعد تماما حيث سيتمكن كل واحد منكم ، فور عودته إلى الديار ، من القول وبكل فخر : أنا أيضا كنت جزءا من ذلك الجيش الذي استولى على إيطاليا» .

(*) البراندي : نوع من المشروبات الكحولية [المترجمة] .

وتصديقا لكلماته ، لم يمض وقت طويل قبل أن يسيطر جيشه على كل شمال إيطاليا محولا إياه إلى جمهورية على غرار فرنسا وبلجيكا . وأينما ذهب نابليون ، وإذا ما وقعت عيناه على أي عمل فني جميل ، كان يقوم بإرساله إلى فرنسا . بعدها التف شمالا باتجاه النمسا ، ذلك لأن الإمبراطور كان قد هاجمه في إيطاليا . وقد قَدِم رسل الإمبراطور الموجود في فيينا لملاقاته في مدينة ليوبن في ستيريا ، حيث جُهِّز تجهيز كرسي مرتفع من أجل مبعوث الإمبراطور في قاعة المجلس . لكنه أمر بأن يأخذوا هذا الكرسي بعيدا ، قائلا : «لا يمكنني أن أشاهد عرشا دون أن يحدوني شعور ملح بالجلوس عليه» . بعد ذلك طالب نابليون الإمبراطور بالتنازل عن كل أجزاء ألمانيا الواقعة غرب الراين لمصلحة فرنسا . ثم عاد إلى باريس ، غير أنه لم يكن لديه شيء ليفعله هناك . وعليه فقد تقدم باقتراح إلى الحكومة بمهمة جريئة . كان أعظم أعداء فرنسا في ذلك الوقت هو بريطانيا ، حيث أصبح البريطانيون بفضل ممتلكاتهم الاستعمارية العديدة في أمريكا ، أفريقيا ، الهند ، وأستراليا ، غاية في القوة . لم يكن للفرنسيين أن يهاجموا بريطانيا مباشرة لأن جيشهم كان أضعف من أن يفعل ، إضافة إلى ذلك ، لم يكونوا يمتلكون عددا كافيا من السفن الجيدة . غير أنه ، من ناحية أخرى ، لو أن نابليون قام باحتلال مصر ، لتمكن من ضرب مصادر ثراء بريطانيا وذلك عن طريق تهديد المسار إلى ممتلكاتهم الاستعمارية في الهند .

وعليه قاد نابليون جيشا إلى مصر . ومثل الإسكندر الأكبر ، أراد نابليون أن يسيطر على كل منطقة الشرق . اصطحب معه العلماء لفحص ودراسة آثار العصور القديمة . عند وصوله إلى مصر قام نابليون بمخاطبة المصريين المسلمين كأنه نبي مثل (الرسول الكريم) محمد (صلى الله عليه وسلم) . فقد أخبرهم بنبرة مهيبة أنه يستطيع أن يقرأ أعمق أسرار قلوبهم . فقدومه ، كما أخبرهم ، قد تُنبئ به منذ قرون مضت ، ولسوف يجدونه مكتوبا في القرآن . «كل محاولة لمقاومتي محكوم عليها بالفشل ، فأنا مقدر لي أن أنجح في كل عمل أقوم به» .

وفي البداية ، ظهرت الأحداث لتثبت صحة قوله . هزم نابليون الجيوش المصرية في معركة عظيمة على مقربة من الأهرام في 1798 ، وفي معارك

أخرى كذلك ، فلم يكن هناك من هو أفضل منه على أرض المعركة . غير أنه في البحر ، كان للبريطانيين اليد العليا ، حيث دمر أميرالهم الشهير نيلسون الأسطول الفرنسي عند أبوقير على الساحل المصري . عندما انتشر الوباء بين قوات نابليون متزامنا مع وصول أخبار بأن الحكومة في باريس في حال كاملة من الفوضى ، هجر نابليون جنوده مستقلا في السر سفينة إلى فرنسا . هناك ، استُقبل نابليون استقبال الأبطال . كان الجميع يأمل أن يُثبِت هذا الجنرال الشهير نفسه على أرض الوطن كما أثبت نفسه على الأراضي المعادية . في 1799 ، متشجعا بالمساندة التي تلقاها من الناس ، وجه نابليون بندقياته بكل جرأة باتجاه كرسي الحكومة في باريس . وبمؤازرة وتأييد كبيرين من الناس ، قام جنوده بطرد ممثلي الشعب المنتخبين خارج قاعات المجلس ، حيث تولى هو القيادة العليا . واقتداء بالنموذج الروماني القديم ، أعلن نابليون نفسه قنصلا .

وللقيام بدور القنصل هذا ، جمع نابليون بلاطه محاطا بمظاهر العظمة في المقر السكني السابق لملوك فرنسا ، آمرا بإعادة العديد من النبلاء من منفاهم . لكنه عمل أساسا ليل نهار على تثبيت النظام في فرنسا . كان ذلك يعني ، بالنسبة إليه ، أن الأمور لا تأخذ مجراها في أي وقت أو أي مكان إلا إذا أرادها أن تكون كذلك . ولقد نجح في ذلك . وقام باتخاذ إجراءات تؤدي إلى هدف تثبيت النظام ، حيث أقر مجموعة من القوانين المتوافقة مع المبادئ الأساسية الجديدة وأسماها على اسمه : النظام النابليوني . في حملة جديدة في إيطاليا ، هزم نابليون النمسا مرة أخرى . أصبح جنوده يقدسونه وقتها ، كما أن كل فرنسا أصبحت تفرط في إجلاله بسبب ما قدم من مجد وفتوحات للبلد . وقد عينه الناس قنصلا مدى الحياة . غير أن كل ذلك لم يرض نابليون بعد . في 1804 أعلن نابليون نفسه إمبراطورا ، إمبراطورا على الفرنسيين ! ولقد قام البابا بنفسه برحلة إلى فرنسا لتنصيبه . بعد ذلك بوقت قصير ، نادى نابليون بنفسه ملكا على إيطاليا كذلك . بدأت الدول الأخرى تتخوف من هذا الآتي الجديد القوي ، حيث كونت بريطانيا ، بروسيا ، النمسا ، روسيا والسويد تحالفا ضده . لم يسمح نابليون لهذا الأمر بأن يقلقه . لم يكن خائفا من جيوش العدو مهما بلغ حجمها . في شتاء 1805 عمد إلى مهاجمة حلفاء لقوات العدو في أوسترليتز

وإلحاق هزيمة ساحقة بهم. الآن، أصبح نابليون سيدا على كل أوروبا تقريبا، حيث أعطى كل واحد من أقربائه مملكة، أو تذكارا صغيرا، إذا جاز التعبير. أصبح ابن زوجته نائبا له في إيطاليا، كما أعطى أخاه الأكبر نابولي، وأخاه الأصغر هولندا، وزوج أخته جزءا من ألمانيا، كما أعطى أخواته دوقيات في إيطاليا. لم يكن كل ذلك بالإنجاز السيئ لأسرة محام كورسيكي، والتي كانت منذ عشرين عاما مضت، تجلس حول طاولة على جزيرتهم البعيدة متقاسمين وجبة تكاد - بصعوبة - تسد رمقهم.

في ألمانيا كذلك، كانت كل السلطة في يدي نابليون، حيث أصبح الأمراء الألمان، الذين أداروا ظهورهم للإمبراطور في فيينا منذ أمد طويل، حلفاء الآن لنابليون العظيم. تخلى الإمبراطور فرانسيس عن لقب الإمبراطور الألماني، حيث كانت تلك هي نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الجيرمانية، والتي بدأ تأسيسها بتتويج شارلمان في روما قبل ذلك بألف سنة. وابتداء من سنة 1806 فصاعدا أصبح فرانسيس من هابسبيرغ إمبراطور النمسا فقط.

بعد ذلك، هاجم نابليون الهوهنزوليرن(*)، وفي غضون أيام، كانت الجيوش البروسية قد هُزمت تماما. في السنة نفسها، دخل نابليون إلى برلين، ومن هناك فرض قوانينه على أوروبا. أولا وقبل كل شيء، منع على كل من في أوروبا أي تعامل تجاري مع أعداء فرنسا: البريطانيين. كان هذا الأمر يعرف باسم: النظام القاري Continental System. وحيث إنه فقد كامل أسطوله في مواجهة الأميرال نيلسون في معركة الطرف الأغر في السنة السابقة، لم يكن باستطاعة نابليون أن يغزو هذه الدولة القوية. عوضا عن ذلك، خطط نابليون لإخضاع البريطانيين عن طريق حصار اقتصادي. عندما رفضت الدول الأخرى هذه الخطة، عاد نابليون إلى ألمانيا وهاجم الروس الذين أصبحوا الآن حلفاء للبروسيين. وفي 1807 قدم نابليون لأخيه الأصغر قطعة من ألمانيا مملكةً خاصة به.

(*) عائلة ملكية نبيلة كانت تحكم بروسيا [المترجمة].

الآن ، جاء الدور على إسبانيا . سيطر نابليون على هذه الدولة وأعطى الحكم فيها لأخيه جوزيف ، حاكم نابولي سابقا ، حيث أعطى نابولي لأحد أزواج أخواته . غير أن اليوم قد جاء عندما اكتفى سكان هذه المناطق من لعبة تمريرهم على أعضاء عائلة بونابرت وكأنهم هدايا . كان الإسبان أول من قاوم الحكم الفرنسي منذ 1808 فصاعدا . لم يدخلوا أي معارك من أجل ذلك ، لكن الشعب بأكمله كان في حال عصيان مستمر لم يستطع الجنود الفرنسيون سحقها على الرغم من كل محاولاتهم الوحشية . كما اكتفى إمبراطور النمسا من تحكم نابليون المستمر به . في 1809 اندلعت حرب جديدة . كان جيش نابليون يقترب من فيينا بالغا ضواحيها عند آسبيرن . هناك ، ولأول مرة في حياته ، اختبر نابليون الهزيمة على يدي الجنرال الشجاع الأرشيدوق(*) تشارلز . بيد أنه وبعد أيام قلائل ، هَزم وعن جدارة الجيش النمساوي في فاغرام . زحف نابليون بعدها إلى فيينا متمركزا في القصر الإمبراطوري في شونبرون ومجبرا الإمبراطور فرانسيس على إعطائه يد ابنته ماري - لويز للزواج . بالنسبة إلى عضو في السلالة الإمبراطورية لعائلة هابسبيرغ والذي حكمت عائلته من فيينا لما يزيد على 500 سنة ، لم يكن ذلك بالشيء اليسير . لم يكن لنابليون أي نسب ملكي . لم يكن سوى ملازم صغير قفز قفزة كبيرة وأصبح ، من خلال قدراته الاستثنائية ، ولا شيء غيرها ، سيدا وقائدا على أوروبا .

في 1810 أنجبت ماري-لويز ولدا أعطاه نابليون لقب ملك روما . أصبحت إمبراطورية نابليون الآن أكبر بكثير من تلك التي كانت لشارلمان ، وذلك إذا ما شملنا كل ممالك إخوته وأخواته وجنرالاته ، والتي كانت لهم بالاسم فقط ، حيث إنه إذا ما لم تعجبه إدارتهم لها ، كان يرسل إليهم رسالات مهينة . على سبيل المثال ، كتب نابليون لأخيه ملك ويستفاليا يقول : «لقد اطلعت على أحد أوامرك الموجهة هذه الأيام للجنود والتي ستجعل منك أضحوكة ألمانيا والنمسا وفرنسا . أليس لديك صديق يرشدك إلى بعض الحقائق؟ أنت ملك وشقيق الإمبراطور ، لكن تلك ألقاب لا قيمة لها في ساحة المعركة . هناك ، يجب

(*) لقب يطلق على الأمير الذي ينتمي إلى الأسرة الإمبراطورية [المترجمة] .

عليك أن تكون جنديا ولا شيء آخر سوى ذلك . لتنس وزراءك وسفراءك وكل بهرجتك . يجب عليك أن تنام في العراء في مقدمة جيوشك مع رجالك ، أن تجلس على حصانك ليل نهار ، أن تسير في المقدمة ، حتى تعرف ما يجري حولك» . تنتهي هذه الرسالة بالتالي : «بحق الرب لتكن لديك الفطنة لتكتب وتتحدث بشكل صحيح» . تلك كانت الطريقة التي يعامل بها الإمبراطور أشقاءه ، ملوك أوروبا . بيد أنه كان يعامل الناس بطريقة أكثر سوءا . لم يكن ليهتم بما كانوا يفكرون أو يشعرون به . بالنسبة إليه كانوا مجرد مصدر للمال ، أو الأدهى من ذلك ، مجرد جنود . لكن بمرور الوقت أصبح الناس أقل استعدادا لإطاعة أوامره . بعد الإسبان ، كان فلاحو تيرول هم التالين في التمرد على الجنود الفرنسيين والبافاريين . كانت تيرول مقاطعة أخذها نابليون من إمبراطور النمسا وأعطاها لمملكة بافاريا . ولقد انتهت ثورتهم فقط عندما قبض نابليون على قائدهم ، أندريس هوفر ، وقتله رميا بالرصاص .

في ألمانيا كذلك ، كان الشعب بأكمله في حال هياج وسخط شديدين بسبب الوحشية المتعمدة لإمبراطور فرنسا . والآن وقد أصبحت معظم الإمارات الألمانية تحت الحكم الفرنسي ، لأول مرة في تاريخهم شعروا بأن مصيرهم مشترك : لم يكونوا فرنسيين ، لقد كانوا ألمانا . من كان سيهتم لو أن ملك بروسيا كان على علاقة جيدة بملك ساكسونيا أم لا ، أو لو أن ملك بافاريا كان قد تحالف مع شقيق نابليون؟ فقد تولدت تلك التجربة التي اشترك فيها كل الألمان ، تجربة أن يسيطر عليهم الغرباء ، عن رغبة مشتركة : الرغبة في التحرر . لأول مرة في التاريخ ، اتحدت كل القوى الألمانية ، الطلبة والشعراء ، الفلاحون والنبلاء ، في مواجهة حكامهم لتحرير أنفسهم . لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة . كان نابليون قويا جدا . في حينها ، قال الشاعر الألماني العظيم غوته : «فلتنفض قيودك كيفما تشاء ، هذا الرجل أعظم من أن تهزمه !» وبالفعل ، وخلال وقت طويل لم يكن لأي قدر من الإلهام أو البطولة أن يناظر عظمة نابليون . بيد أن ما تسبب في سقوطه أخيرا هو طموحه النهم . فكل القوة التي كان يمتلكها لم تبد كافية : بالنسبة إليه لم تكن تلك سوى البداية . والآن ، جاء الدور على روسيا . فقد تحدى الروس أوامره بعدم التبادل التجاري مع البريطانيين ، وبسبب ذلك كان لا بد من معاقبتهم !

جهز نابليون القوات من كل مقاطعات إمبراطوريته الشاسعة حتى أصبح لديه جيش من ستمائة ألف رجل ، تخيل ذلك ، أكثر من نصف مليون إنسان ! أحد أكبر الجيوش التي رآها العالم مطلقا . والآن ، في 1812 ، زحف هذا الجيش إلى روسيا . لم يقابل الجنود أي مقاومة بينما هم يتوغلون في قلب البلد أكثر فأكثر . وكلما تقدموا ، تراجع الروس ، تماما كما فعلوا سابقا مع قوات تشارلز الثاني عشر من السويد . وأخيرا ، وعلى بوابات موسكو ، توقف الجيش الروسي العظيم . هاجم نابليون المدينة ، حيث بدا منتصرا في هجومه ، ولقد كدت أقول «بلا شك» ، بما أن الانتصار في المعارك يبدو بالنسبة إليه مثل حل الألغاز ، إن كنت ممن يجيد مثل هذه الأشياء . كان يلاحظ موقع العدو فيدرك مباشرة أين يجب عليه أن يمركز قواته لكي يتجنب أو يهاجم العدو . وعليه فقد زحف داخلا موسكو ليفاجأ بأن المدينة شبه خالية وقد هرب معظم سكانها . كان الوقت آخر الخريف . تمركز نابليون في الكرملين ، القلعة الإمبراطورية القديمة ، بانتظار أن يملي شروطه على أعدائه . بعدها ، أتت الأخبار بأن ضواحي موسكو تحترق . في تلك الأيام ، كانت معظم بيوت موسكو مصنوعة من الخشب ، وعليه فقد انتشر الحريق بتوسع حيث ابتلعت النيران أجزاء كبيرة من المدينة . على الأغلب ، بدأ الروس الحريق بأنفسهم ليضغطوا على الفرنسيين . ولقد ذهبت كل الجهود لإخماد النيران سدى .

أين يسكن ستمائة ألف رجل في موسكو التي تحترق؟ وكيف يمكن إطعامهم؟ لم يكن لدى نابليون من خيار آخر سوى التراجع . في تلك الأثناء ، كان الشتاء قد حل حيث هبط البرد القارس . كل ما كان على امتداد بصرهم على طول طريقهم تم نهبه وإتلافه . لقد أصبح التراجع عبر الأراضي الخربة الجليدية اللامتناهية للسهول الروسية شيئا أفظع من أن يوصف . تساقط المزيد والمزيد من الجنود على أجناب الطرق بعد أن اشتد عليهم البرد والجوع ، كما نفقت الآلاف من الخيول . هاجم الروس القوزاق من فوق ظهور خيولهم مؤخرة وأجنحة الجيش . حارب الجنود وقد تملكهم اليأس ، حيث تمكنوا من عبور نهر بريزينا العظيم وهم محاصرون من القوزاق وفي وسط عاصفة ثلجية هائجة . لكن قواهم خارت شيئا فشيئا حتى فقدوا الأمل . أقل من واحد على العشرين من الجنود نجا من

هـذه الهزيمة الشـنعاء بالغا الحـدود الألمانية ، وقـد بلغ مراحله الأخيـرة من المرض والإرهـاق . أمـا نابليـون فقد هجر قواتـه متنكرا في هيئـة فلاح وأسـرع عائدا إلى باريس على مزلاجة .

كانـت أولى خطواته هـي تجهيز قوات جديدة ، إذ ما كادت قوته تضعف حتى انتشرت الثورات في كل مكان . غير أنه ومرة أخرى ، نجح في تجهيز جيش عظيم ، مكون هذه المرة بالكامل من الرجال الشباب . كان هؤلاء آخر من تبقى من الرجال في فرنسـا ، والذين دفـع بهم نابليون الآن لقتال شـعوب الرعيـة . زحف نابليون إلى ألمانيا ، حيث أرسل عندها إمبراطور النمسا مستشاره ميتيرنيخ ، ليفاوض على معاهـدة سـلام . أجرى ميتيرنيخ مفاوضات مع نابليون ليـوم كامل : «وماذا لو أن جيش الصبيان هذا الذي جهزته لفورك قد سُـحق تماما؟» اصفر وجه نابليون على وقـع هذا الـكلام ، متحولا إلى البنفسـجي بغضبته : «أنت لسـت جنديا !» صرخ نابليون . «أنت لا تعرف شـيئا عن قلب الجندي . لقد شـببت على أرض المعركة ، ورجل مثلي لا تهمه قيد أنملة حياة الملايين !» مع فورته هذه ، كما يُخبر ميتيرنيخ ، ألقى نابليون بقبعته عبر القاعة .

تـرك ميتيرنيخ القبعة حيث هبطت وقال بهدوء : «لِمَ أكون الشـخص الوحيد الذي يسـتمع لهـذه الكلمات بين الجـدران الأربعة هذه؟ افتح البـاب حتى تدوي كلماتك في أطراف فرنسـا» . رفض نابليون شـروط معاهدة السـلام المرسـلة من الإمبراطـور قائـلا لميتيرنيخ إنـه لا يملك الخيار . فإذا مـا أراد أن يبقى إمبراطورا على الفرنسـيين ، وجـب عليـه أن يحـارب وأن ينتصر . فـي 1813 وقعـت معركة في لايبزيغ في ألمانيا بين جيش نابليون والجيوش الخاصة بأعدائه المتحالفين . في اليوم الأول ، كان لنابليـون اليـد العليا ، غيـر أنه ، في اليوم الثانـي ، عندما تخلت فجأة القوات البافارية عنه ، والتي كانت تحارب إلى جانبه ، خسر نابليون المعركة وأُجبر علـى التراجـع . خلال تراجعه ، حارب نابليون جيشـا ضخما آخـر من البافاريين كان يلاحقه ، بعد ذلك عاد إلى فرنسا .

لقد كان محقا ، فبعد خسـارته خلعه الفرنسـيون ، حيث أُعطي السـيادة على جزيـرة صغيرة تدعـى إلبا ، انزوى نابليـون فيها . لكن الأمـراء والإمبراطور الذين ألحقوا الهزيمة به اجتمعوا في فيينا في 1814 للتفاوض وليتقاسـموا أوروبا بينهم .

لقد كان رأيهم أن التنوير جلب الكوارث على أوروبا . ففكرة الحرية تحديدا هي المسؤولة عن كل الاضطرابات التي وقعت وعن أعداد الضحايا التي لا تحصى والتي سقطت خلال الثورة ، وكذلك خلال حروب نابليون . لقد أرادوا أن يُلغوا الثورة بأكملها . لقد كان ميتيرنيخ تحديدا عازما على أن يعود كل شيء لما كان عليه ، وألا يسمح لثورة مماثلة بأن تقوم لها قائمة أبدا . وعليه فقد كان ضروريا جدا ، كما كان يعتقد هو ، إلا يُكتب أو يُطبع شيء في النمسا من دون موافقة الحكومة والإمبراطور .

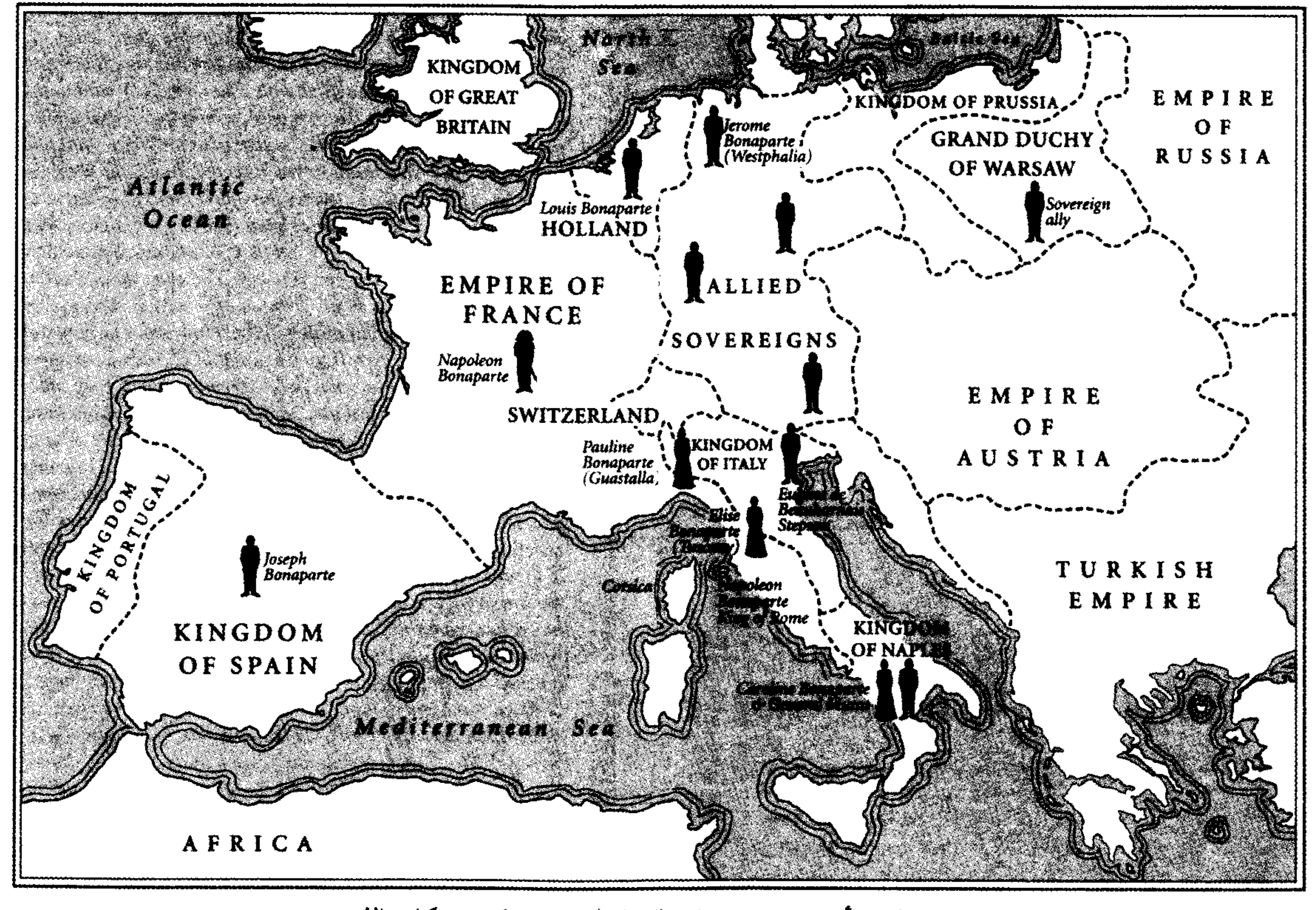
في فرنسا ، انطفأت الثورة تماما . صعد شقيق لويس السادس عشر إلى العرش باسم لويس الثامن عشر (حيث أعطي لقب لويس السابع عشر لابن لويس السادس عشر والذي توفي خلال الثورة) . حكم لويس الجديد من بلاطه في فرنسا بالبذخ وسوء التقدير ذواتيهما اللذين كانا لأخيه التعس ، كأن الستة والعشرين عاما من الثورة وعمر الإمبراطورية لم تحدث مطلقا ، مما جعل سخط الفرنسيين في ازدياد . عندما سمع نابليون بذلك ، غادر إلبا بسرية (في 1815) حيث وصل إلى فرنسا بصحبة عدد قليل من الجنود . أرسل لويس جيشا لمحاربته ، غير أنه ما كاد الجنود يشاهدون نابليون ، حتى هجروا مواقعهم وانضموا إليه ، كما انضم إليهم جنود من قوات عسكرية أخرى . بعد أيام قلائل من الزحف المستمر ، دخل الإمبراطور نابليون باريس منتصرا ، حيث فر الملك لويس الثامن عشر هاربا .

ثار غضب الأمراء الذين كانوا لايزالون يتشاورون في فيينا ، حيث أعلنوا نابليون عدوا للإنسانية . تحت قيادة الدوق الإنجليزي من ويلينغتون تم تجهيز جيش مكون في أغلبه من الجنود الإنجليز والألمان في بلجيكا . هجم نابليون من دون تأخير ، حيث وقعت معركة عنيفة في 1815 في منطقة تسمى واترلو . مرة أخرى ، بدا نابليون منتصرا لأول وهلة ، لكن أحد جنرالاته أساء فهم الأمر المعطى إليه وقاد القوات بالاتجاه الخطأ . بحلول المساء ، جمع قائد القوات البروسية ، الجنرال بلوخر ، رجاله المنهكين ويتلك الكلمات «يبدو الحال ميئوسا منه ، بيد أننا يجب ألا نستسلم» ، أعادهم إلى ساحة المعركة . كانت تلك آخر هزائم نابليون ، حيث هرب بصحبة جيشه ، ثم خُلع مرة أخرى وأُجبر على مغادرة فرنسا .

Atlantic Ocean	المحيط الأطلسي
Kingdom of Great Britain	مملكة بريطانيا العظمى
North Sea	بحر الشمال
Baltic Sea	بحر البلطيق
Kingdom of Prussia	مملكة بروسيا
Empire of Russia	الإمبراطورية الروسية
Grand Duchy of Warsaw	دوقية وارسو الكبرى
Holland	هولندا
Empire of Austria	الإمبراطورية النمساوية
Empire of France	الإمبراطورية الفرنسية
Switzerland	سويسرا
Kingdom of Italy	مملكة إيطاليا
Kingdom of Spain	مملكة إسبانيا
Kingdom of Portugal	مملكة البرتغال
Kingdom of Naples	مملكة نابولي
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط

Africa	أفريقيا
Caroline Bonaparte & General Murat	كارولين بونابرت والجنرال موزات
Napoleon Bonaparte King of Rome	نابليون بونابرت ملك روما
Turkish Empire	الإمبراطورية التركية
Corsica	كورسيكا
Joseph Bonaparte	جوزيف بونابرت
Elise Bonaparte (Tuscany)	إليز بونابرت (توسكانا)
Eugene de Beaharnis /Stepson	يوجين دو بوهارنيه/ ابن زوجته
Pauline Bonaparte (Guastalla)	بولين بونابرت (غواستالا)
Napoleon Bonaparte	نابليون بونابرت
Allied Sovereigns	الممالك الحليفة
Jerome Bonaparte (Westphalia)	جيروم بونابرت (وستفاليا)
Louis Bonaparte	لويس بونابرت
Sovereign Ally	مملكة حليفة

مفتاح الخريطة المقابلة



هنا، يمكنك أن ترى بوضوح قوة الرجل الصغير من كورسيكا، والذي
وزع أقرباءه حكاما في كل أوروبا مثل القطع على رقعة الشطرنج .

صعد نابليون على متن سفينة بريطانية ، مسلما نفسه طوعا بين يدي أقدم أعدائه ، الوحيدين الذين لم يتمكن من هزيمتهم أبدا . لقد كان آملا في شهامتهم قائلا إنه يرغب في أن يحيا كمواطن تحت القانون الإنجليزي . غير أن نابليون خلال كل حياته ، لم يكد يظهر أي شهامة . وعوضا عن ذلك ، أعلن البريطانيون نابليون أسير حرب حيث أرسلوه إلى جزيرة مهجورة بالغة الصغر في أعماق المحيط الأطلسي ، ومعروفة باسم جزيرة سانت هيلينا ، وبذلك لن يتمكن من العودة مرة أخرى أبدا . هناك ، أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته ، منبوذا وعاجزا ، ممليا ذكرياته حول كل إنجازاته وانتصاراته ، متشاجرا مع المحافظ البريطاني الذي لم يكن ليسمح له بأن يتمشى بمفرده حول الجزيرة . تلك كانت نهاية الرجل الصغير ذي البشرة الشاحبة ، والذي فاقت قوة إرادته وصفاء ذهنه نظيريهما عند أي حاكم قبله . في غضون ذلك ، حكمت قوى الماضي العظمى ، تلك البيوت الأميرية النقية العريقة ، أوروبا مرة أخرى ، بينما قاد ميتيرنيخ الصارم القاسي ، الذي لم ينحن ليلتقط قبعة نابليون ، مصائر كل دول أوروبا من فيينا ، وذلك من خلال مبعوثيه ، كأن الثورة لم تندلع مطلقا .

36

بشر وآلات

«استطاع الناس بفهم رياضيات الطبيعة ليس فقط فهم قوى الطبيعة، بل استخدامها كذلك، حيث أصبحت الآن تسخر وتوضع لخدمة الإنسانية»

المؤلف

استطاع ميتيرنيخ والحكام التقاة في روسيا والنمسا وفرنسا وإسبانيا وبكل تأكيد أن يعيدوا الحياة لما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية، على الأقل في مظهرها الخارجي. مرة أخرى، عادت الفخامة وطقوس التشريفات للبلاطات، يجوبها النبلاء بصدورهم المغطاة بالأوسمة والنياشين، ممارسين نفوذهم العظيم. استُبعد المواطنون عن السياسة، حيث ناسبهم هذا البعد كثيرا في الواقع. شغل الناس أنفسهم بأسرهم، بالكتب، وقبل كل شيء، بالموسيقى. ففي خلال المائة سنة الماضية، أصبحت الموسيقى، والتي كانت تسمع غالبا مصاحبة للرقص والشعر والأناشيد في العصور السابقة، الفن الأكثر مخاطبة للناس بين كل أنواع الفنون الأخرى. غير أن هذه الفترة من الطمأنينة والرخاء، والمعروفة لدى النمساويين

باسم عصر البيدرماير أو Biedermeier era – وهو عصر برز فيه الإداريون أو المتخصصون من مواطني الطبقة الوسطى – لم تكن سوى الجانب الظاهر من الأشياء . كانت هناك فكرة تنويرية واحدة لم يستطع ميتيرنيخ قمعها ، ولم يفكر أساسا في أن يفعل . كانت تلك هي فكرة غاليليو حول النهج الرياضي المنطقي لدراسة الطبيعة ، والتي راقت للناس كثيرا في زمن التنوير ذاك . ولقد حدث أن أدى هذا الجانب الخفي من التنوير إلى ثورة أعظم ، مسددا ضربة قاضية للمؤسسات والأعراف القديمة ، ضربة أكثر فتكا بكثير من كل ما فعله الباريسيون اليعاقبة بمقصلتهم .

استطاع الناس بفهم رياضيات الطبيعة ليس فقط فهم قوى الطبيعة ، بل استخدامها كذلك ، حيث أصبحت الآن تسخر وتوضع لخدمة الإنسانية .

إن تاريخ كل الاختراعات التي تلت ذلك ليس بالبساطة التي قد تعتقدها . في معظم الحالات ، بدأ الاختراع بفكرة . هذه الفكرة قادت إلى تجارب واختبارات ، والتي غالبا ما يليها التخلي عن الفكرة ، ليتم التقاطها في وقت لاحق ، وعلى الأغلب من شخص آخر . فقط عندما يأتي شخص يملك من الإصرار والمثابرة ما يكفي ليصل بالفكرة إلى ختامها ، وليخلق منها منفعة عامة ، يعرف هذا الشخص بـ «المخترع» . كانت هذه هي الحال مع كل الآلات التي غيرت حياتنا – مع الآلات التي تعمل بالبخار ، السفينة البخارية ، المحرك البخاري ، والتلغراف – وكلها أخذت أهميتها في عصر ميتيرنيخ .

ظهر المحرك البخاري أولا . كان رجل فرنسي مثقف يدعى بابين قد بدأ تجاربه في العام 1700 ، غير أنه لم يتحقق شيء حتى العام 1769 عندما استطاع مهندس إسكتلندي يدعى جيمس وات أن يستخرج براءة اختراع للمحرك البخاري . في البداية ، لم يكن المحرك يستخدم إلا لضخ الماء من المناجم ، غير أن الناس سرعان ما أدركوا إمكانية استعماله في تحريك العربات والسفن . انطلقت التجارب حول السفن البخارية في إنجلترا في العام 1802 ، وفي العام 1803 أطلق مهندس أمريكي يدعى روبرت فولتون سفينة بخارية في نهر السين . تعليقا على هذا الحدث ، كتب نابليون قائلا : «هذا المشروع قادر على تغيير وجه العالم» . بعدها بأربع سنوات ، في العام 1807 شقت أول سفينة بخارية طريقها عبر نهر الهدسون من نيويورك إلى ألباني ، بعجلة مجداف ضخمة تضرب صفحة الماء بقوة ، وبالكثير من النفخ والقعقعة والتجشؤ للدخان الخارج منها .

في الوقت ذاته تقريبا كان هناك العديد من المحاولات في إنجلترا كذلك لتشغيل العربات باستخدام البخار . غير أن اختراع محرك صالح للاستعمال لم يتحقق حتى العام 1803 ، حيث تم استخدامه على خطوط سكة حديدية مصنوعة من الحديد المصبوب . في العام 1814 صنع جورج ستيفنسن أول قاطرة بخارية ناجحة وأسماها «بلوخر» على اسم الجنرال البروسي العظيم ، وفي العام 1825 افتتح أول خط سكة حديدية بين مدينتي ستوكتن ودارلينغتون . وفي خلال ثلاثين سنة ، انتشرت خطوط السكك الحديدية في مختلف أنحاء بريطانيا وأمريكا ، متخللة كل أوروبا ، وفي الهند كذلك . صعدت هذه الخطوط فوق الجبال ، تخللت الأنفاق ، واخترقت الأنهار العظيمة ، حاملة الناس بسرعة أكبر عشر مرات على الأقل من أسرع مركبة جياد .

كان الوضع مماثلا بالنسبة إلى اختراع التلغراف الكهربائي ، الطريقة الوحيدة للاتصال السريع قبل ظهور الهاتف . بدأت الفكرة في العام 1753 ، ثم استمرت المحاولات العديدة لتنفيذها منذ العام 1770 فصاعدا ، لكن فقط في العام 1837 نجح فنان أمريكي يدعى ساموبل مورس في إرسال برقية قصيرة إلى أصدقائه . مرة أخرى ، مرت عشر سنوات تقريبا قبل أن ينتشر استخدام التلغراف .

غير أن آلات أخرى في الواقع هي التي غيرت العالم بشكل أكثر عمقا . كانت تلك هي الآلات التي استفادت من قوى الطبيعة عوضا عن القوى البشرية . خذ الغزل والحياكة على سبيل المثال ، والتي هي أعمال دوما ما كان يقوم بها الحرفيون . فعندما تزايد الطلب على القماش (تقريبا في عصر لويس الرابع عشر) ، كانت المصانع موجودة غير أن العمل كان يدويا . واستغرق الأمر وقتا حتى أدرك الناس أن معرفتهم الجديدة بالطبيعة يمكن تطبيقها على عملية إنتاج الأقمشة . تتقارب تواريخ هذا الاختراع مع تواريخ الاختراعات العظيمة الأخرى . كان الناس يجرون تجارب على أنواع متعددة من آلات الغزل منذ العام 1740 وما بعد . ولقد تم تقديم النول(*) الميكانيكي في الوقت ذاته تقريبا . ومجددا ، كان أن صنعت هذه الآلات واستخدمت لأول مرة في إنجلترا . كانت الآلات والمصانع تحتاج إلى الفحم والحديد ، وعليه فإن الدول التي كانت تمتلك الفحم والحديد كانت ذات حظوة كبيرة .

(*) هو هيكل من الخشب أو البلاستيك تلتف وتغزل عليه الخيوط لتكون النسيج [المترجمة] .

ولّدت كل هذه التطورات اضطرابات هائلة في حياة الناس . انقلبت كل الاشياء على أعقابها ، وبالكاد بقي شيء على ما كان عليه في السابق . تأمل لدقيقة كم كانت الأمور مؤمَّنة ومنظمة في نقابات مدن القرون الوسطى ! استمرت هذه النقابات حتى وقت الثورة الفرنسية وما بعدها . صحيح أنه في ذلك الوقت لم يعد من السهل على العامل المسافر أن يصبح محترفا كما كان عليه الوضع في القرون الوسطى ، بيد أن الأمر كان لايزال ممكنا ، حيث لايزال الأمل موجودا . الآن ، وفجأة ، تغير كل شيء . امتلك بعض الناس الآلات ، فلم يحتاجوا إلى كثير من التدريب ليتعلموا كيفية تشغيلها ، كان الأمر يستغرق ساعتين وبعدها تشغل هذه الآلات نفسها . كان ذلك يعني أنه أصبح بإمكان كل من يمتلك النول الميكانيكي ، بمساعدة شخص أو اثنين ، ربما زوجته وأحد أبنائه ، أن ينتج أكثر مما يمكن أن ينتجه مائة حائك متمرس . إذن ، ما الذي كان يحدث لكل حائكي المدينة التي يدخلها النول الميكانيكي؟ الجواب هو أنهم استيقظوا في أحد الأيام ليكتشفوا أنه لم تعد هناك حاجة إليهم . كل ما استغرق سنوات عديدة ليتعلموه ، أولا كمتمرنين مبتدئين وبعدها كعمال مسافرين ، أصبح عديم الفائدة . كانت الآلات أسرع ، أكثر كفاءة ، وأقل تكلفة . فالآلات لا تنام ولا تأكل ، كما أنها لا تحتاج إلى الإجازات والعطل . وبفضل تلك الآلات الجديدة ، أصبح بإمكان صاحب المصنع أن يكدس كل الأموال التي كانت توفر في السابق حياة الأمن والراحة لمئات الحائكين ، أو أن يصرفها على نفسه . بالطبع ، كان صاحب المصنع لايزال في حاجة إلى عمال ليديروا هذه الآلات ، لكنه لم يعد يحتاج إلى المهرة ولا إلى عدد كبير منهم .

غير أن أسوأ النتائج كانت كالتالي : أصبح كل مائة حائك في المدينة بلا عمل وقد يموتون جوعا بسبب آلة واحدة تقوم بعملهم ، وبالطبع ، فإن الإنسان سيفعل كل ما يستطيع حتى لا يرى عائلته تتضور جوعا حتى إن عمل في مقابل مبلغ زهيد مادام لديه عمل يبقي روحه في جسده . وعليه ، يقوم صاحب المصنع ، وبكل ما يملك من آلات ، باستدعاء المائة حائك المتضورين جوعا قائلا لهم : «أحتاج إلى خمسة أشخاص لإدارة مصنعي والاعتناء بآلاتي ، ماذا تريدون مقابل ذلك؟» قد يقول أحدهم : «أنا أريد الكثير ، إن أردت أن أحيا برغد كما في السابق» ، وسيقول التالي : «أنا أريد ما يكفي لشراء رغيف خبز وكيلو من البطاطس يوميا» ، وأما الثالث ، وقد

رأى آخر فرصه للحياة على وشك التبخر من بين يديه، فسيقول: «سأحاول أن أعيش بنصف رغيف»، أربعة آخرون سيقولون عندها: «ونحن كذلك»، «حسنا»، سيقول صاحب المصنع، «سأوظفكم أنتم الخمسة، كم ساعة يمكنكم أن تعملوا في اليوم؟»، «عشر ساعات» سيقول الأول، «اثنتي عشرة» سيقول الثاني، وهو يرى الوظيفة تطير من بين يديه. «يمكنني أن أعمل لست عشرة ساعة»، يصرخ الثالث، فحياته تتوقف على هذه الوظيفة. «حسنا»، سيقول صاحب المصنع، «سأعطيك الوظيفة، لكن من سيرعى آلاتي في وقت نومك؟ فآلاتي لا تنام!»، «سأحضر أخي الأصغر ليقوم بالمهمة، إنه في الثامنة من عمره»، هكذا سيكون جواب هذا الحائك قليل الحظ. حينها سيرد صاحب المصنع قائلا «وماذا سأعطيه مقابل ذلك؟»، فيرد الحائك «القليل من القروش ستفي بالغرض، ليشتري لنفسه بعض الخبز والزبد»، وحتى في حينها قد يكون رد صاحب المصنع: «يمكنه أن يحصل على الخبز، لكن سنرى - لاحقا - شأن الزبد»، وهكذا كانت الأمور تسير. فالخمسة وتسعون حائكا المتبقون كانوا يتركون ليموتوا جوعا، أو ليجدوا صاحب مصنع آخر يقبل بهم.

لا يجدر بك الآن أن تتصور أن كل أصحاب المصانع كانوا بدناءة ذاك الذي وصفته لفوري. غير أن أسوأهم، الذين كانوا يدفعون أقل ويبيعون بأبخس الأثمان، كانوا الأكثر نجاحا. بعدها، يجد الآخرون أنفسهم، بخلاف ما يمليه عليهم ضميرهم وغرائزهم الطبيعية، مجبرين على معاملة عمالهم بالأسلوب نفسه.

بدأ الناس يصابون بالقنوط. لِمَ يتكبدون عناء تعلم مهارة وصنع أشياء جميلة بأياديهم؟ يمكن للآلات أن تؤدي المهمة ذاتها أسرع منهم مائة مرة، وغالبا أكثر إتقانا، وبجزء من المائة من السعر القديم. وعليه فقد غرق الحائكون، الحدادون، الغزّالون، وصناع الخزائن عميقا وبشكل غير مسبوق في الأسى والعزلة، يركضون من مصنع إلى مصنع على أمل الحصول على بضعة قروش. ثار العديد منهم على هذه الآلات التي سلبتهم سعادتهم. اقتحم هؤلاء المصانع وحطموا النول، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا. ففي إنجلترا في العام 1812، أقرت عقوبة الإعدام لكل من وجد مذنبا بتهمة تحطيم آلة. بعدها، تتابعت الآلات الأحدث والأفضل والتي بإمكانها أن تقوم ليس بعمل مائة، بل خمسمائة من العمال، مما رفع من نسبة البؤس والمعاناة العامة.

شعر البعض بأن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الحال . لم يكن يحق لشخص ، فقط لأنه حدث أن امتلك ، أو في الغالب ورث ، آلة ، أن يعامل الآخرين بشكل يفوق في قسوته الطريقة التي كان يعامل بها النبلاء فلاحيهم . فقد بدا للناس أن المصانع والآلات وما شابهها ، والتي أعطت لملاكها مثل هذه السلطة الوحشية على حيوات الناس الآخرين ، يجب ألا تكون ملكا للأشخاص ولكن للمجتمع بأكمله . تسمى هذه الفكرة الاشتراكية أو socialism . كان للناس أفكار عديدة حول الطريقة التي ينظمون بها العمل بطريقة اشتراكية ، وذلك لوضع حد لبؤس العمال المتضورين جوعا ، مما أوصلهم إلى الاستنتاج أنه عوضا عن أن يتسلم العمال أجورا يحددها ملاك المصانع كل على حدة ، يجب أن يكون للعمال نسبة من الأرباح الكلية .

من بين كل الاشتراكيين في فرنسا وبريطانيا خلال العام 1830 كان هناك شخص ارتفعت شهرته تحديدا . كان طالبا من ترير في ألمانيا ، وكان اسمه كارل ماركس . كانت الأفكار التي قدمها مختلفة . ففي رأيه أنه مما لا فائدة منه التساؤل حول الكيفية التي سيكون عليها الوضع لو أن العمال امتلكوا هذه الآلات . ففي حال رغب هؤلاء العمال في هذه الآلات ، فيجب عليهم أن يحاربوا من أجلها ، حيث إن أصحاب المصانع لن يتنازلوا عن آلاتهم طوعا . كما أنه مما لا فائدة منه أن تقوم مجاميع العمال بالدوران على المصانع مدمرين آلات النول الميكانيكي الآن وقد اختُرعت . ما كان يجب عليهم عمله هو أن يتوحدوا . فلو لم يقم كل واحد من هؤلاء الحائكين المائة بالخروج بحثا عن العمل منفردا ، ولو أنهم ، عوضا عن ذلك ، اجتمعوا قائلين بصوت واحد : «لن نعمل لأكثر من عشر ساعات في المصنع ، ونحن نطالب لكل منا برغيفي خبز وكيلوين من البطاطس» ، لكان على صاحب المصنع أن يستسلم لمطالبهم . نعم ، قد لا يكون ذلك وحده كافيا ، حيث إن صاحب المصنع لم يعد في حاجة إلى الحائكين المهرة لإدارة النول الميكانيكي ، مما يمكنه من الاختيار من بين هؤلاء المعدمين والذين سيقبلون بأقل الأجور . غير أن ذلك ، كما كان ماركس يقول ، هو تحديدا سبب الأهمية القصوى لتوحدهم . ففي النهاية ، لن يكون باستطاعة صاحب المصنع أن يجد شخصا يقوم بالعمل مقابل أجر أقل . لذا ، فإن على العمال أن يساندوا بعضهم البعض ، ليس فقط هؤلاء الذين ينتمون إلى مقاطعة واحدة أو حتى دولة واحدة ، بل على كل عمال

العالم أن يتحدوا ! عندها لن يمتلكوا السلطة ليحددوا أجورهم فقط ، بل سينتهون إلى السيطرة على المصانع والآلات بأنفسهم ، صانعين عالما لم يعد منقسما بين من يملكون ومن لا يملكون .

فحقيقة الأمر ، كما شرحها ماركس ، كانت أن الحائكين وصناع الأحذية والحدادين لم يعد لهم وجود . فالعامل الذي أصبح جل عمله هو أن يسحب رافعة الآلة ألفي مرة في اليوم بالكاد يحتاج إلى أن يعرف ما تنتجه هذه الآلة . فكل ما يهمه هو حزمة أجره الأسبوعي وأن يكسب ما يقيه الجوع الذي يعانيه زملاؤه التعساء الذين لا يجدون عملا . كما أن المالك لا يحتاج إلى معرفة نوعية الصنعة التي تكسبه عيشه ، فكل العمل كانت تقوم به الآلات ، مما يعني في الواقع ، كما يقول ماركس ، أنه لم تعد هناك حرف حقيقية . كان هناك فقط نوعان أو طبقتان من الناس : هؤلاء الذين يملكون والآخرون الذين لا يملكون ، أو كما اختار هو أن يسميهم : الرأسماليين (capitalists) والعمال (proletarians) ، كانت هاتان الطبقتان في حرب مستمرة إحداهما مع الأخرى ، حيث إن الملاك كانوا دوما طامعين في أقصى درجات الإنتاج وبأقل التكاليف ، وعليه فقد كانوا يدفعون للعمال ، البروليتاريين ، أقل ما يمكنهم أن يفلتوا به ، بينما يحاول العمال إجبار الرأسماليين ، ملاك الآلات ، على أن يتخلوا عن أكبر قدر ممكن من الأرباح . اعتقد ماركس أن هذه المعركة بين هاتين الطبقتين من الناس لا يمكن أن تنتهي إلا بطريقة واحدة . فالأغلبية المجردة ستسيطر يوما ما على أملاك الأقلية الثرية ، ليس بغرض أن يتملكوا هم أنفسهم ، ولكن ليتخلصوا من فكرة الملكية بأكملها ، عندها ستختفي الطبقية من الوجود . كان هذا هدف كارل ماركس ، والذي اعتقده قريبا وسهل التحقيق .

بيد أنه عندما نشر ماركس مناشدته العظيمة للعمال (The Communist Manifesto أو البيان الشيوعي كما أسماه) في العام 1848 ، كان الوضع مختلفا جدا عما توقعه ، كما أن الأمور تطورت بشكل مختلف تماما واستمرارا حتى يومنا هذا . في تلك الأيام كان القليل من أصحاب المصانع يمتلكون أي قوة حقيقية . كانت تلك القوة لاتزال في أيدي هؤلاء النبلاء المصطنعين الذين ساعدهم ميتيرنيخ على استعادة سلطتهم . وقد كان هؤلاء النبلاء هم الخصوم الحقيقيين للمواطنين الأغنياء ولأصحاب المصانع . لقد كانوا يرغبون في دولة آمنة ، منظمة ، منضبطة بحيث

يكـون لكل واحد منهم قصـر محدد فيها ، كما كان لأمثالهم دوما في السـابق . كان ذلـك يعني أن الفلاحين ، كما في النمسـا على سـبيل المثال ، كانـوا لايزالون مقيدين بالإقطاعيـات المتوارثـة ويتشـابهون في ذلك مـع عبيد الأرض في القرون الوسـطي . كان الحرفيـون لايزالون محكومـين بالعديد من القوانين الصارمـة القديمة والتي تعود إلى عصر النقابات ، وكذلك كانت المصانع الحديثة محكومة ، إلى حد ما ، بالقوانين ذاتهـا . غيـر أن المواطنـين الذين أصبحـوا أثرياء نتيجة لـلآلات والمصانـع الجديدة لم يعـودوا مسـتعدين لتلقـي الأوامر مـن النبلاء ولا من الدولـة . لقـد أرادوا أن يتصرفوا طبقـا لما رأوه مناسـبا ، حيث كانـوا مقتنعين بأن ذلك سـيكون الأفضل للجميع . كل المطلوب هو أن يطلق عنان الناس القادرين ، من دون إعاقة من الأعراف أو القواعد أو القوانين ، ومع مرور الوقت سيصبح العالم كله مكانا أفضل . سيرعى العالم نفسه ما دام لم يتدخل في شؤونه أحد ، أو هكذا اعتقدوا . وعليه ، في العام 1830 ، انتفض المواطنون الفرنسيون وعزلوا ورثة لويس الثامن عشر .

فـي العام 1848 كانـت هناك ثورة جديدة في باريس ، وانتشـرت في العديد من الدول الأخرى ، حيث حاول المواطنون من خلالها أن يسـيطروا على كامل سـلطات الدولـة ، بحيـث لا يصبـح بإمكان أحد بعـد الآن أن يأمرهـم بما يمكـن أن يفعلوا أو لا يفعلـوا بمصانعهـم وآلاتهـم . فـي فيينا ، وجـد ميتيرنيخ نفسـه معـزولا ، بينمـا أجبر الإمبراطـور فيرديناند على التخلـي عن العرش . لقد انتهى نظـام الحكم القديم بكل تأكيـد . ارتـدى الرجال السـراويلات السـوداء التي تبـدو مثل أنابيب الصـرف والتي كانت تقريبا بالدرجة نفسـها من البشاعة كتلك التي نرتديها اليوم ، والياقات البيضاء المنشاة بربطات العنق المعقودة المعقدة . وسمح للمصانع بأن تقوم في كل مكان ، كما نقلت سكك الحديد البضائع بكميات متزايدة من بلد إلى آخر .

37

عبر البحار

بفضل السكك الحديدية والسفن البخارية ، أصبح العالم أصغر بكثير . لم يعد السفر عبر البحار إلى الهند أو الصين مغامرة محفوفة بالمخاطر نحو المجهول ، كما أصبحت أمريكا جارة قريبة . وعليه فمنذ العام 1800 فصاعدا أصبح من الصعوبة بمكان رؤية تاريخ العالم على أنه تاريخ أوروبا فقط . لا بد من أن نلقي نظرة على ما هو أبعد من حدودنا ، حيث جيران أوروبا الجدد ، وتحديدا ، على الصين واليابان وأمريكا . قبل العام 1800 ، كانت الصين لاتزال ، في نواح كثيرة ، الدولة ذاتها التي كانت عليها في عصر حكام سلالة الهان الذين تزامنوا تقريبا مع ولادة المسيح ، وكذلك في عصر شعراء الصين العظام بعد 800 سنة لاحقة . لقد كانت أرضا عظيمة ، منظمة ،

«بدا أن اليابانيين هم في الواقع أفضل تلاميذ في كل تاريخ العالم»

المؤلف

أبية ، عالية الكثافة السكانية ومسالمة في عمومها ، عامرة بالفلاحين والمواطنين النشطين ، بالعلماء العظام ، بالشعراء والمفكرين . فكل القلق والحروب الدينية والاضطرابات اللامتناهية التي عانت بسببها أوروبا خلال تلك السنوات كانت تبدو غريبة ، بربرية ولا يمكن تصورها بالنسبة إلى الصينيين . صحيح أنهم كانوا الآن محكومين من أباطرة غرباء وأجبروا الرجال على أن يضفروا شعورهم كإشارة لخضوعهم ، غير أنه ومنذ أن غزوا الصين ، فإن هذه العائلة من الحكام الآتية من قلب آسيا ، المسماة المانشو ، تبنت كل الطبائع الصينية وتعلمت وتشربت كل المبادئ الرئيسة لكونفوشيوس . لذا ، فقد ازدهرت الإمبراطورية .



في مناسبات عدة ، قدم اليسوعيون إلى الصين ليبشروا بالمسيحية . كانوا في العادة يستقبلون بكل كياسة ، حيث كان إمبراطور الصين يرغب في معرفة العلوم الغربية ، وتحديدا علم الفلك . أخذ التجار الأوروبيون الخزف من الصين معهم إلى الديار . حاول الناس في كل مكان أن يقلدوا جماله ودقته الرائعين ، غير أنهم احتاجوا إلى قرون من التجارب قبل أن يستطيعوا تحقيق ذلك . كم من مناحي الحياة تفوقت فيها الإمبراطورية الصينية ، بالملايين العديدة من مواطنيها المثقفين ، على أوروبا ، ذاك ما يمكنك معرفته من الخطاب الذي أرسله إمبراطور الصين إلى ملك إنجلترا في 1793 . طلب الإنجليز من إمبراطور الصين الإذن في إرسال سفير إلى البلاط الصيني ، وكذلك للتبادل التجاري مع الصين . أرسل الإمبراطور شين لونغ ، وقد كان عالما شهيرا وحاكما قادرا ، الرد التالي :

«أنت ، أيها الملك ، تعيش بعيدا عبر بحار عديدة . بيد أنك مدفوع برغبتك المتواضعة في أن تنهل من خيرات ثقافتنا ، فإنك قد قمت بإرسال وفد قدم رسالتك بخالص الاحترام . ولقد أكدت لنا أن تبجيلك لأسرتنا السماوية الحاكمة هو ما يملؤك بالرغبة في تبني ثقافتنا ، غير أن الاختلاف بين تقاليدنا وقوانيننا الأخلاقية وتلك التي تؤمنون بها عميق بحيث ، حتى لو استطاعت بعثتكم أن تستوعب المبادئ الأساسية في ثقافتنا ، فإن عاداتنا وتقاليدنا لا يمكنها أن تنمو في تربتكم . فحتى أكثر طلابكم اجتهادا ، ستذهب كل جهوده هباء .

إني أضع نصب عيني في حكمي لهذا العالم الفسيح هدفا نهائيا أتطلع إليه ، وهو التالي : أن أحكم بالكمال وأن أوفي بالواجبات تجاه الدولة . الأشياء النادرة والمكلفة ليس لها أهمية بالنسبة إلي ، فليس هناك أي منفعة من البضائع الآتية من بلدكم . فمملكتنا السماوية تمتلك كل الأشياء وبوفرة ولا تحتاج إلى شيء خارج حدودها . وعليه ، فلا حاجة هناك إلى إرسال سلع آتية من بلاد البرابرة الغرباء لمبادلتها بمنتجاتنا . بيد أنه – وحيث إن الشاي والحرير والخزف ، كلها منتوجات لمملكتنا السماوية ، تعد حاجات ضرورية لشعوب أوروبا ولكم أنتم شخصيا – سوف يستمر التبادل التجاري المحدود المسموح به حتى هذه اللحظة في مقاطعة كانتون . وإذ إنني أضع في الاعتبار الانعزال البعيد لجزيرتكم ، المفصولة عن العالم بقفار من البحار ، فإنني أغفر جهلكم المبرر لعادات المملكة السماوية . فلتنتفض أمام أوامري ولتطعها» .

كان ذلك ما قاله إمبراطور الصين لملك جزيرة بريطانيا الصغيرة . غير أنه لم يحسن تقدير بربرية سكان هذه الجزيرة البعيدة ، بربرية استعرضوها بعد ذلك بعدة عقود عندما وصلوا بسفنهم البخارية . لم يعد هؤلاء مستعدين لتحمل هذه التجارة المحدودة المسموح بها لهم في مقاطعة كانتون ، حيث إنهم وجدوا سلعة أعجبت الصينيين كثيرا : إنه سم ، وهو نوع مميت في الواقع . عندما يحرق الأفيون ويتم استنشاق دخانه ، فإنه يعطيك أحلاما سعيدة لفترة قصيرة ، بيد أنه يمرضك بعدها

بشكل مروع . كل من يدخن الأفيون لا يستطيع أن يتخلى عن هذه العادة أبدا . إنها عادة شبيهة بشرب البراندي ، لكن أعمق خطورة بكثير . وقد كانت تلك هي السلعة التي أراد البريطانيون أن يبيعوها للصينيين وبكميات ضخمة . أدركت السلطات الصينية خطورة هذه السلعة على الشعب ، وفي العام 1839 اتخذوا إجراءات صارمة لضرب هذه التجارة .

وعليه ، فقد عاد البريطانيون إلى الصين في سفنهم البخارية ، هذه المرة مسلحين بالمدافع . ولقد ملأوا الأنهار الصينية بالبخار وأطلقوا النار على المدن المسالمة ، محولين القصور الجميلة إلى غبار ورماد . مصدومين ومرتبكين ، كان الصينيون عاجزين عن إيقافهم حيث لزم عليهم الانصياع لأوامر تلك الشياطين الغريبة ذات الأنوف الكبيرة : كان عليهم أن يدفعوا مبالغ كبيرة من المال وأن يفتحوا موانئهم للتجارة الأجنبية . بعد ذلك بوقت قصير ، انفجرت ثورة في الصين عرفت باسم «تايبينغ» – أو ثورة السلام العظيم – والتي بدأها رجل أعلن نفسه الملك السماوي للمملكة السماوية للسلام العظيم . في البداية آزره الأوروبيون ، غير أنه عندما أصبح ميناء شنغهاي مهددا ، حارب الأوروبيون في صفوف القوات الإمبراطورية لحماية تجارتهم ومن ثم هُزم الثوار .

كان الأوروبيون مصرين على التوسع في نشاطهم التجاري وتأسيس سفارات في عاصمة الصين ، بكين . بيد أن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تسمح بذلك . وعليه ، في العام 1860 ، اجتمعت القوات البريطانية والفرنسية شاقةً طريقها باتجاه الشمال ، وعاملةً على قصف المدن وإهانة حكامها . عندما وصلوا إلى بكين ، كان الإمبراطور قد هرب . وانتقاما من المقاومة الصينية ، سرق البريطانيون القصر الصيفي الإمبراطوري القديم الرائع ونهبوه وأحرقوه بما فيه من روائع الأعمال الفنية المؤرخة من الأيام الأولى لنشأة الإمبراطورية . محطمة وفي حالة من الارتباك التام ، أُجبرت هذه الإمبراطورية الضخمة المسالمة ذات الألف عام على الانحناء أمام مطالب التجار الأوروبيين . كان ذلك جزاء الصين لتعليمها الأوروبيين فن صناعة الورق ، وطريقة استعمال البوصلة ، وللأسف كيفية صنع البارود .

خلال هذه السنوات ، كان يمكن للجزيرة الإمبراطورية لليابان أن تلاقي بسهولة المصير ذاته . كانت اليابان في ذلك الوقت مشابهة لأوروبا العصور الوسطى بشكل كبير . كانت السلطة الحقيقية في أيدي النبلاء والفرسان ، تحديدا هؤلاء الذين ينتمون إلى

تلك العائلة المميزة المكلفة برعاية الإمبراطور ، وهو وضع لا يختلف كثيرا عن الطريقة التي رعى فيها أسلاف تشارلز الأكبر الملوك الميروفنجيين . كان رسم الصور وتشييد المنازل وكتابة الشعر كلها أشياء تعلمها اليابانيون منذ مائة سنة من الصينيين ، كما أنهم كانوا يتقنون صناعة الكثير من الأشياء الجميلة بأنفسهم . غير أن اليابان لم تكن بلدا منظما ، ضخما ، ومسالما في أغلبه كما الصين . فعلى مدى سنوات طوال حارب النبلاء الأقوياء من المقاطعات والجزر المختلفة بعضهم البعض في معارك فروسية . في العام 1850 اتحد الفقراء منهم بغرض الاستيلاء على السلطة من حكام المملكة العظماء . هل ترغب في معرفة كيف فعلوا ذلك؟ لقد استعانوا بالإمبراطور ، هذا «الدمية» العاجز الذي كانوا يجبرونه على قضاء عدة ساعات يوميا فقط جلوسا على العرش . ثار هؤلاء النبلاء الفقراء ضد ملاك الأرض الأقوياء باسم الإمبراطور ، مدعين أنهم سيعيدون له القوة التي يقال إنها كانت لأباطرة اليابان القدماء في زمن العصور القديمة .

كل ذلك كان يحدث تقريبا في الوقت ذاته الذي ذهبت فيه البعثات الأوروبية لأول مرة إلى اليابان ، تلك الأرض المحظورة على الغرباء لأكثر من مائتي سنة . بالنسبة إلى هؤلاء السفراء ذوي البشرات البيضاء كانت الحياة في المدن اليابانية ، بالملايين التي تسكنها ، ببيوتها المصنوعة من الورق والخيزران ، بحدائقها المزينة وسيداتها الجميلات ذوات الشعور المرفوعة عاليا فوق رؤوسهن ، برايات المعابد البراقة ، بشكلياتهم الصارمة ، وبالسلوكيات المهيبة والوقورة لفرسانهم حملة السيوف ، كل تلك الحياة كانت تبدو كوميدية بشكل بهيج . دهس هؤلاء الأوروبيون بأحذيتهم المتسخة تلك البسط التي لا تقدر بثمن على أرضية القصر حيث كان اليابانيون لا يمشون عليها إلا حفاة . لم يجد هؤلاء أي سبب لاحترام أي من التقاليد القديمة لشعب كانوا يعتبرونه همجيا حتى تلك اللازمة عندما كانوا يتبادلون التحايا أو يشربون الشاي . وعليه ، فسرعان ما احتقرهم اليابانيون . وعندما فشلت مجموعة من المسافرين الأمريكيين في الوقوف جانبا بتأدب ، كما فرضت التقاليد ، عندما كان يمر أمير مهم على محفته مصحوبا بحاشيته ، هجم الحضور الساخط على الأمريكيين حيث تسبب ذلك في مقتل امرأة . بالطبع ، قامت سفينة حربية بريطانية مباشرة بقصف المدينة ، مما أثار رعب اليابانيين من أن يلاقوا المصير ذاته الذي لاقاه الصينيون من قبلهم . لحسن الحظ ، نجحت الثورة في تلك الأثناء ، حيث أصبح للإمبراطور ، المعروف في أوروبا

بلقب «الميكادو» (the Mikado)، سلطة مطلقة فعلية. وبمساندة من مستشارين حكماء لم يكونوا يظهرون في العلن مطلقا، قرر الإمبراطور أن يستخدم سلطته تلك ليحمي بلاده من الأجانب المتغطرسين وللأبد، حيث لا بد من المحافظة على الثقافة القديمة. غير أن كل ما كانوا يحتاجون إليه هو أن يطلعوا على اختراعات أوروبا الحديثة. وعليه، فتحت الأبواب فجأة وبشكل كامل أمام الأجانب.

كلف الإمبراطور الضباط الألمان بتكوين جيش حديث، كما كلف الإنجليز ببناء أسطول حديث. أرسل الإمبراطور اليابانيين إلى أوروبا لدراسة الطب الغربي وليتعرفوا على كل أفرع العلوم الغربية الأخرى التي جعلت أوروبا غاية في القوة. اتباعا للنموذج الألماني، فرض الإمبراطور التعليم الإلزامي، ليصبح شعبه مستعدا للنضال. كان الأوروبيون سعداء جدا. وبدا لهم هؤلاء اليابانيون وهم يفتحون بلادهم على مصراعيها للغرباء أناسا صغار الحجم والعقل. أسرع الأوروبيون في بيع كل ما رغب اليابانيون في شرائه وعرضوا عليهم كل ما رغبوا في رؤيته. في غضون عقود قليلة تعلم اليابانيون كل ما يمكن أن يعلمه لهم الأوروبيون حول آلات الحرب والسلام. وما كادوا يفعلون حتى شكروا الأوروبيين بكل أدب بينما الأوروبيون وقوفا على مداخلهم: «الآن، نحن نعلم ما تعلمون. الآن ستخرج سفننا البخارية للبحث عن التجارة والفتوحات، كما ستطلق مدافعنا النار على المدن المسالمة إذا ما تجرأ أحد فيها على إيذاء مواطن ياباني». لم يستطع الأوروبيون تجاوز هذه الخديعة، كما لم يتجاوزوها قط إلى اليوم. فقد بدا أن اليابانيين هم في الواقع أفضل تلاميذ في كل تاريخ العالم.

وبينما كانت اليابان قد بدأت في تحرير نفسها، كانت أشياء أخرى مهمة جدا تحدث عبر البحار في أمريكا. كما تتذكر، أعلنت كل مراكز التجارة البحرية، والتي نمت لتصبح مدنا ساحلية على الحدود البحرية الشرقية لأمريكا، استقلالها عن إنجلترا في العام 1776، وذلك حتى تؤسس لاتحاد كونفدرالي لولايات حرة. في تلك الأثناء دفع المستوطنون البريطانيون والإسبان بطريقهم باتجاه الغرب، محاربين القبائل الهندية التي تصادفهم في الطريق. لا بد أنك قرأت كتبا عن رعاة البقر والهنود، وعليه فإنك تعرف كيف كانت الحال: كيف بنى المزارعون الأكواخ الخشبية ونظفوا الغابات الكثيفة وكيف كانوا يحاربون؟ كيف اهتم رعاة

البقر بأعداد ضخمة من قطعان الماشية؟ وكيف استوطن المغامرون والمنقبون عن الذهب الغرب الوحشي؟ . ظهرت الولايات الجديدة في كل الأنحاء على أراض أخذت من القبائل ، على الرغم من أنه لم تكن الكثير من هذه الأراضي مزروعة كما يمكن لك أن تتخيل . غير أن تلك الولايات كانت مختلفة كثيرا بعضها عن البعض . فهؤلاء الذين قطنوا المناطق الاستوائية الجنوبية كانوا يعتاشون من المزارع العظيمة حيث يُزرع القطن وقصب السكر على مساحات ضخمة . تملك المستوطنون حقولا شاسعة كان يقوم بالعمل فيها العبيد الزنوج المستجلبون من أفريقيا ، حيث كانوا يعاملون أسوأ معاملة .

صعودا إلى الشمال ، كان الوضع مختلفا . كان الجو أقل حرارة ، حيث المناخ أكثر قربا من مناخنا . هناك تجد المزارع والمدن ، والتي لا تختلف عن تلك التي تركها المهاجرون الإنجليز خلفهم ، بيد أنها على مساحات أوسع . لم يكونوا في حاجة إلى العبيد فقد كان قيامهم بالعمل بأنفسهم أكثر سهولة وأقل تكلفة بالنسبة إليهم . ومن ثم فقد وجد سكان المدن في الولايات الشمالية ، والذين كانوا في أغلبهم مسيحيين متدينين ، أنه من العار على الكونفدرالية ، التي تأسست وفقا لمبادئ حقوق الإنسان ، أن تبقي على العبيد كما فعل الناس في العصور الوثنية . شرحت الولايات الجنوبية حاجتها إلى العبيد الزنوج حيث إنه من دونهم ستتدمر أعمالهم . كانوا يقولون إنه لن يتحمل رجل أبيض ، العمل تحت درجات الحرارة هذه ، كما أنه ، في كل الأحوال ، لم يولد الزنوج ليكونوا أحرارا . . . إلى آخر هذه التبريرات . في العام 1820 توصل الجميع إلى تسوية . كل الولايات الكائنة أسفل خط تم الاتفاق عليه سيكون لها الحق في أن تحتفظ بالعبيد ، أما تلك على شمال الخط ، فلن يجوز لها ذلك .

غير أنه على المدى البعيد ، أصبح عار الاقتصاد القائم على كدح العبيد أكبر من أن يحتمل . ومع ذلك ، فقد بدا أن أقل القليل يمكن عمله بهذا الشأن . فقد كانت الولايات الجنوبية ، بمزارعها الضخمة ، أقوى وأكثر ثراء من الأراضي الزراعية الشمالية ، وقد كانوا مصرين على ألا يستسلموا مهما كان الثمن . غير أنهم واجهوا ندهم في شخص الرئيس إبراهام لينكولن . لقد كان لهذا الرجل

مصير استثنائي . نشأ لينكولن كصبي مزرعة بسيط قرب الغابات النائية ، حارب في العام 1832 في معركة ضد زعيم هندي يدعى بلاك هوك ، ليصبح بعدها مدير مكتب البريد لمدينة صغيرة . هناك ، في وقت فراغه ، درس القانون ، ليصبح بعدها محاميا وعضوا في البرلمان . ومن هذا المنطلق ، حارب لينكولن العبودية وأصبح مكروها من ملاك المزارع في الولايات الجنوبية تماما . على الرغم من ذلك ، فقد تم انتخابه رئيسا للولايات المتحدة في العام 1861 . عندها ، أعلنت الولايات الجنوبية مباشرة استقلالها عن الولايات المتحدة ، لتؤسس كونفدرالية خاصة بالولايات المالكة للعبيد .

تقدم خمسة وسبعون ألف متطوع ليكونوا رهن إشارة لينكولن فورا . على الرغم من ذلك ، بدت التوقعات سيئة بالنسبة إلى الشماليين . فبريطانيا ، التي أبطلت وأدانت عمل الرقيق في مستعمراتها عدة عقود الآن ، كانت على الرغم من ذلك مساندة لموقف الولايات المالكة للعبيد . قامت حرب أهلية دموية ومرعبة . بيد أنه ، في النهاية ، انتصرت شجاعة وصلابة الشماليين ، وفي العام 1865 استطاع لينكولن دخول عاصمة الولايات الجنوبية على أصوات هتاف العبيد المحررين . بعد ذلك بأحد عشر يوما ، وبينما كان جالسا في المسرح ، قتل لينكولن على يد جنوبي . غير أن عمله كان قد أنجز . وسرعان ما أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية المتحررة التي أعيد لمُّ شملها أغنى وأقوى دولة في العالم . بل وبدا أنها استطاعت أن تنجح من دون عبيد .

38

دولتان جديدتان في أوروبا

أعـرف الكثير مـن النـاس الذين كانـوا أطفالا في وقـت لم تكن فيـه ألمانيا وإيطاليـا موجودتين . يبـدو الأمـر مثيـرا ، أليس كذلـك : ألا تكـون هذه الأمم العظيمـة القوية ، والتي تلعب أدوارا غاية في الأهميـة ، بهذا القدم إطلاقا؟ بعد ثورات 1848 ، عندمـا كانـت خطوط السـكك الحديديـة الجديدة تبنـى فـي جميع أنحـاء أوروبـا وأسـلاك التلغراف تمدد ، عندمـا كانت المدن ، والتي تحولت إلى مدن مصانع ، تتوسع جاذبة إليها العديد من الفلاحين ، وعندمـا اعتـاد الرجـال ارتـداء القبعات الرسـمية ونظـارات الأنـف المضحكة ذات الأربطة السـوداء المتدليـة ، فـإن أوروبا التي نعرفها لـم تكن أكثر من صفحـة مرقعـة بالدوقيات والممـلكات والإمارات والجمهوريـات الصغيـرة المتصلـة بعضهـا ببعـض بروابط معقدة من التحالفات أو العداوات .

«كان بيسمارك مقتنعا بضرورة امـتلاك جيش قـوي عظيم . في الواقع ، كان هو صاحب المقـولـة الشـهيـرة إن أسئلة التاريخ العظيمة لا تحسمها الخطب ، بل الدم والحديد»

المؤلف



في هذه الأوروبا (إذا ما تجاهلنا بريطانيا ، والتي كانت في ذلك الوقت مهتمة بمستعمراتها في أمريكا والهند وأستراليا أكثر من اهتمامها بالقارة المجاورة) ، كانت هناك ثلاث قوى مهمة . في قلب أوروبا كانت هناك إمبراطورية النمسا . هناك ، كان الإمبراطور فرانز جوزيف يحكم من القصر الإمبراطوري في فيينا منذ العام 1848 . ولقد رأيته مرة بنفسي عندما كنت صبيا صغيرا . كان رجلا مسنا في ذلك الوقت ، وقد رأيته وهو يقطع المتنزه العام لقصر شونبرون . كذلك ، أذكر بوضوح جنازته الرسمية . لقد كان بحق صورة لكل ما يجب أن يكونه الإمبراطور . لقد حكم أنواعا مختلفة من الشعوب والدول . فلقد كان إمبراطورا على النمسا ، لكنه كان كذلك ملكا على بلاد المجر و«كونت» برتبة أمير على تايرول ، كما كان يمتلك عددا كبيرا من الألقاب القديمة مثل ملك بيت المقدس وحامي الضريح المقدس ، وهو لقب يعود إلى عهد الحروب الصليبية . كان العديد من المقاطعات في إيطاليا تحت إمرته ، بينما حكم المقاطعات الأخرى أفراد من عائلته . ثم كان هناك الكرواتيون ، الصربيون ، التشيكيون ، السلوفينيون ، السلوفاكيون ، البولنديون ، وعدد كبير آخر من الشعوب . لهذا السبب ، فإن الكلمات التي كانت موجودة على الأوراق النقدية النمساوية القديمة (مثل ten crowns أو عشرة كورونات) كانت تظهر كذلك في كل لغات هذه الشعوب الأخرى . ولقد كان لإمبراطور النمسا كذلك بعض السلطة ، وإن كانت اسمية ، على الإمارات الألمانية . غير أن الوضع هناك كان معقدا . فعندما حطم نابليون آخر ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية في العام 1806 ، فإن الإمبراطورية الألمانية لم يعد لها وجود . كل الأراضي العديدة التي كانت تتحدث الألمانية ، والتي كانت تشمل بروسيا ، بافاريا ، ساكسونيا ، هانوفر ، فرانكفورت ،

برونزويك ، وغيرها ، كونت اتحادا عرف باسم الكونفدرالية الألمانية ، والتي كانت النمسا تنتمي إليه كذلك . بصورة عامة ، كانت الصورة مرتبكة بشكل كبير لهذه الكونفدرالية الألمانية . فكل بقعة من هذه الأرض كان لها أميرها الخاص بها ، أوراقها النقدية ، طوابعها ، وزيها الرسمي الخاص بها . لقد كان الوضع سيئا عندما كانت الرحلة تستغرق عدة أيام للوصول من برلين إلى ميونخ بواسطة عربة البريد ، بيد أن الرحلة ذاتها لم تكد تستغرق أقل من يوم ، حتى أصبح الوضع لا يحتمل .

إن هذه الصورة المرقعة للأراضي الألمانية والنمساوية والإيطالية كانت لا تشابه أي صورة أخرى حولها على الخريطة .

في الغرب كانت تقع فرنسا . وبعد فترة وجيزة من ثورة العام 1848 ، تحولت فرنسا مرة أخرى إلى إمبراطورية . استطاع أحد أحفاد نابليون أن يوقظ ذكريات المجد الغابر ، وعلى الرغم من أنه كان أبعد ما يكون عن العظمة ، فإنه أصبح أول رئيس منتخب للجمهورية ، وسريعا بعد ذلك ، إمبراطورا لفرنسا تحت مسمى نابليون الثالث . غير أن فرنسا على الرغم من كل حروبها وثوراتها ، أصبحت الآن دولة قوية وغنية بشكل استثنائي بمدنها الصناعية العظيمة .

في الشرق كانت تقع روسيا . لم يكن القيصر محبوبا في هذه الأرض العظيمة . لا بد لك من أن تضع في اعتبارك أنه بحلول ذلك الوقت كان العديد من الروس قد درسوا في جامعات في فرنسا وألمانيا ، حيث كانت نظرتهم إلى الأمور حضارية ومعاصرة . بيد أن الإمبراطورية الروسية ومسؤوليها كانوا لا يزالون يعيشون في العصور الوسطى . فلتفكر في الأمر : لقد ألغيت عبودية الأرض رسميا فقط في العام 1861 ، وبعدها ، ولأول مرة ، أصبح بإمكان ثلاثة وعشرين مليون فلاح روسي أن يأملوا وجودا لهم يليق بالكرامة الإنسانية . بيد أن إعطاء الوعود شيء ، وتحقيقها شيء آخر . في روسيا عموما ، كانت الحكومة تسير بالكرباج ، أو السوط كما كانوا يسمونه . كانت عقوبة التحدث بحرية ، أو التعبير عن أكثر الآراء لطفا ، هي النفي إلى سيبيريا في أقل الأحوال . وبناء على ذلك ، فإن الطلبة وأفراد الطبقة الوسطى الذين تلقوا تعليما حديثا كانوا يبغضون القيصر بشدة إلى درجة أنه كان يحيا في رعب دائم من الاغتيال . لقد كان ذلك ، في الواقع ، مصير معظم القياصرة ، مهما حاولوا أن يحموا أنفسهم منه .

بخلاف الضخامة التي كانت عليها روسيا والعظمة القتالية التي كانت عليها فرنسا ، بدا مستحيلا على أي دولة أخرى أن تجعل نفسها مسموعة في أوروبا . فبخسارتها لمستعمراتها الأمريكية اللاتينية بداية من العام 1810 ، أصبحت إسبانيا ضعيفة وعاجزة . كما أصبح يشار إلى تركيا ، والتي لم تعد تحتكم على ممتلكاتها الأوروبية ، في الجرائد بأنها «رجل أوروبا المريض» . فقد كانت شعوبها المسيحية المتنوعة تحارب من أجل حريتها مصحوبة بالتأييد الحماسي لبقية أوروبا . كان الإغريق هم أول المتحمسين ، تبعهم البلغاريون والرومانيون والألبانيون ، بينما تصارعت روسيا وفرنسا والنمسا على بقية ممتلكات تركيا الأوروبية وعلى القسطنطينية . ولقد عاد ذلك بالفائدة على تركيا ، حيث لم تكن أي من هذه الدول الثلاث لتتنازل عن مثل هذه الجائزة الكبيرة لغيرها ، وعليه فقد بقيت القسطنطينية تركية .

في تلك الأثناء كانت فرنسا والنمسا لاتزالان تتصارعان حول الأراضي الإيطالية ، كما ظلتا دائما مئات السنين من قبل . غير أن الزمن تغير . فقد تقارب الإيطاليون بعضهم من بعض بوجود السكك الحديدية وقد أدركوا هم كذلك ، كما فعل سكان المدن الألمانية ، أنهم ليسوا - ببساطة - فلورنسيين ، جنويين ، فينيسيين أو نابوليين . لقد كانوا جميعا إيطاليين ، وكانوا يرغبون في تحديد مصيرهم بأنفسهم . في ذلك الوقت ، كانت هناك ولاية واحدة صغيرة في شمال إيطاليا وكانت حرة مستقلة . كانت تقع عند قدم الجبل الذي عبره هنيبعل ذات مرة ، والتي أصبحت تسمى بيدمونت (Piedmont) ، والتي تعني تحديدا ذلك : قدم الجبل . الآن ، شكلت بيدمونت وجزيرة ساردينيا معا مملكة صغيرة قوية تحت سلطة حاكم واحد : الملك فيكتور إيمانويل ، والذي كان لديه وزير استثنائي القوة والمكر يدعى كاميلو كافور ، رجل كان يدرك تحديدا مبتغاه . لقد رغب هذا الوزير في كل ما كان يتطلع إليه الإيطاليون ، والذي ضحى العديد منهم بدمائه من أجله في مغامرات جريئة غير مدروسة ومحفوفة بالمخاطر ، وذلك في خلال وما بعد ثورة العام 1848 : مملكة إيطالية متحدة . لم يكن كافور بحد ذاته محاربا . لم يكن يؤمن بالخطط السرية والمهاجمات الفجائية الخطرة التي كان يفضلها ذاك الحالم الشجاع الذي يدعى غاريبالدي ورفاقه المحاربون اليافعون في كل محاولاتهم للفوز بحرية بلدهم . كان كافور يبحث عن طريقة مختلفة وأكثر فعالية ، ولقد وجدها .

استطاع أن يقنع إمبراطور الفرنسيين الطموح ، نابليون الثالث ، بالانضمام إلى هذا الصراع من أجل حرية ووحدة الإيطاليين . لقد شجعه على أن يعتقد أنه إذا فعل ، فسيكون رابحا بلا شك ولن يكون لديه شيء يخسره . فبإقحام نفسه في الصراع من أجل حرية دولة لا تقع تحت سيطرته ، فإنه سيوقع أضرارا كبيرة بالنمسا وذلك من خلال ممتلكاتها في إيطاليا ، وهو احتمال لم يزعج الإمبراطور الفرنسي كثيرا . وفي الوقت ذاته ، ولكونه نصير الحرية فإن ذلك سيصنع منه بطلا لأمة أوروبية عظيمة ، وتلك كذلك كانت فكرة مغرية . وعليه ، فبفضل ديبلوماسية كافور الماكرة ، والحملات الشجاعة لغاريبالدي المتهور ، وعلى حساب أعداد كبيرة من الأرواح ، حقق الإيطاليون هدفهم . ففي المعركتين اللتين خاضوهما ضد النمسا ، في العامين 1859 و1866 ، كان للجيش النمساوي اليد العليا ، ولكن كنتيجة لتدخل نابليون الثالث والقيصر ، أجبر الإمبراطور فرانز جوزيف أخيرا على التنازل عن أراضيه الإيطالية . وعن طريق الانتخابات والتصويت في هذه المناطق الأخرى ، أظهرت النتائج رغبة الأمة كافة في أن تنتمي هذه المناطق إلى إيطاليا . وعليه ، فقد تنازل الدوقات المختلفون عن سيادتهم على مناطقهم . وبحلول العام 1866 أصبحت إيطاليا موحدة . غير أن ولاية واحدة كانت تنقص هذه الوحدة ، تلك كانت العاصمة ، روما . كانت روما تحت سيطرة البابا ، حيث رفض نابليون الثالث تسليمها للإيطاليين خوفا من أن يقع في خلاف معه . دافع نابليون الثالث عن المدينة بقواته الفرنسية ، صادا عددا من الهجمات التي قام بها متطوعو غاريبالدي .

في العام 1866 ، كاد الإصرار العنيد للنمسا أن ينتهي بالانتصار لولا أن أعد كافور عدوا آخر لها محملا بالنوايا ذاتها . كان هذا العدو هو بروسيا ، التي تقع في الشمال ، والتي كان رئيس وزرائها في ذلك الوقت هو بيسمارك .

كان بيسمارك إقطاعيا نبيلا من شمال ألمانيا . كان رجلا ذا ذكاء استثنائي وإرادة حديدية . لم يحول في يوم نظره عن هدفه مطلقا كما لم يكن لديه أي خوف من أن يقول حتى لملك بروسيا ويليام الأول رأيه بكل وضوح . من البداية ، أراد بيسمارك شيئا واحدا : أن يجعل بروسيا عظيمة وأن يستخدم قوتها ليصنع من الشكل المضطرب الترقيعي للكونفدراليات الألمانية إمبراطورية ألمانية عظيمة موحدة . من أجل هذا الغرض ، كان بيسمارك مقتنعا بضرورة امتلاك جيش قوي عظيم . في الواقع ، كان

هـو صاحب المقولة الشـهيرة إن أسـئلة التاريـخ العظيمة لا تحسـمها الخطب ، بل الدم والحديـد . لا أدري إن كان ذلك دوما صحيحا ، غير أنه في حالته أثبت التاريخ صحة مقولته . لـم يكن الممثلون البروسـيون مستعدين لمنحه المبلغ الضخم الذي كان يحتاج إليه لتحضير جيشه من الضرائب التي يدفعها الناس ، وعليه ، في العام 1862 ، أقنع بيسـمارك الملك بـأن يتخذ قرارا مخالفا للدسـتور ومتضادا مع إرادة البرلمان . خشـي الملـك أن يلاقـي مصير ملك إنجلترا تشـارلز الأول ذاته عندمـا أخلف وعده ، وكذلك ملك فرنسـا لويس السـادس عشـر . كان الملك مسـافرا مع بيسـمارك في عربة قطار عندما التفت إليه قائلا : «أسـتطيع أن أرى تحديدا إلى أين نحن سـائرون . سنصل إلى سـاحة دار الأوبرا حيث سـيقطعون رأسـك تحـت نافذتي ، وبعدها سـيأتي دوري» ، رد بيسـمارك ببساطة : «وبعد ذلك؟» ، «حسـنا ، بعدها سنصبح ميتين» كان جواب الملك . «صحيح» قال بيسمارك ، «سنكون ميتين عندها ، ولكن أي ميتة أفضل يمكن أن نحظـى بها؟» ، وهكـذا تم تجهيز جيش عظيم ، ضد إرادة الشـعب ، بأعداد هائلة من البنادق والمدافع ، ليثبت هذا الجيش فعلا استحقاقه أمام الدنمارك .

بهـذه القوات المتفوقة في تسـليحها وتدريبها ، هاجم بيسـمارك النمسـا في العام 1866 ، بينمـا كان الإيطاليون يهاجمون من الجنوب . كان هدفه هو طرد الإمبراطور من الكونفدرالية الألمانية ، مما يجعل بروسـيا أقوى أعضائها . يمكن لبروسـيا عندها أن تقـود ألمانيا . في كونيغراتز ، بوهيميا ، هزم بيسـمارك النمسـاويين هزيمة سـاحقة في معركة دموية . كان على الإمبراطور فرانز جوزيف أن يستسـلم حيث خرجت النمسا مـن الكونفدراليـة . لـم يدفع بيسـمارك بنصـره إلى أبعـد من ذلك ، ولـم يفرض أي مطالب إضافية . أغضب ذلك ضباط وجنرالات الجيش البروسـي ، بيد أن بيسـمارك لم يتزحزح عن موقفه . لـم تكن لديه رغبة في خلق عداوة دائمة مع النمسا . غير أنه ، ومن دون أن يخبر أحدا ، قام بيسـمارك بعقد اتفاقيات سـرية مع كل الولايات الألمانية الأخرى ليضمن مساندتها في أي حرب تختار بروسيا الدخول فيها .

في تلك الأثناء في فرنسـا ، كان تطور القوة العسـكرية البروسـية يثير قلق نابليون الثالث بشكل متزايد . فقد خسر لفوره حربا غير ضرورية على الإطلاق في المكسيك العـام 1867 ، كمـا كان خائفا من هذا الجار جيد التسـلح الواقع عبر الراين . في كل الأحوال ، لـم يشـعر الفرنسـيون بالراحة قـط لأي تزايد في القوة العسـكرية الألمانية .

كان ملك بروسيا ويليام مقيما في منتجع للحمامات الطبيعية في ايمز عندما قطع عليه سفير نابليون الثالث علاجه بطلب غاية في الغرابة . فقد كان على الملك ، بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن سلالته من بعده ، أن يتخلى كتابةً عن مطالبات لم يتقدم بها أساسا . ومن دون موافقة الملك ، استغل بيسمارك الفرصة ليجبر نابليون الثالث على إعلان الحرب . وخلافا لتوقعات الفرنسيين ، انضمت كل الدول الألمانية للحرب ، وسرعان ما اتضح أن القوات الألمانية كانت أفضل إعدادا وقيادة من الفرنسية .

أسر الألمان جزءا كبيرا من الجيش الفرنسي في منطقة اسمها سيدان ، والذي تصادف أن كان في صفوفه نابليون الثالث . بعدها حثوا الخطى إلى باريس حيث حاصروا هذه المدينة المحصنة جيدا عدة أشهر . كانت هزيمة الفرنسيين تعني أنه ينبغي على القوات الفرنسية المسؤولة عن حماية البابا أن تغادر روما ، مما سمح لملك إيطاليا بأن يأخذ فرصته . كان الوضع برمته غاية في التعقيد . في غضون ذلك ، وأثناء الحصار ، أقنع بيسمارك عددا من ملوك وأمراء ألمانيا بأن يقترحوا على ملك بروسيا ، والذي كان مقيما في فيرساي ، أن يقبل لقب الإمبراطور الألماني . لن تصدق ما حدث بعدها . أصر الملك ويليام على أن يلقب بإمبراطور ألمانيا وليس بالإمبراطور الألماني ، حتى أوشك الأمر برمته أن يفشل . غير أنه ، أخيرا ، وفي قاعة المرايا العظمى في فيرساي ، تم الإعلان الرسمي عن تكوين الإمبراطوية الألمانية . بيد أن الإمبراطور المعين الجديد ، ويليام الأول ، كان في غاية الغضب بسبب عدم حصوله على اللقب الذي أراد . وأمام أنظار الجميع ، وبصورة مفاجئة ومتعمدة ، خطا الإمبراطور متجاوزا بيسمارك ، ورافضا مصافحة مؤسس الإمبراطورية . وعلى الرغم من ذلك ، استمر بيسمارك في خدمته ، وقد خدمه جيدا .

في باريس ، وخلال أشهر الحصار ، انفجرت ثورة عمال مروعة ودموية تم قمعها لاحقا بالمزيد من الدماء . ولقد قتل من الناس في هذه الثورة ما يفوق عدده قتلى الثورة الفرنسية بأكملها . مرت فترة من الوقت بعدها أصبحت فرنسا ضعيفة ، حيث أجبر الفرنسيون على السلام . كان عليهم أن يسلموا جزءا كبيرا من دولتهم لألمانيا (ألزاس ولورين) وذلك مع مبلغ كبير من المال . وحيث إن حكمه كان فائق السوء ، فقد عزل الفرنسيون نابليون الثالث وأسسوا جمهورية . لقد اكتفوا تماما من الأباطرة والملوك ، ولن يكون لهم إمبراطور أو ملك بعد ذلك أبدا .

أصبح بيسمارك الآن مستشارا ، أو رئيس وزراء ، لإمبراطورية ألمانيا الموحدة والتي حكمها بسلطة عظيمة . لقد كان خصما شرسا للسلوك الاشتراكي الذي يوصي به كارل ماركس ، غير أنه كان يعلم بالظروف المروعة للعمال . لقد كان يؤمن بأن الطريقة الوحيدة لوقف انتشار تعاليم ماركس هي معالجة المعاناة الأشد والأسوأ للعمال ، وذلك حتى لا يعودوا مصرين على قلب الدولة على عقبيها . وعليه ، فقد أسس المنظمات التي تدعم العمال المرضى أو المصابين ، والذين ، لولا ذلك ، لربما لاقوا حتفهم بسبب انعدام المساعدة ، باذلا كل ما في وسعه ليضمن انخفاض مستويات الفقر المدقع . وعلى الرغم من ذلك ، فإن كل العمال في تلك الأيام كان لايزال لزاما عليهم أن يعملوا اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، بما في ذلك أيام الآحاد .

North Sea	بحر الشمال
Denmark	الدنمارك
Sweden	السويد
Baltic Sea	بحر البلطيق
England	إنجلترا
Netherland	هولندا
Germany	ألمانيا
Russia	روسيا
France	فرنسا
Switzerland	سويسرا
Austro-Hungary	النمسا والمجر
Turkey	تركيا
Italy	إيطاليا
Adriatic Sea	البحر الأدرياتيكي
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط

مفتاح الخريطة المقابلة



هكـذا بدت خارطة أوروبا الوسـطى قبـل أن تصبح إيطاليا وألمانيـا دولا . وفي الوقت ذاته الـذي كانت فيه كل قطع الأرض الصغيرة هـذه تتحد لتصنع هاتين الدولتين العظيمتين ، كانت الإمبراطورية التركية تنقسم إلى عدد متزايد من الدول المستقلة .

وسـرعان مـا أصبـح الأمير بيسـمارك ، بحاجبيـه الكثـين وتعابير وجهه القاسـية الصارمـة ، أحد أكثر رجال أوروبا شـهرة . حتـى أعداؤه كانوا يتفقـون على أنه رجل دولة عظيم . عندما أرادت شـعوب أوروبا أن تشـرع في تقسيم العالم ، والذي أصبح الآن أصغـر بكثيـر ، اجتمعوا جميعـا في برلين في العام 1878 ، حيث قاد بيسـمارك المفاوضـات . بيـد أنه عندما ظهر إمبراطـور ألماني جديـد ، كان الرجلان على خلاف دائم . بعد العديد من النزاعات مع مستشاره بيسمارك ، لم يستطع ويليام الثاني تحمل الوضع أكثر من ذلك ، مما دفعه إلى طرده . انزوى بيسـمارك ، وقد أصبح رجلا كبيرا في السـن ، في مقاطعة أجداده . عاش هناك عدة سنوات أخرى ، حيث عكف على إرسـال الرسـائل للقادة الجدد في الحكومة الألمانية يحذرهم فيها من الأخطاء الفادحة التي كانوا يرتكبونها .

39

تقسيم العالم

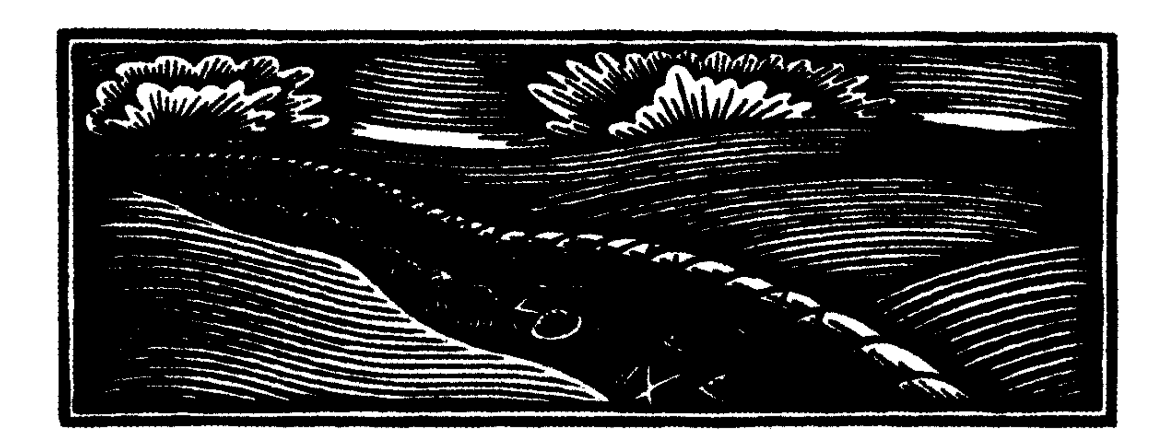
«كل واحد منا لا يزيد على كونه شيئا لامعا بالغ الصغر، قطرة متألقة على أمواج الزمن التي تتدفق أسفلنا فتتعدانا لمستقبل غامض مجهول»

المؤلف

ها قد وصلنا إلى الزمن الذي كان فيه والداي صغيرين. استطاع والداي أن يصفا لي بدقة كيف كانت الأمور حينها، كيف بدأ تزويد مزيد من المنازل بالغاز أولا ومن ثم بالإضاءة الكهربائية، وبعدها بالتلفون، بينما في المدن ظهر الترام الكهربائي، لتلحقه سريعا السيارات، وكيف انتشرت الضواحي الشاسعة لتؤوي العمال، بينما أبقت المصانع بآلاتها القوية الآلاف مشغولين في تأدية عمل ربما كان يحتاج مئات الآلاف من الحرفيين في الماضي.

لكن، ماذا حدث لكل هذه الأقمشة والأحذية ومعلبات الطعام والأواني والقدور التي كان يتم إنتاجها يوميا بحمولة عربات من هذه المصانع الضخمة؟ كانت كميات منها،

بالتأكيد ، تباع في الديار . وسرعان ما استطاع الأشخاص أصحاب الوظائف تحمل تكلفة مزيد من الملابس والأحذية عما كان يملكه الحرفيون . أصبحت الأشياء غاية في الرخص ، حتى تلك التي لا تعمر طويلا ، وذلك حتى يضطر الناس لأن يشتروا بديلا لها . غير أن الناس بالطبع لم تكسب المبالغ الكافية من المال لشراء كل الأشياء التي تنتجها هذه الآلات الرهيبة . وإذا ما بقيت كل حمولات العربات من الأقمشة والجلود هذه من دون أن تباع ، فسيكون من غير المعقول أن يستمر المصنع في إنتاج المزيد منها ، إذن سيضطر المصنع لإغلاق أبوابه . ولكن إذا حدث ذلك ، فسيخسر العمال وظائفهم ولن يعود باستطاعتهم أن يشتروا أي شيء ، وبالتالي فإن كميات أقل من هذه المنتوجات ستباع . مثل هذا الوضع يسمى أزمة اقتصادية . ولضمان عدم حدوث ذلك ، كانت كل دولة تحتاج إلى أن تبيع أكبر مقدار ممكن من منتوجات مصانعها الكثيرة . فإذا ما كان البيع غير ناجح في داخل البلد ، وجب عليها أن تحاول بيع المنتجات في الخارج ، ليس فقط في مختلف أنحاء أوروبا ، حيث تنتشر المصانع في كل مكان ، ولكن في الدول التي لا توجد بها أي مصانع ، تلك الدول التي لايزال أصحابها من دون ملابس أو أحذية .



كانت أفريقيا ، على سبيل المثال ، هدفا لمنتجات المصانع تلك ، وعليه وجدت الدول الصناعية نفسها فجأة تزاحم بعضها بعضا في سباق للوصول إلى الأماكن النائية البرية ، حيث كلما ازداد بعد وبدائية المكان ، كان أفضل . لقد كانوا يحتاجون مثل هذه الأماكن ليس فقط لبيع بضائعهم ، ولكن لأن هذه الأماكن كانت في الغالب تحتوي على مواد غير متوافرة في بلدانهم مثل القطن لصناعة الملابس والنفط لصناعة البنزين . بيد أن الوضع لايزال قائما ، فكلما

جلبوا المزيد من هذه المواد المسماة «المواد الخام» من المستعمرات إلى أوروبا ، ازداد إنتاج المصانع ، وازدادت لهفتهم في البحث عن أماكن لايزال بها أناس تشتري إنتاجهم الضخم . أصبح بإمكان الأشخاص غير القادرين على ايجاد عمل في بلدانهم أن يهاجروا إلى هذه الأماكن الغريبة . باختصار ، لقد أصبحت ضرورة حيوية لدول أوروبا أن تمتلك مستعمرات عديدة . لم يكلف أحد نفسه أن يسأل السكان الأصليين عن رأيهم في الوضع ، حيث كانوا غالبا ما يعاملون بقسوة شديدة ، كما يمكنك أن تتخيل ، إذا حاول أحد منهم أن يرمي القوات الغازية بالأقواس والسهام .

بالطبع فإن البريطانيين هم أفضل من أسهم في تقسيم العالم . فعلى كل حال ، كانت لديهم ولعدة قرون ممتلكات في الهند وأستراليا وشمال أمريكا ، كما كانت لديهم مستعمرات في أفريقيا ، حيث كان نفوذهم في مصر تحديدا بالغ القوة . بدأ الفرنسيون استعمارهم في وقت مبكر كذلك ، حيث أصبحوا بحلول ذلك الوقت يمتلكون جزءا كبيرا من الصين الهندية وعدة أجزاء من أفريقيا ، من بينها الصحراء الكبرى التي كانت الأكثر مثارا للإعجاب بسبب حجمها أكثر من أي سبب آخر . لم يكن الروس يمتلكون أي مستعمرات عبر البحار ، غير أن إمبراطوريتهم كانت ضخمة بحد ذاتها ، كما أنهم لم يكونوا يمتلكون العديد من المصانع بعد . لقد كانوا يرغبون في أن يحكموا قبضتهم في آسيا وصولا إلى البحر ومن ثم يتاجرون من هناك . بيد أن التلاميذ النجباء للأوروبيين ، ألا وهم اليابانيون ، كانوا يقفون عقبة كأداء أمامهم ، حيث أطلقوا تعبيرهم المشهور في وجههم : «توقفوا !» في حرب مريعة انفجرت بين روسيا واليابان في العام 1905 ، حيث هُزمت إمبراطورية القيصر العظيمة ، وأجبرت على التنازل عن بعض أراضيها لليابان ، هذا البلد الصغير الجديد . الآن ، بدأ اليابانيون كذلك في بناء مزيد ومزيد من المصانع الجديدة لأنفسهم ، حيث ازدادت حاجتهم هم كذلك للأراضي الأجنبية ، ليس فقط ليبيعوا منتوجاتهم فيها ، ولكن لأنه لم يعد هناك مكان كاف لهم جميعا في مملكتهم الصغيرة القائمة على جزيرة .

وبطبيعة الحال ، كان آخر من يقف في طابور تقسيم الحصص هذا تلك الدول الجديدة : إيطاليا وألمانيا . ففي الوقت الذي كانوا يعانون فيه من انقساماتهم

الداخلية ، لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالسيطرة على أراض خارجية عبر البحار . الآن ، أرادوا تعويض قرون من الفرص الضائعة . بعد العديد من المعارك ، حصلت إيطاليا على بعض المساحات الضيقة من الأرض في أفريقيا . إلا أن ألمانيا كانت أقوى وتمتلك مصانع أكثر ، لذا فقد كانت احتياجاتها أكبر . ومع مرور الوقت ، نجح بيسمارك في الحصول على العديد من المساحات الأرضية الأكبر حجما من أجل ألمانيا ، وبشكل رئيسي في أفريقيا ، بالإضافة إلى بعض الجزر في المحيط الهادئ .

غير أنه بسبب الطريقة التي تجري بها الأمور ، فإنه لا يمكن لك أن تمتلك كفايتك من الأراضي ، حيث ستكون دوما بحاجة للمزيد منها . فمزيد من المستعمرات يعني مزيدا من المصانع ، ومزيد من المصانع يعني مزيدا من المنتجات ، والمزيد من المنتجات يعني الحاجة إلى مزيد من المستعمرات . هذه الرغبة لا يدفع بها الطموح أو الشهوة إلى السلطة ، لكن تدفع بها حاجة حقيقية . بيد أن العالم الآن تم تقسيمه والتشارك به . وعليه فإنه من أجل تأسيس مستعمرات جديدة ، أو حتى من أجل منع اختطاف القديم منها على أيدي جيران أقوى ، كان من الضروري الدخول في معارك ، أو على الأقل التهديد بالحرب . من أجل ذلك قامت كل دولة بتكوين جيوش وقوات بحرية قوية وهي تردد : «فلتهاجموني إن كنتم تجرؤون !» ، شعرت الدول التي كانت قوية أصلا وعلى مدى قرون عديدة بأحقيتها في هذه القوة . غير أنه عندما دخلت الإمبراطورية الألمانية الجديدة بمصانعها الممتازة هذه اللعبة ، فأسست سلاح بحرية عظيما وحاولت الفوز بمزيد من النفوذ في آسيا وأفريقيا ، استقبل الآخرون تحركها بشكل سيئ . وحيث إن الجميع كان يعلم أنه عاجلا أم آجلا سيكون هناك صراع مخيف ، فقد عملوا جميعا على تكبير جيوشهم وبناء سفن حربية أكبر فأكبر .

بيد أنه عندما انفجرت الحرب أخيرا ، فإنها لم تحدث حيث تم توقعها خلال كل تلك السنوات ، كما أنها لم تحدث بسبب نزاع نشب في أفريقيا أو آسيا . لقد قامت الحرب بسبب دولة أخرى ، الدولة العظمى الوحيدة في أوروبا التي لم تكن تمتلك مستعمرات مطلقا : النمسا . لم تكن هذه الإمبراطورية القديمة ، بشعوبها المتنوعة ، تنحو إلى السيطرة على الأراضي البعيدة في الطرف الآخر من العالم . غير أنها كانت تحتاج الناس ليشتروا البضائع التي تنتجها مصانعها . لذلك ، وكما

فعلت منذ عهد الحروب مع تركيا ، استمرت النمسا في محاولاتها للحصول على مزيد من الأراضي الممتدة باتجاه الشرق ، أراض كانت قد تحررت لفورها من الحكم التركي ولا يوجد بها بعد أي مصانع . بيد أن الأعداد الصغيرة للشعوب الشرقية حديثة التحرير ، مثل الصرب ، كانوا خائفين من الإمبراطورية العظيمة ولم يريدوا لها أن تصل لأبعد من ذلك . وعندما كان وريث العرش النمساوي يزور إحدى هذه المقاطعات المحتلة حديثا والمسماة البوسنة ، في ربيع العام 1914 ، تم اغتياله على يدي رجل صربي في العاصمة سراييفو .

اعتقد جنرالات وساسة النمسا في ذلك الوقت أن الحرب مع الصرب أصبحت محتومة . كان لابد من الثأر من القتلة ومن ثم إخضاع الصرب . وبسبب رعبها من تقدم النمسا شرقا ، دخلت روسيا في الحرب ، مما دعا ألمانيا ، كحليف للنمسا ، كذلك إلى المشاركة . وما إن دخلت ألمانيا الحرب حتى أطلق العنان لكل العداوات القديمة . أراد الألمان أن يبدأوا بتحطيم فرنسا ، العدو الأخطر بالنسبة إليهم ، وعليه فقد زحفوا مباشرة عبر بلجيكا المحايدة لمهاجمة باريس . وبدافع من خوف بريطانيا من أن يدفع النصر الألماني بألمانيا لأن تصبح غاية في القوة ، فقد انضمت هي كذلك للحرب . وعليه ، فسرعان ما أصبح العالم كله في حرب مع ألمانيا والنمسا ، حيث وجدت هاتان الدولتان نفسيهما محاصرتين بجيوش الحلفاء (أي أعداؤهم المتحالفون ، الذين كان بينهم تفاهم واتفاق) . أما ألمانيا والنمسا ، في المنتصف ، فكانتا تعرفان باسم قوى المحور .

اندفعت الجيوش الروسية الضخمة بطريقها إلى الأمام ، غير أنها وصلت إلى طريق مسدود بعد أشهر قليلة . لم يشهد العالم مثل هذه الحرب أبدا . خرج الناس بالملايين ضد بعضهم بعضا ، حتى إن الأفارقة والهنود خرجوا للقتال . تم إيقاف الجيوش الألمانية عندما وصلت إلى نهر المارن ، غير بعيدة عن باريس . منذ هذه اللحظة فصاعدا ، أصبحت المعارك الحقيقية بالمعنى القديم نادرة الحدوث . واستعاضوا عن مواجهة بعضهم بعضا بالتمركز في مواقعهم ، حيث نصبوا مخيماتهم في شكل خنادق طويلة لامتناهية تقابل بعضها بعضا . بعد ذلك ، وعلى مدى أيام طويلة ، كانوا يطلقون آلاف الطلقات النارية بعضهم على بعض ، ليلاقوا حتفهم في انفجارات مستمرة عند متاريس الأسلاك الشائكة وفي الخنادق

الملغمة ، عبر أراض خربة محترقة مدمرة ومغطاة بالجثث . في العام 1915 ، أعلنت إيطاليا كذلك الحرب على النمسا ، وذلك على الرغم من كونها حليفة لها في الأساس . ثم جرت المعارك الضروس على أراض ثلجية وصقيع جمد أطراف جنود الجيوش المتحاربة ، الذين ملأ قلوبهم الرعب من صقيع جبال التايرول ، حيث بدت مآثر محاربي هنيبعل خلال عبورهم لجبال الألب كأنها لهو أطفال مقارنة بالشجاعة والتحمل اللذين أبداهما هؤلاء الجنود البسطاء .

حارب الناس بعضهم بعضا في طائرات بالسماء ، قاموا بإلقاء القنابل على المدن المسالمة ، أغرقوا السفن غير الحربية ، وحاربوا في البحر وتحت البحر ، تماما كما تنبأ ليوناردو دافينشي . اخترع الناس أسلحة رهيبة قتلت وشوهت الآلاف كل يوم ، حيث كان أسوأها الغازات التي كانت تسمم الهواء . كان كل من يستنشق هذه الغازات يموت بعد عذاب رهيب ، حيث كانت هذه الغازات إما تطلق في الهواء لتحملها الرياح لجنود العدو أو أنها ترمى على شكل قنابل تطلق سمومها فور انفجارها . صنع الناس السيارات والمدافع المصفحة والتي كانت تسير ببطء وبإصرار فوق المستنقعات وعبر الأسوار ، مدمرة وساحقة كل ما يأتي في طريقها .

أصبح الشعبان الألماني والنمساوي معدمين ، ولمدة طويلة ، بالكاد كان لديهم أي طعام أو ملابس أو فحم أو أي إضاءة . كان على النساء الوقوف في الطوابير لساعات طويلة في البرد القارس لشراء كسرة خبز أو نصف حبة بطاطا متعفنة . غير أنه ولمرة وحيدة ، بدت هناك بارقة أمل . فقد انفجرت ثورة في روسيا في العام 1917 . تنازل القيصر عن العرش ، ولكن الحكومة البرجوازية التي تلت القيصر أرادت الاستمرار في الحرب ، في حين كان الشعب ضدها . وعليه ، قامت ثورة ثانية عظيمة استولى من خلالها عمال المصانع ، بقيادة زعيمهم لينين ، على السلطة . وزع هؤلاء الأراضي الزراعية على الفلاحين ، وصادروا أملاك الأغنياء والنبلاء ، محاولين أن يحكموا الإمبراطورية من خلال مبادئ كارل ماركس . بعد ذلك ، تدخل العالم الخارجي ، وفي المعارك المرعبة اللاحقة لاقى الملايين من الناس حتفهم . وقد استمر أتباع لينين يحكمون روسيا لعدة سنوات تالية .

استطاع الألمان استدعاء بعض قواتهم من الجبهة الشرقية ، بيد أن ذلك لم ينقذ الموقف كثيرا ، حيث قام جنود جدد مفعمون بالنشاط بمهاجمة هذه القوات من

الغرب . قرر الأمريكيون أن يتدخلوا في هذه المرحلة . ومع ذلك ، استطاع الألمان والنمساويون أن يقاوموا لأكثر من سنة وذلك خلافا لكل التوقعات . وكادوا ينتصرون بعد تكثيف كل جهودهم في محاولة يائسة أخيرة في الغرب ، غير أنهم أصيبوا بالإعياء في النهاية . وعندما أعلن الرئيس الأمريكي ويلسون في 1918 عن رغبته في سلام عادل تستطيع من خلاله كل أمة أن تقرر مصيرها ، استسلم العديد من قواتهم . وعليه فقد أجبرت ألمانيا والنمسا على وقف إطلاق النار ، حيث تمكن الناجون من العودة إلى ديارهم وأسرهم المتضورة جوعا .

ما حدث بعد ذلك هو أن انفجرت الثورات في هذه الدول المنهكة . تنازل أباطرة ألمانيا والنمسا عن العرش ، وأعلنت الشعوب المختلفة للإمبراطورية النمساوية ، التشيك ، السلوفاكيون ، الهنغاريون ، البولنديون ، واليوغسلافيون الجنوبيون ، نفسها مستقلة وقامت بتأسيس دول منفصلة . بعدها ، وعلى إثر فهمهم لحديث الرئيس ويلسون بوجود اتفاقية سلام ، وأن المحادثات ستقام في القصور الملكية القديمة في فيرساي وفي كنيسة القديسة جيرمين والتريانون ، قامت النمسا وهنغاريا وألمانيا بإرسال مبعوثيها إلى باريس فقط لتكتشف أنها استثنيت من هذه المحادثات . حملت ألمانيا وزر الحرب بشكل رئيسي ، وعليه فقد وجب عقابها . لم يكن على ألمانيا أن تتنازل عن كل مستعمراتها وأراضيها التي استحوذت عليها من فرنسا في العام 1870 وأن تدفع مبالغ ضخمة من المال للمنتصرين كل سنة فحسب ، بل كان عليها كذلك أن توقع بيانا رسميا يقول إن وزر الحرب يقع على ألمانيا وحدها . كان مصير النمساويين والهنغاريين أفضل بقليل . وعليه ، كانت تلك هي الطريقة التي حقق بها الرئيس ويلسون وعوده (ما قرأته لفوري هو ما كنت أعتقده أنا الحقيقة عندما كنت أكتب هذا المقطع ، لكن اقرأ توضيحاتي في الفصل الأخير من هذا الكتاب) .

قُتل أحد عشر مليون إنسان في هذه الحرب ، كما دمرت أقاليم كاملة بطريقة غير مسبوقة . كانت المعاناة تفوق الخيال .

لقد تطورت الإنسانية بشكل كبير في سيطرتها على الطبيعة . فبواسطة التلفون يمكنك الآن أن تجلس في غرفتك ببيتك وأن تتحدث عن كل شيء أو لا شيء مع شخص ما في الطرف الآخر من العالم في أستراليا . يمكنك الآن أن تستمع عبر الراديو إلى حفلة موسيقية في لندن أو لبرنامج حول تربية الأوز يبث من البرتغال .

شيد الناس مباني ضخمة ، أعلى بكثير من الأهرامات أو كنيسة القديس بيتر في روما ، كما صنعوا الطائرات العظيمة ، كل واحدة منها قادرة على قتل أعداد من الناس أكبر من تلك التي قضى عليها كل الأسطول الحربي المنيع لفيليب الثاني من إسبانيا . اكتشف الناس طرقا لمحاربة الأوبئة المخيفة . ظهرت الآن اكتشافات مذهلة ، كما توصل الناس إلى صيغ علمية لكل الأشياء التي تحدث في الطبيعة ، حيث كانت هذه الصيغ العلمية غاية في الغموض والإعجاز ، حتى إن أقل القليل من الناس كان قادرا على فهمها . غير أن هذه الصيغ العلمية كانت صحيحة : فقد كانت النجوم تتحرك في الطريق الذي تتنبأ به الصيغة العلمية تماما . كل يوم نتعلم نحن القليل عن الطبيعة من حولنا ، وعن الطبيعة الإنسانية كذلك . لكن الخوف من الفقر ظل مهيمنا . فلايزال الملايين من البشر على سطح الأرض لا يجدون عملا ، كما تموت الملايين العديدة كل سنة من الجوع . كلنا نأمل في مستقبل أفضل ، لا بد له أن يكون أفضل .

تخيل الزمن كأنه نهر ، ونحن نطير بطائرة على ارتفاع كبير فوقه . على مسافة بعيدة أسفلنا يمكنك أن تميز كهوف الجبال لصيادي الماموث ، والمدرجات التي نمت عليها أول أنواع الحبوب . هذه النقاط المتباعدة ما هي سوى الأهرامات وبرج بابل . في هذه الأراضي الخفيضة رعى اليهود في زمن ما قطعان ماشيتهم . هذا هو البحر الذي عبره الفينيقيون . ما تبدو كأنها نجمة بيضاء تلمع هناك ، يحوطها البحر من جانبيها ، هي في الواقع الأكروبوليس(*) ، رمز الفن الإغريقي . وهناك ، على الجانب الآخر من العالم ، تقع الغابات العظيمة المظلمة حيث ينسحب الهنود التائبون للتأمل وحيث اختبر بوذا تجربة التنوير . الآن ، يمكننا أن نرى سور الصين العظيم ، وهناك ، تلك هي البقايا المشتعلة من قرطاجة . في هذه الأقمعة الصخرية العملاقة شاهد الرومان المسيحيين وهم يقطعون إربا من قبل الحيوانات المتوحشة . هذه الغيوم السوداء في الأفق هي غيوم عواصف النزوح ، ولقد حدث في هذه الغابات ، بجانب النهر ، أن اهتدى الرهبان الجدد محاولين تثقيف القبائل الجيرمانية . ها هم العرب ، تاركين هذه الصحارى خلفهم ، قد

(*) الأكروبوليس هي المدينة المقامة على هضبة ، وفي بلاد الإغريق ، كانت هذه المدينة هي مركز العلم والفن وصنع القرار والنشاط السياسي [المترجمة] .

انطلقوا ليسيطروا على العالم ، وها هنا حكم شارلمان . على هذه التلة لا يزال الحصن منتصبا ، حيث حسم أخيرا الصراع بين البابا والإمبراطور حول أي منهما سيحكم العالم . يمكننا الآن أن نشاهد قلاعا من عصر الفروسية ، وهنا على مسافة أقرب ، نشاهد مدنا بكاتيدرائياتها الرائعة ، هاهي فلورنسا ، وهناك كنيسة القديس بيتر الجديدة ، والتي هي سبب صراع لوثر مع الكنيسة . هاهي مدينة المكسيك تشتعل نارا وهاهو السلاح البحري الذي لا يقهر يتحطم على شواطئ إنجلترا . هاهو الدخان الكثيف يأتي من القرى المشتعلة نارا ومن كل تلك المواقد التي أحرق فيها الناس خلال حرب الثلاثين سنة . هذا القصر الرائع المبني في ذلك المنتزه الضخم هو قصر فيرساي الخاص بلويس الرابع عشر . ها هنا هم الأتراك يخيمون خارج فيينا ، وقبلهم نرى القلاع البسيطة لفريدريك الأكبر وماريا تيريزا . عن بعد تصلنا صيحات «الحرية ، المساواة ، الإخاء» من شوارع باريس ، ونستطيع الآن أن نرى موسكو تحترق هناك ، كما يمكننا رؤية هذه الأرض العاصفة والتي هلك فيها جنود الجيش العظيم للفاتح الأخير . باقترابنا ، نستطيع أن نرى الدخان يتصاعد من مداخن المصانع وأن نسمع صفير قطارات السكك الحديدية . ها هو قصر بكين الصيفي يصبح أطلالا ، وهاهي السفن الحربية تغادر الموانئ اليابانية تحت علم الشمس المشرقة (*) . هنا ، لاتزال بنادق الحرب العالمية تدوي . ها هو الغاز السام ينتشر عبر الأراضي . وهناك ، من خلال القبة المفتوحة لمرصد فلكي ، يوجه تلسكوب ضخم أنظار هذا العالم الفلكي باتجاه مجرات على أبعاد لا يمكن تخيلها . غير أن أسفلنا وأمامنا لا يوجد سوى الضباب ، ضباب كثيف لا يمكن اختراقه . كل ما نعرفه هو أن النهر يتدفق إلى الأمام ، باستمرار إلى الأمام ، باتجاه بحر مجهول .

لكن الآن دعونا نهبط بطائرتنا سريعا في اتجاه النهر . عن قرب ، يمكننا أن نرى أنه نهر حقيقي ، ذو أمواج مترقرقة مثل البحر . رياح قوية تهب ، فتتكون قمم من الرغوات على هذه الأمواج . انظر جيدا لملايين فقاعات الزبد البيضاء اللامعة ترتفع ثم تختفي مع كل موجة . مرة تلو المرة ، تصعد فقاعات جديدة إلى السطح

(*) علم الشمس المشرقة هو علم الجيش الياباني والبحرية الإمبراطورية اليابانية حيث تظهر فيه شمس حمراء على خلفية بيضاء بأشعتها المنتشرة على العلم [المترجمة] . .

ثـم تختفي بمرور الوقت مع الأمواج . لوهلة قصيـرة تحمل الأمواج هذه الفقاعات علـى قممهـا وبعدهـا تغـرق الفقاعـات ولا يمكـن رؤيتها بعـد ذلك . نحن نشـبه هـذه الفقاعـات . كل واحد منا لا يزيد على كونه شـيئا لامعا بالـغ الصغر ، قطرة متألقـة على أمواج الزمن والتي تتدفق أسـفلنا فتتعدانا لمسـتقبل غامض مجهول . نقفـز نحن ، ننظر حولنا ، وقبل أن نعي مـا يحدث ، نختفي مجددا . بالكاد يمكن رؤيتنا في نهر الزمن العظيم . تسـتمر القطرات الجديدة في صعودها إلى السطح ، حيث إن ما نسميه نحن القدر ليس أكثر من صراعنا بين هذه الأعداد الضخمة من القطـرات فـي صعود وهبوط الموجـة الواحدة . الموجة تلي الموجـة ، بيد أنه يجب علينا أن نستغل هذه اللحظة ، فهي تستحق العناء .

40

الجزء الصغير من تاريخ العالم الذي عشته بنفسي: نظرة إلى الوراء

«يستطيع الإنسان أن يتعلق بوطنه من دون الحاجة إلى الإصرار على أن بقية سكان العالم لا قيمة لهم»

المؤلف

أن تتعلم عن التاريخ من الكتب شيء ، وأن تختبره بنفسك شيء آخر . ذلك ما أردت أن أذكرك به الآن عندما شبهت اللمحة الخاطفة لماضي البشرية بالمنظر الذي يمكن رؤيته من طائرة تطير على ارتفاع كبير . كل ما يمكننا تمييزه هو بعض التفاصيل الموجودة على ضفاف نهر الزمن . ولكن عند مشاهدتها من قرب ، والأمواج آتية باتجاهنا الواحدة تلو الأخرى ، سيبدو النهر مختلفا جدا . ستبدو بعض الأشياء أكثر وضوحا بينما بالكاد سنرى أشياء أخرى . هكذا بدا لي الماضي شخصيا . حكيت لك في الفصل السابق عن الحرب العالمية المريعة سنة 1914 - 1918 . وعلى الرغم من أنني عايشت

هذه الحرب ، فإنني لم أكن أبلغ من العمر سوى 9 سنوات عندما انتهت . لذا ، عندما كتبت عن هذه الحرب ، اضطررت للاعتماد على الكتب .

بودي أن أحكي لك في الفصل الأخير القليل عما اختبرته أنا فعليا . كلما أمعنت التفكير في الموضوع ، بدا أكثر غرابة . فالعالم الآن يبدو مختلفا تماما عما كان عليه في العام 1918 ، غير أن الكثير من التغييرات حدثت من دون أن نشعر بها مما يجعلنا نعتبرها اليوم أمورا مفروغا منها تماما .



لم يكن هناك تلفاز أو كمبيوتر أو رحلات فضاء أو طاقة ذرية عندما كنت أنا صبيا . لكن من السهل نسيان أهم تغيير ، وهو أنه يوجد اليوم عدد أكبر بكثير من البشر في العالم عن العدد الذي كان في ذلك الزمن . فبالاقتراب من نهاية حرب 1914 – 1918 ، كان هناك ما يزيد على مليارين من البشر على هذا الكوكب . منذ ذلك الحين ، ارتفع هذا الرقم لأكثر من الضعف . بالطبع ، أرقام بهذه الضخامة لا تعني الكثير بالنسبة إلينا حيث إننا لا نستطيع فعليا أن نراها في مخيلتنا . لكن إذا ما تخيلنا أن الخط المرسوم حول الأرض على مستوى خط الاستواء يبلغ قياسه تقريبا 40 مليون متر ، وأنه عندما يقف الناس في طوابير أمام مكتب التذاكر فعادة ما يكون هناك شخصان لكل متر تقريبا ، فإن ذلك سيعني أن 80 مليونا من البشر الذين ينتظرون بصبر سيلتفون بطابورهم هذا حول العالم . عندما كنت صبيا ، كان يمكن لهذا الطابور أن يلتف حول العالم 22 مرة ، واليوم ، بوجود 4 مليارات ونصف المليار من البشر ، فإن هذا الطابور يمكنه أن يلتف 50 مرة حول الأرض .

لا بد لك من أن تدرك كذلك أنه خلال ذلك الزمن الذي كان يتضاعف فيه التعداد السكاني بهذا المعدل الضخم ، كان العالم الذي نسكنه جميعا يصغر أكثر

فأكثر من دون أن نشعر به . بالطبع ، أنا لا أعني أن العالم كان ينكمش فعليا ، غير أن التكنولوجيا ، وتحديدا تلك الخاصة بالطيران ، استمرت في تصغير المسافة بين الأجزاء المختلفة من العالم . كان ذلك شيئا اختبرته أنا بنفسي كذلك . فمتى ما وجدت نفسي في مطار ما مستمعا لعدد من الإعلانات المتعاقبة عن رحلات طيران إلى دلهي ، نيويورك ، هونغ كونغ ، أو سيدني ، ثم أرى أسراب البشر تستعد للإقلاع ، فلا يسعني عندها إلا أن أفكر في زمن صباي . في تلك الأيام ، كان الناس يشيرون إلى أحدهم ويقولون : «لقد زار أمريكا» أو «لقد زارت الهند» .

اليوم ، لا يوجد مكان في العالم تقريبا لا يمكن الوصول إليه في غضون ساعات . حتى إذا ما لم نذهب للبلدان البعيدة بأنفسنا ، فإن هذه البلدان تبدو اليوم أقرب إلينا عما بدت عليه في صباي . فمتى ما وقع حدث ضخم في أي مكان في العالم ، فإننا سنقرأ عنه في جرائد اليوم التالي وسنسمع عنه في الراديو وسنراه على أخبار التلفزيون . لم يعرف سكان المكسيك القديمة أي شيء عن تدمير بيت المقدس ، كما أنه من غير المحتمل لأي شخص في الصين أن يكون قد سمع عن آثار حرب الثلاثين سنة أبدا . إلا أنه بحلول الحرب العالمية الأولى تغيرت الأمور . فحقيقة تسمية هذه الحرب بـ «بحرب عالمية» أتت إثر انخراط العديد من الأمم في القتال .

ذلك لا يعني بالطبع أن الأخبار التي تصلنا من أنحاء العالم كلها حقيقية . فأحد الأشياء التي تعلمتها أنا كذلك ألا أصدق كل شيء أقرأه في الجرائد . سأعطيك مثلا . وحيث إنني مررت بفترة الحرب العالمية الأولى بنفسي ، كنت أعتقد أن بإمكاني أن أصدق كل ما سمعته عنها في ذلك الوقت . لذلك لم يكن الفصل السابق «تقسيم العالم» موضوعيا تماما كما قصدته أن يكون . فالدور الذي مارسه رئيس أمريكا ويلسون (انظر ص 319) لم يكن مثل ما تخيلت مطلقا ، حيث قمت بوصف وضع قام من خلاله ويلسون بتقديم وعود للألمان والنمساويين وفشل في الوفاء بها . لقد كنت مقتنعا تماما بأن ما أتذكره لا بد أن يكون صحيحا ، فعلى كل الأحوال ، هو جزء من تجربتي ، وعندما كتبت عن الموضوع لاحقا ، كتبت ما كان يعتقده الجميع . بيد أنه كان يجب عليّ أن أتأكد من الحقائق ، فهو حرص يجب على كل المؤرخين أن يلتزموا به . ولاختصار القصة الطويلة أقول ، بالفعل قام الرئيس ويلسون بتقديم عرض سلام أوائل العام 1918 ، غير أنه ، وحيث إن ألمانيا والنمسا وحلفاءهما كانوا لا يزالون

يأملـون فـي الانتصار في الحرب ، فقد تجاهلوا هذا العـرض . فقط عندما امتدت بهم الحـرب إلى عشـرة أشـهر إضافيـة وقد أتخمـوا خلالها بهزائـم ثقيلـة ، أصبحوا على استعداد لقبول عرض الرئيس ، لكن بحلول ذلك الوقت كانوا قد تأخروا كثيرا .

لقد بدأ يتضح ويسرعة كم هو خطير ومؤسف خطئي هذا . فعلى الرغم من أنني لم أتنبأ بهذا الوضع ، فإنه تم ويسهولة استغلال حقيقة أن كل المهزومين كانوا مقتنعين بـأن معاناتهم كانت نتيجـة خديعة فاضحة ، حيث تم تحويل هـذه الحقيقة عن طريق مثيري الشـغب الطموحين المتعصبين إلى عطش مستعر للانتقام . كم أنا متردد وكاره لأن أذكرهـم ، غيـر أن الجميع سـيعرف أن أكثر مـن يدور منهم في ذهنـي هو أدولف هتلـر . كان هتلر جنديا خلال الحـرب العالمية الأولى ، وقد بقيَ هو كذلك مقتنعا بأنه لـو لا تلك الخديعة المفترضة لما هزم الجيش الألمانـي مطلقا . بيد أنه لم يوقع اللوم على ويلسـون فقـط . في نظـره ، كانت الحمـلات الدعائية للعدو سـبب حاسـم في إقناع الألمان والنمسـاويين فـي ديارهم بالتخلي عـن الجنود في الجبهـة وتركهم لمصيرهـم . وعليه ، فقد كان هتلر مصرا على المزايدة على العدو في فن الدعاية . لقد كان خطيبا بارعا محبوبا قادرا على اجتذاب الجماهير الضخمة . كان هتلر يدرك أنه ما من وسيلة أفضل لتحريض الجماهير على التحرك من تزويدهم بكبش فداء ، شـخص يحملونه أسباب معاناتهم ، وقد وجد كبش الفداء في اليهود .

لقد تـم التطرق لمصير هذا الشعب القديم عدة مرات في هذا الكتاب . لقد قمت بوصـف انعزالهم الاختيـاري وفقدانهـم لموطنهم مع تدمير بيـت المقدس (ص 49) واضطهادهـم خلال سـنوات العصور الوسـطى (ص 199) . لكن علـى الرغم من انحـداري أنا شـخصيا من عائلـة يهودية ، إلا أنه لـم يخطر ببالي أن تتكـرر مثل هذه الأحداث المروعة خلال سنوات حياتي .

هنا يجب عليّ الاعتراف بخطأ آخر تسـرب لهذا السـرد التاريخي ، غير أنه خطأ قـد أكون معـذورا في ارتكابـه . يتحدث الفصل 33 عـن «عصر جديد حقـا» قد بدأ عندمـا بدأ النـاس يبتعدون بتفكيرهم عن وحشـية الأزمنة السـابقة ، حيث انتشـرت أفكار ومثاليات ما يسـمى بعصر التنوير للقرن الثامن عشـر في وقتها لدرجة أن الناس اعتبروهـا مـن البديهيات . في الوقت الذي كتبت فيه ذلك بـدا لي من غير الممكن أن يتدنـى إنسـان ما مرة أخـرى لدرجة اضطهـاد الآخرين أصحاب الديـن المختلف ، أو

استخدام التعذيب لاستخلاص الاعترافات ، أو مساءلة الحق الإنساني . لكن ما بدا غير وارد بالنسبة إلي حدث على الرغم من ذلك . مثل هذه الخطوة المؤلمة للوراء تكاد تبدو خارج نطاق استيعابنا ، إلا أنها قد لا تبدو عصية الفهم على الصغار كما هي على الكبار . كل ما يحتاجونه هو أن يفتحوا عيونهم في المدرسة . كثيرا ما يكون أطفال المدارس غير متسامحين . انظر إلى السهولة التي يسخر بها هؤلاء من مدرسهم إذا ما رأوه يرتدي ما هو غير عصري والذي يعتقدونه مضحكا ، فما إن يفقد الاحترام ، حتى تفتح أبواب الجحيم . وإذا ما كان أحد الطلبة مختلفا بأي صورة طفيفة ، في لون بشرته أو شعره ، أو في طريقة مأكله أو حديثه ، كان يتعرض للسخرية والازدراء اللذين لا مفر من تحملهما . بالطبع لا يتساوى كل الصغار في القسوة وانعدام الرحمة ، بيد أن أحدا لا يرغب في ان يكون «مخرب المرح» وعليه فبطريقة أو أخرى ينضم الجميع لهذا اللهو إلى أن يصبحوا غير قادرين على تمييز أنفسهم .

مع الأسف ، لا يتصرف الكبار بطريقة أفضل كثيرا ، خصوصا إذا ما لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه أو إذا ما كانوا يمرون بوقت عصيب ، أو ، أحيانا ، إذا ما كانوا يعتقدون فقط أنهم يمرون بوقت عصيب . يتجمع هؤلاء مع رفقاء آخرين حقيقيين أو مفترضين لخلق المحن ، فيخرجون في الشوارع ، حاثين الخطى ، مكررين الشعارات الخاوية المليئة بما يعتقدونه مهما . لقد رأيت بنفسي مؤيدي هتلر أصحاب القمصان البنية وهم يضربون الطلبة اليهود في جامعة فيينا ، وعندما كنت أكتب هذا الكتاب ، كان هتلر قد استحوذ على السلطة في ألمانيا . لقد بدت أنها مسألة وقت فقط قبل أن تسقط الحكومة النمساوية كذلك ، وعليه فقد كنت محظوظا في أن أدعى لإنجلترا في الوقت المناسب وذلك قبل أن تدخل قوات هتلر إلى النمسا في مارس 1938 . بعد ذلك ، وكما في ألمانيا ، كان كل من يحيي الآخرين بتحية «صباح الخير» البسيطة وليس بتحية «يحيا هتلر» (Heil Hitler) يعرض نفسه لخطر شديد .

في خضم هذا الوضع ، سرعان ما تبين أنه بالنسبة إلى مؤيدي مثل هذه الحركات كانت هناك خطيئة واحدة كبرى ألا وهي عدم الولاء للفوهرر (Fuhrer) ، أو القائد ، كما أنه كانت هناك فضيلة واحدة ألا وهي الطاعة التامة . لكي يدنو الانتصار ، لا بد من طاعة كل أمر ، حتى لو تضاد مع المبادئ الانسانية . بالطبع ، حدثت أشياء مشابهة في أزمنة سابقة من التاريخ ، وقد قمت أنا بوصف العديد منها في هذا الكتاب . كما

يقال إن اليسوعيين كذلك كانوا يعلون الطاعة فوق أي شيء آخر . هذا وقد مررت أنا سريعا على انتصارات الشيوعيين في روسيا تحت حكم لينين ، حيث هناك أيضا كان يوجد شيوعيون مقتنعون تماما بفكرهم حتى أنهم لم يكونوا ليتسامحوا مع أي من خصومهم . لقد كانت ضراوتهم من أجل ملاحقة وتحقيق أهدافهم لا تعرف الحدود ، وقد مات الملايين نتيجة لذلك .

لقد اختفى التسامح كذلك من ألمانيا وإيطاليا واليابان في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى . أخبر سياسيو هذه الدول مواطنيهم أنهم خدعوا عندما تم تقسيم العالم ، وأنهم هم كذلك يمتلكون الحق في السيادة على الشعوب الأخرى . ذكر الإيطاليون بأصولهم الرومانية القديمة ، اليابانيون بمحاربيهم ، والألمان بقبائلهم الجيرمانية القديمة ، بشارلمان وفريدريك الأكبر . لم يكن الناس ، كما قيل لهم ، متساوين في القدر . فكما هي بعض سلالات الكلاب أفضل من غيرها في الصيد ، هم كذلك كانوا ينتمون للسلالة الأفضل ، التي خلقت لتحكم .

أعرف راهبا بوذيا حكيما قال يوما في حديث له مع أبناء وطنه إنه يود أن يفهم لم نعتقد نحن أن شخصا يتباهى بأنه الأذكى ، الأقوى ، الأشجع أو الأكثر موهبة على الأرض يبدو سخيفا ومحرجا لنفسه ، بينما عوضا عن «أنا» ، عندما يقول هذا الشخص «نحن الشعب الأذكى ، الأقوى ، الأشجع ، والأكثر موهبة على سطح الأرض» يصفق له أبناء وطنه بحماس ويسمونه وطنيا . لا يوجد شيء وطني في ذلك . يستطيع الانسان أن يتعلق بوطنه من دون الحاجة إلى الإصرار على أن بقية سكان العالم لا قيمة لهم . لكن ، عندما اقتنع مزيد ومزيد من الناس بهذا النوع من الهراء ، أصبح التهديد للسلام عظيما .

بعدها ، عندما أحكمت أزمة اقتصادية خطيرة في ألمانيا على أعداد هائلة من الناس بالبطالة ، بدت الحرب كأنها أسهل الطرق للخروج من الأزمة . فكل العاطلين سيصبحون جنودا أو يعملون في مصانع الأسلحة ، وبذلك فإن اتفاقيات فيرساي والقديس جيرمين الكريهة ستمحى من الوجود . ليس ذلك فقط ، لكن الدول الديموقراطية الغربية ، فرنسا ، بريطانيا ، والولايات المتحدة ، كانت قد لانت كثيرا بعد سنوات السلام ، أو هكذا كان الاعتقاد ، حتى بدا أنه من غير المتوقع أن يدافعوا عن أنفسهم . بالتأكيد ، لم يرغب أحد من هؤلاء في الحرب ، وقد بُذلت جهود عديدة لتفادي إعطاء هتلر الحجة لينزل بالكارثة

علـى العالم . إلاأنه ، وللأسـف ، يمكن دومـا إيجاد الذرائع ، وان دعـت الحاجة ، يمكن الترتيـب لـ «وقائع» . وعليه ففـي اليوم الأول من سـبتمبر 1939 ، زحف الجيش الألماني علـى بولندا . كنـت أنا قد وصلـت إلى إنجلترا في ذلك الوقت ، حيث شـهدت بنفسـي الحـزن العميق ، لكن كذلك العزم الشـديد ، لهؤلاء الذين اضطـروا للذهاب إلى الحرب مجددا . هذه المرة لم تكن هناك أي أناشيد حرب بهيجة ولا أي أحلام بالمجد . كان هؤلاء يقومون بواجبهم فقط ، حيث بدا أنه لا بد من إيقاف هذا الجنون .

كانت مهمتي هي الاسـتماع إلى البث الألماني وترجمته للإنجليزية حتى نعرف ما كان يقال للمسـتمعين الألمان ، ومـا كان يمنع عنهم . كان ذلك يعني أنـه من العام 1939 وإلى العام 1945 كنت أنا في ذلك الوضع الغريب لمعايشة كلا الطرفين خلال السنوات الست الكاملـة مـن هذه الحرب المريعـة وإن بطرق مختلفة . في موطني فـي إنجلترا رأيت العزم ، لكـن رأيـت كذلك المعانـاة والقلـق على الرجال فـي الجبهة ، كما شـهدت آثـار الغارات الجويـة وخـوف الناس مـن منعطفات هذه الحـرب . أما مـن البث الإذاعـي الألماني ، فإن كل مـا اسـتمعت اليه كان صرخات الانتصـار والأحاديث المتدفقة بـالأذى والعنف . كان هتلر يؤمن بقوة وتأثير الدعاية ، وهو إيمان بدا مبررا عندما تجاوز نجاح السنتين الأوليين من الحرب حتى أكثر توقعاته جموحا . اجتيحت بولندا والدنمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا وفرنسا وأجزاء كبيرة من روسيا والبلقان . فقط بريطانيا ، هذه الجزيرة الصغيرة على حافة أوروبا ، استمرت في المقاومة . غير أنه وبالتأكيد حتى هذه المقاومة لم تكن لتدوم طويلا ، فقط اسـتمرت جلبة أبواق الراديو الألماني في الادعـاء ، وبلا توقف ، بأن أعدادا كبيرة من السفن المحملة بالمؤن والأسلحة والموكولة للبريطانيين تم إغراقها عن طريق غواصاتهم .

لكـن عندمـا هاجـم اليابانيـون ، مـن دون أي اعلان حـرب ، في ديسـمبر العام 1941 ، الأسـطول الأمريكـي في مرسـاه في ميناء بيـرل هاربر ودمروه تمامـا تقريبا ، وأخـذ هتلـر على عاتقـه إعلان الحـرب على الولايـات المتحـدة ، وعندمـا تراجعت القـوات الالمانية في شـمال أفريقيا في خريـف العام 1942 وهزمت مـن قبل الروس في يناير 1943 خارج سـتالينغراد ، وعندما أثبتت القوات الجوية الالمانية ، أو سـلاح الطيـران ، عجزهـا عـن منع قصف قـوات التحالـف المدمـر للمدن الالمانيـة ، أصبح واضحا أن الانتصار في الحرب يحتاج إلى أكثر من الكلمات الرنانة والأبواق الطنانة . وقد قال وينسـتون تشرشـل عندما أصبح رئيس وزراء في إنجلترا ، في وقت كانت فيه

التوقعات المستقبلية محبطة : «لا يمكنني ان أعدكم إلا بالدماء ، العرق والدموع» . لقد كان تحديدا بسبب مقولته تلك أن صدقناه كذلك عندما حمل لنا وميض أمل . كم من المستمعين الألمان انتبهوا للتبريرات والوعود التي استمعت إليها أنا ، يوما بعد يوم ، على الراديو الألماني ، ذاك متروك للتخمين .

ما أعرفه هو أن المستمعين الألمان وكذلك نحن أنفسنا لم نكن على علم في ذلك الوقت بأكثر الجرائم التي ارتكبها الألمان بشاعة خلال الحرب . فيما يتعلق بهذا الموضوع ، أود ، إن لم يكن لديك مانع ، أن أعود بك إلى قولي ، (متحدثا عن الإسبان الفاتحين للمكسيك) : «فهناك ، وفي أماكن أخرى من أمريكا ، انهمك الإسبان في إبادة الشعوب الهندية المهذبة القديمة وبأبشع الطرق . إن هذا الفصل من تاريخ البشرية لهو شديد الغثى والخزي لنا كأوروبيين» ، كنت قد كتبت «حتى إنني أفضل ألا أقول المزيد عنه . . .» .

أنا الآن أكثر ترددا في الحديث عن الجريمة الوحشية التي ارتكبت في قرننا هذا بحد ذاته ، فعلى كل الأحوال ، هذا الكتاب معد للقراء الصغار الذين يجب ألا يتعرضوا لمثل هذه الأشياء . غير أن الصغار يكبرون ، وهم كذلك يجب أن يتعلموا من التاريخ كم هو سهل بالنسبة إلى البشر أن يتحولوا إلى مخلوقات غير بشرية من خلال التحريض والكراهية . وهكذا حدث ، في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، أن طُرد اليهود القاطنون في كل دول أوروبا التي ترزح تحت الاحتلال الألماني ، الملايين من الرجال والنساء والأطفال ، من أوطانهم ، حيث تم وضع عدد كبير منهم في قطارات أرسلت باتجاه الشرق ليقتلوا هناك .

كما قلت سابقا ، لم تقل الإذاعة الألمانية أي شيء بخصوص ذلك للمستمعين ، ومثل الكثيرين غيري ، لم أستطع في البداية أن أجبر نفسي على تصديق ما لا يصدقه العقل ، والذي أصبح معروفا (في العام 1945) عندما انتهت الحرب . لكن للأسف ، هناك دلائل وافرة على هذه الجريمة الوحشية ، وعلى الرغم من مرور سنوات عديدة على ارتكابها ، فإنه من الأهمية بمكان ألا يتم نسيانها أو التكتم عليها .

فمع اختلاط الشعوب على كوكبنا الصغير ، يصبح احترامنا وتسامحنا بعضنا مع بعض ضرورة ملحة ، ليس لسبب أقل من أن التطورات التكنولوجية تقربنا أكثر فأكثر من بعضنا بعضا .

ولقد تبين تأثير التكنولوجيا في الحرب العالمية الثانية ، عندما أصبحت النتيجة حتمية ، بفضل المخزون الذي لا ينضب تقريبا لصناعة الأسلحة الأمريكية ، والذي أفاد كلا من بريطانيا وروسيا ، فعلى الرغم من المقاومة المستمرة التي أبداها الجنود الالمان ، استطاع البريطانيون والأمريكان أن يهبطوا على ساحل نورماندي الفرنسي في صيف العام 1944 وأن يجبروا الألمان على التراجع . وفي الوقت ذاته ، كان الروس يلاحقون الجيش الألماني الذي بدا الآن فاقدا للرغبة في المقاومة ، وفي أبريل ، وصلوا أخيرا إلى برلين ، حيث أنهى هتلر حياته . لم يكن هناك أي حديث عن اتفاقية سلام هذه المرة . بقي المنتصرون في ألمانيا كقوات محتلة ، ولعقود من الزمن أقيم خط حدودي مشدد الحراسة في منتصف ألمانيا فاصلا حيز التأثير لروسيا الشيوعية عن ذاك الخاص بالديموقراطيات الغربية .

غير أن الحرب العالمية لم تنته مع هزيمة ألمانيا ، حيث إن اليابانيين ، والذين كانوا قد احتلوا في غضون ذلك أجزاء كبيرة من آسيا ، كانوا أبعد ما يكونون عن الهزيمة . وحيث إنه لم تبد هناك نهاية في الأفق ، فقد أدخل الأمريكان سلاحا جديدا تماما للمعركة : القنبلة الذرية .

وحدث أن قابلت أنا ، قبل أن تنفجر الحرب بقليل ، عالم فيزياء شابا أخبرني عن مقال نشره العالم الدنماركي العظيم نيلز بور . كان موضوع المقال يدور حول الاحتمالية النظرية لصناعة «قنبلة يورانيوم» ستتعدى قواها التدميرية أي متفجرات معروفة حاليا . وفي الوقت ذاته ، اتحدت آمالنا أنا وذلك العالم في أن يُسقط مثل هذا السلاح فقط على جزيرة صحراوية ، وذلك لإثبات أن كل أفكار التسلح والحرب الأخرى قد مضت أيامها أمام الأصدقاء والأعداء على حد سواء . وعلى الرغم من أن الكثير من العلماء الذين كانوا يعملون بشكل محموم خلال الحرب على التوصل إلى هذا السلاح كان لهم الشعور نفسه ، فإن كل آمالنا ذهبت أدراج الرياح . في أغسطس 1945 ، أصبحت مدينتا هيروشيما وناجازاكي اليابانيتان الضحية الأولى لكارثة لا يمكن تخيلها ، حيث هزمت اليابان أخيرا .

لقد أصبح واضحا للجميع أنه مع هذا الاختراع سيبدأ فصل جديد تماما في تاريخ العالم ، حيث إن اكتشاف الطاقة الذرية يمكن تشبيهه باكتشاف النار ، فالنار كذلك يمكنها أن تدفئ ويمكنها أن تدمر ، غير أن قوتها التدميرية لا تقارن بقوة الأسلحة النووية

العظمى اليوم . لا يمكننا إلا أن نأمل أن هذا التطور سوف يجعل استخدام مثل هذه الأسلحة ضد البشر مرة أخرى مستحيلا . فلا بد من أن يكون واضحا لدى الجميع أنه إذا ما تم استخدام هذه الأسلحة ، فغالبا لن ينجو أي من الطرفين ، كما ستتحول مناطق شاسعة من الكرة الأرضية إلى صحارى موحشة . بلا شك ، تغير العالم بشكل هائل منذ الحرب الأخيرة . فسكان قارات كاملة كانت تنتمي إلى الإمبراطورية البريطانية أصبحوا منذ ذلك الوقت مستقلين إلى حد كبير ، على الرغم من أن هذه القارات ، وبكل أسف ، ليست بعد أكثر سلمية . إلا أنه على الرغم من الصراعات الوحشية والأزمات المقلقة التي انفجرت منذ العام 1945 في مناطق متعددة من العالم ، فإننا استطعنا أن نتجنب حربا عالمية ثالثة ، وذلك لأننا نعلم جميعا وبشكل جيد أن هذه الحرب قد تعني نهاية تاريخ العالم . ليس في تلك الفكرة راحة كبيرة ، غير أن هذه الراحة القليلة أفضل من عدمها .

ليس من المستغرب إذن أن يقود هذا الوضع الجديد تماما في تاريخ البشرية كثيرا من الناس إلى إدانة وكراهية كل إنجازات ذلك العلم الذي أخذنا إلى حافة الهاوية . غير أنه يجب ألا يغيب عن هؤلاء الناس أنه من دون العلم والتكنولوجيا ، ما كان سيصبح ممكنا للدول المعنية أن تصلح ، ولو جزئيا ، الدمار والخراب الذي تسببت فيه الحرب العالمية ، وذلك حتى يمكن للحياة أن تعود إلى طبيعتها بسرعة أكبر من أن يجرؤ أحد على أن يتمناها في السابق .

وأخيرا ، بودي أن أجري تعديلا صغيرا آخر على كتابي ، وذلك لأصحح إغفالا بقي في قلبي . فالفصل المعنون «بشر وآلات» ، في حين أنه لا ينقصه أي مقدار من الصحة ، غير أنه متحيز بعض الشيء . فبينما هو صحيح تماما أن استبدال المصانع والآلات بالحرفيين والفنيين قد تسبب في كمية كبيرة من المعاناة ، وجب عليّ أن أذكر كذلك أنه من دون تقنية الإنتاج الضخم الجديدة هذه لكان من المستحيل إطعام وكسوة وإيواء التعداد السكاني المتنامي باستمرار . فحقيقة أن أعداد المواليد أصبحت في تزايد وأعداد الوفيات بينهم في تناقص كانت في الواقع ناجمة عن التطور العلمي للطب والذي قال بأهمية أشياء مثل مياه الأنابيب الجارية ونظام المجاري المتقن . نعم ، كان تنامي صناعة أوروبا وأمريكا واليابان يعني فقدان الكثير من الأشياء الجميلة ، بيد أننا يجب ألا ننسى مقدار النعم ، وأنا أعني النعم ، التي جلبتها لنا هذه الصناعة .

مازلت أتذكر جيدا ما كان يعنيه الناس في صغري عند حديثهم عن «الفقراء» . لم يكن المعوزون ، الشحاذون ، والمشردون هم فقط من بدوا مختلفين عن سكان المدن الكبيرة من الطبقة الوسطى ، فعمال المصانع كذلك ، الرجال والنساء ، كان بالإمكان تمييزهم من بُعد من ملبسهم . كانت النساء عادة ما ترتدي الشالات على رؤوسهن لتحميهن من البرد ، وما كان لعامل مصنع أن يحلم بارتداء قميص أبيض ، حيث إنه كان يبرز الأوساخ فورا . وعندما أفكر في تلك الفترة ، أستطيع أن أتذكر الناس يتحدثون عن «رائحة الفقراء» ، ذلك لأن الأغلبية من سكان المدينة كانوا يعيشون في مساكن سيئة التهوية بصنبور مياه وحيد في أسفل السلالم . أما منزل أحد أفراد الطبقة الوسطى (وليس فقط منازل الأغنياء) فقد كان عادة ما يشتمل على موقد ، خادمة للدار ، ومربية لتعتني بالصغار كذلك . كانت حياة هؤلاء النسوة الخادمات والمربيات أفضل من تلك التي كانت ستكون لهن لو أنهن بقين في بيوتهن ، غير أنها ليست حياة ممتعة كثيرا ، فعلى سبيل المثال ، أن يكون لك يوم واحد في الاسبوع فقط يسمح لك فيه بالخروج من المنزل ، وأن ينظر إليك بالعموم على أنك خادم ، ليست تلك بالحياة الممتعة كثيرا . ولقد كان في فترة طفولتي أن بدأ الناس لفورهم في التفكير بمثل هذه الأمور ، حيث إنه بعد الحرب العالمية الأولى أصبح الخدم يعرفون رسميا بلقب «مساعدي المنزل» . وعلى الرغم من ذلك ، عندما قمت بزيارة برلين كطالب ، كانت البيوت غالبا ما تحمل لافتة على مداخلها تقول «الدخول للسادة والسيدات فقط» . كانت هذه اللافتات تزعجني حتى في تلك الأيام . فقد كان على الخدم والتجار أن يستخدموا السلالم الخلفية كما لم يكن مسموحا لهم باستخدام المصعد ، حتى لو كانوا ينقلون حملا ثقيلا .

لحسن الحظ ، كل ذلك انتهى الآن ، كأنه كان حلما مزعجا . بالتأكيد ، لاتزال الحياة صعبة بالنسبة إلى الكثير من الناس ، وهناك أحياء بائسة تعسة كثيرة في مدن أوروبا وأمريكا . غير أن أغلب الناس الذين يعملون في المصانع ، وحتى أغلب العاطلين عن العمل ، يعيشون في حال أفضل اليوم من معيشة الكثير من فرسان القرون الوسطى في قلاعهم آنذاك . فهم يأكلون بشكل أفضل ، وقبل كل شيء ، هم أفضل صحة ، وكقاعدة عامة ، يعيشون فترة أطول ، حيث لم يكن الوضع كذلك إلى وقت قريب مضى . فمنذ بداية الزمن والناس يحلمون بـ «عصر ذهبي» ، والآن وقد أصبح شبه العصر الذهبي حقيقة بالنسبة إلى الكثيرين ، فإن أحدا لا يرغب في الاعتراف بذلك .

بيد أن تلك الدول في شرق أوروبا التي أجبرها الجيش الروسي على تبني النظام الشيوعي لا يمكن وصف أوضاعها بطريقة مشابهة للوصف أعلاه . لقد كان الوضع صعبا تحديدا بالنسبة إلى سكان ألمانيا الشرقية ، الذين شهدوا ، مع مضي السنوات ، أفضلية حياة جيرانهم الغربيين ، حتى أتى اليوم الذي لم يعودوا فيه مستعدين لتقديم التضحيات الثقيلة التي يتطلبها النظام الشيوعي الاقتصادي . وعليه ، في العام 1989 ، وعلى غير المتوقع ، حدث ما لا يصدق . نجح الألمان الشرقيون في فتح حدودهم بالقوة ليتوحد من جديد جزءا ألمانيا المفصولان . سيطر هذا الجو على روسيا السوفييتية لينهار نظامها السياسي ، تماما كما فعل في كل البقية الباقية من دول شرق أوروبا .

لقد أنهيت سردي لقصة الحرب العالمية الأولى بهذه الكلمات : «كلنا نأمل مستقبلا أفضل ، لا بد له من أن يكون أفضل» . هل أتى مثل هذا المستقبل؟ بالنسبة إلى العديد من الناس الذين يحيون على أرضنا هذه ، هذا المستقبل لايزال بعيدا . فبين الشعوب المتزايدة أعدادها باستمرار لآسيا وأفريقيا وجنوب أمريكا لايزال البؤس ذاته سائدا والذي ، حتى وقت قريب ، كان مسلما به كوضع طبيعي في بلداننا كذلك . ليس لدينا علاجات سهلة ، لأسباب ليس أوهنها أنه في تلك المناطق أيضا ، كما كان دوما ، يمضي البؤس والتعصب يدا بيد . غير أن التحسن في وصول المعلومات قد جعل ضمائر الشعوب الأكثر غنى أكثر يقظة بعض الشيء . فمتى ما خلف زلزال أو فيضان أو جفاف العديد من الضحايا في مكان بعيد ، تداعى آلاف الناس في الدول الغنية بأموالهم وجهودهم لتوفير الغوث والمساعدة . وهذا أيضا لم يكن يحدث في السابق ، مما يؤكد أنه لايزال لدينا الحق في أن نأمل مستقبلا أفضل .

المؤلف في سطور

إي. إتش. غومبريتش
(1909 - 2001)

- مؤرخ ومفكر بريطاني، نمساوي المولد .
- ألف العديد من الكتب في تاريخ الفن والثقافة، من أشهرها «قصة الفن» .

المترجمة في سطور

د.ابتهال عبدالعزيز الخطيب

- من مواليد الكويت 1972 .
- دكتوراه فلسفة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة Ball State University 2003 .
- مدرس مساعد في قسم اللغة الإنجليزية - جامعة الكويت .
- عضو الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان .
- عضو مؤسس في مجموعة صوت الكويت .
- ترجمت لسلسلة المسرح العالمي مسرحية «أهداف ضرورية» للكاتبة إيف أنسلر .

المراجع في سطور

د. عبدالله سيد عبدالمجيد هدية

- من مواليد القاهرة، جمهورية مصر العربية .
- دكتوراه الدولة في العلوم السياسية من جامعة Montpellier 1975 .
- أستاذ العلوم السياسية - جامعة الكويت .

- عضو الجمعية المصرية للقانون الدولي .
- عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع .
- عضو معهد العلاقات الدولية بسالونيك ، اليونان .

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978 .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات .

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر .

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية ، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب ، وكذلك يجب

أن تـدوّن أرقام صفحـات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة ، والسلسـلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لـم تكن مسـتوفية لهذا الشرط . والمجلـس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبيـة في حالة الاعتذار عن عدم نشـرها . وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق .

وفـي حـال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلـف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسـمائة دينار كويتي ، وللمترجم مكافأة بمعدل عشـرين فلسـا عن الكلمـة الواحدة فـي النص الأجنبي ، أو ألـف ومائتي دينار أيهما أكثـر (وبحد أقصى مقداره ألف وسـتمائة دينار كويتي) ، بالإضافة إلى مائة وخمسـين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطـة ـ المؤلفـة والمترجمـة ـ من نسختين مطبوعتين .

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964 700776512 +964 780662019	-----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	-----	+218 217297779	-----

هذا الكتاب...

يحكي هذا الكتاب قصة تاريخ العالم في قالب سردي مبسط، مستهدفا تحديدا القارئ الصغير - في «خروج مقصود» على خط السلسلة، بهدف مخاطبة العقل الجمعي للناشئة العرب - حيث يعمد المؤلف إلى أسلوب التشويق في عرض المعلومات واستخدام لغة مبسطة وسلسة تصل إلى قارئه المبتدئ وتبقيه مهتما بمادة الكتاب.

يبدأ المؤلف مع بداية الحياة قاصا الحكاية من أولها، مؤكدا أنه في الواقع لا أول لهذه الحكاية، فلكل بدايةٍ بدايةٌ أخرى أقدم منها. من هذا المدخل التشويقي المثير، ينطلق المؤلف ليحكي عن أشكال الحياة الغابرة المختلفة، من ديناصورات وغيرها، مرورا بالأنماط البشرية المتباينة التي كانت تحيا على الأرض سابقةً الجنس الإنساني الحالي. ثم ينطلق المؤلف ليحكي قصة الحضارة البشرية بدءا من قدماء المصريين، ومرورا بالسومريين والبابليين والآشوريين، ومن ثم يستعرض كل الحضارات التي تزامنت مع هذه الحضارات الأولية الغابرة أو توالت بعدها. ومن خلال السرد القصصي المشوق لتاريخ العالم «المختصر» هذا، يلقن المؤلف قارئه الصغير دروسا أخلاقية رفيعة، مشيرا إلى شرور البشرية وخيرها، مستعرضا التقلبات التاريخية بين أزمنة الإنجازات والابتكارات البشرية، وبين تلك الغارقة في الحروب والصراعات الدموية. كما يمر المؤلف على العديد من اللحظات الحاسمة في التاريخ البشري، ويأتي على ذكر أسماء القادة والعلماء والمفكرين الأكثر تأثيرا خلال هذا التاريخ.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 380 - 4
(2013/226) رقم الإيداع